"ليلى! حرريني ممن جعلوني ملعونًا في غيابك"

الموت في بابل..
الحب في إسطنبول

إسكندر بالا

ترجمة: ريم داوود

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

t.me/qurssan

الموت في بابل.. الحب في إسطنبول

رواية من تركيا

إسكندر بالا

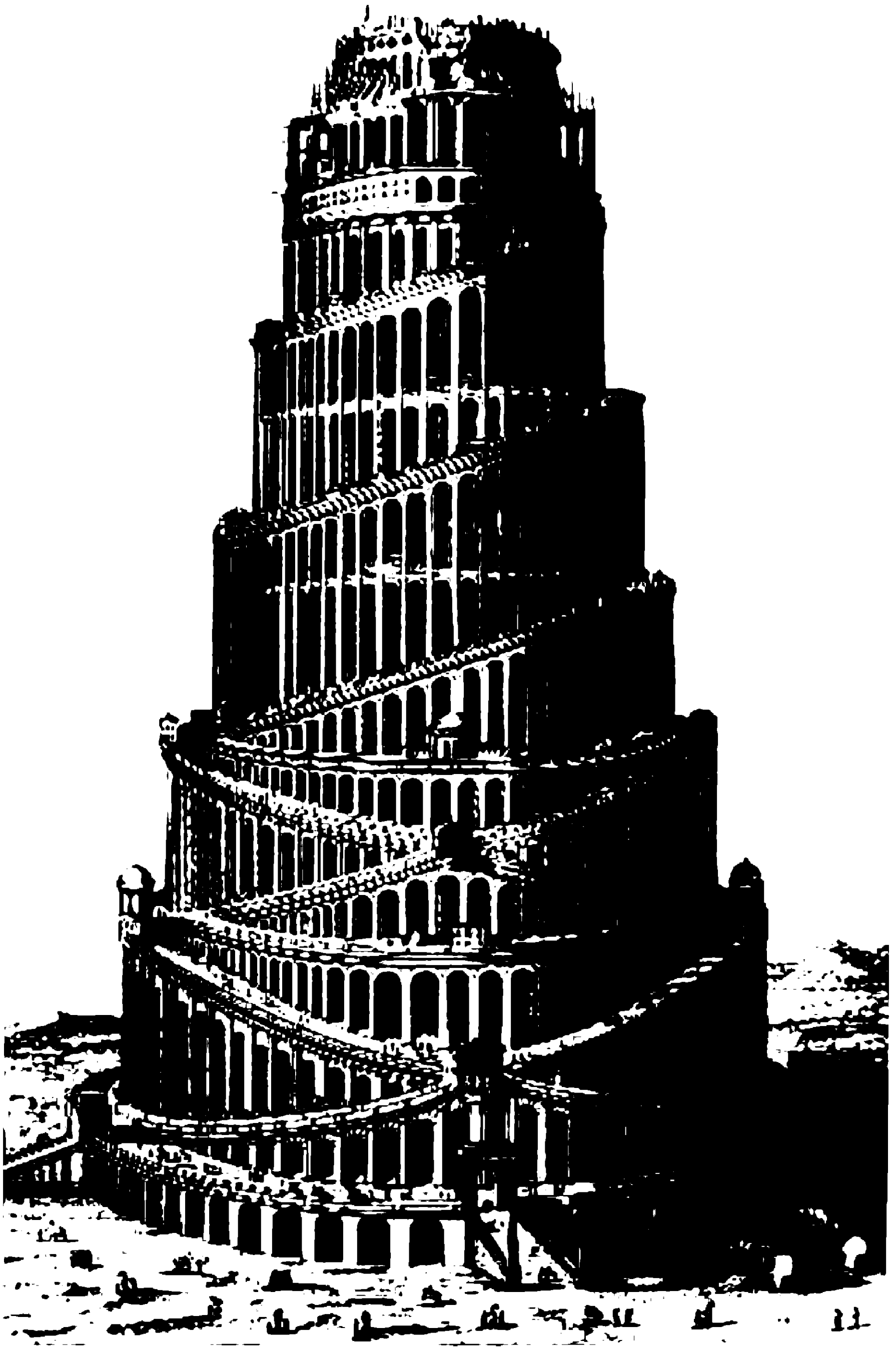

الموت في بابل.. الحب في إسطنبول

تأليف: إسكندر بالا

ترجمة: ريم داوود

t.me/qurssan

تحرير ومراجعة: هدى فضل

مراجعة لغوية: خالد رجب عواد

الطبعة الأولى: نوفمبر 2017

رقم الإيداع: 11576/2017

الترقيم الدولي: 9789773193560

الغلاف: آلاء هيكل

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع القصر العيني 11451 - - القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

©ISKENDER PALA/ KALEM Agency

t.me/qurssan

بطاقة فهرسة

بالا، إسكندر

الموت في بابل.. الحب في إسطنبول: رواية من الأدب التركي/ تأليف: إسكندر بالا، ترجمة: ريم داوود.

ط1- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2017،

ص؛ سم.

تدمك 9789773193560

1- القصص التركية

أ- داوود، ريم (مترجم)

ب- العنوان 894،353

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

t.me/qurssan

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحقيق المستحيل:لماذا كتبتُ "ليلى والمجنون"؟

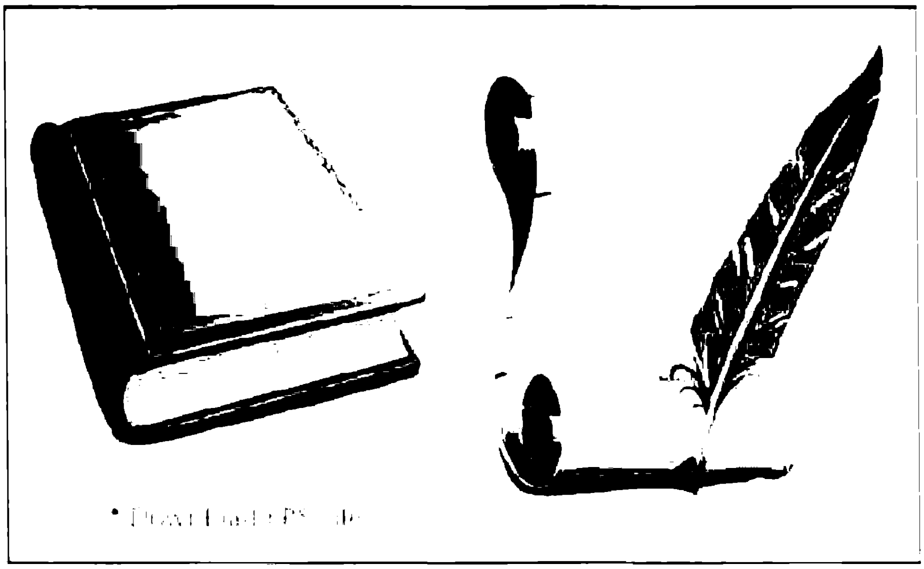

على القارئ الذي لا يعرف شيئًا عن الحب، ألّا يفكّر أصلًا في قراءة هذا الكتاب. لن يستطيع المؤلف، مهما تبلُغ قُدراته ومواهبه، أن يقنع القارئ بأن عمله مثيرٌ للاهتمام، لمجرّد أنه يدور حول العذاب والفراق والاشتياق.. فكلها أمورٌ يجدها الجميع مؤلمة، ولا جديد في ذلك.

في تلك الليلة التي ألقيث فيها على أصدقائي قصيدة "ليلى والمجنون"، ونحن نجلس في الحجرة الغربية ذات السقف المزخرف، قلث لهم إن قصص العذاب والمعاناة لا تجذب القارئ العصري، ولا تروق له.

المعاناة خليط من الفكر والعمل. إنها شعورٌ يلازمنا منذ بدء الخليقة، وسوف يستمر معنا إلى الأبد. إحساسٌ يقع في منتصف المسافة بين الحلم والواقع، وبين الأدب والتاريخ. إن استخلاص مغامرةٍ مثيرة من هذا الشعور وحده، عملٌ صعب في زمننا هذا.

في الليلة التالية، حلمث بأنني أقف أمام نافذة معبد "عشتار"، المطلّة على معبد بابل المدرّج. اقترب مني الكاهن الحكيم "إكليدن"، وقصّ عليّ كل ما حدث في زمانه بجميع التفاصيل.. ثم اصطحبني لمشاهدة سبعة ألواح، تمتلئ أسطحها بكتابة

t.me/qurssan

مسمارية، موضوعة قريبًا من تماثيل ذهبية بديعة لآلهة المعبد. قال لي:

. هناك سبعة أسرار لمن يعرف الحب جيدًا.

- هل بإمكانك أن تحوّل البحر إلى قطرة واحدة.. هل لك أن تطلعني على هذه الأسرار؟

. المعرفة هي الاحتراق. كي تتعلم معنى الحب، عليك أن تخوض نار المعاناة أولًا. إذا قرأتَ كتاب الشاعر "فضولي" حول الحب، سوف تعرف الخطوات التي يجب عليك اتباعها للوصول إلى ذلك.

في الأيام التي تلت هذا الحلم، أمضيث أغلب وقتي في إعادة قراءة مؤلّف "فضولي"؛ وحتى أتمكّن من فهم ما حدث له، بدأت في الاطلاع على المخطوطات التاريخية، وإعادة صياغة تلك الحكايات القديمة عبر إضفاء لمسات خيالية عليها في ذهني. حين تكونت بداخلي كل هذه الصور والتفاصيل، أحسستُ ببواباتٍ عظيمة تُفتح على الفضاء الرحب، وبرغبةٍ ملحّة في أن يشاركني القرّاء مغامراتي خلال دروب التاريخ والزمن.

بطبيعة الحال، فإن رأي القارئ أكثر أهمية مما يكتبه المؤلف. مصير الكتب ومؤلفيها يتوقف دائمًا على قرارات القراء. إن جهودي، ومحاولاتي الدؤوبة لخلق المستحيل، موجّهة في الأساس لإرضاء القارئ وانتظار حكمه الصادق.

حين غمستُ ريشتي في حبر الكتابة، بلونه الأحمر الياقوتي، وبدأتُ الكتابة.. كنا - في الشرق - في فصل الخريف، من عام التنين الأبيض. كان قد مضى على قصائد "فضولي" نحو 23000 سنة من الغموض، وكانت تنتظر أن أحوّلها إلى قصّة حبٍّ.

t.me/qurssan

1 السعادة من الحزن

لستُ داخل الزمن

ولستُ خارجه تمامًا

أبلغ الاكتمال فقط

عند امتداد اللحظة الطويلة

أحمد حمدي طانبينار

يتسلل النور داخل مكتبة "مَجمع العلوم". يبدو المبنى الواقع على ضفة نهر دجلة، ككاتدرائية قديمة. مع كل اهتزازٍ يتعرَض له المبنى، عند دوي طلقات المدافع، يشعر بأن قلبه على وشك التوقف. لم يكن للإيقاعات الرتيبة للدفوف - التي يتردد صداها على جدران المدينة التي تعجُ بالمارة - تأثيرٌ يُذكَر على أعصابه. لم تُخِفهُ التغيرات التي بدأت تعصف بالمدينة. كان يحاول مقاومة رغبته في مغادرة المكتبة، وغلق أبوابها وراءه، حين عاد الأحدب الضرير، حاملًا المجلَدات الممنوعة بين يديه.

كان أمين المكتبة الأعمى. الخبير في التاريخ الكلداني والآشوري. قد وافق على النزول إلى القبو وجلب تلك الكتب، بعد استعطافٍ طويل. أحسّ بالانزعاج لدخول "سليمان القانوني" إلى بغداد، وأخذ يردّد وسط سُعاله المتقطع:

. لا مهرب من المكتوب.. من وُلِد اليوم سيموت غدًا.

أخذ يتمتم بذلك، لبعض الوقت، ثم سأله فجأة:

. هل ترغب في قراءة هذه الكتب، أم تفضَل الخروج لمشاهدة استعراض خيول السلطان، كما يفعل الآن تجار التمور القادمون من البصرة؟

أحسّ "محمد الحِلّي أفندي"، الرجل الخمسيني، بصعوبة القرار.. هل يتابع موكب دخول السلطان المدينة كبقية الناس؟ ربما لو لم

t.me/qurssan

يسأله أمين المكتبة، لما فكّر في الأمر من الأساس؛ لكن السؤال ولّد في نفسه الحيرة.. ماذا لو كان الموكب يستحق المشاهدة؟ لكنه، في الوقت ذاته، أحسّ برغبة في دخول رحاب الكلمة المكتوبة، والوصول إلى أطلال برج بابل، حيث فَقَدَ حبيبة الطفولة. استغرق في التفكير لبعض الوقت، ثم هتف أخيرًا:

ـ المجلدات!

أجابه أمين المكتبة:

ـ إذًا.. يمكنك قراءتها إلى أن تدخل أشعة الشمس من هذه النافذة.

أشار بإصبعه إلى شبّاك من الزجاج الملوّن، يقع تحت القبّة. استدار، وسار بثقة تجاه الباب ثم أغلقه من الداخل. وضع الكتب على البطانية الصوفية المفروشة بجوار المدفأة، وكأنه يرى بوضوح. أضاف:

ـ يمكنك القراءة حتى ذلك الوقت. لن يدخل رجال السلطان قبل ذلك لفرض سيطرتهم على المكان.

واصل وقوفه بجوار النافذة الملونة.

فتح "محمد أفندي" أولها. كان أشبه بكيسٍ جلديّ، أو حقيبة، كتلك التي يحملها لاعبو السيرك وهم يقدمون عروضهم على ظهور الخيل. تساقطت منه رُقعٌ جلدية ملفوفة، مثل التي تركها القساوسة المسيحيون في بيت المقدس عام 70 بعد الميلاد. لكنها مكتوبة بلغة لم يتعرَّفها "محمد أفندي".

قال لنفسه:

ـ يبدو أن هذا الرجل الأعمى قد فشل في الوصول إلى الخزانة الصحيحة.

تفحصّهم، ووجد أنهم جميعًا يحملون رسومًا متشابهة إلى حدٍّ كبير للصليب وللمسيح طفلًا بين يدي العذراء. لو أن "محمد

t.me/qurssan

أقـوال المسـيح غـير المـدونة، كتبـها بالعبريـة والآراميـة رهبـانٌ يعيشون في الصحراء، لأمضى بقية حياته منكبًّا على دراسة علم اللاهوت، محاولًا الكشف عن أسرار الأرض الممتدّة بين النهرين المقدسـين.. وبخاصـة لـو عـرف بأن الرقعة التي كـان يقلبها بين يـديه تصـف سـمكة القـدّيس "أوغسـطينوس"، وأن العبـارات المكتوبة عليها مأخوذة من إنجيل "توما".

يمتلئ المجلد الثاني بأوراق مطوية غير مرتبة، وُضع بعضُها فوق بعض كيفما اتفقَ. خِيطَ بعضها في مجموعات من عشرين أو أربع وعشرين صفحة. احتوى عددٌ منها على رسوماتٍ لنساء ورجال عُراة، نُفِّذت بحبرٍ نحاسـي أصـفر؛ كمـا أن بعضها يضمّ تشريحًا للجسـم البشـري.. أو صـورًا لأوانٍ منزليـة، ودوارق زجاجيـة، ومصنوعاتٍ نحاسية، وزجاجات أدوية، وأوراق نباتات وأعشاب.. ورسومات لأنواعٍ مختلفة من الطيور والحشرات.

كـان هـذا جزءًا مـن المعلومـات التـي يسعى للحصول عليها. لم يخطئ أمين المكتبة بإحضار هذا المجلد، على الأقل.

حين لمح "محمد أفندي" ما كتبه أحدهم بأحرفٍ عربية على بعض الأوراق الأخرى، أدرك أنه أمام كنزٍ حقيقي.. "أبحاث علاج الحمى الصفراء، من مكتبة الإسكندرية، بتفويض من بطليموس الأول".. "عـلاج الجنـين وإنقـاذ حياتـه داخـل رحـم الأم، لابـن سـينا".. "استخلاص الأدوية من جذور النباتات".. "أطروحة أفلاطون حول الروح والموت". كان هذا ما أمكن إنقاذه، بشكلٍ سرّي، من مكتبة الإسكندرية العظمى، التي أحرقها البطريرك الروماني وقساوسته، قبـل ألـف سـنةٍ بالضبط، فـي حربهم ضدّ الوثنيـة. بـين يـديه مخطوطات في الطب والفلسفة، طوّرها لاحقًا عددٌ من علماء المسلمين.

ضمّ المجلد الأخير مجموعتين من الأوراق.. الأولى عن ترويض الخيول وتربيتها، إضافة إلى أمراض حيوانات الصحراء، كالجِمال وغيرها، وكيفية علاجها؛ أمّا الأخرى فتتناول تاريخ مدينة بغداد، وبعض القصص.. مثل حكايات الأربعين حرامي، وأخبار السطو

t.me/qurssan

على القوافل. في نهاية هذا الجزء، هناك فصلٌ من "ألف ليلة" أيضًا. جميع محتويات هذا المجلد، كُتِبَت على أوراق البردي المصرية.

تردد "محمد أفندي" في إخبار أمين المكتبة الضرير بأن معظم ما جلبه له، ليس ما طلبه منه، وبخاصة بعد أن أدرك أنه أزاحها من فوق رفوفها بصعوبة بالغة، كما يبدو؛ كما أن الأصوات القادمة من الخارج جعلته ينتبه إلى أن الوقت ضيق، وأنه لم يبقَ الكثير على وصول رئيس حرس السلطان "القانوني".. ولهذين السببين فإنه آثر الصمت.

أعاد فتح المجلد الثاني، وبدأ في قراءة الأجزاء التي قد تفيده في كتابه الذي اختار له عنوان "الصحّة والمرض"، الذي سيكتبه باللغة الفارسية. أخذ ينقل الرسوم التي تصوّر تشريح أعضاء الجسم البشري. من الطريقة التي أنصت فيها أمين المكتبة إلى جميع حركاته، بتركيز بالغ، أدرك "محمد أفندي" أن الرجل الضرير أكثر اهتمامًا بعمله من أي شخصٍ مبصر. تأكّد له ذلك حين عمِد الشيخ إلى السعال بانزعاج، عندما تناهى إلى سمعه الطريقة المتعجلة التي قلّب بها الصفحات دون مراعاةٍ لحالتها وقِدَمها. شعر بحرجٍ بالغ لأنه فكّر في وضع أحد الكتب تحت ثيابه، والتسلل به خارجًا.

حمل المؤلَّف الذي طمع في الحصول عليه أكثر أختام مكتبة الإسكندرية الملكية قِدَمًا. تمَ حفر الختم على أسطوانةٍ طينية، ثم طبعه على ورقة البردي بالضغط عليها. يعود الكتاب إلى المكتبة الأولى، التي احترقت بالكامل خلال فترة حُكم "كليوباترا"، حين وصل "يوليوس قيصر" - الذي حوّل الدولة الرومانية إلى إمبراطورية - إلى الإسكندرية، عقب هزيمته لـ"بومبي". يلمح "محمد أفندي" ورقةً تحمل عنوان "دراسةٌ في مناقشات الفيلسوفين فيثاغورس وطاليس"، فيقول لنفسه وهو يتنهد في أسًى:

- ليتني أتمكن من قراءة هذه الأوراق..

t.me/qurssan

راح يتصفحها وهو يتساءل عن الكيفية التي تمّ بها إنقاذ هذه الدراسة من الاحتراق. لم يفكّر طويلًا..

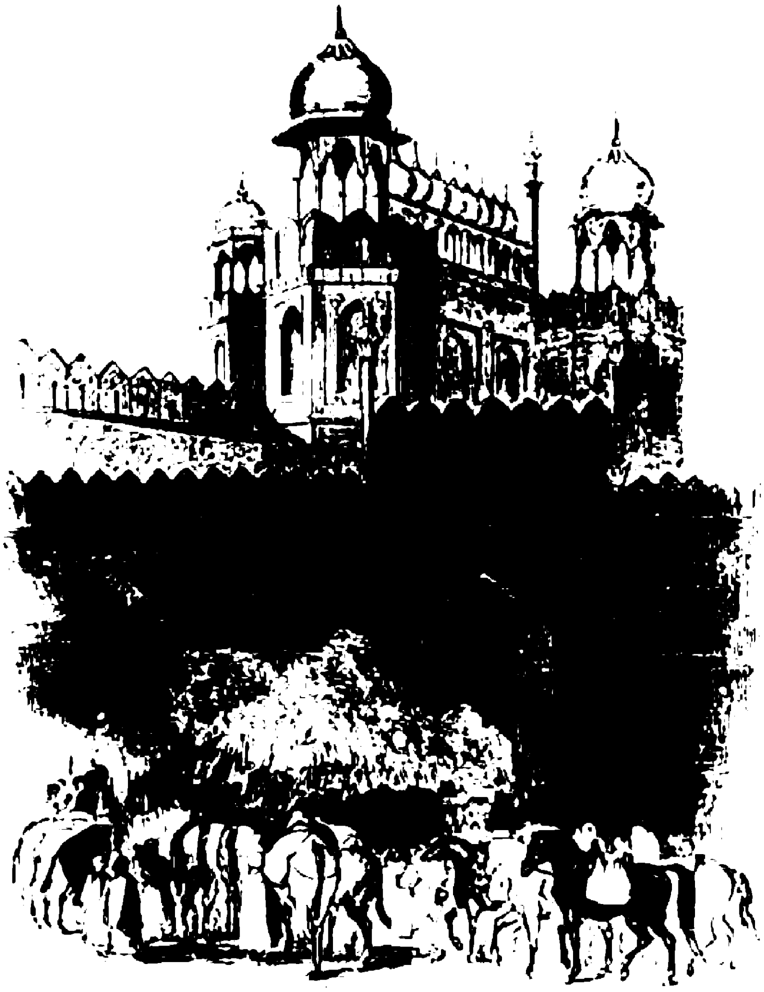

. لا بدّ أنها ضمن المئتي ألف كتاب التي أحضرها "مارك أنتوني" من مدينة "بيرجامون".

أخذ يمسح الغلاف بوَلَهٍ، كما يتحسس العاشق محبوبته؛ ثم راح "فضولي محمد" يستنشق الصفحات باستمتاعٍ بالغ.

أعلنت النداءات التي انطلقت من جميع منارات مساجد المدينة، عن اقتراب السلطان من دخول آخِر الأراضي التي أضافها لممتلكاته. دقت الأجراس في كنائس الآشوريين والروم، بحماسةٍ شديدة. تجمَع الناس من كافة الأجناس والأعراق، بمن فيهم يهود الساحل الشرقي، في مختلف الميادين وحول جامع المنصور، وإيوان كسرى، وضريح زبيدة، والمدرسة المستنصرية، وانتشروا على امتداد ضفاف نهر دجلة، احتفالًا بانتهاء حُكم "طهماسب

t.me/qurssan

الأول"، شاه الدولة الصفوية، التي اتصف قادتها بالظلم والجور. الحكاية ذاتها تتكرر كل مرة.. الحُكّام الجدد ينتظرون من الرعيّة أن يعلنوا عن رفضهم التام للحكّام السابقين، وهو ما يحدث الآن.. الجماهير تتزاحم في الميادين والطرقات، مرددين هتافات يلعنون فيها "طهماسب"، ويكيلون المديح والثناء على السلطان العثماني، كما لو أنهم معتادون إعلان ولائهم له منذ أعوامٍ طويلة. لكن العدد الأكبر من الناس، جمعهم مكانٌ واحد.. مركز المسلمين السُنّة في بغداد الشيعية.. أيّ حول ضريح الإمام "أبي حنيفة"؛ فمن هنا، وبمحاذاة الضفة الشرقية لنهر دجلة، وصولًا إلى "بوّابة تبريز"، امتزجت أطيافٌ مختلفة من البشر.. بمن في ذلك الشحاذون الذين وقفوا في صبر، آملين الحصول على شيء من النقود الذهبية التي سوف ينثرها السلطان على الجموع، بلا شك، رافعين أصواتهم بعباراتٍ ترحّب به.

حين انتهى الموكب، والاحتفال الرسمي، وقام الوالي الصفوي "تيكيلّو خان" بتسليم المدينة إلى "إبراهيم باشا"، تزايدت جموع الناس، واستمرّت الاحتفالات طوال الليل؛ لكن أغلب من بقي حتى الفجر كانوا من البدو والمجرمين والهاربين، الذين طافوا طرقات المدينة بحثًا عن غنيمة يستولون عليها. كانوا أشبه بذئب جائع يُفتّش عن خرافٍ ساذجة.

أعلن قائد فرقة الانكشارية العسكرية، الذي زوّد بوّابات المدينة الأربع بكتائب من الجنود، بأنه لن يتردد في إعدام كل من تزيّن له نفسه القيام بأي تصرُّف أحمق، ولذلك خشي السُوقة ارتكاب أي فعلٍ قد يودي بهم إلى التهلكة. خفتت هتافاتهم المؤيدة لـ"سليمان القانوني"، ولاح الغيظ على وجوههم المتجهمة.

اهتزت أشجار النخيل عقب دويّ المدافع وتهليل جموع الناس اللذين صاحبا دخول "القانوني" للمدينة. كان السلطان قد بدأ رحلته من قصر "شيرين"، الذي تؤكّد الأساطير المتوارثة أن صاحبته كانت تحمل الاسم ذاته، وأن من تولى تصميمه وبناءه هو حبيبها "فرهاد".

t.me/qurssan

تسلّم السلطان مفاتيح القلعة، من "جعفر" بيك حامل راية "إبراهيم" باشا، كما تلقى خمسمئة عملة ذهبية ومعطفًا من الفرو، قبل أن يتوجه إلى بوّابة حلب، التي تتميز بجمالها وبالرسومات البارزة على سطحها.

حين رآه الناس مقبلًا نحوهم، وهو يمتطي حصانه برشاقة وثقة، مصحوبًا بأعداد كبيرة من الحرس والعساكر وصفوة الرجال والخدم، فهموا لماذا يُشار إليه في كثيرٍ من الأحيان بلقب "سلطان السلاطين". بدا كأحد آلهة الرومان، ولا يقل عنهم عنفوانًا وقوّة.

أرهف أمين المكتبة السمع بترقب، كأنما يرى كل شيء بأذنيه. حين ارتفعت أصوات الناس بالتهليل، ببهجة واضحة، واخترقت الساحة الخارجية المواجهة لمبنى المكتبة، انتزع الكتب من أمام "محمد أفندي"، ليعيد وضعها داخل صناديقها. حين رجع إليه، كان يحمل خنجرًا مرصعًا بالأحجار الكريمة، له مقبض ذو طرفين، ينتهيان على شكل أفعى. استلّ الخنجر من غمده المزيّن بالزمرد وأحجار الجاد، وردّد العبارة المكتوبة على النصل، كأنما يقرؤها:

ـ إلى أولئك الذين يعرفون كيف يموتون، هذا الخنجر يعني الحياة. هناك سبعة أسرارٍ حقيقية لمن يعرفون الحبّ. من يمتلكها، يمتلك العالم.

كان يتلفظ بكل كلمة ببطء وتؤدة. ناوله الخنجر، وهو يقول:

ـ ليكن أمانةً إلهية، وسرًّا وضعه الله في حوزتك، لتحافظ عليه.

أحسّ "محمد الجلّي" بدهشةٍ بالغة، وتساءل في سرّه عن وجوب التعامل مع هديةٍ كهذه بكل هذا القدر من التكتم والسرّية؛ لكنه عاد فتذكّر ما لتبادل الهدايا من معانٍ مختلفة، فقال للعجوز معاتبًا:

ـ يخيّل إليّ يا سيّدي أنك، بمنحك هذا الخنجر لي، تعرب عن عدم رغبتك في عودتي إلى هنا ثانيةً.

طأطأ العجوز رأسه، وبدا جسده أكثر تقوسًا. أنصت لحظةً لوقع

t.me/qurssan

الخطوات المقتربة من الباب، وقال بعجالة، بصوتٍ هامس:

. يوشك الوقت على النفاد. حين يسألونك عن الأمانة، لا تسلّمها إلا للأيدي الصحيحة. سوف تعرفهم، كما أتوقع.

راقب "محمد أفندي" التغيّرات المفاجئة التي طرأت على الرجل، باستغراب. يبدو كشخصٍ آخر تمامًا.. حتى صوته تغير وأصبح واهنًا، كأنما لا يقوى على الكلام. ارتعشت يداه، وتساقط العرق من جبينه. خلع خاتمه من إصبعه، بصعوبةٍ بالغة، ثم رفع الفصّ الذي يزيّنه، وابتلع ما كان تحته.

راقبه "محمد الحِلّي" بذهولٍ، وهو يفكّر: "الرجل مدمن مخدِرات!".

قال لنفسه، "لا بدّ أن كل ما تفوّه به منذ قليل ليس سوى تهيؤات وهلاوس صوّرها له عقله الذي كان بحاجةٍ لجرعة مخدر"؛ لا يوجد تفسيرٌ آخر لما دار بينهما للتوّ.

تعالت الأصوات في الخارج، ما يعني ولوج رجال "سليمان القانوني" للساحة الداخلية. ظهر الانزعاج الشديد والتوتر على أمين المكتبة، الذي راح يتحسس الأشياء من حوله بطريقةٍ غريبة. إمّا أنه يبحث عن شيء معيّن، وإما أنه يحاول معرفة ما يدور حوله في تلك اللحظة. اقترب من "محمد أفندي"، وتلمّس الخنجر، وقال بلهفة:

ـ تذكّر دائمًا أن هناك سبعة أسرار لمن يعرف الحبّ، وأن من يمتلكها يستطيع السيطرة على العالم.

كانت هلاوس المدمنين أمرًا مألوفًا لـ"محمد أفندي"، لكن أسلوب الرجل المُسِن بدا مختلفًا. أخذ يهمس بالعبارة نفسها، عدّة مرّات كما لو أنه يمليه وصيته الأخيرة. اختتم حديثه بالقول:

. أنت شخصٌ جيّد. عِدني بأن تحافظ على السرّ. عِدني بألا تسلّم الأمانة إلا للأيدي الصحيحة.

فُتِح باب المكتبة، ودخل منه ضابطٌ يرتدي ثيابًا مطرّزة بخيوطٍ فضية. من الطريقة التى راح الرجل الأسمر يصدر بها أوامره لمن

t.me/qurssan

معه، أدرك "محمد أفندي" أنه يحتلّ منصبًا رفيعًا. قال مخاطبًا أمين المكتبة:

. اسمي "جلال زاده مصطفى". أعمل مستشارًا للسلطان، وقد جئت لاستلام المكتبة وما فيها من مؤلفات.

ناوله العجوز مفاتيح المكان، وبدأ يشرح له مجموعات الكتب المختلفة، وأهمية كل واحدةٍ منها. أمر المستشار ضابطًا وأربعة من جنوده بعدّ محتويات المكتبة، ثم ناول المفاتيح لأحد مساعديه. تفحّص جنبات المبنى، ثم دخل إلى المخزن. هناك، لمح "محمد أفندي" الذي تشاغَلَ بجمع الأوراق التي نسخها عن المجلدات، فسأله بصرامة:

. ومن تكون أنت يا سيدي؟

ـ خادمكم المطيع، الشاعر "فضولي" يا سيدي. أنتمي لمدينة "الحِلّة".

ردّد المستشار، مغالبًا دهشته، عددًا من الأبيات:

"من يحبّ نفسه من أجل محبوبه.. فإنه يعشق المحبوب

من يحبّ المحبوب من أجل نفسه.. فإنه يعشق نفسه".

ثم سأله، بشيءٍ من عدم التصديق:

. أأنت من ينظم هذه القصائد البديعة؟

. نعم يا سيدي. خادم حضرتكم المطيع.

. تعني أنك تكتب الشعر فعلًا وتتغنّى بالغرام؟

. أجل يا سيدي.

راقبه "جلال زاده" وهو يجيب عن أسئلته، بينما راح يتساءل إن كان هذا الشخص هو حقًّا صاحب كلمات الحبّ الرقيقة؟ منذ نحو عامين، جلبت إحدى القوافل التجارية بعضًا من مؤلفاته إلى إسطنبول. تناقلها الناس بإعجاب بالغ، وصاروا يحفظونها

t.me/qurssan

ويرددونها في كل مكانٍ ومناسبة. هل هذا الرجل ذو الهندام النظيف، المرتب، والهيئة البسيطة، هو حقًّا الشاعر نفسه صاحب القصائد فائقة الجمال؟! هل يُعقل أن يكون محظوظًا لدرجة أن يقابل الشاعر الذي حلم بلقائه، وخطّط للبحث عنه.. فور وصوله إلى بغداد؟! هل يمكن للقدر أن يكون على هذا القدر العظيم من الكرم؟

تلاحقت الأسئلة في رأسه، وهو يتابع الرجل الواقف أمامه. غمره إحساسٌ ببهجةٍ طفولية والكثير من الحماسة، جعلا الصلافة التي خاطبه بها في البداية تتحوّل إلى احترامٍ وإجلال:

- اسمح لي بأن أرحّب بك أيها الشاعر العظيم! أنت من أشهر الشعراء في إسطنبول الآن، وتأكَّد أننا أينما نحلّ نحن الأتراك، فسوف نحمل معنا قصائدك وننشرها بين الناس.

دنا "جلال زاده" منه، واحتضنه بين ذراعيه كصديقٍ قديم. تناوبا في ترديد أبياته الشعرية، وتبادلا أطراف الحديث، كما لو كانا يعرفان بعضهما البعض منذ الصغر. تمّ كل ذلك في إطار من الاحترام والمودّة المتبادلين. لم يكن المستشار سوى رجلٍ عاطفيٍ، يعمل في خدمة الإمبراطورية العثمانية بمنتهى الجدّية والالتزام، ولكن ما إن لفحته رياح بلاد الرافدين، حتى استعاد شخصيته الودود الحقيقية.

قال المستشار قبل أن يغادر:

- أستاذي الفاضل، أرجو أن تأتي لزيارتي عقب ثلاث ليالٍ.

أجابه الشاعر:

- أمرُكَ يا سيدي. طلبكم أمر واجب التنفيذ.

حين غادر "فضولي" المكتبة، كانت قد مرّت ساعةٌ كاملة على غروب الشمس. أغمض عينيه نصف إغماضة، كي يتحاشى الغبار الذي يعصف بميادين بغداد. الساعات الماضية هي من أغرب ما مرّ عليه من أيام.. ليس فقط لكثرة أعداد الناس وتزاحمهم في

t.me/qurssan

كل مكان، بل للكلام العجيب الذي سمعه من أمين المكتبة، وللمصادفة التي جمعته بذلك القائد، وللأبواب التي سوف تُفتح أمامه عقب زيارته له.. لا يدري إن كان عليه أن يسعد بما حدث، أم أن يتخوّف منه.

لازمه الإحساس بالانزعاج، فحين ترك أمين المكتبة، كان الرجل محمومًا.. لكنه رفض بقاء "محمد أفندي" معه، وألح عليه في المغادرة. حاولَ تناسي ذلك بتذكير نفسه بتحسّن ظروفه بعد لقائه بالمستشار العثماني. إنه يعاني الفلس الدائم بسبب إقباله على شراء الكتب؛ ولكن حتى هذا الجانب لا يعنيه حقًّا.. إن أكثر ما يسعده هو احتمال مقابلته شُعراءَ الأناضول.

تأمّل الخنجر، الذي دسّه تحت إبطه فور أن أعطاه إياه الرجل العجوز. قال لنفسه إنه إن ساءت ظروفه أكثر، فسوف يظل بإمكانه بيعه، والاستفادة من ثمنه في البقاء في بغداد فترةٍ إضافية، ينهي فيها أبحاثه. قال لنفسه:

. ذلك الرجل غريب الأطوار.. يبدو حكيمًا، ولكن قد يكون منبع كلماته هو المخدرات وليس العقل والحكمة!

عادت أفكاره إلى الدعوة التي وجّهها له "جلال زاده". إن الشعراء الأتراك الذين يعرفهم العالم أجمع، قد أتوا إلى بغداد ضمن حاشية السلطان. سيكون لقاؤهم والتعرّف إليهم أمرًا شائقًا. بإمكانه أن يتبادل معهم الحديث حول الشعر.. مثل "يحيى تشاليجالي"، وكاتب البلاط "خيالي".. وغيرهما. سوف يبقى في أيّ خانٍ رخيص بضع ليالٍ إضافية.

يا لهم من أناسٍ محظوظين، أولئك الشعراء الأناضوليون! يمضون أغلب وقتهم في حفلات القصر، ويتبارون في نظم الشعر وإلقائه.. الأدب بالنسبة لهم لا يشكّل عبئًا عليهم، بل هو مجرّد جزء من حياتهم المرفهة. تخيّل نفسه يُجالِس الشاعر والأديب والسياسي واللغوي البارز "علي شير نوائي".

انتهت احتفالات اليوم الأول، وعمّ الناس شعورٌ بالقلق مع حلول

t.me/qurssan

الليل، إذ توقعوا شيئًا من التجاوز في تصرفات العساكر، أو تحقيقاتٍ يورطهم فيها رجال الشرطة، وربما بعض النهب والسرقات لدكاكين الأغذية يفعلُها اللصوص. قرّر "محمد الحِلّي" مغادرة الخان الذي أقام به اليومين الماضيين، واستأجر حجرة صغيرة داخل مدرسة، على أمل أن يتمكن من الإقامة فيها بشكل مجاني.

تمنى لو لم يأخذ هذا الخنجر من الرجل الضرير. إن اضطراره للحفاظ عليه، يقيّده ويزعجه، وبخاصّة في مثل هذه الليلة التي تشهد بعض الاضطرابات؛ وماذا لو اكتشف أحدٌ أنه يحمل سلاحًا كهذا داخل دار عِلم؟ سيعرّض نفسه للتحقيق والمساءلات.

إنه فائق الجمال والروعة، ولا شك.. شعر بوخزٍ في ضميره حين تذكّر أنه قد يضطر إلى بيع هذه الهدية القيّمة. أخذ يتأمله على ضوء الشمعة الذابل، وهو يفكّر في التوجُّه إلى السوق لبيعه والاستفادة من ثمنه. قرر بعدها أنه من الأفضل أن يزيل أحجاره الكريمة أولًا. فكّر أيضًا أن يأخذ الياقوتة الضخمة التي تزينه، ليصنع منها خاتمًا للمرأة التي تنتظر رجوعه في مدينة "الحِلّة". ماذا لو اشترى بثمنه الكتب العلمية التي يحتاجها في بحثه؟ ولمَ لا يقوم بتطريز تلك الفصوص الصغيرة في ملابس جديدة لأولاده؟

واصل تأمُّل الخنجر بإعجاب، رغم تسلل الخوف إلى قلبه. نظر إلى الأفعى التي يمتدّ من رأسها قرنان، على الطرف المستدير للمقبض. التصميم غريب وغير مألوف. حُفِر تحتها رسمٌ ليدٍ ذات أصابع مفتوحة. المعدن نفسه عجيب.. لم يره من قبل.. ليس من البرونز ولا النحاس، ومن المستبعد أن يكون حديدًا. اللون يؤكّد أنه ليس من الذهب أو الفضة. حاول أن يحكّ سطحه بطرف سكين صغير، لكنه لم يتأثر لشدّة صلابته.

على جسم الخنجر نفسه امتدّت كتابةٌ لا يعرف لغتها. إنه يجيد الآشورية، ولكن هذه ليست أحرفها. السلاح حادّ جدًّا من الطرفين. كاد يجرح أصابعه، فأدخله بسرعة في غِمده. عاود تأمل

t.me/qurssan

المقبض الأسطواني.. به نقوش تشبه الدوّامات المتداخلة التي تتخللها أحرفٌ غير واضحة، يزين كل ذلك سبعة فصوصٍ من الياقوت المتفاوت الحجم. حين تحرّك الخنجر في يده، انبعث منها بريقٌ لامع، وصدر عنها صوتٌ خافت. الأحرف والفصوص، ذكّرته بما قاله الشيخ الأعمى عن الأسرار.. فكلها تحمل الرقم سبعة.

انتابته الحيرة، وأمضى بقية ساعات الليل وهو يفكر في كلام أمين المكتبة، ويواصل النظر إلى الخنجر. لا بدّ أن هناك علاقة تربط كل شيء موجود على سطحه، ببعضه البعض، ولكن ما هي؟ لقد قال الرجل "أولئك الذين يحبّون..". لهذا السلاح علاقةٌ بالحبّ إذًا.. هذا هو الأمر. إن خبرة "فضولي" في عالم الحب واسعةٌ وعميقة.. أكثر عمقًا من أيّ شخصٍ آخر في الحياة. الحب يشغل تفكيره على الدوام، ويحاول أن يفهم جميع جوانبه عبر صياغة مشاعره في كلماتٍ منغمة وأبياتٍ متناسقة. إنه يستطيع تمييز الأشواق، وعذابات الحب، ما إن يلمحها في عينيَ أحد. لقد مرّ بمراحل الحب السبع، وعرف حِكَمَه السبع، كما وصفها الصوفيون.

ظلّ يردّد لنفسه طوال الليل:

. الحب.. سبع.. الخنجر.. الياقوت.

أخذ يعيد الكلمات ويكررها، كما لو كانت تعويذة. قرر أن أول ما سيفعله صباحًا هو زيارة المكتبة مرة أخرى.

حين استسلم للنوم، في نهاية الأمر، طغى الرقم سبعة على أحلامه التي شابها الغموض.

وصل "فضولي" إلى بوابة قصر المستشار، المطلّ على نهر دجلة، وعرّف نفسه إلى كبير الحرّاس، وقد تسارعت نبضات قلبه. دخل قاعةً كبيرة، بالغة الأناقة، تسري في جنباتها نغمات قيثارةٍ وقانون. لم يستطع تحديد مصدر الحرارة التي شعر بها.. هل تنبعث من الموقد الذي يتوسط المكان، أم من داخله لفرط

t.me/qurssan

إحساسه بالإثارة والقلق، أم من الوجوه الباسمة المحيطة به من كل جانب؟

فور دخوله، هبّ نصف الحضور وقوفًا لتحيّته، فيما رحّب به الباقون من أماكنهم بحماسة وحرارة، وتوالت أصوات كل واحدٍ منهم وهو يردّد ما يحفظه من قصائده. جلس على يمين المستشار، شاعرًا بأنه أمام لجنة اختبار، وقد صوّب الجميع نظراتهم إليه.

بدأ عددٌ من الخدم في إعداد طاولة الطعام، بينما تبادل الحضور حواراتٍ حول الشعر والأدب. ألقى بعضهم أبياتًا من الشعر، وتناقش البعض الآخر في المعاني التي غمضت عليهم في قصائد معيّنة. حلّلت مجموعة من الحضور توجيهات "جلال الدين الرومي" في أعماله؛ واصلت الموسيقى انسيابها من وراء ستارٍ، ترافقها أحيانًا عباراتٌ من ديوان الأخير.. "مثنوي".

عقب سيلٍ من الطُرَف والنوادر والمزاح المتبادل والحكايات المتنوعة، انتقل النقاش إلى نقطةٍ جديدة.. الحبّ الخالد الذي جمع بين "ليلى" والمجنون. عقب حوارات طويلة، التفت "خيالي بيك" إلى "فضولي" قائلًا:

- يا أغلى وردةٍ في بغداد.. يا صاحب المقام الرفيع والمكانة المرموقة في عالم الكلمة.. إن قصّة "ليلى"، ابنة الصحراء، وحبيبها "قيس" الذي جُنّ من فرط حبّه لها، قد تكررت في أعمال الشعراء الفُرس؛ أما سردها على ألسنة الأدباء الأتراك فأمرٌ نادر، والموجود منه لا يتصف بالرقيّ المطلوب. هلّا فتحتَ لنا صندوق هذا الكنز النفيس، وكتبتَ لنا عملًا ساميًا يصبح كزهرةٍ نديّة وسط هذه الحديقة القديمة؟

رغم أن "فضولي" غادر القصر فجرًا، شاعرًا ببعض الدوار، فإنّ كلمات مضيفه ظلت ترنُّ في أذنيه.

t.me/qurssan

2 حكمة الراهب "آكيلدان" وحكايات عن أسرار الفضاء

"هوذا أرض الكلدانيين. هذا الشعب لم يكن. أسّسها "آشور" لأهل البرّية. قد أقاموا أبراجهم. دمّروا قصورها. جعلها ردمًا".

سفر إشعياء . إصحاح 23 . آية 13

على أبواب "مجمع بغداد للعلوم"، تملّى الحارس قليلًا في "فضولي"، قبل أن يجيبه بدهشة:

. سيّدي، أنت الشخص السادس الذي يأتي مستفسرًا عن أمين مكتبتنا المحترم! لقد مرّت سبعة أيام على وفاته، رحمه الله، وجدوه مسمومًا عشيّة استلام رجال السلطان "القانوني" المكتبة.

في اللحظة التي سمع فيها كلمات الحارس، تنازعته عدّة رغبات متضاربة.. أراد أن يعود إلى مدينة "الحِلّة" من فوره، ليتناسى كل ما حدث؛ وأراد . في الوقت ذاته . أن يبقى في بغداد لمقابلة شعراء إسطنبول وأدبائها مرةً أخرى.

لم يستطع انتزاع صورة أمين المكتبة من عقله، بعينيه الغائمتين وحكمته المتميزة التي لا يباريه فيها أحد. كان رجلًا فاضلًا، وشديد الكرم، رغم ضآلة دخله، ولطالما اقتسم معه طعامه وأعدّ له القهوة؛ كما لم يتأخر عن التسرية عنه حين استبدّت به الوحدة وأحسّ بشوقٍ جارف تجاه زوجته وأبنائه. كان واسع المعرفة وعميق الخبرة، ولا يبخل بهما على أحد.

أمضى "فضولي" بعض الوقت وهو يفكّر فيما سمعه من الحارس، وتوصّل أخيرًا إلى وجوب عودته إلى حجرته، بأسرع ما يمكن، لمعاينة الخنجر من جديد. في الطريق، قال لنفسه إن أمين المكتبة هو من تناول السمّ بنفسه، ولم يقتله أحد. تذكّر الطريقة التي نزع بها فصّ خاتمه، وابتلاعه للمادة بأسفله. شعر بالندم لأنه ظن أن الرجل يدمن المخدرات. ما الذي دفعه لفعل ذلك يا ترى؟ هل لديه اعتراضٌ على ضمّ بغداد للحاكم العثماني الجديد؟

t.me/qurssan

الغموض يحيط بالمسألة من كل جانب. انتبه "فضولي" إلى أمرٍ آخر.. إن الأشخاص الذين ذهبوا إلى المكتبة للسؤال عن العجوز الراحل، كانوا يبحثون عن الخنجر بلا شك. انتابه خوفٌ عظيم. عليه أن يتأمله مرةً أخرى، علّه يفهم شيئًا.

حين وصل إلى حجرته، أمسك به بين أصابعه.. إنه لا يشبه أي خنجر يتزين به الرجال، مقبضه يختلف تمامًا عن تلك المقابض المعتادة المصنوعة من قرون الكِباش. من الواضح أن له قيمةً أثريةً كبيرة، فصانعو السيوف والحدّادون توقفوا عن إنتاج أسلحةٍ مزخرفةٍ على هذا النحو منذ زمن. ربّما أبدعته أنامل صانعٍ قديم، بغرض إهدائه إلى أحد ملوك الفرس، في الأزمان الغابرة، والدليل أن الجواهر المستخدمة لترصيعه، نادرةٌ وفريدةٌ من نوعها. تأمّله جيدًا. لاحظ، للمرة الأولى، أن اليد المحفورة عليه هي اليد اليمنى، وأن إصبع السبابة تلتصق بالوسطى، بينما تلتصق الخنصر بالبنصر. هل يرمز هذا لشيء محدّد؟ هل هو علامة لإحدى قبائل البدو القديمة، مثلًا؟ لم يسبق له رؤية شعارٍ شبيهٍ بهذا. وماذا عن رأس الأفعى ذي القرنين؟

وهكذا مضت ساعات النهار، وهو يتأمل الخنجر، شاعرًا بالخوف والقلق من أن يطرق أحدٌ الباب عليه. ما الذي يحمله القدر له؟ لو لم يكن لأمين المكتبة مَعزةٌ خاصة في قلبه، لتخلص من الخنجر وهو يلعنه ويلعن صاحبه. لديه مسؤوليات جسيمة.. عائلةٌ تنتظره في مدينة "الحِلّة"، ومؤلفاتٌ مهمةٌ عليه أن ينتهي من كتابتها. كيف يتصرف الآن؟

- عليَ أن أجد طريقة أتخلص بها من هذا الخنجر.

لكنه ما إن قال ذلك، حتى تذكر وصية الشيخ الأعمى الذي طلب منه عدم تسليم الأمانة إلا للأيدي الصحيحة. قفزت إلى ذهنِه صورة الرجل وهو يسلمه الخنجر في المكتبة، لقد ضغط على كتفه بيد، بينما فرقت يده الأخرى أصابع "فضولي" على النحو الذي رآه على سطح السلاح. لعلّها إشارةٌ للصداقة والثقة إذًا؟ يجب عليه أن ينفّذ وصية صديقه الراحل.. ولكن ما الذي كان

t.me/qurssan

يعنيه بالأسرار السبعة؟

. ماذا لو احتفظت بالجواهر التي تزيِّن المقبض، ودفنت الخنجر في مكانٍ غير معروف؟ بهذه الطريقة أتخلص من عبء الحفاظ عليه، وأحميه . في الوقت نفسه . من الوقوع في الأيدي الخاطئة.

واجه صعوبةً بالغةً في إزالة الأحجار الكريمة من أماكنها، حاول رفع حوافها باستخدام السكين الصغير التي يستعملها في قطع الأوراق، لكنه فشل في ذلك. أصدرت الفصوص خشخشةً، لكنها ظلت ثابتةً ولم تتزحزح.

. هذا فولاذ شديد الصلابة، كما يبدو.

واصل محاولاته، دون جدوى؛ وأخيرًا راح يضغط بكفيه على الأحجار، بكل قوته، لكن ما حدث لم يكن في الحسبان.. إذ انطلق نصل الخنجر من غمده، وطار من مكانه، محدثًا صوتًا مرتفعًا، واستقر في الحائط المواجه لـ"فضولي"، الذي امتقع وجهه من شدّة الفزع، وراح يتمتم بآياتٍ وأدعية. تسارعت دقات قلبه، وأحس بالرعب حين أدرك أنه سلاحٌ قاتل، وليس مجرد زينة محلاة بجواهر براقة.

عليه أن يتخلّص من هذا المأزق بأسرع ما يمكن. فكر قليلًا، ثم وقع بصره على غِمد الخنجر. لاحظ أن بداخله حزامًا جلديًا رقيقًا، لُفَّ على شكل دائرة. خمن أن طوله قد يصل إلى نصف ذراعٍ تقريبًا. حين تأمله، وجد نقوشًا مكتوبةً على سطحه، تطابق تلك المحفورة على نصل الخنجر. تناوله، ليتفحصه عن كثب. ارتعشت يداه، وتزايدت نبضاته. قال لنفسه:

t.me/qurssan

. لا بدَ أن السرَ

t.me/qurssan

موجودٌ هنا على سطح هذا الحزام.

قرّر أن يتردد على مكتبات مختلفة، بحثًا عن أي معلومةٍ تقوده لفهم الوضع الذي وجد نفسه فيه. أخذ ينقل ما يراه على الحزام، على ورقة، وهو يؤكد لنفسه:

. إنها شفرة.

كتب الحروف والأرقام التي وجدها، وهو يتساءل في حيرة عمّا تعنيه. حين انتهى، كان يشعر بالإجهاد.

لو أن "فضولي" تمكن من السيطرة على مخاوفه، لفكر بطريقةٍ أكثر ذكاءً ولفَّ الحزام الجلدي على الخطوط حلزونية الشكل على جسم الخنجر.. وعندها كان سيتمكن من كشف السرَ العظيم للراهب "آكيلدان" و"جمعية بابل"؛ لكنه . للأسف الشديد . خشي أن يتسبب له الخنجر في مشكلات عديدة، فآثر أن يدفنه تحت شجرة التوت الكبيرة في حديقة المدرسة، عند انتصاف الليل.

t.me/qurssan

قبل أن يفعل ذلك، أعاد الخنجر إلى غمده، وقرر أن يحتفظ بالشريط الجلدي، وأن يجعله بطانة داخلية للحزام الذي يعلَّق به زمزمية الماء الخاصة به. توصَّل أيضًا إلى ضرورة أن يدفن الورقة التي كتب عليها رموز الخنجر والقطعة الجلدية، إلى جوار جثمان أمين المكتبة، في مدفنه بالمقابر التي تقع خارج أطراف المدينة. سوف يعيد الخنجر إلى مقبرة صاحبه، قبيل مغادرته بغداد، ويمسحه من ذاكرته إلى الأبد.

مضت الساعات دون أن ينجح في التوقف عن التفكير في الأمانة التي وضعها العجوز بين يديه. استبد به الفضول، ما معنى تلك الحروف؟ هل سيشعر بالراحة حقًّا إن قام بدفن الخنجر دون أن يزيل الغموض المحيط به؟ سوف يعذبه الشك ودوام التفكير.. ربما كان بإمكانه أن يَمُدَّ إقامته في بغداد بضعة أيامٍ إضافية، يزور خلالها مكتبة "مجمع العلوم"، بحثًا عن إجابةٍ تُرضي فضوله.

في الكتاب الأول الذي عَثَرَ عليه. قرأ أن تلك الأحرف هي كتابةٌ مسماريةٌ استخدمها الكلدانيون. الرسوم على سطح الخنجر هي لأفعى ذات رأسٍ بقرنين ولسانٍ يشبه الشوكة؛ وثور وتنين وعنقاء. هناك أيضًا التنين "سيرّوش"، الذي يمثِّل "مردوخ" الإله الراعي لبابل.

عَقِبَ مرور بضعة أيام، أدرك "فضولي" أنه يوشك على فتح أبواب حضارةٍ قديمة، وأحسّ بالخوف لجسامة هذا الفعل وتبعاته. بعد سبعة أيام، تمكّن من تحليل أحرف النص المسماري. كان بحاجةٍ إلى الاستعانة ببعض الكتب الموجودة في صندوقين مقفلين، فطلب إذنًا بفتحهما من أحد أغوات السلطان "القانوني". لجأ إلى رجلٍ قبطي، يجيد الكلدانية لمساعدته في فهم النصوص التي عثر عليها في أوراق بردي داخل الصندوقين. مَنَحَ الشيخ السبعيني بعضًا من نقوده القليلة. على ضوء الشمعة التي امتدّ ظلّ لهبها على الجدران المعتمة، قال المصري شبه الأصمّ:

. عاش الكلدانيون في بلاد ما بين النهرين، التي تطؤها أقدامنا الآن، منذ قرونٍ بعيدة. امتلكوا أكثر الحضارات تطورًا وتقدُّمًا في

t.me/qurssan

زمانـهم، وعلـى وجـه الأخـص فـي مـدنٍ مثـل "إربـل" و"نـينوى" و"كوثا" و"سيبار" و"أور". هم أول مَنْ طوَّروا النظريات الفلسفية، ووحـدات القيـاس، والهندسـة، والتقويم السـنوي. هم أيضًا من قسَموا الدائرة إلى 360 درجة.. وابتكروا نظامًا أبجديًا يتم فيه الربط بين أصواتٍ معينة وما يقابلها من رموزٍ وأشكال، ما جعلها أول حضـارةٍ مكتوبـةٍ علـى سطح الأرض. يعرف الجميع أن لهم إنجـازات مدهشـة فـي مجال العلوم، سبقوا بها عصرهم. أداروا ممالكهم وفق نظام قانوني وأدبي، وامتازت لغة المخاطبة بينهم بـالرقي؛ لكـن أعظـم إنجازاتـهم علـى الإطلاق هو الأبحاث التي أجروها في مجال الفلك.

كان هذا أكثر ما أثار فضول "محمد أفندي"، ولفت انتباهه.. فوفقًا لما قرأه القبطي عليه من أوراق البردي، فقد اعتقد الكلدانيون أنهم يعيشون في عالَمٍ يقع تحت القمر، وأن الأجرام السماوية السبعة التي تعلو القمر هي التي تتحكم في الطبيعة. ذكر الرجل المسن شيئًا عن عبادة الكلدانيين للنجوم، ثم قال موضحًا:

ـ كان معظم الملوك الوثنيين قديمًا يفعلون ذلك. من الطبيعي أن يتـأثروا بالنجوم بسبب لمعانها وبريقها الذي لا يضاهيه شيء. ربطـوا بـين منظرهـا شديد التميز الذي يوحـي بالسمو والجلال والبـهاء وفكـرة الربوبيـة. كلمـا اكتشفوا نجمًا، أو جرمًا سماويًا، أطلقوا عليه اسمًا وأضافوه إلى آلهتهم، وميزوه بلونٍ معين.

تحدث القبطي بحماس. كان قد مضى وقتٌ طويلٌ جدًا منذ أن قدَّم معلوماته الغزيرة لأحد. استطرد شارحًا نقطة الألوان:

ـ "ساماش"، أو الشمس، لونه ذهبي؛ بينما "سين"، أو القمر، لونه فضي. "نيبو"، أو عطارد، أزرق اللون. "عشتار"، أو كوكب الزهرة، أبـيض اللـون. "نيرجـال"، أو المـريخ، لونـه أحمـر. "مـردوخ"، أو المشتري، بنفسجي اللون، وأخيرًا.. "نينيب" أو زحل، أسود.

أنصت إليه "فضولي" بانتباهٍ بالغ، عادت أوراق البردي إلى هيئتها الملفوفـة، مـا إن رفـع الرجـل أصـابعه عنـها، لكـن صـدى صـوت القبطي، وهو يشرح المعلومات التي تحتويها، ظل يتردد على

t.me/qurssan

الجدران المعتمة للمكتبة. وفقًا للعلماء الكلدانيين، فإن تلك الآلهة حملت صفات حيوانات معينة، وخلال ارتحالها عبر السماء تمكث في الكواكب، وتغيِّر من طريقة حركتها ومواعيدها، لتتمكن من التواصل مع أولئك الذين يعيشون تحت القمر. بتلك الطريقة، تمكَّن الفلكيون من توقُّع ما سيحدث على الأرض؛ وفي معظم الأحيان اتصفت توقعاتهم بالدقة الشديدة. هذا ما يفسِّر السبب الذي جعل من الكهنة عرَّافين وعلماء في الوقت ذاته. إن طرد الشيطان، واصطياد الأسماك من دجلة أو الفرات، وصيد الأسود، وحرث الحقول، وممارسة الحب، ومواجهة الخصوم في الحرب.. كانت أمور يقومون بها باسم تلك الآلهة؛ ثم صنعوا تماثيل من الذهب الخالص، لتكون رموزًا وتجسيدًا لها داخل المعابد، وبدؤوا بإقامة شعائر يتضرعون لها من خلالها، طلبًا للمساعدة. في أيام الأعياد، يلبسونها أفخر الحرائر وأغلى الحُلِّي المزينة بالأحجار النفيسة، وكان ذلك في معتقداتهم أعظم شكلٍ للعبادة.

لكن أهم ما لفت انتباه "فضولي" في ترجمة القبطي للكتابات التي حملها له، هو ارتباط كل شيء بالرقم سبعة. كل شيءٍ موجود في الرقعة التي تقع تحت القمر، حيث يعيش الكلدانيون، له علاقة بهذا الرقم.. كالآلهة المختلفة التي تعيش أعلى القمر، وعدد السموات، وأجزاء الكون. في خُطَبهم ومواعظهم، تحدَّثوا دائمًا عن النبوءات السبع، التي ستتحقق كل واحدةٍ منها خلال الفترات السبع التي سيشهدها العالم مستقبلًا، والتي تمتدُ كل فترةٍ منها إلى عشرة آلاف سنة.

تأمَّل "فضولي" الرسم التوضيحي لمعبد بابل المدرج، على ورق البردي، ولاحظ أنه يتكون من سبعة طوابق.

لو كان يدري أن المكان الأصلي للخنجر الذي آل إليه هو ذلك المعبد، لما وقعت بقية الأحداث التالية، على الأرجح.

قال متفكرًا، بصوتٍ هامس:

- سبعة طوابق، لأنهم أرادوا إهداءه لآلهتهم.

t.me/qurssan

يستند المعبد العظيم إلى أعمدة الحكمة السبعة. في الطبقة السفلية، توجد سبعة تقسيمات متداخلة. حُفِر على آخرها مشهد التضحية بطفل. يبدو الولد في السابعة من عُمره. السكين على رقبته، وهو محاطٌ بسبعةٍ من الكهنة، يحمل كل واحدٍ منهم شمعدانًا، بسبعة أفرع. هناك سبعة أطباق، بها بعض الفِطر المنقط بسبع نقاط. إلى جانبها، سبع كؤوسٍ زجاجية، علّق "فضولي":

- يمكنني أن أؤكد أن النبيذ الذي بداخلها، عمره سبعة أعوام!

انطلقت ضحكات الرجل العجوز عند سماعه ذلك.

ضمت صفحةٌ أخرى خارطةً لبلاد بابل، التي تغذيها سبعة مجارٍ مائية متفرعة من نهر الفرات. الحقول مقسمة إلى سبع أراضٍ، تمتد بمحاذاة الأذرع السبع لإله الخير والرخاء "إينليل". في الصفحات التالية، شرحٌ لصيام الأيام السبعة خلال فصل الخريف، لتقديم الشكر للآلهة، وفيه يتم الإفطار على حساء مُعد من سبع حبوب؛ كما ضمَّت إحدى الصفحات معلومةً تفيد بأن القصور الملكية والمعابد كانت تضم سبعة أبواب.

أظهر رسمٌ آخر "يوخاريست"، كبير الكهنة، وهو يمد يديه المضمومتين إحداهما إلى الأخرى أمامه، وقد وقف أمامه أفرادٌ من الأسرة الحاكمة لتحيته. تجمَّع حوله عددٌ من الرهبان أيضًا، كان أحدهم يضم أصابعه بالطريقة المحفورة على الخنجر بالضبط. عكست ملابس الكهنة قدرًا كبيرًا من التفاصيل المعقدة، ما يشير إلى مدى تعقيد الشعائر والطقوس ذاتها.

لثلاثة أيامٍ متواصلة، واظب الرجلان على دراسة أوراق البردي المحفوظة داخل الصناديق الخشبية وتحليلها، دون أن يفصح الشاعر عمَّا يبحث عنه، ودون أن يسأله الرجل المسن عن الأمر.

حين وصلا إلى البردية الأخيرة، خشي "فضولي" أن يسمع رفيقه العجوز دقات قلبه المتسارعة، لكنّه تذكَّر أن الرجل -لحسن الحظ- يعاني الصمم. لقد أحسَّ أن محتويات هذه الورقة تتعلق بالخنجر وبالشيفرات المحفورة عليه.

t.me/qurssan

الـواقع أنـها تضـم معلومـات عـن "جمعيـة بـابل". تـولّى القبطي الترجمة والشرح. قال إن الجمعية تكونت من سبعة رهبان من المـهتمين بـالعلوم والأبحـاث الفلكيـة. أنشـؤوا مـركز لدراسـات الفضاء، حيث يمكنهم تدوين ملاحظاتهم وتسجيل حساباتهم. اكتشـفوا مـن خـلال المـركز أن الأرض كرويـة، وأنها تـدور حـول الشمس؛ لكنهم لم يستطيعوا الإفصاح عن هذه المعلومات لأحد، لأن "نيبين". المنتمي إلى الجيل الثالث من سلالة "نبوخذ نصر". كـان حـاكمًا طـاغيًا. خشـي العلمـاء أن تتسـبب اكتشـافاتهم فـي صـدمةٍ لـه، يكـون ثمنـها حياتـهم. افترضـوا عـدة نظريات رائدة، نتيجة ملاحظاتهم وأبحاثهم الدؤوبة. منها تساؤلهم عمّا إذا كان الكون يتألف من مجرّات، وعمّا إذا كان بالإمكان الانتقال بينها عبر الثقـوب السـوداء، فـي حالـة توافـر السرعة المناسبة والظروف الملائمـة. فـكّروا أيـضًا فـي التواصـل مـع العـوالم الأخـرى، وفـي البحـث مسـتقبلًا عـن كـائنات ذكيـة خـارج الأرض. تخـوّفوا، في الوقت ذاته، من سيطرة كائنات المجرّات الأخرى على الأرض، ووضـعوا خطـطًا لحمايـة أنفسـهم والنـاس مـن أولئـك الـغزاة المحتملين.

دوّنـوا معلوماتـهم، بطريقـةٍ مشـفرة، علـى سبعة أقراصٍ طينيـة؛ لكنهم لم يتخيّلوا أن واحدًا منهم هو الذي سيُقدِم على خيانة الآخـرين، ويكشـف عـن مخطوطاتهم المخبأة فـي سرداب معبد "عشتار". لم يلتزم الخائن بالأخلاقيات العلمية التي تحتّم عليه التكـتُّم، بـل أعلـن عـمّا تـوصّلوا إليـه ووصـفها بـالبِدَع والأمـور المستحدثة، غير المقبولة.

أفصح هذا الشخص للقائد "نيبون" عن نتائج أبحاث زملائه، ولفت انتباهـه إلـى أن مـا يـدّعونه يتعارض مع التعاليم المتوارثـة عـن "نبوخذ نصر"؛ كما حذّره من أن تلك الدراسات التي يقومون بها، ستؤدي إلى تضليل الناس، وستنتهي المسألة بأن يثور الشّعبُ ضدّه.

مع حلـول الصباح، كـانت رؤوس خمسـةٍ مـن الرهبان تقبع فـي أعماق آبار المرصد. عند الظهيرة، دُفنت أجسادهم؛ لكن أحدًا لم

t.me/qurssan

يمس أجهزتهم وآلاتهم، وبقيت كما هي.

"آرشِيا آكيلدان"، أحد الرهبان السبعة، كان خارج المدينة حين وقعت كل تلك الأحداث. لحق به خادمه، قبيل رجوعه من زيارة أمه المريضة، ليحذِّره من العودة. قصَّ عليه - وسط لهاثه وأنفاسه المتقطعة - ما حدث لبقية الرهبان. شعر "آكيلدان" بالرعب، وقرر أن يختفي عن الأعين نحو أسبوع، وبعدها يحاول إنقاذ النتائج المهمة التي خلصت إليها "جمعية بابل".

لكن "نيبين" عمد إلى اتهام العالِم الغائب بسرقة التماثيل الذهبية للآلهة من خزانة الملك، ممَّا أثار حفيظة الشعب وغضبه ضد الراهب.

اختبأ "آكيلدان" في كرم عنب. كان يقتات على الفاكهة المجففة والمكسرات، ويُمضي وقته في وضع خطط تساعده على الخروج من المأزق الذي وجد نفسه فيه. في الوقت المناسب، تسلل إلى المدينة ليلًا، وهو متنكر، وخرج منها مسرعًا حاملًا معه أجهزة ومعدات المرصد، والتماثيل الذهبية للآلهة، والأقراص السبعة التي تبين مواقع النجوم والكواكب، ونتائج الأبحاث الفلكية الطويلة التي قام بها مع رفاقه. توجَّه بتلك الأشياء إلى معبد "عشتار" في المعبد المدرج ببابل. هناك، أقفلَ الباب الرخامي من الداخل، ودفن نفسه مع أسرار "جمعية بابل"، لتستفيد منها الأجيال التالية. كوصيةٍ أخيرة، أعطى الراهب خادمه خنجرًا له رأس "سيروش"، الكائن الخرافي الذي يجمع بين التنين والثعبان، طالبًا منه تسليمه إلى أشخاصٍ طيبين ذوي ميولٍ ومهاراتٍ علمية، وذلك حتى يتمكن الأفراد المناسبون من استكمال عمله وأبحاثه مستقبلًا؛ على أن يتم تمويلهم والدفع لهم من تماثيل الآلهة والكنوز المصاحبة لها.

أعلن القبطي العجوز أن الكتابة تنتهي عند هذه النقطة، ولكن هناك ملاحظات سريعة مكتوبة باللغة العربية. تضاعَفَ إحساس "فضولي" بالإثارة والحماسة، وخمَّن أنها ملاحظاتٌ كتبها أمين المكتبة الأعمى، باللغة البهلوية، أو الفارسية الوسطى؛ التي لا

t.me/qurssan

يعرفها الرجل المصري، ولا يستطيع تمييزها.

تمتم "فضولي"، متذكرًا الشيخ الراحل:

. رحمه الله وغفر له مهما تكن ديانته.

تفحَّص الملاحظات، فوجد أنها تشير إلى معبد "عشتار"، والكتابات المشفرة الموجودة على بوَّابته. وجد "فضولي" أيضًا رسومات تُماثِل تلك المحفورة على مقبض الخنجر، أبرزَ فيها شارة اليد التي تلتصق فيها السبابة بالوسطى، والخنصر بالبنصر. من الواضح أن هناك من دَرَس تفاصيل الخنجر، عقب وفاة "آكيلدان"، وسجل ما رآه على أوراق البردي. قرأ "فضولي" ملاحظات تتعلق بنظام غلق باب القبو وفتحه، عن مفاتيحٍ محفورة في قطعة رخام تشبه رقعة الشطرنج، يتم الضغط عليها وفق شفرة تتكون من حرفٍ أبجدي، متبوعٍ برقم؛ وحسب الجملة الأخيرة، فإن الراهب "آكيلدان" شَرَحَ كل شيء لخادمه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، قبل أن يستسلم للنوم الأبدي، داخل معبد "عشتار"؛ ولكي يخلّد اسمه، جعل الحروف المحفورة على مقبض الخنجر، كالتالي: آ . ك . ل . ي . د . ا . ن، أما الأرقام المكتوبة على حزامه، فهي 0 . 2 . 3 . 3 . 0 . 0 . 6.

تعرَّف "محمد فضولي الحِلِّي" من فوره تلك الحروف والأرقام. إنها الأرقام نفسها الموجودة على الخنجر الذي دَفَنَه تحت شجرة التوت، في المدرسة؛ لكنه لم يفهم كيفية الاستفادة من تلك الشفرة أو طريقة استخدامها بالضبط في معبد "عشتار"، الذي يجهل موقعه من الأساس.

الشفرة التي لم يفهمها "فضولي"، ولن يستوعب أبدًا طريقة عملها، بسيطةٌ جدًّا في واقع الأمر. لو أنه كان ملمًّا بحياة البحارة والملاحين، لفهمها بسهولة. في مجتمعاتهم السرية، اعتاد البحَّارة قديمًا الكتابة فوق الجوانب الداخلية لبعض الأحزمة الجلدية، ثم يضعونها حول براميل معينة، تحوي ما يريدون تهريبه، للتَّيقن أن طولها يتوافق مع محيط البرميل. ينزعونها بعد ذلك، ويلبسونها فوق ثيابهم. عند وصولهم إلى موانئهم، يسلمون الأحزمة إلى

t.me/qurssan

أصحابها الجدد، الذين يصعدون على ظهر السفينة، ويقيسون الأحزمة حول البراميل، فيعرفون على الفور أيها يخصهم، وتكون الأحرف المكتوبة على أسطحها مكملةً لما هو منقوش على السطح الداخلي للأحزمة. في هذه الحالة، استخدم "آرشِيا آكيلدن" رأس الخنجر عوضًا عن البراميل. حفر حروفًا أبجدية بترتيبٍ معين على المقبض، تاركًا مساحاتٍ فارغة حلزونية الشكل بين كل حرفين، وكتب الأرقام التي ينبغي أن تكون بينها على الحزام الجلدي. عند لفه حول تلك الفراغات، بطريقةٍ صحيحة، تكون الشفرة الكاملة هي: آ. 6. ك. 0. ي. 0. ل. 3. د. 3. ا. 2. ن. 0. ينبغي الضغط على المواقع البارزة في قطعة الرخام التي تعلو بوابة المعبد، بالترتيب نفسه. لا فائدة للخنجر دون الحزام، والعكس صحيح. خاف "آكليدان" من أن تكون الشفرة سهلة الحل، ولذلك تعمد أن يضيف إليها أرقامًا تزيد من تعقيدها، حيث قام بوضع رقمٍ واحدٍ بين كل حرفين، وبهذا خلقَ شفرةً أكثر تعقيدًا. وهكذا، أظهرت تلك الأرقام عدد المرات التي تحتاج إليها الحروف، التي يتكون منها اسم "آكليدان" المكتوب بالطريقة المسمارية البابلية، إلى الضغط. كل هذا من أجل إكمال الشفرة وفق ترتيب الحروف أو الأرقام، مثلًا: الحرف السادس بعد آ، ثم ك، ثم ي، ثم يضع الحرف الثالث الذي يتبع ل، فتصبح هكذا: آ - ك - ي - ن.. وهكذا.

لم يكتفِ خادم "آكليدان" الوفي، بالحفاظ على أسراره، بل أسَّسَ جمعيةً سريةً جديدة، تتكون من سبعة أعضاء، كامتداد للجمعية العلمية التي كان سيده أحد أبرز أركانها. ربما واصل الخادم رحلة سيده في الأبحاث الفلكية، أو لعله كان من ضمن حاشية الملك مثلًا.. لا توجد معلومات مكتوبة عنه؛ لكن الأمر الثابت والمعروف أن من شروط إقامة هذه الجمعيات هو ألا يتجاوز عدد أعضائها سبعةً بأي حالٍ من الأحوال. ضمَّت هذه الجمعيات، على امتداد الأزمان، أعضاءً مختلفين ومتنوعي الاهتمامات والوظائف.. رجال دولة، وعلماء، وباحثين عن الشهرة.. يكشفون أسرار من سبقهم من العلماء، وآخرين ممن يستعبدهم الطموح والسعي إلى النفوذ، وغيرهم ممن يحركون الأحداث السياسية الدولية، إلى

t.me/qurssan

جانب الطامعين والهواة والمغامرين.

أيًّا كانت الظروف، فإن "مردوخ"، السيد العظيم، ورئيس جمعية السبعة أعضاء، هو الوحيد الذي يحق له امتلاك الخنجر، لكنه ـ في الوقت ذاته ـ لا يمتلك حرية تفكيكه، أو كشف الأسرار المتعلقة به لأحد. من التحذيرات المتوارثة للجمعية، إن مَن يُفكِّكُ الخِنجر ويلفُّ الحزام حول مقبضه، يتعرض لغضبٍ شديدٍ من الآلهة، ويموت كالكلب المصاب بالسعار.

واصل "فضولي" القراءة..

يلتقي أفراد الجمعية، في سريةٍ تامة، كل سبع سنوات، لتقييم الأوضاع العلمية، ومناقشة ما إذا كان الوقت ملائمًا للكشف عن أسرار الباحثين الكلدانيين. عند اكتمال القمر للمرة السابعة في العام، يرسل "مردوخ" تحياته لأعضاء الجمعية، عن طريق سبع حماماتٍ من الحمام الزاجل. إن مات أحد الأعضاء، يتم إعلام "مردوخ" قبل ضم شخصيةٍ جديدةٍ للجمعية.

فكَّر "فضولي" في المسألة.

ـ في الاجتماع الأخير، لاحظ الآشوري، كما يبدو، أن شخصيات الأعضاء آخذة في التغيُّر، وأنهم باتوا يفضِّلون المال والثروة على العلم؛ وإلا.. فما الذي يدعوه للانتحار وإنهاء حياته؟

سرعان ما تأكدت ظنونه، فقد لمح بعدها ملاحظةً يذكر فيها الشيخ أن طالب علمٍ بربري، وتاجرًا نمساويًا، ركزا في حديثهما على أمور التمويل، بدلًا من البحث العلمي. المال في نظرهما أهم من الحقائق.

قال "فضولي" لنفسه:

ـ لهذا السبب إذًا فضّل أمين المكتبة أن يترك الخنجر معي، بدلًا من أن يعطيه لأيٍّ منهما.

حين عاد "محمد الحِلِّي" إلى حجرته في المدرسة، استغرق في تفكيرٍ عميق، وصارت الأمور أكثر وضوحًا. أمضى ليلته ساهرًا،

t.me/qurssan

وتوصل في نهاية الأمر إلى أن أعضاء "جمعية بابل" الأولى تعمدوا عدم ترك أي دليل على وجود الحزام المخبّأ داخل الخنجر؛ فإن كان من سيُفكِّك الخنجر مهتمًا بالمال والثروة، فإنه لن يهتم بالشريط الجلدي على الإطلاق.. ما يعني أن الوثائق العلمية ـ التي تعد أغلى من الذهب والزمرد بالنسبة لهم ـ ستبقى في مأمنٍ من العبث. أما إن كان هدف من سيفكك الخنجر هو السعي وراء العلم والمعرفة، فإنه سيكون بحاجةٍ إلى شفرة ليتمكن من قراءة الحروف على مقبض الخنجر، وسوف يجدها بكل تأكيد. كاختبارٍ إضافي لأولئك الذين سيحلُّون الشفرة، سواء كان هدفهم هو الثروة أو المعرفة ـ ابتكر الأعضاء المؤسسون للجمعية الأولى مستوى ثانيًا من الشيفرات السرية.

في أي زمن، وفي أي عصر، لا يتجاوز عدد من يصنعون التاريخ سبعةً أبدًا.. تمامًا كأعضاء "جمعية بابل". لا حاجة لعددٍ أكبر، فالعالم يعتبر صغيرًا حتى بالنسبة لسبعة أشخاص.

t.me/qurssan

3 كنتُ ثمرة فراولة على ضفاف "دجلة" ثم عدتُ للحياة وأصبحتُ المجنون

نشأتُ كثمرة فراولة على الضفاف الرطبة لنهر "دجلة". دُمّرت حدائق وكروم مزارعي المناطق الواقعة على تخوم الصحراء خلال الفيضان الأخير؛ لكنني لم أتعرض لسوء، وإن تأخرتُ قليلًا في التحول للون الأخضر.. لكنني اكتسبتُ اللون الأحمر بسرعة، بفضل أشعة الشمس القوية. في أحد الأيام، اقتربت مني فتاةٌ عربيةٌ بعينين سوداوين، وحاجبين متناسقين، ومدت أناملها الرقيقة نحوي، ثم قامت بقطفي، ووضعي داخل سلّتها. أخذتْ معي ساقي وورقتي. تمنيتُ أن ألامس شفتيها الحمراوين؛ لكنها ما إن قرّبتني من فمها، حتى أعادتني إلى سلّتها مرة أخرى.. لم يكن الأمر ممكنًا.. كان مستحيلًا.. تركتني محطمًا.. يائسًا.

اسمها "ليلى". رمت بي داخل مرجلٍ كبير، دون أدنى شعورٍ بالرحمة. انسابت قطراتٌ حلوةٌ مني، وامتزجت مع عصارات سعف النخيل والأشواك داخل الإناء الموضوع على النار. بدأتُ أتفتَّت. احترقتُ بالسوائل المغلية، برفقة بلحة خضراء غير ناضجة؛ لكن لم يكن في وجودها معي عزاءٌ لي. كل ما أردته هو هاتان الشفتان الشهيتان، لكنني لم أنل إلا وخزاتٍ مؤلمة في

t.me/qurssan

قلبي، هاجمتني بها الأشواك.

هل كنتُ أحترق بفعل النار، أم وهج الغرام؟ لا أدري، حقيقةً.

صبتني الفتاة بالغة الجمال مع كل من كان معي داخل المرجل في إناءٍ متسع، وجعلت الأطفال يدوسوننا بأقدامهم. في أول تكويني، ساعد الماء في إنباتي.. ثم ساهم ضوء القمر في منحي لونًا جذابًا، وهأنا الآن أتعرض لأشعة الشمس الحارقة كي تجففني، شاعرًا بجرحٍ أليم في روحي. تمازجت أنسجتي مع أنسجة البلحة.. تقاسمنا مصيرًا واحدًا بين حجري رخام يضغطان علينا من الجانبين. تم نسجنا، في نهاية الأمر مع الأشواك. وفيما كنت أفقد لوني، شيئًا فشيئًا، لم أستطع لوم أحدٍ على ما وصلتُ إليه.. ولا حتى الأشواك التي كانت تخترق روحي.

احتاج الأمر بضعة أيام، حتى تعافت جروحي، وبدأت الدمامل . التي خلَّفتها السوائل المغلية . في الجفاف. طافت يدا "ليلى" على سطحي، كما يربت الطبيب الحنون على رؤوس مرضاه. في ذلك اليوم تحديدًا، أحببتُ "ليلى". تلألأت أشعة الشمس على سطح مياه "دجلة"، فحولَت كل شيء إلى اللون الأحمر. تذوقتُ متعة الحب، عندما طافت بأطراف أصابعها عليَّ. سبق لها حرماني من لمس شفتيها، لكنها تعوضني الآن بلمسات أناملها المخضبة بالحناء. كقلوب أعظم العُشَّاق في التاريخ، شعرتُ بنبضاتٍ قوية فور ملامستها لي. كانت تحولني إلى ورق مخطوطات، دون أن تدرك المشاعر المجنونة التي تولدها فيَّ.

تخلف عن عناقي مع البلحة الخضراء داخل المرجل شيء يشبه إكسير الحياة أخذ يتغلغل بداخلي. ما الذي يحدث لي؟ هل أنا موشك على الموت، أم أنني أعودُ للحياة؟ لم أعد أعرف. أنا على مفترق طرق الوجود.

تمنيتُ أن تظل يدا "ليلى" ممسكتين بي، وألا تفلتاني أبدًا. تولدت بداخلي مشاعرُ عظيمة، تجعلني أتحمل أي عذاب، في سبيل أن أنعم بدفء يديها ومتعة صحبتها.

t.me/qurssan

بدأتُ أصبح شيئًا.. لكنني لا أدري ما يكون. كنتُ أشبه ما هو أقربُ إلى خلايا حية، فشلت في استكمال تطورها؛ أو كمولود وُلِد قبل أوانه.. ومع ذلك، كنتُ أنمو بسرعةٍ فائقة. مربيتي الأولى، هي ذاتها حبي الأول.. "ليلى". إنها دليلي في الحياة. ليتكم استمعتم إلى غنائها في الليالي الصحراوية التي تُرَصِّعها النجوم. لأنفاسها صوت الريح، وبالنسبة لي فإن تلك الأنفاس هي الحياة بأكملها.

الليالي الرطبة، التي تعقب الأيام القائظة شديدة الحرارة، تشعرني بالانتشاء. لا أتذكر التفاصيل بالضبط، لكنني أذكر أن الناس باتوا يشيرون إليّ بـ"الورقة". ويتناقشون في مسألة بيعي وشرائي، ضمن لفائف أخرى من الورق. لم يهمني ذلك، وكل ما شغل تفكيري حينها هو معرفة اسم ذلك الشعور الذي يجتاحني فور لمس "ليلى" لي. مرت الأيام، وتلك الأحاسيس الجديدة التي بدأتُ في التعرف إليها في التَّوِّ، تغلف قلبي كطبقةٍ من الضباب. صرتُ أشعر بنوعٍ من الاكتمال، يزيد عند استماعي إلى الأغاني الهامسة في أعماق الصحراء، خلال الليالي الدافئة والتي تتسلل إلى داخل الكوخ الطيني الصغير، عبر نافذة "ليلى". كلما سمعت "ليلى" أجراس القوافل البعيدة، ممتزجةً بأصوات الجراد التي تكسر صمت الصحراء، انسابت دموعها بغزارة. عندها شعرتُ أنا أيضًا بالرغبة في البكاء، وبكراهيةٍ بالغة تجاه قسوة الصحراء التي تبقيها في حالة تيقظ وانتباه لأي صوتٍ مهما يكن خافتًا؛ أصواتٌ تجعلها تعلق بصرها تجاه الأفق.

t.me/qurssan

في كل يوم، يتزايد عدد اللفائف الورقية فوق الرفّ، ويتزايد الحزن والأسى في صوتها. خُيِّل إليَّ أنني أفهم المغامرات التي تحكيها القصائد التي ترددها. في تلك الأيام، لم يكن بمقدوري أن أصرّح بأنني أفهم. أفهم وأعرف.. ولكنني لا أستطيع البوح بذلك. كان بودّي أن أُعْلِمَها بذلك، لكن المسألة كانت مستحيلة. "ليلى" لم تلاحظ وجودي أصلًا. في عينيها كنتُ مجرد ورقة.

تساءلتُ إن كانت بقية اللفائف تفهم كل شيءٍ مثلي.. وإن كانت تشعر بآلام "ليلى".

عرفتُ لاحقًا أن ما مررتُ به في تلك الفترة، يُدعى "روح الأشياء". من المتعارف عليه في الثقافة الشرقية أن ملاحظة الأشياء والأحداث يؤدي للوصول إلى الحقيقة والواقع؛ ووفقًا لذلك، فإن لكل شيءٍ في الوجود روحًا وحياة، تمامًا مثل الإنسان والحيوان والنبات، بل حتى الجماد. لكل شيءٍ حولنا حياةٌ معينة. الأرض كيانٌ متكامل.. تعيش وتسمح لبقية المخلوقات بالحياة عليها. هناك حياةٌ في التراب والماء والنار والهواء.. العناصر المكونة للحياة نفسها. أنا ابنُ التراب والماء، تعرضت للنار، وتغذيتُ على نسمات الهواء المنعشة؛ كأنما امتزج وجودي بالمعرفة. أنا أعرف. أنا أعرف جيدًا أنني أعرف. أعرف، وأشعر، وأحمل في داخلي العديد من الأشياء.. "ليلى" والصحراء ونهر "دجلة" وأجراس القوافل والأشواك الصحراوية وسعف النخيل، وزئير الأسود ونهيق الحمير.

في ذلك اليوم، فاض الرف بلفائف الأوراق. سحبتني "ليلى" من بينها، وفردتني فوق ركبتيها. أحضرتْ غُصنًا متفحمًا من الموقد، وكتبت على سطحي "قيس". كررت ذلك عدة مرات.. "قيس". خطّت بعدها:

"حبيبي..

لطالما أخرجنا الأغنام إلى المرعى معًا. يا لجمال تلك الأيام! لكن فصل الربيع جاء وولى مراتٍ عديدة، واجتمع شمل جميع العشاق والأحبة، عدانا. أنت وحدك الذى لم تعد. لقد هطلت الأمطار للمرة

t.me/qurssan

الثامنة على الوديان. وعدتني أن تأتي مع المطر الأول، لكنكَ أخلفتَ وعدك. ليتنا لم نكبر يا "قيس".. لا نحن ولا الجِملان. يا لغدرك وعدم وفائك!"

رفعتني إلى شفتيها، وطبعت قبلتها على الموضع الذي كتبت فيه اسمه. كاد قلبي يتوقف. رفعتني باتجاه النافذة الممتلئة بنور الشمس، وأعلنت:

. سوف أطلق عليكِ اسم "قيس"، أيتها الورقة!

قبّلتني مرة أخرى. هذه المرة، فوق قلبي بالضبط. طال انتشائي بملمس شفتيها، ورافقني ذلك الشعور حتى الليل. لقد اخترقت قبلاتها أعماقي.. لم أشأ أن أحمل اسم "قيس" فقط، بل طمعت في أن أكون "قيس" نفسه. أردتها ألا تتوقف عن ترديد اسمي، وألا تكفَّ عن تقبيلي.

استمتعت بدفئها حتى الصباح. احتضنتني، ووضعتني فوق صدرها، عند خلودها للنوم. كانت ليلةً عظيمة! عند طلوع النهار، شعرتُ بطعم شفتيها وأنفاسها على سطحي. تلك هي الليلة الوحيدة التي بقيت فيها دون حراك بين يديها وقلبها.

لقد بادلتني حبًا بحبٍّ. أحسستُ بذلك من لمساتها الحانية التي بقيت معنا عقب أحلامنا الليلية المشتركة. محت اسمي بدمعتين من عينيها، خوفًا من أن يراه والدها. تحولت الحروف إلى بقعٍ غائمة، بلون الدخان.. ق.. ي.. س.. لم تعد تشكل اسمًا مترابطًا.. بل مجرد حروفٍ متفرقة، ومطموسة.

ماذا عن الاسم الذي كتبته بالفحم؟ صار كعلامةٍ سرّية، غير مرئية، لكنني أحببته. لقد أصبح اسمي منذ الآن. أقسمتُ أن أحمل اسم "قيس" ومصيره معًا، فقد اقتحمت مشاعر الحب المجنونة قلبي.

عند الفجر، مرت قافلةٌ بالقرب من الكوخ الذي أمضيت فيه تلك الليلة الرائعة. كانت لتجارٍ في طريقهم من الحجاز إلى بغداد. اعتادوا القدوم سنويًا، لشراء لفائف الأوراق السميكة التي

t.me/qurssan

اشتهرت بها المنطقة.

تناولت "ليلى" اللفائف، الواحدة تلو الأخرى، تفردها جيدًا، وتعيد لفَّها. حين وصلت إليَّ، قبَّلتني في الموضع الذي كانت قد كتبت عليه اسمي. بللتني بدموعها، وهمست بحرقة:

. أيها الحبيب الذي أهديه عُمري وحياتي.. أتمنى أن تصلك هذه الورقة، وأن تفهم حين تلمح اسمك مدى حبي العظيم لك.

قبل أن تعيد لفي، دسّت بداخلي ثلاث خصلاتٍ طويلة من شعرها، وحفنةً صغيرةً من حبة البركة، وبعض أوراق اللوتس. خبأتها بعناية، خوفًا من أن يكتشف والدها وجودها. وكأنما كانت تدرك أنني أفهم ما يدور حولي، همست لي:

. لا تنسَ أبدًا أنني أحبك.

ثم قبلتني للمرة الأخيرة، تاركةً معي شيئًا من شذاها. وضعتني وسط بقية اللفائف الورقية، دون أن تنتبه إلى صراخي وآلامي. كان ذلك أول الأحزان في رحلتي. غادرتُ وأنا أحمل بداخلي خليطًا من الحب والحنين والأشواق.

الفراق الأول، والأحزان الأولى.. تُرى، هل سأعود ثانيةً؟ لماذا لم ترفع "ليلى" الفراولة إلى شفتيها، بدلًا من أن تقذف بي داخل المرجل؟ تقبلت فكرة بيعي، حتى ولو لم أعرف مَن الذي سيشتريني، ولأي سببٍ سيبتاعني. ربما سأتنقل من يدٍ إلى يد. ربما سأتحول إلى صفحاتٍ في كتاب. هل سأشعر بلمسات حبيبتي، مرةً ثانية؟ حبيبتي.. التي حلمتُ بها ليلًا ونهارًا. أي جزء مني، سيصبح أي كتاب، يا ترى؟ سأتحول إلى رزمة أوراق، بلا شك، ولكن ما الذي سيُكتَب عليَّ؟ لم أكن أعلم، لكنني كنت على كامل الاستعداد لتلقي خدوش سن ريشة الكتابة على سطحي وجروحها.. كنت في انتظار قسوة الخطَّاطين وهم يحفرون كلماتهم فيَّ، دون اهتمامٍ بألمي. ربما رسم عليَّ أحدهم رسومًا غير لائقة.. أو ربما دوّن آخر شيئًا من الأساطير. من يدري؟ ربما ستزينني أبيات قصائد الحب.. وفق ما سمعته من حوار قائد

t.me/qurssan

القافلة مع صديقه، فإن الناس في بغداد يستخدمون هذه النوعية من الورق، في أغلب الأحيان، لتسجيل النصوص المقدسة. هل سأجد في بعضها عزاءً لي من أحزاني؟

عندما تم بيعي إلى التاجر القادم من "الحِلّة"، لم أُستَشَرْ في تلك الصفقة، رُغم أنني الركن الأساسي فيها.. أما البائع والمشتري فينتميان إلى عالمين مختلفين تمامًا. هذا هو قدري. من يهتم بما أريده أنا؟ خلال رحلتي على ظهر البغل المتجه إلى مدينة "الحِلّة"، تمنيتُ أن أختفي وأتلاشى. وددتُ أن أنادي الأسود الجائعة التي تتربص بالدواب على الطريق، كي تقضي على البغل. كرهتُ التاجر وكل ما معه.. السيف المعلق بحزامه، والقوس التي يتشبث بها، وحتى الكلب الذي رافقنا خلال سيرنا.. كانوا جميعًا أعدائي.

حين وصلنا إلى إحدى الواحات، تمنيتُ أن تلدغ التاجر أفعى أو عقرب. كم رغبت في البقاء في أراضي "ليلى"! لكن قدري هو الجمود.. بإمكاني أن أتمنى وأحلم، ولكن القدر يمنعني من الحركة وتنفيذ ما أحب. أدركتُ في تلك اللحظة أنني سأبقى على الدوام تحت رحمة الآخرين وقراراتهم. لن يسمع صرخاتي أحد، ولن يهتم أحد بمعرفة ما أريد. الوجود عبءٌ ثقيل. سوف يتخذ غيري قراراتٍ تخصني، بالنيابة عني، دون أدنى اهتمام بأحاسيسي، وعليَّ دائمًا التزام الطاعة.

قد أُباع بثمنٍ باهظ.. وقد أظلُّ في حوزة وخدمة أشخاصٍ على قدرٍ عالٍ من الأهمية من حيث المكانة الاجتماعية أو العلمية، ولكن أهميتي أنا وشهرتي ستنحصر فيما سيكتبونه على سطحي.. لقد أصبحتُ عبدًا. رحت أردد هذه الحقيقة على نفسي، طوال الطريق. أخيرًا، قلتُ لنفسي مواسيًا:

- يجبُ عليَّ أن أكون في خدمة أفاضل الناس، وأن أحرص على البقاء في رحاب الجَمال.

أنا، "قيس"، عاشق زهرة اللوتس النادرة في الصحراء، دعوتُ الله بإخلاصٍ وحرارة، ليل نهار، أن يُكتَب عليَّ اسم "ليلى".

t.me/qurssan

4 حبي الأول، وأحزاني الأولى الحب ابتلائي ودوائي.. "ليلى"

لديّ طاقةُ حب، أكبر مما يمتلكها مجنون "ليلى".

أنا صاحب العشق الحقيقي، وهو صاحب الصيت والشهرة.

"فضولي"

في طريق عودة "فضولي" إلى "الحِلّة"، قادمًا من بغداد، صاحبته مشاعر السعادة والحماسة التي رافقت لقاءه بأدباء الأناضول. تزايدت سعادته حين تذكَّر القطع الفضية التسع التي سيحصل عليها، لقاء القصيدة التي سيكتبها في مدح السلطان. تعاظَمَ شعوره بالشوق الجارف لأسرته التي غادرها منذ ثلاثة أشهر؛ لكن المعلومات التي عرفها مؤخرًا عن "جمعية بابل" شغلت تفكيره وقللت من بهجته بعض الشيء. ذكّر نفسه أنه بات - على الأقل - يفهم الكتابات الغامضة على الشريط الجلدي، الذي بطّن به حزام زمزمية الماء الخاصة به. قال لنفسه إن القطع النقدية الفضية ستُحدِثُ انفراجةً في حياته، وستعينه على التفرغ للعلم والأدب، كما كان يشتهي؛ وستمنحه الوقت والفرصة للتأليف باللغة التركية، بدلًا من الاكتفاء بكتابة أعماله باللغتين العربية والفارسية.

تزايدت أعداد زواره في غرفته بالمدرسة ببغداد، في الفترة الأخيرة، ما جعله يخشى المخاطر التي قد تترتب على ذلك. كيف يمكنه شرح المسألة لرجال السلطان إن رغبوا في معرفة حقيقة الأمر؟ ماذا لو كان أحدهم - أصلًا - عضوًا سريًا في "جمعية بابل"؟! هو الذي جلب على نفسه لعنة الخنجر. قرر أن يتظاهر بالجهل، وأن يتخلى عن الخنجر إن اضطرته الظروف لذلك.

تساءل إن عثر أحدٌ من العلماء أو اللصوص على الخنجر المدفون. لقد زاره عددٌ من الرسل، حاملين معهم تهديدات صريحة ومبطنة، دون أن يأتي أي منهم على ذِكر الجزء المخبأ

t.me/qurssan

من الخنجر، ولا حزامه الجلدي.

في أيامه الأخيرة في بغداد، قرر "فضولي" زيارة قبر أمين المكتبة الراحل. هناك، تفاجأ بوجود تابوتٍ حجري من الرخام الثمين. يبدو أن الشيخ الآشوري جهَّزه قبل وفاته، وأن أحدًا من معارفه سارع بوضعه في مكانه. في بداية الأمر، لم يعرف "فضولي" بمَ يدعو للرجل المتوفَّى. تأمَّل الرسوم المحفورة على الرخام، وأمعن النَّظر في شاهد القبر وجوانب التابوت.. رأى رأس "سيروش"، تمامًا مثل ذلك المحفور على مقبض الخنجر. وجد نفسه يتمتم:

- سوف أصون سرّك يا صديقي. رحمك الله وغفر لك، وفقًا لديانتك.

حين عاد إلى حجرته، أخذ يحفظ الحروف الكلدانية المكتوبة على الحزام الداخلي للزمزمية، بما يماثلها من حروفٍ في اللغة التركية، تنفيذًا لوعده لأمين المكتبة الراحل.

نسي "فضولي" كل تلك الأمور، بعد مضي ثلاثة أشهر على استقراره في مدينة "الحِلّة" وسط أسرته. لم يعد يتذكر مغامراته في بغداد، على الإطلاق، كأنما مُحيت من ذاكرته. لأول مرةٍ في حياته، أوصى "فضولي" أحد تجار "الحِلّة" بإحضار بعض الورق الفاخر من بغداد، إضافة إلى رقعٍ للكتابة من جلد البقر الأوروبي، مقابل نعجتين. لم يسبق له التعامل مع هذه النوعية من الأوراق من قبل، بسبب قلة نقوده؛ لكنه قرر أن يستخدمها الآن لتدوين الحكاية التي شجَّعه "خيالي بيك" على كتابتها وإعادة إحيائها، في تلك الليلة الساحرة التي التقاه خلالها في القصر، مع شعراء إسطنبول.

بدأ يشعر كما لو أنه طالبٌ يستعد للامتحان. استعاد كلمات "خيالي بيك":

- ليتك تكتب لنا بالتركية قصة "ليلى"، ابنة الصحراء، وحبيبها المجنون "قيس".

لقد أظهر له ثقته الكبيرة فيه كونه شاعرًا موهوبًا، وكال له

t.me/qurssan

المديح والإطراء، لكن "فضولي" تخوَّف من جسامة المهمة. صار يمضي وقته متفكرًا في صياغاتٍ متنوعةٍ للقصة المعروفة. أخذ يبحث عن نسخٍ مختلفة لحكاية "قيس" و"ليلى"، مما كتبه الشعراء الفُرس والأتراك؛ ورغم عدم حبه لبعضهم، فقد أعاد قراءة أعمالهم المرة تلو الأخرى. لكل واحدٍ منهم أسلوبٌ مختلف.. قدَّم بعضهم تصورًا مختصرًا للأحداث، مع الإسهاب المفرط في الوصف؛ بينما عمد البعض الآخر إلى الاكتفاء بذِكر القصة دون الاهتمام بتفاصيلها. اتخذ بعض الشعراء منحًى نثريًا، بينما التزم غيرهم بالشِّعر الخالص والأبيات الموزونة.

خلص "فضولي"، عقب اطلاعه على كل تلك المؤلفات، إلى أهمية الأسلوب الأدبي لأي عمل.

- عليَ ألا أسرد الأحداث، أو أهتم بالوصف.. سوف أتناول الحكاية من منظور الحب وحده. الحب فقط.

عندما وصله الورق، كان قد انتهى من أبحاثه ومقارناته لأعمال الشعراء المختلفين، وأصبح مستعدًّا لتنفيذ مهمته. في البداية، أعدَّ نوعًا معينًا من النشا، يدعى "آهار".. حيث مَزَجَ بياض البيض مع نشا الذرة. فردَ لفائف الورق وثبَّتها من الأطراف بأثقالٍ رخامية داخل غرفته التي تخلو من النوافذ، في منزله الطيني ذي السقف المنخفض. بعدها، فردَ النشا الغليظ القوام على الورق، مستخدمًا قطعةً من الإسفنج. فعل ذلك ببطء، وبشكلٍ متدرج. كرر ذلك مرتين، على جانبيَ الورقة، وتركها لتجف بعد أن وضع صخورًا ثقيلة فوقها. أحضر أحجارًا أسطوانية الشكل، لكي يصقل بها سطح الأوراق، دون أن يدرك - بطبيعة الحال - مدى الألم الذي أحست به الورقة. جمال تلك الصفحات لن يظهر دون جمع الكتابة بالمعاناة.

أخرج "فضولي" ورقةً أخرى، وفتحها ليبدأ في تجهيزها كسابقتها. لكنه ما إن فعل ذلك، حتى رجع بخطواته إلى الوراء في ذهول، وهو ينظر إلى حُبيبات حبة البركة وأوراق اللوتس التي تناثرت على الأرض. أغلب الظن أنها رائحة الإله البابلي "إينليل"، الذي

t.me/qurssan

اعتاد أن يدهن جسده يوميًا بالزيوت العطرية المستخرجة من زهور اللوتس التي تنبت على ضفة نهر النيل. انحنى "فضولي" ليجمع الحبيبات السوداء من على الأرض، فوجد بجانبها ثلاث خصلاتٍ من شعرٍ شديد السواد، كما المِسك المجلوب من أرض الحيثيين، ولها رائحة عطرية خلابة.

ما إن شَمّ "فضولي" تلك الرائحة المُسكِرة، حتى تكونت في خياله ـ على الفور ـ صورة "ليلى". شعر بوخزةٍ مفاجئةٍ في قلبه، عند رؤيتها. بدأ يضع لها طباعًا مختلفة، ويتصور صفاتها.. ألبسها ثيابًا وجعلها تمشي وتتكلم. حاول أن يفهم جوانب شخصيتها، كي يتمكن من سرد قصتها. أمضى بعض الوقت وهو يفرك خصلات الشعر بين أصابعه، ومتشممًا رائحة اللوتس التي تجمع بين الرقي والرقة.. بعد تفكيرٍ طويل، توصل إلى صورتها وصِفاتها النهائية. خلال كتابته للحكاية، ولاحقًا عند حديثه عن "ليلى"، أصرّ "فضولي" على أن الصورة التي قدمها عنها هي من بنات أفكاره.. لكن الحقيقة هي أنها فتاة "دجلة" عينها، التي تحمل رائحة اللوتس، وتقطفُ الفراولة.

لم يخطر ببال الشاعر بتاتًا، أن خصلات الشعر التي شكلت له لغزًا، كانت شيئًا مألوفًا بالنسبة للورق الذي اشتراه مؤخرًا.

وددتُ أن يفكر فيّ وأن يشعر بي، ويتحدث إليّ.. أن يلاحظ الأحرف المطموسة المكتوبة بالفحم على صدري.. أن يعرف العلاقة بينها وحبيبات حبة البركة التي وضعها في كفّه. رفعني بعد قليل، نحو الضوء، ليتأمّل نسيجي، ثم تفحص باهتمام آثار شفتي "ليلى" عليّ. قال:

ـ هناك أسرارٌ وذكريات في هذه الورقة.. ما هي يا ترى؟ ومَن يكون صاحبها؟

وضعني، بعنايةٍ فائقة، فوق الرف. من هنا، يمكنني رؤية كل شيء.

بعد أن انتهى "محمد الحِلّي" من فرد النشا السميك فوق الورقة،

t.me/qurssan

راودته فكرة البدء في كتابة الأبيات الأولى من قصيدته. قفزت إلى ذهنه صورة أمين المكتبة الضرير وهو يقول له:

- هناك سبعة أسرارٍ حقيقية لمن يعرفون الحب. من يمتلكها، يمتلك العالم.

كانت هذه لحظةً حاسمة. قرر أن يضع العبارة الغامضة التي فشل في فك شيفرتها داخل قصائد عمله الجديد. لقد قال الشيخ:

. مَن يعرفون الحب..

عليه إذًا أن يضع الشفرة داخل بيتٍ يتحدث عن الحب. قال أيضًا:

. سبعة أسرار..

عليه إذًا أن يجمع بين الحب والأسرار.. لم يقل الرجل هذه العبارات اعتباطًا.. إن وضع الحب مع الأسرار لن يلفت الانتباه. قال لنفسه:

. الحب الحقيقي هو الحب غير المُعلَن، على كل حال.

شعر بنوعٍ من السعادة لتوصُّله إلى هذه الحقيقة، وهنأ نفسه عليها.

أمامه مهمةٌ معقدة الآن.. عليه أن يضع حروف اسم "آكليدان" المحفورة على مقبض الخنجر، مع الأرقام المكتوبة على الحزام الجلدي. لديه سبعة أحرف وسبعة أرقام، عليه أن يوزعها بين سبعة أبياتٍ شعرية، في قصيدته عن "ليلى" والمجنون. لا بأس بالفكرة.. ولكنْ أيَّ الأبياتِ سيفعل بها ذلك؟

استغرق في تفكيرٍ عميق، لعدة ساعاتٍ متواصلة، ثم أمسك بعدها بريشة الكتابة وغمسها في وعاء الحبر، وشرع في الكتابة عن ابنة الصحراء وحبيبها المجنون.

كنتُ أتململ، شاعرًا برغبةٍ قويةٍ في البوح بأنني أنا حبيب "ليلى". طوتني أصابع "فضولي" إلى أجزاءٍ متساوية، وقصّني إلى صفحات متماثلة الحجم. كتمتُ ألمي وصراخي. لقد تعلمتُ خلال

t.me/qurssan

وجودي القصير مع "فضولي" أن الحب هو المعاناة، وعرفت أن عذاب العبد أكبر من ذلك بكثير، وأن الألم يُنضِج الأرواح؛ ثم إنني أنا الذي تمنيتُ أن تكتَب عبارات الحب عليَ، وها هي أمنيتي توشك على التحقق.. هأنا بين يديَ شاعرٍ يتردد صدى قصائده في أي مكانٍ يحضر فيه الأتراك.

أيًّا ما كان الذي سيكتبه عليَ، فإنه سوف يرفع قدْري. شعرتُ بالألم المبرح حين غرز إبرته فيَ، ليخيط صفحاتي معًا، بخيطٍ من الحرير. سرعان ما نسيتُ آلامي، حين تحولتُ إلى دفترٍ يسجل على صفحاته شاعرٌ مهمٌ كـ"فضولي" أبياته. ذهب الألم، وحلت محله سعادةٌ خالصة.

حين يتكلم "فضولي" عن الحب، فإنه يذكر معه الألم والمعاناة والفراق والاشتياق والغياب. لا يُذكر الفراق إلا مقرونًا بالعذاب.. ويربط الأخير بالعذوبة، فلا طعم للحب دون لوعة وألم مبرح وحزن وشجن. أنا الذي سأحمل على صفحاتي حكاية أعظم عاشقٍ في التاريخ، أعاني القدر نفسه من العذاب.. مثل "قيس" تمامًا.

يا لروعة الكلمات التي يكتبها سيدي "فضولي" على صدري! إنها على لسان "قيس" ومن شفتيه:

. يا رب.. احكم عليّ بمؤانسة عذاب الغرام إلى الأبد. يا رب.. لا تقطع الحب عن روحي، ولو لحظةً.

بدأ "فضولي" يدوِّن على صفحاتي قصة الحب الشهيرة، محولًا إياي من مجموعة أوراق إلى كتابٍ ذي قيمة. رصَّع صدري بلآلئ شعرية بديعة وموزونة. كنتُ كعريسٍ يتجمَّل استعدادًا للقاء عروسه. استحقت عباراته المنمقة العذاب الذي عانيته.. كتب يقول:

. بخصلةٍ واحدةٍ من شعركِ.. ربطتِ الكون بإحكامٍ.. أيتها الجميلة التي تُدعى "ليلى".

إنها قصة "ليلى" وابن عمها "قيس" اللذين ينتميان إلى قبيلة "بنى

t.me/qurssan

عـامر". كلمـا تشـعَّب "فضـولي" فـي طـرح تفاصيلها، كلما ازدادت القصة جمالًا. يملأ ريشته بالحبر، فتنساب على صفحاتي حروف تتـوهج بحمى الحب. تحـوَّل "فضـولي" نفسه إلى تلميذٍ يجرِّب تباريح الغرام للمرة الأولى، فيخاطب حبيبته الصغيرة:

. نور عيني.. عزيزتي.. مولاتي.. حبيبتي.. سيدة قلبي.

سالت جميع المشاعر التي يعرفها هذا الرجل على الورق، كقطرات المطـر المتتابعـة. أبيـاتٌ شـعريةٌ عميقـة، تفـيض بالأحاسـيس والحكمة والفلسفة. أشار إلى الحب بكلمة "لبلاب". واقع الأمر أن الكلمة المرادفة لـ"حب" في اللغة التركية، تعني نوعًا من شجر اللبـلاب بـالفعل. يتسـلق اللبلاب الأشجار الكبيرة، كشجر الدَلْب والسرو، ويسيطر عليها ويخنقُها بمنتهى النعومة، بالضبط مثلما يفعل الحب بالإنسان. تدريجيًّا، يمتص اللبلاب الحياة من الأشجار الباسقة. تبدو يانعةً من الخارج، لكنها تجف وتتهاوى من الداخل.

كان يكتب ذلك، وهو يرنو إلى شجرة اللبلاب التي تلتفُّ حول النخلة الجميلة التي تتوسط حديقته. زين البلح الرطب جانبي النخلة، بأناقةٍ بالغة، فبدت كعروسٍ حسناء؛ لكن "فضولي" أدرك أنها في طريقها للموت، فدمعت عيناه بتأثرٍ بالغ. قال لنفسه:

. "قيس" المسكين! لقد تهاوى من الداخل، حين اعتصره الحب بلا رحمة.. تمامًا كتلك النخلة واللبلاب.

t.me/qurssan

لكن الحقيقة أن معاناة "ليلى" لم تكن تقل عن عذابات "قيس". لم يستطع "فضولي" أن يقرر من منهما أحب الثاني أكثر. صحيح أن "قيس" فَقَدَ عقله، وبات يُعرف بـ"المجنون"، لكنه حَظِيَ في المقابل بشهرةٍ عالميةٍ تتناقلها الأجيال، وأصبح مضرب الأمثال في قوة العشق. لقد حسده الناس على جنونه، على مر العصور. في الطرف الآخر، لدينا "ليلى".. التي فرضت عليها التقاليد الصارمة عدم البوح بمشاعرها، واضطرت للإذعان لتلك العادات. استطاع المجنون - على الأقل - أن يعبِّر عن حبه، لكن "ليلى" أبقت أحاسيسها أسيرة صدرها. إن العاشق الذي يكتم هواه أعلى منزلةً من ذاك الذي يبوح به. المحب الذي يعاني في صمت، ولا يلحق الأذى بحبيبه، هو الأكثر نقاءً. ألم يقل أمين المكتبة الراحل إن للحب أسرارًا؟ يبدو أنه منذ أيام الراهب "آرشيا آكيلدان"، والحب والسرية متلازمان، ويناسب أحدهما الآخر.. كما يتوافق الحليب والسكر مثلًا.

لقد أوضح راهب "جمعية بابل" الحكيم أنه من غير الممكن أن ينفصل الحب عن السرية، على الإطلاق.

t.me/qurssan

وفقًا لما كتبه "فضولي"، فإن براعم الحب الأولى قد أينعت بين "قيس" و"ليلى" عندما كانا تلميذين صغيرين يدرسان معًا.. قبل حتى أن تغزو علامات الأنوثة جسد "ليلى". لم يمضِ وقتٌ طويل حتى لاحظ مَن حولهما تلك المشاعر الوليدة، فحبستها أم "ليلى" في المنزل ومنعتها من تلقي العِلم. بعدها، هام "قيس" على وجهه في الصحراء، وقد عذبته لوعة الحب، وهناك.. بدأ يفقد عقله شيئًا فشيئًا، وصار الناس يشيرون إليه بـ"المجنون". بلغ حبهما أوجه عند الموت.. فالعاشقان اللذان حُرِما الوصال في هذه الدنيا، دُفِنا متعانقين في قبرٍ واحد.

مرَّت الأيام، وبدأت الحكاية تصبح أكثر وضوحًا، وتوالت أحداثها الطويلة على صفحاتي، بكلماتٍ تفيض بالأسى الذي يستدر دموع القرَّاء. وصلت القصة إلى ذروتها، عندما توفيت "ليلى" ووُسِّدت التراب، ولحق بها المجنون، ليعانقها إلى الأبد. هنا.. تزايد انفعال "فضولي" بالأحداث، وانسابت الكلمات منه بسلاسة؛ لكن انفعالي وحماستي كانا أكبر.. ليس لرغبتي في معرفة النهاية، ولكن لتوالي اسم "ليلى" الذي خطته الريشة على صدري مراتٍ عديدة، وفي كل مرة تتجدد مشاعري التي عرفتها على ضفاف نهر "دجلة"، وأستعيد الرائحة الساحرة لشعرها، التي رافقتني عند نومي على صدرها في تلك الليلة.

"فضولي" هو سيد الشعراء بحق. هذا أمرٌ مفروغٌ منه. لقد ربط بين "ليلى العامرية" وتلك الحلوة التي تركتها على شاطئ نهر "دجلة"، حتى ظننت أنه تعمَّد فعل ذلك للتسرية عني. إنني أشعر بأحاسيس "قيس" نفسها، وكأنني أنا صاحبها، وكأنني أنا الذي أسرد قصة حبي. بل إنني تعمدت أن أكتم بكائي وصراخي، حتى لا يسمع "فضولي" صوتي. إن لم يعجبني أحد الأبيات، حركت الصفحات بقوة حتى يختلط الحبر على سطحي ولا تعود الكلمات واضحة. يضطر "فضولي" عندها إلى مسحها بإصبعه الصغيرة المبللة، ويعيد صياغتها من جديد، على نحوٍ أفضل وأكثر جمالًا، وأكثر ملاءمةً لهذا الـ"قيس"، وليس "قيس بن الملوح".

مع تتابع الأحداث، وظهور المشاعر المتبادلة للحبيبين، بدأت

t.me/qurssan

مشاعري ـ أنا نفسي ـ تتنامى وتصبح أكثر قوة. تقبلتُ فكرة أنني عبد. أن أكون عبدًا لسيدٍ يجيد استخدام الكلمات العذبة مثل "فضولي"، خيرٌ من أن أكون سيدًا وسط مجموعة من الحمقى. على كل حال، وحتى لو استعصى وضعي على الفهم، فإنني سيد نفسي.. وسيد العشاق أجمعين. حين كتب "فضولي":

ـ لديَّ طاقة حب أكبر مما يمتلكها مجنون "ليلى"..

أنا صاحب العشق الحقيقي، وهو صاحب الصيت والشهرة..

قلتُ بحدّة:

ـ كلا! إن حبي أنا أعظم بكثير من حب المجنون لـ"ليلى".. وأنا العاشق الحقيقي.

أيًا ما كان ما يطلقه الناس عليَّ.. لفافة ورق.. ورقة.. دفتر.. كتاب.. فإنني سأظل بطل قصة المعاناة، وسيبقى حب "ليلى" بداخلي إلى الأبد. ربما كنتُ خادمًا في أعين الغير، ولن تتبدل نظرتهم تجاهي على الأرجح. سوف أتعرض للبيع والشراء والإهداء، وقد يرميني بعضهم، وقد يحافظ عليَ غيرهم.. لن يسألني أحد عمًا أريد، لكنني ـ في كل الظروف ـ سأحمل حب "ليلى" معي أينما أذهب، وستبقى مشاعري تعذبني على الدوام. نعم.. أنا عبد، لكنني عبدٌ رائع ومتميز وغامض.. يحمل في داخله حبيبته، إلى جانب فيضٍ من المشاعر الصادقة.

مع تزايد أعداد الأبيات على صفحاتي، ازددتُ روعةً وبهاءً. غيَّرني الحب. الحب الذي بدأ عندما شممتُ الرائحة الصحراوية لـ"ليلى"، يتجه الآن نحو الاكتمال. أصبحتُ أغار من "قيس" الحكاية، وأرغب في طرده بعيدًا، والتخلص منه. من حقي أنا أيضًا أن أتصرف كالمجنون! لا أظنُّ أن أحدًا يحب "ليلى" أكثر مني؛ وحتى لو افترضنا ذلك، فسوف تطارده لعنتي إلى أن تصل به إلى قبره. لقد فعلها "ابن الملوح" قبلي، وصبَّ لعناته على غريمه "ورد"، زوج "ليلى".

الكلمات التي اختارها سيدي "فضولي"، منغمة ومقفاة ومترابطة.

t.me/qurssan

لقد كبرت "ليلى" وأصبحت فائقة الجمال. وددت أن أضفِّر شعرها، وأن أقبِّل شفتيها خلال نومها. عذبتني مشاعري ورغباتي بشكلٍ غير محتمل.. تسارعت دقات قلبي كلما خط الشاعر اسمها. أحسستُ أنها بقربي.. إلى جواري.. تحتضنني بقوة. في بعض الليالي، كانت تغفو بين ذراعي، وفي أوقاتٍ أخرى كانت تهرب مني؛ وفي كل الأحوال، كنتُ دائم البكاء على حالها وعذاباتها.

انقضى 58 يومًا على بدء "فضولي" في نظم قصيدته الطويلة. وصل إلى الجزء الذي ستغادر فيه "ليلى" مع القافلة المتجهة إلى الحج. سوف تبحث خلال رحلتها عن حبيبها "قيس"، في الصحراء.

همست "ليلى" للجمل، وهي تتحسس لجامه:

.آه يا صديقي العزيز! أنت تعرف سريرتي وما أتمناه، لكنني أجهلُ الدرب. أنت دليلي وقائدي.. خذ لي "قيس".

طاف الجمل في الصحراء طويلًا، إلى أن وجده جالسًا بين الوحوش المفترسة.

بعد هذه النقطة، أصبحت الأحداث التي كتبها سيدي "فضولي" أكثر تشويقًا، وتصاعدت حماستي مع كل كلمة يخطها.

لبعض الوقت، يحاول الحبيبان اختبار إخلاص كل منهما للآخر، وبخاصةٍ "ليلى" التي تسعى لمعرفة مدى عمق مشاعر "قيس" تجاهها، تقول له:

. لقد جئتُ، أيها الحبيب المخلص.. لقد أتت "ليلاك" التي تنتظرها منذ أعوام..

لكن رد فعله، في نظر "ليلى"، اتسم بالفتور، إذ بدا كأنه لا يعشقها هي، بل يعشق فكرة الحب.. فقد رد قائلًا:

. إن كنتُ أنا.. أنا، فمن تكونين؟ وإن كنتِ أنتِ.. أنتِ، فمن أكون إذًا؟

t.me/qurssan

أراد "فضولي" أن يبين أن "قيس" قد توحد مع "ليلى" خلال وجوده في الصحراء. لقد تغلغلت بداخله.. عاش مع طيفها عامًا بعد عام، حتى أصبحت مشاعره هي الأقوى. إن إعلان "ليلى" عن وصولها لم يشكِّل له أمرًا مهمًا، فهي لم تفارق باله لحظة، قال موضحًا:

- أيتها الحبيبة الغالية.. لقد صرتُ أنتِ، وصرتِ أنا. نحن روحٌ واحدةٌ في جسدين. حَبَتا لوزٍ في قشرةٍ واحدة! إن حديثك عنا كشخصين اثنين، يقلل من قيمة حبنا.

لسببٍ ما، لمس هذا الجزء من القصيدة روحي، وبعث بداخلي الحياة كعاشقٍ حقيقي.. أخذتُ أردد:

- إن كنتُ أنا.. أنا، فمن أنتَ يا "قيس"؟ وإن كنتَ أنتَ "قيس"، فمن أكون أنا؟

هكذا، لم يعد هناك ما يفرق بيني وبين "قيس"، وأصبحنا كيانًا واحدًا.

لم يدرك سيدي "فضولي" أن هذا البيت الذي تردد صداه بداخله أيامًا، قبل أن يخطه على ورقي، ليس سوى مشاعري وغرامي وإحساسي بالفقد. لقد ظنَّ أن هذا الجزء من شعره مصدره وحيٌ مجهول.. لكن ذلك كان صوتي، وهو يرتفع شيئًا فشيئًا، وشخصيتي الآخذة في التبلور.

أنا، ثمرة الفراولة التي نبتت على ضفة "دجلة"، تحولتُ إلى "قيس".. "مجنون ليلى". سوف أبقى على هذا الورق إلى أن تنتهي الحكاية، لأتذوق الحب وعذابه ومعاناته. "ليلى" الحكاية هي "ليلى" ذات الأصابع الرشيقة والعينين الكحيلتين والشعر فاحم السواد، التي تركتها قريبًا من النهر. كقطعة ورق، أنا لا شيء.. ذِكر "ليلى" هو الذي أحياني وأدى إلى اكتمالي. لقد متُ وعدتُ للحياة. نمتُ واستيقظت.

لقد تغيرتُ للدرجة التي تجعلني قادرًا على تبادل الحوار مع سيدي "فضولي"، إن أردتُ ذلك. شاهدت يده، وأحسست بأصابعه

t.me/qurssan

على سطحي، وهي تمسك بالريشة التي ينساب الحبر من طرفها عليَ. بتُ أستطيع قراءة أفكاره، وفهم كلماته. حين ينام، أبقى بجواره منتظرًا كما لو كنتُ عبده المخلص. حين يغادر المنزل، أنتظر عودته، من مكاني على الرف. عندما يدخل أحد أبنائه الغرفة، تصلني على الفور أحاسيس الأبوة التي يشعر بها. يمكنني قراءة أفكاره، وهو ينظم قصائده على ضوء الشمعة ليلًا.. أستطيع تصوُّر أحلامه. لا أعرف ما الذي حلَّ بي تحديدًا، لكنني صرتُ أرى وأفهم.. وأحسُّ بالزمن الذي يصفه الشاعر. أمسيتُ أكثر تشبثًا بـ"ليلى"، وعاهدتُ نفسي على حمايتها. لهذه الأسباب مجتمعة، أنا العبد، و"فضولي" سيدي. حتى لو ظل سيدي يجهل أحاسيسي، فلا بأس في ذلك. اعتاد الخدم أن يسمعوا كل شيء، دون أن يكون لهم الحق في إبداء رأيهم. أستطيع أن أرى، وأشعر، وأن أتلصص من بين دفتي الكتاب، وعليَ أن أكتفي بتلك الأمور.. لأنها طبيعة الأشياء.

لو قُدّر لي أن أعقد العزم على العثور على "ليلى"، كما فعل "قيس" الحكاية، لتفكرتُ طويلًا - قبل كل شيء - ولتوصلت إلى أن الحب، في حد ذاته، أعظم من أي شيءٍ آخر. سوف أصبح "قيس"، الذي سيفتش عن "ليلى"، وهذا هو في الأساس سبب قطفي من فوق ضفة "دجلة"، وإلقائي داخل المرجل. عليَ دائمًا أن أظهر ولائي وتقديري لسيدي، الذي خلق شخصيتي، ومنحني هويتي الجديدة.

مصيري ليس في يدي، لكنني - مع ذلك - أعلم أن الدرب سيوصلني في يومٍ ما إلى "ليلى".. هكذا تمنيتُ ودعوت.. أن أعيش من أجلها فقط، كما فعل "قيس". أريد أن أعثر على تلك الحسناء البدوية، التي أشتهي شفتيها منذ أن قطفتني. أن أتلاشى تمامًا.. أن أتلاشى داخلها.. وهو ما سيضع نهايةً سعيدةً للحكاية التي يكتبها سيدي. لقد أينعتُ إلى جوار "ليلى"، وأرغب الآن في أن أذبل وأزوي بين يديها.

أشرقت الشمس 73 مرةً، بالضبط، منذ أن غمس "فضولي" ريشته في المحبرة، لكتابة عنوان حكايته الكئيبة على الصفحة الأولى

t.me/qurssan

للدفتر.. حيث تركت "ليلى" دمعتين وقبلة.

أمسك بالكتاب بين يديه، بفرحة الأب الذي يستقبل مولوده الذكر الأول عقب ثلاث بنات. طاف بأصابعه على الصفحات، يتلمسها بحنوٍ بالغ. تأمَّل العنوان الذي كتبه بحرصٍ شديد، بخط "التعليق" الفارسي: "كتاب ليلى والمجنون". الأحرف السوداء بالغة الجمال، تتماشى مع سواد عيني بطلة الحكاية وخصلاتها الفاحمة.

كنتُ مسترخيًا ونشوانَ بحبي لـ"ليلى"، بينما كان سيدي يدس شفرة "جمعية بابل" بين الأحرف السوداء. سوف تبقى تلك الأسرار مختبئةً هناك، مدى الدهر. وزع سيدي "فضولي" الأرقام التي يحملها على حزام زمزميته، بين الأبيات. فعل الأمر ذاته مع كلمتي "حب" و"أسرار"، اللتين كررهما وفقًا لمضاعفات الرقم سبعة، بطريقة أعضاء الجمعية. بحساب الأبيات التي تظهر فيها الكلمتان معًا، ثم قسمة ذلك على الرقم سبعة، يمكن حل الشفرة. هذا هو مفتاح حل ألغاز الجمعية وأسرارها التي تتعلق بأبحاث الفضاء.

سيدي "فضولي" رجلٌ ذكيّ بلا شك. لا أدري متى ستتم ملاحظة أنني أحمل بين دفتيّ أسرارًا، ولا من الذي سيسعى للحصول عليّ لكشف تلك الأسرار والألغاز. من الغريب أن يجتمع الحب والعذوبة مع الألغاز والمغامرات. مصيري معلق بيد غيري، ولا أملك شيئًا حيال المسألة سوى الانتظار. عرفتُ الحب، ككبار الشعراء البارزين في الثقافات المختلفة، ولكن كُتِبَ عليّ أن أتحمل عبء مشاعري بمفردي. هذا هو قدري.

مرّ عامان على انتقال سيدي "فضولي" من "الحِلَّة" إلى "كربلاء"، مع زوجته وأبنائه. كان مستمتعًا بحياته الجديدة، وبالحظ الذي صار حليفه أخيرًا. أدخلَ تغييرات طفيفة على أبياته الشعرية. أضاف بعض الكلمات، واستبدل بعضها الآخر، واضعًا بعض الأوراق التي تحتوي على التصحيحات، بين صفحاتي؛ ثم وزَّع أجزائي على عددٍ من الخطاطين، كي يتولوا نسخها.

مع التصحيحات الجديدة، سوف يتغير عدد الأبيات، ومن ثمَّ لن

t.me/qurssan

تكون الشفرة السرية موجودة إلا بداخلي أنا، النسخة الأصلية. هكذا قرر سيدي الحفاظ على أسرار "جمعية بابل"، وعلى وعده لأمين المكتبة الآشوري.

تتابعت أيام سيدي في "كربلاء" بهدوءٍ وسكينة. كان أكثر ما أسعده هو متابعته نجاح ابنه "فضلي"، الذي أنهى دراسته في "كربلاء"، ثم تفرَّغ لنظم الشعر مثله. تزوج عروسًا ينتهي نسبها إلى سيدنا "الحسين" رضي الله عنه.

داوم "أياس محمد باشا"، والي السلطان، على إرسال مختلف الهدايا إلى "فضولي"، محاولًا استمالته وإقناعه بالاستقرار في بغداد. عند تلقيه تلك الهدايا، يكتفي سيدي بكتابة قصائد شكرٍ ومديحٍ للوالي، مصممًا على عدم العودة إلى بغداد، ووضع نفسه تحت رحمة والي السلطان، والاعتماد على عطاياه. فكر كذلك في جانبٍ آخر للمسألة.. ماذا لو تغير "أياس باشا" وانتقل إلى مكانٍ آخر، وجاء محله والٍ جديد لا يحب الشعر والأدب والفنون؟

طافت الهواجس بباله.. سوف يعرِّض أسرته للمخاطر، إن عرف لصوص الآثار مكانه، وهاجموا منزله بحثًا عن الآلهة الذهبية والكنوز الخاصة بـ"جمعية بابل". كان هذا أهم أسباب رفضه لعروض والي السلطان؛ لكنه - من جهةٍ أخرى - قرر أن يرسلني إليه كوني هديةً قيمة. في تلك الأيام، كنت ما أزال عاريًا، وليس لديَّ ما أرتديه. كان قد اكتفى بوضع عنوان "كتاب ليلى والمجنون"، لكن ذلك لم يكن كافيًا، بطبيعة الحال. كانت صفحاتي قد بدأت تهترئ، رغم عدم استخدام أحد لي. أمسيتُ هَرِمًا، دون أن أستمتع بحياتي! بين الحين والآخر، يُعيدون خياطة صفحاتي، الموشكة على التمزق، ويتعين عليَّ عندها أن أتحمل وخزات الإبر ومرور الخيوط في نسيجي. سكب عليَّ أحد الخطاطين بعضًا من قهوته، وتعامل معي بإهمالٍ شديد، خلال إعداده لنسخةٍ عني. استدعى الأمر أن يحل سيدي الخيوط التي تربط بعض صفحاتي ببعض، ثم يعيد تثبيتها بإبرته من جديد؛ عقب ذلك غلَّفني بقطعةٍ من جلد البقر، وأخذ يقرأ مقاطع معينة من أشعاره، ويعيد قراءتها المرة تلو الأخرى، على ضوء شمعة. أضاف تغييراتٍ جديدة على

t.me/qurssan

ما انتهى من كتابته.. بعضها من أجل إعادة ثلاثة أبيات، من تلك التي تضم الشفرة السرية لـ"جمعية بابل"، إلى مكانها الأصلي. في الربع الأخير من الليل، داهمه الشعور بالإجهاد. ضمني إلى صدره، وأطلق تنهيدةً طويلة، قبل أن يستسلم لساعاتٍ من النوم الهانئ.

كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أستمع فيها إلى دقات قلب سيدي، وأشعر بقربي منه. لا أدري إن كان قد رأى "ليلى" في أحلامه، لكنني متأكد أنها كانت داخل قلبه. هل نشترك أنا وسيدي في حب الحسناء ذاتها؟ هل أخونه بحبي لها؟ هل يجب عليَ أن أخجل من نفسي، بسبب تلك المشاعر؟ ربما كان عليه هو أن يشعر بالخجل من زوجته التي تنام في الغرفة المجاورة!

أمضيتُ الليل بأكمله وأنا في حالة بكاء. أنصت لقلبه أحيانًا، ولقلبي أنا في أحيانٍ أخرى. ربما آلمني فراقي الوشيك لسيدي.. هل سألتقي به ثانيةً يا ترى؟ كيف سأعيش دون هذا الرجل الحنون الذي أدخلني إلى عالمه شديد الغموض؟

أنا المجنون.. أنا العبد الذي يقطن أشعار سيدي "محمد فضولي الحِلِّي".. كنتُ ثمرة فراولة، ثم ألقوا بي داخل مرجل، وبعدها باعوني في سوق الورق. صنع نسيجي رزمتين من الورق. تمت مقايضتي بنعجتين في سوق بغداد، وأصبحتُ من وقتها عبدًا لشاعرٍ من "الحِلّة". عرفتُ الحب في هذا المنزل، وذقتُ طعم اللوعة والعذاب. درستُ "ليلى"، في مدرسة الحب. كتب سيدي على صفحاتي، فحوَّلني إلى كتاب. بدأت أتكلم، وأتحدث، وأنطق..

أنا "قيس"، العبد الرائع! وملكتي هي "ليلى".

t.me/qurssan

5 دماء على الثلوج وتمزق قلبي للمرة الأولى

أواه يا "نايلي"!

ألا يستحق اقتراب الليل

عذاب الانتظار المضني؟

غادرتُ مسؤول الضرائب لمدينة "كربلاء"، وتلقتني يدا "أياس محمد" باشا، بعرفانٍ. قبّلني، ورفعني لألامس جبينه، تمامًا كما فعل سيدي قبله. كانت شمس الغروب تلملم آخر أشعتها المتساقطة على قِباب بغداد، أرض الحكايات والأساطير، حين بدأ في قراءة صفحاتي الأولى. انتقلت حماسته إليَ، وشاركته إحساسه بالإثارة وهو يقرأ قصة "ليلى" والمجنون، التي اعتاد سماعها من أمه في صغره.

عندما رأيتُ الدمعتين اللتين سقطتا من عينيه، وهو مستغرق في قراءة السبل التي انتهجها "قيس" للفوز بوصال "ليلى"، أدركتُ على الفور أنه سبق له المرور بتجربة حبٍّ أليمة. مَن يدري كم ليلةٍ أمضاها وهو هائمٌ في خيالاته مع محبوبته! كان مندمجًا في تفاصيل الحكاية، لدرجة أنه لم يسمع خادمه عندما دخل لإعادة إشعال المدفأة التي انطفأ نارها.

وصل إلى صفحاتي الأخيرة، وقد اشتدت الريح، وانطلق صوت مؤذني جامع الإمام الأعظم، وهما يؤذنان لصلاة الفجر. وضع الفراء على كتفيه، متجهًا إلى الجانب السكني من القصر، وهو يفكر في إهدائي إلى السلطان. قال لنفسه: "سوف أبعث له بهذا العمل الأدبي الرائع، لأذكّره بوجودي؛ لعله يعينني مستشارًا له، مستقبلًا".

بعد أيامٍ قلائل، استدعى الباشا القائد المسؤول عن المواكب العسكرية، الذي سيرسله الأمير "رشيد" - حاكم البصرة - إلى السلطان، لإعلان طاعته وخضوعه للدولة العثمانية؛ وإلى جانب

t.me/qurssan

تقديمه لمفتاح المدينة للسلطان، تعبيرًا عن ولائه التام، فسوف يحمل له العديد من الهدايا الأخرى. قال الباشا، بنبراتٍ تظهر سطوته:

. لقد عينتُ في خدمتك خمسين من أفضل رجالي من الحرس الانكشاري. خذ هذا الكتاب معك، ضمن الهدايا التي تحملها إلى سلطاننا في إسطنبول، وسلمه إلى "كارا بيري" في السوق المغطاة. واجبك الآن هو حماية جميع الهدايا، وإنني آمرك بتوصيل الكتاب إلى وجهته الصحيحة. والآن.. أسرع بالمغادرة، وحافظ على حمولتك وعلى رجالي في هذه الأجواء الشتوية القاسية. انصرف.

حين انطلقنا، كنتُ أحمل في صدري أشعار الحب التي نظمها سيدي، وأحمل أيضًا رسالةً موجهة لـ"كارا بيري":

"إلى شريكي في الكفاح والمصاعب، ورفيقي في السفر، وأخي العزيز "كارا بيري".. بعد التحية والسلام،

أرسل إليك أبيات الغزل التي نظمها الشاعر العظيم "فضولي"، إلى جانب جزءٍ من قصيدته الطويلة حول "ليلى" والمجنون. أرجو أن توصِّل القصائد الغزلية إلى الشاعر "ذاتي" في مدينة "بالق أسير"، وإلى "خيالي محمد بيك"؛ أمَّا المقطع الشعري المكتوب في قالب "مثنوي"، أو "المزدوج"، فهو لسيدنا السلطان. أرجو أن تعثر على حرفيٍ ماهر يُزيِّن الصفحات الفارغة بالمنمنمات والخطوط المذهبة، قبل أن تصنع للكتاب غلافًا جلديًّا مُرصعًا بالجواهر الثمينة، كي يتم إهداؤه بطريقةٍ تليق بالسلطان.

صديق الطفولة: أياس محمد".

عندما أوغلنا في السير، ازدادت حدة البرد القارس، لكن الأوضاع ظلت على ما يرام، في مُجملها، عدا البلل الشديد الذي لحق بالأغطية المزخرفة للخيول، وثياب الفرسان. وصلنا أخيرًا إلى مدينة "ديار بكر"، حيث جهَّز القائد المسؤول عن قلعتها مبنى المدرسة كاستراحةٍ لنا. هناك، أمضيت يومين من الاسترخاء،

t.me/qurssan

داخل صندوقٍ خشبي. كنتُ في أمس الحاجة للراحة، بعد أن تأرجحتُ طويلًا على ظهر البغل الذي وُضِعتُ داخل إحدى الحقائب التي يحملها.. صعدتُ جبالًا، ونزلتُ أوديةً، وأزعجتني أصوات ارتطام علب التبغ وقطع الفضة والشمعدانات، والملاعق والصحون، ببعضها البعض، ولم يعد بإمكاني تحملها أكثر من ذلك، أو النظر في وجوهها. كل ما أردته هو لف غلافي، الآخذ في الترهل، حول نفسي بإحكام، والاستلقاء في سكون أطول وقتٍ ممكن. كان أكثر ما أثار غيظي وانزعاجي، هو أن العسكري المسؤول، لم يَضعْني في صناديق الحرائر المطرزة والأقمشة الفاخرة بالغة النعومة، ولا حتى في الرِحال الخلفية التي ضمت أمتعةً مختلفة، كسياط الخيول، وألجمتها، والأحذية والمآزر.

الأشعار والقصائد، من ضمن ما تحمله القوافل بين المدن والبلدان. عادةً، تُوضَعُ داخل صناديق خشبية، مصنوعة من خشب شجر السرو أو السنديان، مبطنة بالقطيفة، ومزينة بخشب الأبنوس والمرجان الأحمر. أغلب الظن أنها جميعًا تحظى بمعاملةٍ تتسم بالرقي، ولا أحد ينظر إليها على أنها من عبيده، كما حدث معي.. فهأنا محبوسٌ داخل صندوق خشبي وضيع، ضمن أشياء كثيرة؛ وأظنُّ أنه لو بحث عني أحد، فلن يجدني. على كل حال، ربما كان عليَّ أن أمر بتجربة الارتحال هذه لأدرك العيوب الجوهرية للسفر.

غادرنا "ديار بكر" في الأيام الأخيرة، شديدة البرودة، لفصل الشتاء.. والتي تشتهر باسم "برد العجوز". توقفنا في المحطة الأولى، بجوار جبل "قره داغ". كانت الرياح عاصفة، وبالغة القوة، حتى ظننتُ أن البغال ستطير في الهواء بأمتعتها. لم يكن بالإمكان نصب الخيام مع ذلك الهواء الشديد. أنزلَ الحرس الصناديق الخشبية، ورصوا بعضها بجوار بعضٍ، لتقوم بصدِّ الرياح. كنتُ في الصندوق الأخير. ما إن وضعوه على الأرض، حتى انكسر غِطاؤه، ووقع كل ما بداخله على الأرض.. أنا والصحون وأدوات المائدة. سمعتُ صوت القائد وهو يوبخ جنوده لإهمالهم، ثم وجدتني بين أصابعه.

t.me/qurssan

لحسن الحظ، لم يلمسني الثلج إلا في صفحةٍ واحدة، ولم يطمس سوى سطرين من قصيدتي. لا أدري إن كان القائد قد وضعني في جرابه الخلفي، بدلًا من إعادتي إلى الصندوق الكبير، كي يتسلى بمطالعتي خلال الرحلة المملة، أم لمجرد المحافظة علي من السقوط على الثلج، مرةً أخرى؟ طوال سنوات خدمته في العسكرية، فضّل القائد أن يطيع أي أوامرٍ يتلقاها، وأن ينفذها على الوجه الأكمل، عوضًا عن اتخاذ القرارات بنفسه.. فعند اضطراره لفعل ذلك، يشعر بالاضطراب ويتصرف بارتباك. مردود ذلك هو انعدام قدرته على التفكير، والتبصر في المسائل المختلفة، وهو ما يفسّر لجوءه للسلاح قبل العقل.

بعد يومٍ طويل، ألقى الإجهاد بظلاله على كل شيء.. وُجِّهت الأوامر للجنود بحلّ الصناديق من فوق ظهور الدواب. كوّنوا حائط سدٍّ منها، ثم أشعلوا أكثر من نار، في مواقع متفرقة حولها. بعدها، فردوا الخيام والمعاطف العسكرية، في طبقتين على الأرض، ووزعوا فوقها ما استطاعوا العثور عليه من أغصانٍ جافة. كانت ثياب الجميع وقبعاتهم الفرو وأحذيتهم المبطنة بصوف الخراف وجلد الجاموس، مبللةً تمامًا. مشى الجنود بخطواتٍ متثاقلة، والبرد ينخر عظامهم. لاستجلاب الدفء، دلّك البعضُ أقدامه، فيما وضعها بعضهم الآخر على السيقان الخلفية للبغال، وتحسسوا بكعوب أرجلهم ذيولها. التصق عددٌ منهم بجذوع شجر الصنوبر، إلى جوار أحصنتهم، التي مدتهم أجسادها ببعض الحرارة. عند النوم، تلاصقت أجساد العساكر، الذين ألفوا وجود بعضهم مع بعض، ولم تعد حواجز الحياء تفصل بينهم.

مع حلول الليل، هبت عاصفة ثلجية قوية، وأخذت تطفئ النيران

t.me/qurssan

التي أشعلها الجنود، الواحدة تلو الأخرى. شعر العساكر الذين تولوا نوبة الحراسة بخدرٍ شديد بفعل البرد القارس والإرهاق. عجزوا عن فتح جفونهم، وأوشكت دماؤهم على التجمد في عروقهم. حملت لهم الريح عواء الذئاب وصيحات الضباع وابن آوى. اضطربت الجياد، وبدأت تُصابُ بالتوتر.

ولأن الجنود يعرفون جيدًا معنى أن تبقى وحيدًا على هذه الجبال، دون أحصنة، فإنهم يقدرون قيمتها ويسعون دائمًا لحمايتها. أيقظ بعض العساكر بعضًا، وانهمكوا في ربط سيقان الخيول، حتى لا يؤدي خوفها إلى هروبها. بسبب الأشجار المتقاربة، ووعورة العاصفة الثلجية، صارت الرؤية بالغة الصعوبة.

بعد منتصف الليل، أخذ أحد الحرس ينفخ في كفيه وهو يلف حول المكان، ويرهف سمعه للأصوات الخافتة التي تصل أذنيه. ميّزها أخيرًا، وعرف أنها صادرة عن السناجب والحمام.. تساءل في حيرة:

ـ هل هناك ما يخيفها يا ترى؟

ثم تذكَّر أن أحد وسائل التواصل بين الناس في هذه المنطقة هو تقليد أصوات الحيوانات المختلفة. أصغى بانتباهٍ أكبر، ثم أيقظ زملاءه بهمس، فاكتشف ـ وقد استبد به الرعب ـ أن رفاقه المستلقين على الأرض قد فارقوا الحياة.. كان على وشك الصراخ وتحذير الباقين، حين شعر بنصل خنجرٍ بارد على رقبته. كان آخر ما رآه هو صورة طفله، ابن السنتين، الذي تركه في بلدته. انطلقت منه صيحةٌ واحدةٌ، وهو يتعرض للنحر:

ـ يا الله!

امتلأ المكان فجأةً بمحاربين، يهاجم بعضهم بعضًا بلا رحمة. بعد اختلاطٍ مرتبك بينهم، بدأ كل طرف يميز حلفاءه وأعداءه، واشتعل القتال بينهما.. وُضِعت البنادق جانبًا، وأُخرِجَت السيوف من أغمادها. سقط عشرة قتلى بين الطرفين، ووقف رجالٌ

t.me/qurssan

كشياطين أفزعتهم تعويذةٌ مباغتة.

كان المهاجمون أتباع الوالي السابق لمدينة "إرجيش"، الذي اختلف مع القصر بسبب موضوع "بريهان"، ابنة القاضي الجورجي "مافرول هان". عقب خيانة "بريهان"، صرَّح الوالي السابق:

- إن من يقدّر نصائح زوجته ويستمع إليها، يصبح أسوأ منها بكثير.

نتيجةً لذلك، انضم ورجاله إلى ثوار الـ"جيلالي" ضد الدولة العثمانية. الواقع أنه لم يكن لديهم أي معلوماتٍ عن القافلة التي هجوموا عليها، لكنهم كانوا قد شاهدوها وهي تغادر "ديار بكر"، ورغبوا في الاستيلاء على الخيول والأقمشة الفاخرة التي تحملها، وتتبّعوها لهذا الغرض. لو أنهم عرفوا بأن القافلة ستمر بالبصرة لتحصيل الضرائب، قبل استكمال طريقها نحو العاصمة العثمانية، لاستعدوا بعددٍ أكبر من الرجال، ولما هاجموهم هنا، بل على السفوح الجبلية شديدة الانحدار، التي تنتظرهم في المسافة المتبقية من الطريق. شخصٌ واحدٌ فقط منهم، كان يعرف جيدًا ما الذي يريده تحديدًا من هذه القافلة، ولذلك بقي واقفًا، واكتفى بمراقبة الصراع دون التدخل فيه.

كسر الصمت رئيس الثوار، الذي يعرف بـ"الفارسي الصغير".. أحد أتباع "شاه إسماعيل". اشتُهر بكونه لِصًّا يمارس أسوأ أنواع الطغيان والإجرام ضد ضحاياه، وقيل في ذلك إنه يسرق العجين من بيتٍ لا دقيق فيه، ويستولي على الحليب من منزلٍ لا بقرة فيه! اشتُهر أيضًا بحلوى "لقمة القاضي" التي يصنعها بمهارة، كما عُرِف بالقذارة، إذ لا يغيّر ثيابه أيامًا متواصلة. رغم ولائه الظاهري لوالي "إرجيش" السابق، فإنه كان يحرص على إرسال جميع غنائمه إلى إيران. متنكرًا في ملابس جندي عثماني، يتنقل "الفارسي الصغير" بين البلدات والقرى ليجمع منها أشرس رجالها، ويضمهم إلى عصابته، كي يزيد عددها ويرفع بذلك من قدر سيده. في إحدى المرات، علق ورجاله في عواصف ثلجية شديدة، بالقرب من "قره داغ"، وهطل الثلج بغزارة، حتى أصبح

t.me/qurssan

سُمكُه نحو 18 بوصة. بدأت أطراف رجاله في التجمد. فأغارَ على أقـرب قريـة، وطـرد سـكانها مـن بيوتـهم، واضـعًا أفـراد عصابته مكانهم. حاول أن يعالج أذرع رجاله بمفرده، بأن بترها، دون تردُّد. تصاعد غضب القرويين، حين أخرج امرأةً وابنها الرضيع من بيتهما بالقوة؛ لكنه واجَهَ تمردهم بقرارٍ جريء يقضي بقتل جميع رجال القرية.. أما نساؤها فقد تقاسمهن مع عصابته من عديمي الشرف. لم يكن قد فَقَدَ احترامه في أعين أعدائه فحسب بل في أعين أصدقائه كذلك، وهو ما شجعه على الاستمرار في غيّه وارتكاب كل ما يعنُّ له من جرائم.. قتل، ونهب وسرقات، لم يعد يخفى على أحد أنه لا يتردد في حرق الصوامع والمخازن، من أجل التدفئة، لا غير. صار اسمه مرتبطًا بالشر والقسوة والعنف والخيانة، فحتى رجاله لم يعودوا يثقون به، وكانوا يتبعونه لخوفهم منه، أو لما يربحونه من السرقات. ها هو يعاود ممارسة إجرامه المعتاد، بمهاجمته للقافلة، التي رأى أنها هدفٌ سهل. ردد بصوته العميق رباعيةً شعرية، وهو يشير إلى رجاله:

."ديكٌ لكل متسلق..

حصانٌ لكل سائر..

جملٌ لكل جالس..

و"عباسي" لي أنا!".

الـ"عباسي" الذي أشار إليه، هو اسم العملة الفضية المتداولة في تلك المناطق، والمعنى هو أنه يطلب. بشكلٍ ودي. تسليمه صناديق القافلة؛ لكن مساعد الأمير "رشيد" كان ملمًّا بهذا الأسلوب الشعري في طلب الغنائم، فرد عليه بثقةٍ وحزم:

."أن أمنحك الهدايا والمال

هو حلمٌ بعيد المنال

يا أحقر الرجال!".

كان هذا الرفض كفيلًا بإطلاق الرصاص من بنادق الجانبين.

t.me/qurssan

مشاهد سقوط الرجال بصورةٍ جماعية، مثيرةً للفزع. الأكثر رعبًا، هو وقوف المزيد من المهاجمين المدججين بالأسلحة، وراء الأشجار. ارتفع صهيل الخيول وشحيج البغال، ولم يعد بالإمكان تحديد أي الطرفين يوجه رصاصاته وضربات سيوفه للآخر. شخصٌ واحدٌ فقط، بقي يراقب القتال من بعيد، دون أن يتقدم خطوة للمشاركة فيه؛ إذ لم يأتِ لذلك في الأساس، بل نزولًا على رغبة سيده الذي أرسله لغرضٍ معيّن.

مرت الساعات، وبدأت الأصوات المشجعة على القتال تخفت، وحلت محلها صيحات الألم التي يعقبها سكونٌ تام. تزايدت أعداد الموتى في الطرفين. مع اقتراب الشروق، تجمعت الذئاب حولنا، وقد جذبتها رائحة الدم. مزَّقت الجثث ونهشتها، دون هوادة، ولم تتركها إلا أشلاء. ارتاعت الخيول التي لم تستطع الفرار، بسبب أرجلها المربوطة، وسرعان ما قضت الذئاب عليها، واختفى صهيلها المذعور.

مدت الشمس أشعتها الوليدة بين أشجار الشوح والصنوبر، وألقت ببريقها على الثلج الناصع البياض. نظر "مصطفى ألاتشات"، الجندي في سلاح الفروسية، إلى الأرض، من مكمنه فوق الشجرة التي يوشك على السقوط منها. عندما بدأت أصوات رفاقه تتلاشى، وتعالت أصوات الذئاب، تسلق "مصطفى" هذه الشجرة، وربض بين فرعين من غصونها. راقب الذئاب وهي تلتهم زملاءه، وعددًا كبيرًا من الخيول. حين انتهت وشبعت، وغادرت المكان، جاءت حيوانات ابن آوى. حاول إخافتها بالصياح تارة، وبإسقاط الثلج على رؤوسها عبر هزّ أفرع الشجرة تارةً أخرى.. دون جدوى. سرعان ما شعر بالإنهاك والبرد الشديد، وبدأ يفقد وعيه. حين فتح عينيه، تأمل المشهد من تحته وهو يحاول تذكُّر ما حدث بالضبط. إنه لا يزال على قيد الحياة، ولكن ما فائدة ذلك، وقد مات جميع رفاقه؟

غادر قطيع ابن آوى، فنزل من فوق الشجرة، وأخذ يفتش عن ثيابٍ يلبسها، وشيئًا يضمد به جراحه. لمح جسدًا يتحرك.. إنه "جوكتشا علي"، زميله من سلاح الحرس الانكشاري، الذي تمتد

t.me/qurssan

بينهما عِشرةٌ طويلة. إنه في حالة إغماء، عقب أن نزف بغزارة من جرحٍ في يده. ما حماه من الذئاب، هو سقوط جذع شجرةٍ عليه. نهشت الذئاب كلبًا كان عند قدميه.

أسرع "مصطفى" نحوه، وأخذ يدفع جذع الشجرة بعيدًا عنه، حاول أن يحرك جسد زميله الجريح، المائل للضخامة، حين أفزعه ظهور رجلٍ بملامح وحشية، يحمل سيفًا في يده. خمّن أنه أحد معاوني "الفارسي الصغير". قال لنفسه: "لا بد أنه كان مختبئًا فوق شجرةٍ، مثلي".

حاول أن يبعده عنه، مستخدمًا أحد الأغصان، لكن الرجل رفع سيفه ووضعه على عنق "مصطفى"، قائلًا:

- أعطني الكتاب، أو اتلُ الشهادة قبل أن أقضي عليك.

تفهمتْ دهشة "مصطفى"، إذ لم يكن يعرف شيئًا عني على الإطلاق. نظر إلى الرجل بعدم فهم. كرر الأخير:

- الكتاب!

أضاف قائلًا، وهو يلوح بحزام زمزمية سيدي "فضولي":

- المؤلَّف الذي وضعه صاحب هذا الحزام الجلدي! أعطني الكتاب حالًا! لقد فتشتُ عنه في كل الصناديق، منذ الفجر. لا بد أنك تعرف أين هو.

صاح من جديد:

- الكتاب!

حدّق "مصطفى" إلى الحزام الجلدي، باستغراب، وسأل الرجل:

- أي كتاب؟!

أدرك وهو يوجّه له السؤال، أن الرجل لا يعرف الإجابة. رأى أن يراوغه بأسئلةٍ جوفاء، علّه ينشغل بها ويخفف من حدة ضغطه بالسيف على رقبته. هذا هو معنى "الحياة غالية، والروح عزيزة"

t.me/qurssan

كما يبدو! راقبتُ الرجلين، وأنا أنظر إلى حزام الزمزمية، في الوقت ذاته. إنه هو بعينه! ما الذي حدث لسيدي إذًا، يا ترى؟ كيف حصل هذا الشخص على متعلقات سيدي؟ من يكون؟ هل ينتمي إلى "جمعية بابل"؟ ربما كان أحد لصوص الآثار. لماذا يتصرف على هذا النحو الهمجي؟ ما كل هذه القسوة؟ إنه لا يقل شراسةً عن الذئاب التي هاجمت العساكر. دفع اليأس "مصطفى" لأن يتوسل لمهاجمه، طالبًا منه الرحمة.

بينما يوشك النصل على المرور فوق رقبة "مصطفى"، حدث شيءٌ غير متوقع.. انطلقت رصاصةٌ سريعة من بندقيةٍ قريبة. شعر "مصطفى" بثقلٍ يجثم على أنفاسه، وظنَّ أنه أسلمَ الروح. تجمد الدم في عروقه. لكنه أدرك بغتةً أنه لا يزال على قيد الحياة، وأنه ليس هو من مات. أزاح جثمان الرجل الذي تهالك فوقه.

كان الصراع بين الرجلين قد تسبب في إفاقة "جوكتشا علي". حينما رأى صديقه في موقع ضعف، استجمع قواه، وصوّب البندقية نحو المهاجم. كان متيقنًا من أن رفيقه لا يعرف شيئًا عن الكتاب، فعند احتدام القتال في الليلة الماضية، اقترب منه القائد وخاطَبه بتواضعٍ وتهذيب، قائلًا:

- أخي العزيز "جوكتشا"، مهمتك الآن هي توصيل هذا الكتاب إلى إسطنبول. إنه أهم من كل الكنوز التي نحملها معنا.. بل إنه أهم من حياتنا.

عندها، تناولني "جوكتشا علي"، ووضعني داخل قميصه، فوق صدره. أدين له، ولذلك التركي الشهم، ببقائي والحفاظ على ما أحمله من أبياتٍ شعرية، دون أن أتمزق أو يصيبني أي مكروه، رغم قسوة المعركة.

عانيتُ الإحساس بالبرد الشديد، طوال الليل، بسبب شعوره هو بالبرد. دعوتُ الله ألا يتجمد، وأن يتوقف النزيف الذي عاناه.

أحسستُ بقيمتي، للمرة الأولى، حين فهمتُ أن هناك من يفتش عني ويريدني بأي ثمن.

t.me/qurssan

تنفيـذًا لوعـده لأمين المكتبـة الراحـل بالمحافظـة علـى أسـرار "جمعية بابل"، ضمَّن سيدي "فضولي" قصيدته الشيفرة المحفورة علـى مقبـض الخنجـر. عقب دفنه الخنجـر تحت شجرة التوت، وعند استخراجه لاحقًا وتسليمه الرجال ذوي الوجوه السوداء، الذين كانوا يبحثون عنه، ظن "فضولي" أنه قد تحرَّر من متاعب الخنجر؛ لكن من الواضح أن حزام زمزميته قد وضعني أنا في مـأزق جـديد.. فما دام الخنجـر والـحزام ليسـا معًا، فإن شيفرة "جمعية بابل" ستظل مستعصيةً على الحل. هذا هو القدر الذي أدركـه مـن الموضـوع، ولكـن يبـدو أن الـحزام قـد وقـع فـي أيـدٍ خطـيرة، وهـو مـا دفعنـي للتسـاؤل: إن كـان سيدي بخير أم أنه تعرض لمكروه؟ ما زال هذا السؤال يؤرقني، ويعذبني، حتى الآن.

تدارس الصديقان "مصطفى ألاتشات" و"جوكتشا علي" الوضع، وراقبـا عـددًا مـن ابن آوى والثعالب، التي كانت بدورها تـراقب الجثث الكثيرة المتناثرة على الأرض. استمر هطول الثلج، فغطى أجزاءً مـن جثـث الجنود، ومن صناديق الهدايا. تشوهت بعض الجثـث نتيجـة نـهش الحيوانـات البريـة لها. لم يبقَ من القافلة غيرهمـا فقـط. أشعلا نـارًا، ليبعدا الحيوانـات التـي بـدأت فـي الاقتـراب. عثـرا علـى بعـض الأطعمـة، فقـاما بإعداد وجبةٍ لهما، وارتديا ملابس دافئة.

بحلول الظهيرة، كانا قد بدآ في استعادة شيءٍ من قواهما، كما تـوقف الـنزف مـن ذراع "جوكتشـا". فتحـا أحـد صناديق الهدايا، وأخـرج كـل واحـدٍ منهما خنجـرًا مرصـعًا، وثلاثـة فصـوصٍ مـن الزمـرد، ثـم أعـادا غلق الصندوق بإحكام وأقفلاه جيدًا، ودفناه تحت الثلج. أسرجا حصانين من الأربعة السليمة المتبقية. قتلا الخـيول الجريحـة، حتـى لا تعذبها الذئاب لاحقًا. قررا أن يعود "مصطفى" إلى "ديار بكر"، ليبلغ الوالي بما تعرضوا له. على أن يواصل "جوكتشا علي" طريقه نحو إسطنبول، ليقدم تقريرًا بما حدث للسلطات المختصة، ثم يتوجه إلى السوق المغطاة ليسلمني إلى "كارا بيري". لم يسمح لهما ضيق الوقت بدفن زملائهما، فطلبا العفو من أرواح الراحلين قبل أن يمضي كل منهما في طريقه.

t.me/qurssan

هأنا أتجه إلى إسطنبول، في الرَّحْل الخلفي لـ"جوكتشا علي"، وأنا أحمل بداخلي حب "ليلى"، إلى جانب خطاب "أياس محمد" باشا، وغزليات سيدي "فضولي"، وشيفرة "جمعية بابل" المتعلقة بأسرار الفضاء.

إن أُتيحت لي الفرصة، في يومٍ من الأيام، فسوف أعود بحثًا عن حبيبتي ذات العينين السوداوين. من يدري؟ قد تجلبها المصادفة إلى أراضي السلطان، فنلتقي من جديد.. هذا إن لم يعثر عليّ أعضاء "جمعية بابل" أولًا!

"ليلى"!

t.me/qurssan

6 تسلقنا الجبال وتخطينا الصعاب للوصول إلى إسطنبول

إسطنبول.. هذه المدينة التي لا نظير ولا مثيل لها

حجرٌ واحدٌ منها، يساوي أرضًا كاملة.. كبلاد فارس

(الشاعر "نديم")

واصل "جوكتشا علي" طريقه إلى إسطنبول على ظهر حصانه أيامًا متوالية، مخترقًا الغابات الكثيفة والحقول، والأودية الجرداء. لحسن الحظ، لم يقابل لصوصًا أو قطاع طرق خلال رحلته. الواقع أنه كان يجهل الاتجاهات والدروب الصحيحة التي ينبغي له أن يسلكها، لكنه قرر أن يتبع نباح الكلاب القادم من فوق القمم الجبلية المكللة بالثلوج، وروائح روث الماشية، التي تدل على وجود تجمعاتٍ سكنيةٍ وبشريةٍ قريبةٍ منه. اقتات على الأرانب والقنافذ البرية، واعتمد على الثلوج الذائبة للشُرب. "جوكتشا علي"، الذي يجهل القراءة، يخبئني داخل قميصه عند حلول الليل، ثم يعيدني صباحًا إلى مكاني في جيبه الخلفي، وهو يتساءل بنفاد صبر:

. ما الكتابُ لفارسٍ في سلاح الخيّالة؟

يجيب نفسه:

. مجرد عبءٍ إضافي، يثقل كاهله!

لكن النبل الذي يتحلى به، منعه من خيانة ثقة رئيسه الراحل، ودفعه للتمسك بتنفيذ المهمة وتوصيل الأمانة.

t.me/qurssan

طاف بعددٍ من المدن والقرى، لكنه تعمَّد اجتناب الناس والاختلاط بهم. في اليوم الثامن لبدء رحلته، تناول "جوكتشا" أخيرًا حساءً ساخنًا، على طاولة أُعدَّت خصيصى له، بعيدًا عن بقية نزلاء تكية الطريقة الصوفية البكداشية، القريبة من مدينة "سيوري حصار". هناك، نام للمرة الأولى منذ زمن، على فراشٍ مريح. صباح اليوم التالي، التقى شيخ مشايخ الطريقة، ليقص عليه ما حدث؛ لكنه تعمد تغيير بعض الحقائق، وحرص على التكتم بشأني.

كتعبيرٍ عن امتنانه للقائمين على التكية، لكرمهم معه، أهداهم "جوكتشا علي" حصانه. واصل رحلته أحد عشر يومًا، متنكرًا في هيئة صوفي من الطريقة القلندرية. وصلنا أخيرًا إلى "أُسكُدار"، حيث ركبنا قاربًا شق طريقه وسط الأمواج العالية. حين اقتربنا من أسوار مدينة إسطنبول، أزال "جوكتشا" الخنجر المرصع من داخل ملابسه، حيث كان يلتصق بي هناك طوال الفترة الماضية، ثم أخرجني أنا أيضًا. فَعَلَ ذلك بخفةٍ بالغة، حتى لا يلفت إليه

t.me/qurssan

الأنظار. تصرف، وسط بقية الركاب، كما لو كان تاجرًا. علَّق الخنجر على حزامه. كان قد خبأ حبَّات الزمرد الثلاث في أماكن مختلفة.. الأولى في ثوبه، والثانية في مقدمة حذائه الجلدي، والثالثة داخل تجويف السوار الذي يحيط بأعلى ذراعه، والذي يضع فيه لفائف صغيرة من آيات القرآن الكريم. شعر بارتياحٍ كبير، لم يعرفه منذ زمن.. فها هو يقترب من "دار الأمان"، كما تُعرَف إسطنبول، حيث لا جرائم ولا فوضى.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أشاهد فيها البحر. شعرتُ بدهشةٍ بالغة حين أدركت أن المدينة المسوّرة تمتد من النقطة التي تصب فيها مياه البوسفور في بحر مرمرة، إلى شبه جزيرة "القرن الذهبي". أثار اتساع مضيق البوسفور استغرابي، فقد لاحظتُ أنه أعرض من نهر "دجلة" بكثير. المدينة برَّاقة ومتلألئة، وتعلو فيها الأبراج والمسلات والتماثيل والمآذن، التي تتخللها الأشجار والنباتات. تتزاحم البيوت الخشبية على المنحدرات الجبلية المطلة على "القرن الذهبي". شعرتُ بأن جميع مناطق المدينة يتصل بعضها ببعض، بشكلٍ أو بآخر، وبأنها تمد أيديها ليُحييَ بعضُها بعضًا، عبر الحدائق والكروم.

دخلنا المدينة من بوابتها السادسة عشرة.. "باهتشيكابي"، الثالثة من حيث الحجم. كان الناس لا يزالون في حالةٍ من الذعر والتوتر البالغ، فقبل أسبوع امتلأت الميادين بالصراخ، واستيقظ النائمون بفزع على صوت طرقاتٍ عنيفة على أبوابهم. لجأ الجميع للشارع، ظانِّين أنهم يشهدون نهاية العالم. في القرى والبلدات القريبة، ظن الناس أنهم في اللحظات الأولى ليوم القيامة، فقد انتشرت النار في السماء، وتساقطت النجوم على الأرض.. صاحت النساء برعب:

. حدائقنا تفيض بالنجوم!

رأى الجميع كرات من النار، في حجم قمرٍ كامل، وهي تقع على أسطح المنازل، وفي الطرقات. أمضى البعض ليلته وهو يحصي النجوم الكثيرة، التي وصل عددها لنحو مئتين وخمسين ألف

t.me/qurssan

نجمة، حتى الفجر.

في اليوم التالي، ترقَّب الناس قيام الساعة، وقد استبد بهم الذعر، وغلبتهم مشاعر الندم والتوبة. كان قد مضى عليهم يومان كاملان دون نوم. تصايح البعض محذرين بأن السماء تمطر حجارةً. انقلبت المدينة رأسًا على عقب، وعمّتها الفوضى.

فاضت المساجد بالمصلين. رَجَمَ البعض المواخير القريبة من سور المدينة، أمَّا المقاهي ودكاكين التبغ الفارسي والحانات، فقد تعرضت للهدم. من اعتادوا السُّكْر والسهر ومعاشرة العاهرات، هم أنفسهم من سعوا إلى تدمير تلك الأماكن بأيديهم. في اليوم السابق، تعرضت إحدى العاهرات لضربٍ مبرح في وسط الطريق، إلى أن فاضت روحها، ثم قطَّع الناس جثتها بوحشية، وعلَّقوا أجزاءها المختلفة على أعمدة المدينة ونافوراتها، وعلى جذوع الأشجار.

تصاعد غضب الناس ضد القصر، وبدؤوا في ترديد سلبيات رجال الحُكم، دون أدنى شعورٍ بالرهبة. قالوا إن الساسة سلموا أمور الدولة إلى نسائهم، وأن الفساد ينتشر في كل مكان، وأن غلاء السِّلع لم يعد محتملًا. قالوا أيضًا إن الحجارة تساقطت من السماء عقابًا لهم، لتلقنهم درسًا. غادر الخوف قلوب عددٍ كبيرٍ من الناس، وعادوا إلى ممارسة حياتهم الطبيعية، وإدارة شؤونهم الدنيوية مرةً أخرى.

تتفرع الطرق عند بوابة المدينة. تجمهر الناس عند الممر الحجري المؤدي إلى قصر "توبكابي"، الذي أحاط الجنود بمدخله. وقفوا في انتظار خروج رئيس الفلكيين من القصر. غطى صخب الجماهير على أصوات الباعة الجائلين، ومنادي المدينة. كان لكل منهم نظريته الخاصة. تبادلوا تساؤلاتٍ مختلفة، وأعادوا توجيهها لاحقًا لرئيس الفلكيين فور مغادرته بوابات القصر. لم تشغلهم طبيعة الأحجار أو السبب الفعلي لسقوطها عليهم، ولكن ما أرَّقهم هو الإنذار الإلهي الكامن فيما حدث. كانوا أشبه برجال الدين الذين ربطوا بين كثرة المذنبات، وعقاب الرب للناس، في فترة

t.me/qurssan

سقوط القسطنطينية، ولذلك توقعوا أن يخرج عليهم رئيس الفلكيين بتفسيراتٍ محذرة. قلتُ لنفسي:

. لو أن رئيس الفلكيين هذا يمتلك شيئًا من علم "آكيلدان" الحكيم، لطمأن الناس ولشرح لهم أن الأمر عبارة عن "زخة شهب"، وأن الله خصّنا بهذه الظاهرة الرائعة، الأشبه بعروض الألعاب النارية، كل ثلاثين عامًا. لا سبب يدعو للخوف على الإطلاق؛ لكنني متأكد أن الرجل المسكين مذعورٌ مثل الجماهير التي تقف في انتظاره بقلق.

سلك "جوكتشا علي" طريقًا ترابيًا يؤدي إلى وسط المدينة. مررنا ببيوتٍ على الجانبين، واخترقنا السوق المغطاة، والسوق الكبيرة، والقصر القديم، إلى أن وصلنا إلى "إيتميداني"، حيث يقع مركز إقامة زملائه من الانكشاريين. عند اقترابنا من المكان، شعرت بتغيرٍ ملحوظ في معنويات "جوكتشا علي"، الذي تناسى ذكريات المعركة والقتال العنيف والدماء، وبدأ يشعر بالسكينة والسلام لوجوده في إسطنبول. أصبحت خطواته أكثر نشاطًا وخفة. تأمل المناظر حوله، وقال لنفسه إن المدينة التي لم يزرها منذ ثلاث سنوات، لم تتغير على الإطلاق: لكنه حين وصل إلى المرج الذي يصل بين مسجد "مشيني" وقنطرة المياه البيزنطية، لاحظ أعمال البناء القائمة هناك، في المكان الذي كان يمارس فيه التدريبات مع زملائه في السلاح، منذ سنوات. شاهد نجارين وحدادين وقاطعي أحجار، وحمالين ينقلون الرمل، وعمال جير، وحفَّاري نافورات. كانوا جميعًا منهمكين في أعمالهم بدأب. قال لنفسه:

. لا بد أنها أساسات المجمع الضخم الذي ينوي "سليمان العظيم" بناءه، تخليدًا لذكرى ابنه العزيز "شاه زاده".

عَلِمَ لاحقًا أن رئيس المعماريين "سنان آغا" قد صمم مجمعًا يضم مسجدًا ومدرسةً دينيةً، وأضرحةً، ومطعمًا لتقديم وجباتٍ مجانية للفقراء، وخانًا لرحالة القوافل، ومدرسةً ابتدائيةً، ونافورةً عامة؛ وغرفة حافظ الوقت، فقال في سرّه بإعجاب:

بارك الله فيك أيها المعماري العظيم، ووفقك.

t.me/qurssan

وصـلنا إلـى مـدخل الثكنـات العسـكرية. أشـار الجنـدي المكلـف بالحراسة إلى ثياب الدراويش التي يلبسها "جوكتشا علي"، وسأله بسخرية:

. ما الذي تفعله هنا؟ هل ضللت طريقك؟

فتح "جوكتشا" قميصه المنسوج من الصوف الخشن، مبينًا الوشم المرسـوم علـى جسـده.. الـذئب الـذي يشكِّل شعار السلاح الذي ينتمي إليه. سمح له الجندي بالدخول، على الفور.

ذهب إلى زملائه القدامى، وتبادل معهم الأخبار، ثم توجَّه إلى رئيس المعسكر وقصَّ عليه تفاصيل كل ما مر به، وسلمه الخنجر والزمردات الثلاث. اصطحبه رئيسه إلى القصر، ليقدما تقريرًا بما حدث.

أما أنا، فقد بقيتُ في الثكنات ذلك اليوم. كنت ما أزال ممتلئًا بالحماسة، عقب رؤيتي للمعالم المدهشة لإسطنبول، لدرجة أنني شعرتُ بشيءٍ من الفتور حيال اكتشاف قصر "توبكابي" نفسه، والـذي يعـد جوهـرة المـدينة. علـى كـل حـال، يبـدو أنني سأبقى مستمتعًا هنا لبعض الوقت.. كل شيءٍ حولي يبدو غريبًا وغير مألوف.

فـي يـوم الثلاثـاء، سـلمني "جوكتشا علي" إلى "كارا بيري" في السـوق المغطاة. الرجل متوسط الطول، وتتميز تقاطيع وجهه الأسـمر بالصـفاء والتناسـق. حيـن فـرغ مـن قـراءة رسـالة "أياس" باشا، ألقى نظرةً سريعةً على القصائد الغزلية المكتوبة على أوراقٍ منفصـلة. طواهـا ووضـعها فـي صـدر جلبابـه، وأمـر مسـاعده أن يشتري شيئًا من المكسرات والفاكهة المجففة والطازجة، وبعض الأطعمـة الخفيفـة. فعـل ذلـك احتفـاءً بـي، فسـوف أُتْلـى علـى يـد قارئٍ محترف، في منزل "كارا بيري"، لعدة ليالٍ متواصلة، تنتهي الجمعة.

كان أكثر من تأثر بقصة الحب المأساوية، هما ابنه وابنته الشابين، وخادمة البيت "ديلشيكر".

t.me/qurssan

حين وقعت عيناي على "ديلشيكر"، للمرة الأولى، قلتُ لنفسي إن سيدي "فضولي" كتب قصيدته الطويلة، متخيلًا إياها دون شك. خلال القراءة، غلب النعاس زوجة "كارا بيري" البدينة عدة مرات، وتأرجح رأسها على صدرها في إغفاءاتٍ سريعة.. لكن الابنة والخادمة أرهفتا السمع باهتمامٍ بالغ. حين وصلنا إلى الجزء الذي يلتقي فيه الحبيبان في الصحراء، أدركتُ مدى تأثيره الرهيب على الناس، حين لمحتُ الدمعة التي بللت أهداب "ديلشيكر". ربما ربطتْ علاقةٌ ما بيني و"ديلشيكر"، في أحد الأزمنة. قلبي متعطشٌ للحب. ربما تجاور قلبانا لبعض الوقت، عندما كان يتم توزيع الأرواح، في بداية الخلق. ربما تقرر في ذلك الوقت أن يتكون قلبي من الغرام والألم والنشوة، فقط. هي ذاتها الأشياء التي تُشكِّل قدري.

الصفحة التي أبكت "ديلشيكر"، مزينة برسوماتٍ دقيقة بريشة "فضولي" نفسه. تصورتُ نفسي في لوحةٍ شبيهة، أظهر فيها وأنا ألتقي "ليلى" في الصحراء. أجلس بجسدٍ نصف عارٍ، محاطًا بذئبٍ وحَمَل وأسدٍ وغزالةٍ ونسرٍ وحمامة.. وقد فتنهم الحب وغشيتهم السكينة.. مدت "ليلى" يدها نحوي، وقالت بأسى:

. يا قريبًا من الوحوش، وبعيدًا عني! يا دواء علتي وابتلائي.. يا مالك قلبي.. ألا تذكرني؟ أنا ليلاك.. هل نسيت كيف تربينا معًا، ودرسنا معًا؟ كيف أحبَ أحدنا الآخر؟ كنا روحين في جسدٍ واحد.. حبَتي لوز في قشرةٍ واحدة..

نعم.. لقد وصفني سيدي "فضولي"، فأجاد الوصف. هذه هي مشاعري بالضبط.. وحتى نهاية الحكاية، بقيت الروح التي تسكنني هي روح "قيس"؛ ولذلك فإنني خلال قراءة القصيدة، التي بلغت نحو ثلاثة آلاف بيت، لم أعد أرى "ليلى" التي عرفتها على ضفاف "دجلة"، بل "ليلى" أخرى.. تجلس على قبري وتذرف دموعًا ساخنة.. "ليلى" ذات الحظ السيئ.. ابنة "مهدي" من قبيلة "بني عامر"؛ وأنا ابن "الملوَّح".. المجنون الذي هام على وجهه في الصحراء، من فرط حبه وعذابه. نعم.. أنا هو.. أنا المجنون.. أنا

t.me/qurssan

عبد سيدي "فضولي"؛ وأسرار "جمعية بابل" هي النافذة التي أطللت منها على العالم، وبدأت من خلالها أشعر بدبيب الحياة في داخلي. تلك الأسرار التي جلبت لي أعداء يلاحقونني ويفتشون عني.

في الليلة التي انتهى فيها القارئ من رواية حكايتي، في منزل "كارا بيري"، مرضت "ديلشيكر"، أما الابنة التي أخفت دموعها في بداية الحكاية، فقد بكت بحرقةٍ في نهايتها، وادّعت أنها حزينةٌ لمصير "ليلى". كانت تلك كذبة. إنها تبكي غرامها بذلك الشاب الجريء، الذي أمسك بيدها في السوق منذ شهرين. أحرقتني نار الأشواق التي تشتعل في صدرها، وذكرتني بـ"ليلى".

قلت لنفسي، بعد قليلٍ من التفكير:

- عليّ التوقف عن جعل الجميلات يبكين..

لم أرغب بأن يكون طريقي إلى "ليلى" مليئًا بالدموع. لا أريد أن أتحمّل مسؤولية أحزان غيري وأشواقه، وتكفيني المشاعر التي أحس بها.

لو عرف كل من يقرؤني أنني أستطيع كشف مشاعرهم التي يحرصون على إخفائها عن غيرهم، هل كانوا سيثقون بي ويصارحونني بحقيقة أحاسيسهم وعذاباتهم؟ إنهم لا يدركون أنني أراقب الجوانب الخفية من حيواتهم، ولا يرون فيّ سوى غلاف وبضع صفحات.. يرون الظاهر، بينما أرى أنا عوالمهم الخفية، وأشعر بدفء قلوبهم. آلمني ذلك، فقد تبين لي أن أحزانهم تفوق أفراحهم بكثير. على السطح، الجميع سعداء.. لكن النفوس والصدور تستر شجونًا عميقة. سألت نفسي:

- ترى، هل جميع الناس كذلك؟ هل كانت "ليلى" التي تركتها على نهر "دجلة" تتألم مثلهم، في صمت؟

كانت قدراتي في تلك الأيام، لا تزال بدائية. لم أكن قد تعلمت بعد كيفية الحُكم على الأمور، وكنت أكتفي بتخمين شخصيات الناس مما أشعر به من لمسات أصابعهم لصفحاتي.

t.me/qurssan

في منزل "كارا بيري". تعلمتُ للمرة الأولى أن معرفة أسرار الآخرين، والاطلاع على جوانبهم الخفية، عبءٌ ثقيلٌ جدًّا. واصل أفراد الأسرة حياتهم، دون الالتفات إليّ. استمروا في التصرف بمنتهى التلقائية واللامبالاة. رؤيتي إياهم في خلواتهم، أشعرتني بالخجل من نفسي، وكأنني أتعدى على شرفهم. على سبيل المثال، لم تتردد ابنة "كارا بيري" في استبدال ثيابها أمامي. رؤيتي لها على ذلك النحو، أثارت جنوني. أردتُ أن يشعر بي أحد، وأن يلاحظ وجودي، وأن يخاطبني. في تلك الليلة، التي خلعت فيها الابنة ملابسها في وجودي، حاولتُ أن أتصرف بطريقةٍ تليق بسيدي "فضولي"، فأغمضتُ عينيّ.. لكن الحقيقة أنني فشلتُ في المقاومة، ولم أستطع الاستمرار في ذلك طويلًا!

سرنا في شوارع إسطنبول، ومررنا في طريقنا بأعمدةٍ محفورة، ورثها الأتراك عن البيزنطيين، وبمساجد كانت كنائس في الأساس، إلى جانب تماثيل لـ"فينوس" و"أبوللو"، وغيرهما من الآلهة عارية الأجساد، التي جلبها "إبراهيم باشا" ورجاله معهم عند عودتهم من بعثة "فيينا"، قبل أن يُعدَم. اختار "إبراهيم باشا" أن يضعها بين بقايا المسرح البيزنطي الذي يقع أمام قصره الجميل. لوهلة، أحسستُ أن تلك التماثيل لخُطاةٍ مارسوا الرذيلة مرةً واحدة، ثم شعروا بالرعب من أن تراهم سلالاتهم على ذلك النحو. كان منظرهم فظيعًا في الحقيقة.

حملني "كارا بيري" في يده، التي وضعها بجوار جلبابه المخطط. سار معنا تاجر يستورد الورق والتوابل والحرائر من مدينة "هوتان" الصينية. تلفت حوله، وتأمَّل كل شيء بعينيه المائلتين بعض الشيء، وبدا أنها زيارته الأولى لإسطنبول. ظننتُ في البداية أنه أحد أعضاء "جمعية بابل"، وأنه قد جاء للبحث عني؛ ولكن اتضح لي بعد ذلك أن كل ما يريده هو تعرُّف معالم المدينة. كان أكثر ما جذب انتباهه هو المسلات. راح يسأل عنها باهتمام، فأجابه "كارا بيري" بنفاد صبر:

.أغلبها آثارٌ بيزنطية. آمن الناس بأن لكلٍ منها سحرًا خاصًا ومهمةً

t.me/qurssan

محددة، وهي اعتقاداتٌ توارثها الناس منذ القدم، فأحدها موجود لحماية المدينة من الزلازل، والآخر للحفاظ عليها من الحرائق. تُليَت عليها تعويذاتٌ من الرهبان، عند نصبها، وتولى الأباطرة بأنفسهم أمرها. في يومنا هذا، صارت صناعة المسلات والأعمدة أمرًا عاديًا، تزين به المدن الجديدة عند إنشائها، أو القديمة عند ترميمها.

هناك الكثير منها في إسطنبول. بعضها يعود إلى فترة حكم الإمبراطور "قسطنطين الأول"، حيث تمت صناعتها من آلاف الأحجار الرخامية البيضاء. كل جانبٍ منها، مغطى بصورٍ محفورةٍ لجنود، يعلوها تمثالٌ لعذراء جميلة الوجه. إنها أشهر المسلات. عندما نادت هذه العذراء الطيور، مات بعضها وسقط على الأرض. تدافَعَ الناس لالتقاطها وأكلها، ظانين أنها طعامٌ مقدس.

كان هناك مسلةٌ أخرى، في الموقع نفسه، عبارة عن عمود من الرخام الأحمر. تم نصبها كتعويذة حماية، خلال الإصلاحات التي أعقبت أحد الزلازل. احتوى العمود الأصلي على نقشٍ يمثل طائر الزرزور، ولكن عند ترميمه، أضيف الكثير من الحلقات المعدنية إليه، فصار من بعدها يعرف بـ"حجر الحلقات".

سكت "كارا بيري" قليلًا، ليلتقط أنفاسه. لاحقه الزائر بالمزيد من الأسئلة. أجاب قائلًا:

. للأعمدة الرخامية الستة دلالاتٌ وأهدافٌ مختلفة.. هناك مثلًا ذلك الذي يحمل ذبابةً من البرونز.. الغرض منه هو حماية إسطنبول من الناموس: أما هذا الذي تعلوه صورة ذئب، فيعني أن بإمكان قطعان الخراف في المناطق المحيطة بالمدينة، البقاء في أمان، دون رُعاة. أما ذاك الذي يُمثِّل حبيبين في حالة عناق، فيفترض به حل المشكلات الزوجية.

أردف قائلًا:

. ما زال هناك من يصدق هذه الأمور، ويقتنع بها.

قال ذلك وهو يهز رأسه ويده في انزعاج ودهشة. لاحظ أن

t.me/qurssan

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السوق أصبحت قريبة، وأن مهمته كدليلٍ سياحي توشك على الانتهاء، فقال ما تبقى لديه من معلومات:

- الأعمدة والمسلات في إسطنبول، موجودةٌ لأسبابٍ شتى.. للآفات والأوبئة، وللحرائق، وهجوم الأعداء، والحفاظ على الأخلاق.. باختصار.. لجميع الأسباب المتخيلة. لا يزال الناس يتذكرون الحادث الذي وقع منذ اثنتي عشرة سنة، حين كسر أحد قادة الانكشاريين رأس أحد الأفاعي التي تزين العمود ذا التنانين الثلاثة، والذي يُفترض به حماية المدينة من الثعابين والعقارب وغيرها، فقد ادعى الخارجون عن القانون من ذوي الأصول اليونانية والأرمنية أن الأفاعي تغزو المدينة. حاول رجال السلطان احتواء البلبلة التي بدأت تشيع بين الناس، دون جدوى. الواقع أن الكثيرين لم يتقبلوا فكرة التماثيل التي أحضرها "إبراهيم" باشا، لما أثارته من اضطرابات وتشوش في عقول سكان المدينة.

أصغيتُ إلى كلام "كارا بيري" بانتباه، كما فعل التاجر، لأسلوبه المُشوِّق في القص والشرح. كنا قد ابتعدنا عن قصر "إبراهيم باشا" - الذي بناه بكل تلك الأبهة لإثارة غيظ السلطان على الأغلب - ووصلنا إلى وجهتنا. تتكون السوق من ساحةٍ واسعةٍ، تحيط بها من الجانبين دكاكينُ تزين واجهاتها أُطُرٌ مزخرفة. وفقًا لـ"كارا بيري"، فإن هذه السوق هي الأهم في مجال الحرفيين المتخصصين في إسطنبول.. فهي مخصصة لتجار الورق، والعاملين في تجليد الكتب وتصميم أغلفتها، وصانعي الورق ذي الألوان المتداخلة، ورسامي المنمنمات، وفناني الخطوط المذهبة، وصانعي المحابر والدوَّايات، وحرفيي التطريز بالفضة، والخيوط الحريرية والإبر المستخدمة في جمع صفحات الكتب معًا. تعمل هذه السوق كنقابةٍ للعاملين فيه، وتُشكِّل اتحادًا لتجار الأدوات المكتبية ومستلزماتها.

توقفنا أمام متجرٍ يعرض أنواعًا مختلفةً من الورق.. البردي والبغدادي وورق بكين وورق فيينا. وُضع كل نوع في سلةٍ منفصلة. كان التاجر الذي يرافقنا على موعدٍ مع صاحب الدكان

t.me/qurssan

"رستم آغا". اشتُهر هذا الرجل المسن بصناعة الساعات، ويعد القصر الحاكم أحد زبائنه الرئيسيين. يأتيه الناس من شتى أنحاء العالم، ليصنع لهم ساعاتٍ متميزة، وفق أذواقهم ومتطلباتهم، أو ليشتروا شيئًا مما يعرضه على حوائطه للبيع. يعمل لديه نحو مئةٍ من أمهر الصناع. أما ما يميز ساعاته عن غيرها، فهو استخدامه لأمعاء الغربان في التصنيع، والتي يستخرجها من جوف الطيور بأصابعه.

فهمت عندئذٍ سبب الرائحة الكريهة التي تنبعث من بعض الخيوط المعلقة أمام دكانه.. إنها أمعاء الغربان المغطاة بمواد كيميائية، بهدف تقليل رائحتها النفَّاذة.

غادرنا ذلك المتجر الذي يدير الرؤوس لكثرة الساعات ودقاتها وتكاتها، ودخلنا دكانًا آخر، يجلس فيه عددٌ من الرسامين فوق وساداتٍ مستديرة الشكل، على الأرض، مستغرقين في الرسم فوق صفحات تستند إلى حوامل مائلة. أحسستُ أنني في بيتي الجديد، أو أنه المكان الذي سأقضي فيه بضعة أسابيع على الأقل. تتوسط الدكان منضدة مستديرة، تتجاور على سطحها أكوابٌ خزفيــة تمتلئ بألوانٍ مختلفة. هناك أيضًا مِشطان معدنيان، وأطباقٌ عميقة تحتوي على الرمل، وفُرَشٌ ذات رؤوسٍ بالغة الدقة مغمورة في أكواب ماء. إضافة إلى مواد تلميع، ومساطر لرسم خطوطٍ مستقيمة، ومطاوٍ وسكاكين تقطيع.

انهمك الرسامون في عملهم، وقد علا التركيز وجوههم الشابة، النضرة. يتلقون أجورًا يومية، نظير رسوماتهم شديدة الدقة التي ينجزونها في ثلاثة أشهر. يُزيِّنونَ أيضًا الكتب والمؤلفات ببعض أعمالهم. بين الحين والآخر، يقومون برسم لوحات ذات أبعادٍ حسية وجنسية، لصفوة زبائنهم المقربين.. ينفذونها في غياب أرباب العمل.

الكثير من أولئك الفنانين، يفقدون بصرهم تدريجيًا بمرور الوقت، ويعتمدون في سنواتهم الأخيرة على إحسان من حولهم. لإبعاد شبح العوز الذي يهدد سنواتهم القادمة عن تفكيرهم، فإنهم

t.me/qurssan

يقضون ساعات العمل في الحديث عن روعة إنجازات معلميهم، وقدرتهم الفذة على وصف اللوحات بدقة حتى بعد فقدانهم أبصارهم.

تأملتهم، وشاهدت الإشراق الذي يضيء وجوههم وهم يتأملون القدر الذي أنجزوه من لوحاتهم، بإعجاب.

دلف شيخٌ مسنٌ من الباب، فهبّوا جميعًا لتحيته. كان ذلك "نصوح أفندي"، الذي علّمهم جميعًا أصول فن المنمنمات. نظرًا لتفوقه وتميزه كونه مقاتلًا عسكري بالعصي الخشبية، في شبابه، فقد حمل لقب "السلاحي"، و"المطراقي".. إشارةً إلى الدرع المغلفة بالجلد التي يستخدمها الفرسان في القتال. يعد أكبر رسامي الإمبراطورية العثمانية وأهمهم. كان سيدي "فضولي" قد ذكره أمامي، عدة مرات؛ وفهمت مما قاله إن "نصوح أفندي" كان موجودًا في أثناء دخول السلطان إلى بغداد، ورسمَ لوحاتٍ صغيرة للمناطق التي زارها في العراق، ومنها "الحِلة" مسقط رأس سيدي. تجمع بين الاثنين معرفة كل منهما لـ"كارا بيري". اتفق الأخير مع "نصوح أفندي" على اللقاء اليوم في دكان "حيدر النقاش" في السوق.

بادر "نصوح أفندي" بالإعلان عن حماسته وتشوقه الشديد لرؤيتي. ناوله "كارا بيري" إيايَ، فأمسك بي وقبلني، وتشمم صفحاتي بمحبة، ثم أفاض في الحديث عن "فضولي". قرأ بعض الأبيات، شاعرًا بإعجابٍ شديد، ثم قال مخاطبًا "الأسطى حيدر"، صاحب الدكان:

- أيها الجسور المقدام! أنت أكثرنا تقديرًا للشعر، ولذلك دعني أقدم لك مؤلَف السيد "فضولي"، الذي يدور حول "ليلى" والمجنون. أرجو أن تجمله برسوماتك.

انتفضتُ شاعرًا بأنني أواجه ريحًا تضربني من جميع الاتجاهات؛ ولحظةً، وددتُ أن أصيح بحماسة:

- هذا أنا! وهذه حكايتي!

t.me/qurssan

أبهجتني فكرة البقاء في هذه السوق وهذا الدكان، وتمنيت أن أظل هنا إلى آخر يومٍ في حياتي.

- أنا.. المجنون.. الأمير.. أنا "ابن الملوّح".. أنا من "بني عامر".. ارتبط قدري بالحزن والألم. أنا عبدٌ لسيدي "فضولي".. أحتلُّ كتابه وأعيش بداخل صفحاته.. وأنتِ.. أين أنتِ يا "ليلى"؟

t.me/qurssan

7 في الورشةِ فنية الألوان خلقتني من جديد

نسيج النبوغ يُباع في أسواق هذه المدينة

سوق الحكمة هو نبع المعرفة لطالب العِلم

(نديم)

"حيدر النقاش"، أحد تلاميذ "نصوح أفندي" وأهمهم وأفضلهم، متذوقٌ ممتاز للشِّعر. شعرتُ بذلك حين لاحظتُ بهجته المتزايدة، وتسارع نبضات قلبه في حماسة، وهو ينصت لأشعار سيدي "فضولي". خلال ذلك، كان يغمغم بأبياتٍ من نظمه، من قصائده التي يكتبها تحت الاسم المستعار "نيجاري"، وكأنه يباري "فضولي" ويرد عليه. ألقى مقاطع من الشعر المكتوب على صفحاتي، على الحرفيين العاملين لديه، وحلَّلها وعلَّق عليها، ثم شرح لهم طبيعة الرسومات التي يريد منهم إنجازها، وحدد لهم المواد والألوان التي سيستخدمونها؛ وحتى لا يفقد شيئًا من صفحاتي أو الملاحظات والشروح التي تتبع بعض الأبيات، حَفِظَ ترتيب أحداث الحكاية، ثم عمد إلى تدوين معاني أبياتٍ معينة. نبهتني تصرفات الأسطى "حيدر" إلى أنه على صلةٍ بـ"جمعية بابل". قبل أن يوزع صفحاتي على رسَّاميه، نقل الأشعار المكتوبة عليها بسرعة. خمنتُ أنه يفعل ذلك تجنبًا للمشكلات التي سيتعرض لها في حال فقدان ورقةٍ مني. لم يشأ أن يهمل واجباته تجاه الجمعية.

في الليلة التي فصل فيها أوراقي عن غلافي المتهالك، لتوزيعها على الحرفيين بحسب درجاتهم ومستواهم في العمل، بدأ الأسطى "حيدر" في قراءتي باهتمام وتمعُّن. في بعض المواقع، امتلأت نفسه بالغبطة، وتمنى لو أنه هو من نظم تلك الأبيات البديعة، لكنه لم يغفل - مع ذلك - عن البحث عن أي إشارةٍ إلى "آرشيا آكيلدان"، ومحاولة العثور على شيفراتٍ سرية في أحداث الحكاية.

t.me/qurssan

هذه المرة، أرهق الأسطى "حيدر" العاملين لديه من كثرة مراقبته لكل ما يرسمونه. أمضى وقته في مقارنة الرسومات السريعة التي وضعها "فضولي" بريشته في بعض الصفحات، برسوماتهم الملونة المليئة بالتفاصيل. أراد أن يحافظ على روح "فضولي"، قدر الإمكان. انزعج الحرفيون من تدخلاته المستمرة، غير المعهودة، وبدؤوا يرددون أنه يتصرف بشكلٍ غريب.

تساءلتُ عن كيفية رؤية الناس لي، وعن مدى فهمهم واستيعابهم لمحتواي. سوف يرسم الحرفيون صورًا تناسب سرد سيدي "فضولي". بلا شك، ولكن هل ستعبر أعمالهم عني أنا؟ كنتُ متشوقًا لمعرفة ذلك.

استعان الرسامون بخبرتهم الطويلة التي اكتسبوها خلال أعمالهم الكثيرة، في تزيين صفحاتي، كما لجؤوا إلى كتاب "الكنوز الخمسة" لـ"نظامي الغنجوي". والذي احتوى على رسومٍ رافقت قصة "ليلى والمجنون" ضمن موضوعاته المتعددة؛ لكن بعض المقاطع كانت صعبةً عند الرسم. مثل المشهد الذي أتخلى فيه عن ملابسي وجواهري، من أجل إنقاذ الظبية التي وقعت في الشَّرك، ومثل المشهد الذي أقيد فيه نفسي بالسلاسل ثم أتوجه إلى مضارب "ليلى"، وكذلك المشهد الذي يصاب فيه كلانا بالإغماء عند رؤيتنا لبعضنا البعض.

من جانبٍ آخر، برع فنانو الورشة في تصوير مشاهد مثل ولادة "ليلى" والاحتفالات التي أعقبتها، ومشهدنا ونحن نجلس متجاورين في المدرسة، واللحظة التي اصطحبني فيها رفاقي إلى البرية عقب حرماني من "ليلى" واحتجابها عني، والجزء الذي يأتيني فيه أبي في الصحراء متوسلًا إلي أن أعود معه، والمقاطع التي أرسل فيها من يخطب "ليلى" لي، وإعلان والدها الرفض في كل مرة:

. لن أزوّج ابنتي لرجلٍ مجنون.

t.me/qurssan

صورتني إحدى الرسومات وأنا أتعلق بأستار الكعبة، التي اصطحبوني إليها علها تعيد إليّ عقلي. هنا، كنتُ أصيح:

. يا رب.. ضاعف من حبي لها.

في رسوماتٍ أخرى، تتمُ إعادتي إلى الصحراء، حيث أبدأ في مصادقة الحيوانات البرية. هناك رسمٌ يُظهِر "ورد بن محمد" وهو يلمح "ليلى" للمرة الأولى، فيقع في هواها ويتزوجها. في إحدى اللوحات، يجمع "نوفل" حلفاءه ويدخل في معركةٍ مع قوات عمي، بغرض استعادة "ليلى" وجلبها لي. تبدو "ليلى" وهي تتظاهر بالحزن والبكاء على رحيل زوجها، ثم تأتي للبحث عني، وتجدني وسط الوحوش. الرسومات الأخيرة، تظهرها وهي تملي أمها وصيتها، قبيل وفاتها، ثم وصول النبأ لي، وإسراعي بإلقاء نفسي في قبرها، وموتي المفاجئ إلى جوارها.

t.me/qurssan

مع انتهاء كل لوحة، يتفحصها الأسطى "حيدر" جيدًا. لم يكن يقيّم تناسق التصميم وتوزيع الألوان فقط، بل يحاول البحث عن لغزٍ أو إشارة، أراد أمين مكتبة "مجمع العلوم" الراحل توصيلها له. رغب أيضًا في معرفة الكيفية التي عكس بها سيدي "فضولي" ذكرياته في بغداد، على قصيدته.

أدركتُ عندها أنه يجهل كل شيءٍ عني. أقصد أنه لم يكن يعرف شيئًا عن شفرات "جمعية بابل"، وأن حلها يختبئ بين سطوري. كان يحدِّق إلى الرسومات المصاحبة لأبياتي، وكأنه يدرس خريطة الكنز، أو كأنه يتوقع حدوث معجزة تدله على موقع معبد "عشتار"، وتوضح له طريقة فتح بابه.

الواقع أن جهله بالمسألة أشعرني بقدرٍ من الارتياح، إذ إنه دليل على جهل "جمعية بابل" نفسها بفكرة الشفرة المخبأة بين أبيات القصيدة، وعدم معرفتهم بأمر الخنجر والحزام الجلدي، وإلا لاهتم "حيدر النقاش" بالشِّعر المدون على صفحاتي، بدلًا من تأمل الرسوم التي تزينني.

لـ"حيدر النقاش" تلميذان يتميزان بالبراعة الفائقة، هما "عثمان" و"بروين". يستخدمان فُرَش رسم مصنوعة من شعيرات معدودة من فراء القطط، ضربات فرشهما خفيفةٌ للغاية، حتى تكاد تكون غير مرئية في بعض جوانب لوحاتهما. فتصبح كأنها من خيال الرائي.

يتفنن "عثمان" و"بروين" في دمج الألوان الطبيعية. كالبني الفاتح المستخرج من التراب، والأحمر القرمزي المستخرج من الحشرات، والأزرق النيلي من النباتات. وخلطها بالكحول والكيماويات، لتغيير نسبها وتركيباتها ودرجاتها. يفعلان ذلك بمهارةٍ عالية، تجذب زبائن السوق للورشة، لمشاهدة ما يفعلانه. يبقى بعض الناس لمتابعتهما ساعاتٍ متواصلة.

ناسبت ألوانهما شخصية "المجنون" وملامحه، وبخاصة في المشهد الذي رسمه "عثمان"، والذي يصورني وأنا أرتمي باكيًا فوق قبر "ليلى".

t.me/qurssan

ينبغي عليَ أن أذكر أنني استقبلتُ الكثير من الزوار في دكان "حيدر النقاش". جميعهم لا علاقة لهم . بأي شكلٍ من الأشكال . بـ"جمعية بابل"، وكل ما أرادوه حقًّا هو إشباع حبهم للفنون والشعر، عبر رؤيتي عن قُرب، أذكر منهم المفتي "لطفي أفندي"، الذي جاء منحنيًا على عصاه، حاملًا على ظهره المحدَّب بسنوات عمره الطويلة. كان هو من ترأس اللجنة العلمية التي استقبلت "كريستوفر كولومبوس"، حين أتى السلطان "بايزيد الثاني"، راجيًا تزويده بعددٍ من السفن يكتشف بها العالم الجديد. أشار المفتي بالرفض، متسائلًا في استنكار:

. أي كُفرٍ هذا؟ عالمٌ جديدٌ ونحن نقترب من نهاية الزمان؟!

كان من ضمن من قاموا بزيارتي أيضًا الدبلوماسي النمساوي "بارون دي بوسبيك"، الذي أرسل لبلاده صناديق كبيرة من الكتب وبزور زهرة التيوليب، خلال الفترة التي أمضاها في إسطنبول. جاءنا كذلك بعض أمناء المكتبات، ممن يعملون في قصور الباشوات، يطلبون نسخًا مني لإضافتها لمكتبات سادتهم؛ إلى جانب عددٍ من رجال الدين الإسلامي الذين يحبون القراءة. باختصار، كان الزوار هم صفوة رجال إسطنبول في جميع المجالات، الذين أرادوا الاستمتاع بالاطلاع على بعض صفحاتي.

عليّ أن أذكر ستة أشخاصٍ من أبرز زواري، وإلا فلن تقدّروا أهميتي وقيمتي الحقيقية. أولهم هو "ساطيلميش أفندي"، الذي بدأ حياته المهنية صانع سروج في مدينة "بالق أسير"، ثم جاء إلى إسطنبول لاستكمال تعليمه، فاكتشف في نفسه ميولًا للشعر. وبدايةً من حُكم "سليم الأول"، أصبح ضمن أفضل متذوقي الشعر في المدينة. اشتُهر بين الناس باسم "ساطع بيك". امتلك متجرًا في ساحة مسجد "بايزيد"، يتردد عليه كافة الشعراء من جميع الأعمار والمدارس الشعرية، ساعين لمعرفة رأيه في أعمالهم. كنتُ أحمل له في خيالي صورةً تفيض بالمهابة، ولذلك فإنني حين رأيت رجلًا تجاوز سن الشباب، له جسدٌ ضئيل ولحيةٌ خفيفة، لم أتوقع على الإطلاق أن يكون هو نفسه "ساطع بيك"، أو الشاعر

t.me/qurssan

الشهير "ذاتي أفندي"! صحتُ بيني وبين نفسي، في عدم تصديق:

. مستحيل! غير معقول!

حين أمسك بي وتصفحني، أدركتُ أنه يقول لنفسه بحسرة:

. ليتني كنتُ أنا الذي كتب هذه الكلمات العظيمة!

هناك ثلاثةٌ آخرون، أيضًا. أنهوا مرحلة التعليم المدرسي، والتحقوا بـ"مدرسة الفاتح". يجمع بينهم حبهم الشديد لمادتي التاريخ والأدب. من خلال حوارهم، تعرفتُ إلى أسمائهم. أحدهم هو "عبد الباقي"، ابن مؤذن مسجد الفاتح، والثاني هو "علي" الذي ينتمي إلى مدينة "جاليبولي"، والثالث يدعى "سادة الدين ملا". استمعتُ إلى كلمات المديح التي وصفوا بها سيدي "فضولي" وأعماله، وتوقعتُ أن يحققوا نجاحًا باهرًا في المستقبل.

يتبقى لدينا أهم الزائرين. "خيالي بيك"، الذي لقيت منه احترامًا عظيمًا، والمؤرخ "عاشق تشيليبي"، الذي تخصص في تدوين السير الذاتية للشعراء.

تصفحني "خيالي بيك" صفحةً صفحة، وتبادل آراءه حول العمل مع الأسطى "حيدر". في النهاية، أخرج "حيدر النقاش" الأشعار الغزلية التي كان يضعها في صدر جلبابه، وتلاها وتلا القصائد التي نظمها في معارضتها، وهو يبكي من فرط التأثر.

أما "عاشق تشيليبي"، فقد كان مشغولًا بالتفكير في كيفية الحصول على المزيد من المعلومات عن مؤلفي، وكيفية توثيقها في أعماله. حين تأملت وجهه اللطيف، تمنيتُ لو أنني أستطيع الكلام. تملكتني هذه الرغبة بقوة، أكثر من أي وقتٍ آخر. أردتُ أن أحكي له كل ما أعرفه عن سيدي، وجميع ذكرياتي معه، كي يدونها في أحد فصول كتابه، ويزينها برسوماتٍ بديعة. ربما أفردَ له كتابًا منفصلًا، كي تتعرف إليه جميع المناطق التركية.

أشعرني عجزي عن الكلام بحزنٍ شديد، فقد أحسستُ بالتقصير تجاه سيدي الذي منحني كل هذه العظمة والشهرة. ليس

t.me/qurssan

باستطاعتي تقديم الشكر له، ولا التعبير عن امتناني تجاهه. سوف يعصف بي هذا الشعور ثانيةً، حين سأتلقى مستقبلًا نبأ وفاته. لم تسنح لي الفرصة قط لردِّ جميله. سوف يتذكره كل من قرأني، وسوف يكيلون له المديح الذي يستحقه. أما أنا فسوف أظلُّ إلى الأبد مجرد وسيط ينقل للناس قصة الحب الرائعة، ويصور لهم الجمال الفاتن لابنة البادية.

ورغم الحفاوة البالغة التي يلقاني بها الناس، أينما أذهب، فسوف أبقى عبدًا في أعماقي. عبدًا لسيدي "فضولي"، وخير ما يعبّر عن حالي هو بيته الشهير: "أنا عبد.. تمامًا مثل الحاكم، أنا متسولٌ رائع".

شعرتُ دومًا أنه قد كتبه عني، وليس عن نفسه.

حين اصطحبني "حيدر النقاش" لقسم التجليد والتغليف، أُصبتُ بالذعر. أخذتُ أرتجف فور سماعي لصوت آلةٍ تشبه المقصلة، وهي تهوي بقوة فوق كتابٍ أسفلها. نظرتُ حولي، وراعني أن جميع الآلات والأجهزة تشبه أدوات التعذيب التي عوقب بها زملاء "آكيلدان" في أقبية بابل وزنازينها. أخذتُ أرتعد وأنا أفكر بأن أعضاء "جمعية بابل" ولصوص الآثار يعرفون جميع أدوات التعذيب، ويجيدون استخدامها. أراقب ما يحدث في المكان. يثقبون الجلد بمثقابٍ معدني. ويقطعون أطرافه بسكاكين نصف مستديرة، ويضعون أوراقًا بالغة السُّمك تحت ألواحٍ رخامية ثقيلة، ويخيطون الأوراق ببعضها البعض بخيوطٍ حريرية. يزينون جوانب الأغلفة بقطعٍ من النحاس، ويضعونها داخل قوالب صلبة لعدة أيامٍ متواصلة.

رغم التشابه الأولي بين ورشة التجليد والزنازين، فإن الفرق بينهما في الواقع كبيرٌ جدًّا. فالأولى تعمل على إضافة الجمال للأفكار والمشاعر الإنسانية الراقية المدونة في الكتب، بينما تعمل الثانية على قمع كل ما هو جميل وخيّر، بمنتهى القسوة واللاإنسانية. الآلات الحادة تصنع الحُسن هنا، والعذاب هناك. السكاكين تبرز رونق الجلود هنا، وتنحر الرقاب بوحشيةٍ هناك.

t.me/qurssan

الناس هنا فنانون، وهناك جلادون وقتلة.

النيَّات هي من تصنع الإنسان. أعني أن بإمكان كل شخص أن يكون طيبًا أو شريرًا. جميلًا أو قبيحًا، وفقًا لنيَّاته واختياراته ورؤيته للأمور، هذه هي الأشياء التي تفرق بين مَن باع روحه للشيطان، ومن أفنى حياته لإرضاء رب العالمين. بعض الناس يجيدون استغلال الوقت، بينما يعمد غيرهم إلى إهداره بلا أدنى اهتمام. وجود البعض يضيف معنى للحياة، ووجود غيرهم يفسدها.

بعد إحساسي بالانتعاش والبهجة داخل ورشة "حيدر النقاش"، شعرتُ بالرعب لوجودي هنا؛ لكنني قلتُ لنفسي إنني في اختبار، وعليَ أن أعمل على تهذيبِ روحي كي أتخطاه. عليَ أن أتحمل كل ما يضعه القدر في طريقي.

في البداية، ضغطوا أوراقي بقوةٍ بالغة، ثم قاموا بخياطة صفحاتي مع بعضها البعض. لم أجرؤ على الشكوى، والتزمتُ الصمت. بعدها، سقطت عليَ الآلة الشبيهة بالمقصلة، فأحسستُ كما لو أنها تنزع أظفاري. انطلقت الصرخات مني، دون وعي، لكن الناس في ورشة التجليد لم يعيروني انتباهًا. عقب ذلك، شدوا وثاقي مع غلافٍ من الورق المقوَّى، له ألوانٌ بديعةٌ متداخلة. خلال ذلك، زيَّن عددٌ من العمال غلافًا جلديًّا بنجومٍ ذهبية. لم تفلح تشنجاتي واختلاجاتي في إبعادهم عني. دهنوا سطحي بالورنيش، ووضعوا عليَ أثقالًا، ثم حفظوني داخل صندوقٍ خشبيٍ معتم. لم يسمع استغاثاتي أحد، وكنتُ قد فقدتُ صوتي تمامًا، من الأساس. استمر هذا التعذيب ثلاثة أيام متوالية. الشيء الوحيد الذي أعانني على التحمل هو ترديد اسم "ليلى". ظل حبُّها ينبض في قلبي، ولم تفارق صورتُها عينيَّ. لم أعد أنا. لقد فقدتُ نفسي تمامًا.

بعد بضعة أيام، أخرجني "حيدر النقاش" من الصندوق، ومسحني بقطعةٍ من قماش الكتان. خطر ببالي أن ألقي نظرةً على شكلي الجديد. يا إلهي! هل هذا أنا؟ لقد أصبحتُ عبدًا يرتدي ملابس

t.me/qurssan

الأمراء. لقد قام الرجال اللطاف في هذه المدينة الساحرة بإضفاء البهاء على مظهري، وجعلوه يتوافق مع ما أحمله من جمالٍ داخلي. بدوتُ كأميرٍ يرتدي ملابس موشّاة بالذهب.

أحسستُ أنني عروسٌ في ليلة زفافها، ملابس أنيقة، ومساحيق تجميل، وشعر مصفف بعناية. العذاب الذي تعيّن عليّ احتماله خلال الأيام الماضية، والحبس الانفرادي في ذلك الصندوق المظلم، منحاني جمالًا وثقةً بالنفس. كم وددتُ لو كانت "ليلى" بجانبي الآن، كي أعانقها مرةً أخرى.

"ليلى"! الأمر ليس بإرادتي، ولا في يدي. أعجز عن البحث عنك. هناك من يتحكم فيّ. ويقرر متى وأين سيبيعني. وهناك من سيشتريني. ليتني أستطيع العودة إليكِ. ليتكِ كنتِ من سيبتاعني!

t.me/qurssan

8 صوفيٌّ يطاردني وأفكار تهاجمني

تفيض جوانحي ببهجةٍ خالصةٍ

حتى إنني لا أفكر في ماهية الدنيا

ولا من أكون، ولا من يكون الساقي

ولا ما يكون نبيذه..

(فضولي)

عند عبوري بوابة قصر "توبكابي"، طارت فوقي سبع حماماتٍ رافقتني منذ مغادرتي ورشة تجليد "حيدر النقاش". إنه الحمام نفسه الذي يحمل رسائل صغيرة لأعضاء "جمعية بابل" في جميع أنحاء العالم.

كتب الأسطى "حيدر":

- المكان الوحيد الذي يمكن للعروس أن تحتمي فيه من أعين الحاسدين، هو القصر. هناك، ستحظى بالعناية والرعاية إلى الأبد.

طار ذَكَرا حمام من مقر الطريقة الصوفية البكداشية، في منطقة "آهيركابي"، وعادا بعد ساعة ومعهما حمامةٌ ثالثة، من طيور "حيدر النقاش".

أُسِّسَ مقر الطريقة البكداشية لتوفير العمل والسكن للدراويش الطوَافين من صوفيي الأبدال والقلندرية، الذين يقدمون خدماتهم لجهاز استخبارات "شاه إسماعيل". يختبئ المقر الصوفي في مكانٍ غير ظاهر، داخل بستانٍ لأشجار التفاح، يقع بالقرب من القصر. عرفتُ هذه المعلومات بمحض المصادفة، وأنا بين يديَ الأسطى "أحمد" الذي يعمل في ورشة تجليد "حيدر النقاش".

في ذلك النهار، الذي كنتُ أشعر فيه بآلامٍ رهيبةٍ في جسدي جرّاء خطوات التجليد المختلفة، دخل الورشة صوفيٌّ متجول، معلنًا

t.me/qurssan

أنه يبحث عن كتبٍ جديدةٍ يقرؤها. كان يعلق في حزامه سلاحًا يشبه الفأس الصغيرة، ويلف ذراعه بمسبحةٍ طويلة، ويضع حلقةً في أذنه. تزين صدره وذراعيه وشومٌ لـ"ذي الفقار".. سيف "علي بن أبي طالب". لم يكن يلبس تحت عباءته إلا وشاحًا يميل من أحد كتفيه إلى خصره، وتنورةً قصيرةً تصل إلى ركبتيه.

بعد أن جلس، خلع عن رأسه الحليق العمامة التابعة للطريقة الملامتية، ثم أخرج علبةً صغيرةً من وشاحه، مزج محتوياتها من الأفيون بكوب الشاي أمامه. انكشفت تنورته عن عضوه الذكري. لاحظ الأسطى "حيدر" أن الرجل يضع حوله حلقةً معدنية، فقال ممازحًا:

. أرى أنك تبقي العصفور في الفخ، يا شيخي!

رد الرجل على الفور:

. ماذا أفعل؟ إنه يحاول الطيران على الدوام!

تحدث الدرويش بإسهاب عن الأماكن التي زارها، والناس الذين التقاهم خلال جولاته، والأحداث غير المألوفة التي شهدها. عندما بدأ يخوض في سياسات الدولة، تأكدت شكوك الأسطى "أحمد" وأيقن أن الزائر لم يأتِ لاستعارة بعض الكتب كما ادعى. انتحى بـ"حيدر" جانبًا، موضحًا شكوكه. وافقه الأخير وقال إنه من الغريب أن يكون هذا الصوفي الطواف على هذا القدر من الثقافة والمعرفة في شتى المجالات. فكر قليلًا، ثم قرر أن يرسل وراءه شخصًا يتتبعه ويأتي بأخباره إن استدعى الأمر. عادا إليه، وبادره الأسطى "حيدر" بالقول:

. إن الشخص كثير السفر والتجوال، تفوق خبراته ومعارفه تلك التي يمتلكها من يكتفي بالقراءة فقط، أليس كذلك؟ أخبرنا المزيد عن رحلاتك يا شيخي.

t.me/qurssan

لكن الضيف بدأ يناوره، ويجيب عن أسئلته بردودٍ مبهمة، ثم قال إن اسمه "موسى"، وأنه طاف بإيران و"طوران"، وقطع التلال والأودية، لينشر الحب الذي يدعو إليه "فضل الله الحروفي"، مؤسس الفرقة الحروفية، وليكشف للناس أسرار "الحلاج"، وينقل لهم تعاليم الشاعر "عماد الدين نسيمي". أضاف أنه الآن في وسط رحلةٍ بدأها من بغداد، متجهًا إلى بلاد البلقان، آملًا أن يرشد الناس إلى طريق الحقيقة. يقضي لياليه أينما تَقُدْه قدماه. يكتفي بما يضعه الناس من نقودٍ قليلةٍ في الكوب الذي يعلقه في حزامه. يشرب من العيون والينابيع التي يمر بها، ويأكل من ثمار الأشجار.

أضاف "موسى" أنه قد أمضى الشهر المنصرم بأكمله في سكنٍ للطريقة البكداشية في منطقة "سيوري حصار". عندئذٍ أدركت أننا أتينا من المكان نفسه، وبدأتُ أشك في أنه يقوم بمراقبة "جوكتشا علي".. عليّ أن أصغي جيدًا لكل كلمةٍ يتفوه بها. ومثل الأسطى "حيدر"، لم أقتنع بأن هذا الضيف جاء يطلب كتبًا.. تأكدتْ شكوكي لاحقًا، حين استفاض "موسى" في الحديث. هذا

t.me/qurssan

الرجل أحد جواسيس "شاه إسماعيل"، الذي يفتش عني منذ أن كنتُ في بغداد. لاحظتُ من الطريقة التي تصنّع فيها الأسطى "حيدر" الانشغال باستكمال عمله، بينما كان في الواقع ينصت باهتمام إلى كلام ضيفه، بأنه قد وصل إلى النتيجة نفسها.. وأدركَ حقيقة هذا الزائر الغامض. غادر الأسطى "حيدر" مقعده، وأخرج قطعة جلد الغزال التي كان ينقعها في الماء، ووضعها تحت لوحٍ رخامي ليعصرها جيدًا، ثم التفت نحو الدرويش، وقال له برجاءٍ مصطنع:

. أتمنى يا شيخي أن تخبرنا بما تعرفه عن الحضارات القديمة وأحداثها التاريخية المهمة..

فهم "موسى"، الذي يتصف بالمكر والدهاء، المغزى الذي يحمله هذا الطلب. كان يرجو أن يعثر لدى "حيدر النقاش" عمّا يبحث عنه، ولذلك تغاضى عن ارتياب الرجل، وقرر مجاراته. بدأ يتحدث عن الحملات الصليبية، لاعتقاده أنها مدخلٌ جيدٌ للوصول إلى ما يريده. أخذ يصف تفاصيل ترك الفرسان الغربيين قلاعهم وحصونهم وحقولهم وزوجاتهم، للاتجاه إلى "أورشليم"، لخوض الحرب المقدسة التي تُبارِكُها الكنيسة. قال إن الفرسان وخيولهم خرّبوا كل المناطق التي مروا بها، كما لو كانوا جرادًا اجتاح المدن والبلدات؛ لكنهم حين وصلوا أخيرًا إلى الأرض المقدسة، تعيّن عليهم تحمُّل آلامٍ عظيمة سبّبها لهم المسلمون، الذين كانوا يفتقرون إلى الأسلحة. وصف الروائح الكريهة الناتجة عن احتراق اللحم البشري، عقب إلقاء كرات النار وإطلاق السهام المسمومة على الغابات التي يخيم فيها المقاتلون. بدأ بعدها يقارن بين فضائل شخصيتيّ "صلاح الدين" والملك "ريتشارد الأول"، ثم أخذ يصف الصراع بين الصليب والهلال، وقال إن الجراح التي خلفتها هذه الحروب لا تزال مفتوحةً ودامية.

أكمل:

. والآن، دعني أقص عليك حكايةً جديدةً يا أسطى "حيدر".

قلتُ في نفسي:

t.me/qurssan

- يبدو أنكَ ستكشف سِرَّك عما قليل.

واصل الدرويش حديثه:

- في رابع الحملات الصليبية، قام البابا "إنوسنت" بإعطاء "أندراس" ملك المجر خنجرًا، دون علم أحد. قضى الاتفاق بينهما أن يقوم الملك، عقب استسلام "أورشليم" له، بأخذ الخنجر ومهد المسيح عليه السلام، واستبدالهما بخنجرٍ آخر موجود في معبد "سليمان". الخنجر الأخير ملعون، ويعود إلى المرحلة البابلية. يعلو مقبضه رأس تنين بقرنين.

حين سمعت عبارته الأخيرة، تحطم شيءٌ بداخلي، وأدركتُ أنه يشير إلى خنجر رأس "سيروش"، الذي دفنه سيدي "فضولي" تحت شجرة التوت، في ساحة المدرسة.

استطرد الدرويش بحماسة:

- يبدو أن هذا الخنجر يجلب الموت لكل من يحتفظ به. أراد البابا أن ينهي تلك اللعنة إلى الأبد، بأن يضعه داخل معبد "سليمان". اختار الملك "أندراس" سبعةً من رجاله، وأنعم عليهم برتبة "فارس الكون"، ومنح كل واحدٍ منهم درعًا من الفولاذ المخرَم، له ولحصانه. عهد بالخنجر إلى أشجع رجاله وأكثرهم جسارة، ثم أمر الباقين بحمايته. بعد ذلك، بعث بهم إلى معاقل الأيوبيين، متنكرين في شخصياتٍ متعددة. كانوا يتحدثون مثلنا، ويحرصون على اتباع تعاليم الإسلام، بينما يقومون بجمع المعلومات والبيانات التي يحتاجونها من رجال "صلاح الدين".

في اليوم الثالث، أصدر "صلاح الدين" قرارًا يقضي بمكافأة كل من يجلب له رأس أي جاسوسٍ عسكري. فور سماعهم ذلك، فرّ ثلاثةٌ من الفرسان خوفًا على حياتهم. ارتعب الأربعة الباقون، ما أدّى إلى كشف هوياتهم، وقتلهم في ساحة المعركة. في فوضى القتال الدائر، فصلَ عددٌ من المحاربين العرب الرؤوس عن أجساد بعض القتلى من الصليبيين، الذين لقوا حتفهم قبل يومين، وقدموها لـ"صلاح الدين" باعتبارها رؤوس الجواسيس الفارين.

t.me/qurssan

وصل عدد قتلى الـ"جواسيس الصليبيين" إلى حوالي اثنين وثلاثين شخصًا، خلال أيامٍ قلائل!

صبّ "حيدر" المزيد من الشاي لـ"موسى"، وسأله باهتمام:

. ما الذي حدث للخنجر إذًا؟

. ماذا تعتقد؟ لقد استمرت لعنته حتى يومنا هذا. كان آخر من امتلكه أمين مكتبةٍ ضرير. أقدمَ الرجل على الانتحار، خلال وصول سلطاننا، أطال الله عمره، إلى بغداد. اختفى الخنجر منذ ذلك الوقت، ويقال إن لعنته انتقلت إلى أحد الكتب.

ضحكَ "حيدر النقاش" بصوتٍ مرتفع، وقال له:

. حسنًا، بما أنني ما زلتُ على قيد الحياة، فيمكنك التيقن من أن كتابك الملعون ذاك، لم يصل إليّ.

أما أنا، فلم أجد الأمر مضحكًا على الإطلاق. إذ يبدو فعلًا أن الشفرة التي أحملها بين سطوري هي اللعنة ذاتها. فهناك دائمًا ضحايا، أينما ذهبت، وتعين على كل من امتلكني مواجهة الموت. ومع ذلك لم أشعر على الإطلاق بأنني ملعون. أدركتُ من الحوار الدائر بين "حيدر النقاش" وضيفه "موسى" أنني صرتُ مطارَدًا من اللصوص والعلماء على حدٍّ سواء.

ترى مَن مِن أعضاء "جمعية بابل" فضّل الذهب على العِلم، وقام بكشف أسرار "آكيلدان" لمن لا يستحق؟ مَن منهم فشل في تمييز الخير من الشر، وباع نفسه كجاسوسٍ مزدوجٍ يخدم الطرفين؟ المعرفة أمرٌ بالغ الخطورة، لكن العلماء والمثقفين هم الناس الأكثر احترامًا. ما الذي سيفعله أصحاب العلم والمعرفة بالذهب والثروة؟ وحتى لو افترضنا اجتماع هذه الأشياء معًا، فسوف يظل الصراع بين المعرفة والطمع قائمًا طوال الوقت. قلتُ في نفسي، بغيظ:

. أتمنى أن يموت هؤلاء الخونة بسهامٍ مسمومة!

t.me/qurssan

استمر الحديث دائرًا بين الثلاثة إلى مغيب الشمس. قام "موسى" مودعًا، ثم مدّ الكوب الذي يتسول به تجاه "حيدر النقاش"، الذي وضع فيه قطعة بسكوت، ولوحةً صغيرةً من منمنماته، كي يبيعها الدرويش ويحتفظ بثمنها؛ ثم أوصله إلى الباب. عند خروج "موسى" من البوابة الشرقية للسوق، تبعه أحد مساعدي الأسطى "حيدر"، من بعيد.

في اليوم التالي، أنهى "حيدر النقاش" الرتوش الأخيرة لصفحاتي، بسرعةٍ أزعجتني، وأشعرتني بأنه أصبح يخشاني ويخاف لعنتي، ويرغب في التخلص مني بأسرع ما يمكن.

في الواقع، عرف الأسطى "حيدر" أن زائر الأمس لم يكن درويشًا من الطريقة الملامتية ولا القلندرية، وليس صوفيًا من الأساس، وإنما لصٌ ينتمي إلى عصابةٍ تفتش عن آثار بابل. فكر "حيدر" أن الرجل من أصدقاء "إسماعيل شاه". ثم قال لنفسه:

. أصدقاؤه من الجواسيس منتشرون في كل مكان..

قرر "حيدر" أن الحفاظ على أسرار "جمعية بابل" صارت مهمته الأولى، وعاهدَ نفسه على حمايتها. بعد تفكير، وجد أنني لن أكون آمنًا داخل الورشة، وأن الطريقة الوحيدة لحمايتي هي إنهاء ما تبقى من لمساتٍ أخيرة عليّ، بأسرع ما يمكن، ثم توصيلي إلى القصر. طمأن نفسه بأن الأشخاص المختبئين في سكن دراويش الطريقة البكداشية، لا يجرؤون على الاقتراب من أسوار القصر. اتخذ قرارًا ثانيًا بالإبلاغ عن ذلك السكن المشبوه، خلال أيام. سوف يشيع بين معارفه من العاملين في القصر أن أولئك الصوفيين هم في الحقيقة جواسيس الشاه، ويترك الباقي لهم.

أمضى فترة بعد الظهر بأكملها وهو يفكر في حلولٍ مختلفة، وزار أحد أقربائه ممن يعملون في جهاز الخدمة السرية في القصر، والمعروف بـ"الأهلّة الثلاثة". عرف منه أن جماعةً من ضباط الانكشاريين قد قامت بتشكيل عصابة سرية من نحو عشرين جاسوسًا، مهمتها هي مراقبة السفن في مضيق البوسفور، وتسجيل البلدان التى تنتمى إليها عبر ملاحظة أعلامها، وتدوين

t.me/qurssan

وظائفها ومهماتها إن كانت عسكرية. يقيمون جميعًا في سكن الدراويش، متنكرين في هيئة صوفيين. لوحظ أنهم على تواصل بالسفن الفرنسية، وأنهم ينقلون لهم معلوماتٍ خطيرة عن طريق التلويح لهم بالأعلام، بطريقةٍ معينة. قاموا أيضًا بتأسيس رابطةٍ للشيّالين في "جالاتا"، كوسيلةٍ ظاهريةٍ لكسب الرزق. إلى جانب الأرباح التي تحققها الرابطة، فإنها تمتلك معلومات مهمة عن عمليات التحميل والتفريغ في الميناء، وعند وصول بضائع غير قانونية، يسارعون بارتداء زي الشيالين، ويُهرعون إلى الشاطئ. يتصرفون بثقةٍ في جميع المواقف، معتمدين على مكانتهم ونفوذهم كضباطٍ في الانكشارية.

حين سمع "حيدر النقاش" ذلك، قرر أن التصرف الأمثل يقضي بتسليمي إلى القصر دون إبطاء. كان يدرك أنني سأوضع مع الكثير من الكتب القيمة التي يمتلكها السلطان في خزائنه المقفلة، والمحروسة بعناية؛ وأنه عندما يحين الوقت لفتح أبواب العالم على الفضاء الخارجي، فسوف يكون التقدُّم العلمي الذي يتطور بشكلٍ مطّرد، قادرًا على حمايتي بطريقةٍ أفضل. آمن "حيدر النقاش" بأن "جمعية بابل" سوف تُشكّل من جديد في إسطنبول، باعتبارها مركز العالم المتحضر. هل توجد دولة أعلى مكانةً من الدولة العثمانية؟ هل يمكن لأحدٍ أن يتفوق عليها علميًّا؟ ألم تتنامَ أعداد العلماء والحكماء الذين تحولوا من خدمة الصليب إلى خدمة الهلال، منذ فتوحات إسطنبول؟ كل شيءٍ يدل على أن أعضاء "جمعية بابل" القادمة، سوف يكونون في هذه الأراضي.

قاتَلَ الله اللصوص!

حين دخلتُ القصر وأنا في أبهى حلة، كنت أظن ـ مما فهمته من الرسالة التي بعث بها "حيدر النقاش" مع الحَمَام ـ أنني سأبقى في القصر إلى أن يُكشف عن سر "آكيلدان". رحتُ أتساءل: ما إن كان هذا القصر سيمنحني السعادة أم الأسى؟ هل سيكون العثور على "ليلى" سهلًا أم صعبًا؟ هل سأمتلك نوعًا من السُلطة والنفوذ أم سأبقى خانعًا وخاضعًا لكل من حولي؟ لم أكن أعرف إجابة أي سؤال، لكنني ـ مع ذلك ـ شعرتُ بإثارةٍ بالغة وأنا أنظر حولي إلى

t.me/qurssan

الجدران المغطاة بالفراء الناعم. شكلي الجديد، وجمالي الباهر، باتا يؤهلانني لسكنى القصور الفخمة. أنافس أغلى الجواهر النفيسة في حُسني ورونقي.

لم يخطر ببالي حينها أن أعرف إن كان تزييني على ذلك النحو المترف، قد تم بناءً على أوامر أعضاء "جمعية بابل"، من أجل حمايتي. أم أن الأسطى "أحمد" فعل ذلك ليحظى برضاء السلطان، أو أن الأمر بأكمله من أفكار "حيدر النقاش".

كل ما أعرفه هو أنني أشتاق إلى "ليلى".

"ليلى"! حرّريني ممن جعلوني ملعونًا في غيابك.

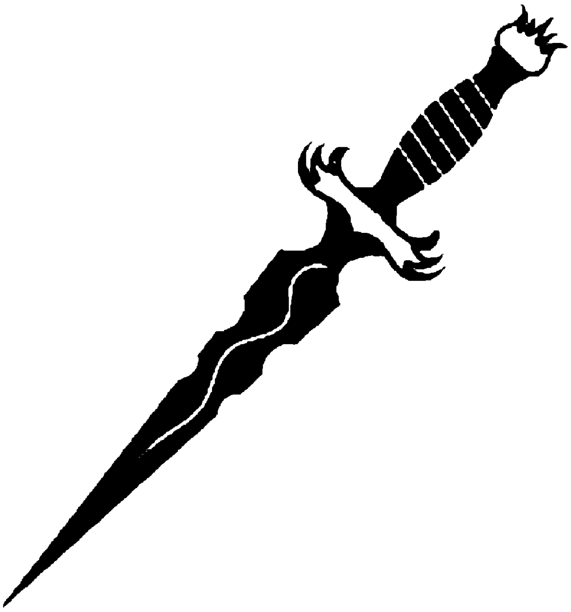

t.me/qurssan

9 شجرة جوز في حدائق "جُلخانة" وعناق "ليلى"

ينعم العاشقُ بالوصال حينًا

ويتعذب بالفراق حينًا آخر

هكذا هي الدنيا..

حزينةٌ حينًا، ونشوانةٌ حينًا آخر

(باقي)

رأيتُ فيها "ليلى"، حين ضممتها إلى صدري. شَعرها نهار. كل من يراها يفكر:

. إنها تحمل الشمس فوق رأسها!

عيناها بالغتا الزُّرقة، تدفعان الناس للقول:

. إنهما قطعةٌ من السماء!

وجهها المشرق يذكّر بالحدائق المشمسة، وتنعكس على قسماته الهادئة الحكايات الأناضولية القديمة. أينما تطأ بقدميها، تتحول الأرض إلى مروجٍ خضراء؛ أما قلبها وروحها فهما الصفاء والنقاء.

كان البرد في تلك الليلة قارسًا وشديدًا. انهمر المطر بغزارة، وصفرت الريح وهي تواصل اندفاعها القوي. تدفأتُ بأنفاسها التي لفحت وجهي. شعرتُ بالاحتراق. أسندت رأسها الصغير عليّ، فهبّت من شعرها المصبوغ بالحناء رائحة عنبر أسكرتني تمامًا. أمضينا الساعات المتأخرة من الليل في أحضان شجرة الجوز العتيقة، التي مر على وجودها مئات السنين، ولم يتبقَ من أغصانها الجافة سوى القليل. التف اللبلاب حول جذع شجرة الجوز، مغرقًا إياها بحبه الخانق. ضربت قطرات المطر أوراق اللبلاب بإيقاعٍ منتظم، يبعث الشجن في النفس. استنشقت الهواء باستمتاع، وكأنها تتذوق الحرية. أحستْ بالإثارة والمغامرة، عقب

t.me/qurssan

انتـهاكها للقوانـين التـي وضعها السلطان، ولتعليمات زوجته الممتلئة غيرة. تزايد الألم في قدمها، وارتعش جسدها الأبيض الذي بلله المطر. تسربت البرودة إلى عظامها. طاردتها الكوابيس بين النوم واليقظة.. لكنها رغم كل ذلك، كانت تشعر بالسعادة. أجهدتها آلام الحمل، ولم تستطع الحركة. حملتني بيد، وأراحت الأخرى فوق بطنها. أرادت أن تبقى على قيد الحياة.

قفزتْ إلى غصن شجرة الجوز، من أعلى أسوار القصر، مستغلةً انشغال الحارس المكلف بتأمين ذلك الجانب من السور. استفادت من الوميض المنبعث من البرق في رؤية طريقها. لم تكن تحمل معها سوى جنينها، ابن الأربعة أشهر وأنا. أبدت الشجرة العجوز ولاءها للقصر، وأطاحت بالمرأة الشابة وأوقعتها أرضًا. في تلك اللحظة، وددتُ لو أن لي يدين أتلقف بهما "ليلى" قبل سقوطها.

بـدأ الحزن والضعف يتسللان إلى روحها، احتضنتُ جسدها الرقيق، كما لو كانت حبيبتي "ليلى".

حين عانقها السلطان للمرة الأولى، قال لها:

- "روكال". لقد ملأتِ ليلتي بالبهجة والسرور، فليكن اسمكِ إذًا "شيبسافا" أو "بهجة الليل".

كان القصر قد اشترى "روكال" منذ أربع سنوات، وكان أول ما قيل لها عند وصولها:

. أن تكوني جاريةً هنا، يعني أن تبرعي في الموسيقى والرسم والأدب والتاريخ والجغرافيا. إن فشلتِ في تعلم هذه الأشياء، فلن تنجحي في اكتساب الرقي المطلوب، مهما تفعلي وأينما تذهبي.

تم شراؤها من سوق العبيد في "يديكول"، وإهداؤها للقصر كونها محظية. كانت لا تزال في السادسة عشرة، و"تقول للقمر قم وأنا أقعد مطرحك" كما يقولون! تجلى الجمال الذي اشتهر به عِرقها، في كل تفصيلةٍ في وجهها وصدرها وخصرها وساقيها. نصب لها القدر شركًا، حين كانت تضع فخاخًا بين الأشجار، لاصطياد

t.me/qurssan

الحيوانات البرية والقوارض والطيور: لمحها تجار الرقيق في منطقة "مينجريليا" بـ"جورجيا"، فاختطفوها وحملوها إلى إسطنبول.

إن أيًا من الحلويات الشهية، أو المشروبات الحلوة، كالتمر هندي وعصير الرمان، لا يمكنها أبدًا أن تنسيها عذوبة ماء الينابيع في بلادها، ولا طعم العسل والجوز في تلك الجبال العزيزة.

ظللنا مختبئين داخل تجويف الشجرة الكبيرة في "جُلخانة"، ونحن نصغي إلى صوت حبّات المطر ونستعيد الذكريات القديمة. لقد أمضث في القصر أربعة أعوام، بينما مر على وجودي هنا نحو أربعين سنة. شهدت تلك الجدران أحزاننا وأفراحنا. لقد غادرنا، وبقيت دموعنا وضحكاتنا هناك.

هل كان هروبنا من القصر فكرة جيدة؟ هل كان أخذي معها تصرفًا حكيمًا من جانبها؟ ما الذي سيحدث لنا الآن؟ وما الذي يخبئه لنا القدر؟ هل سينمو حبنا، أم سيتلاشى؟ هل سنصبح أكثر قوة أم سنستسلم ونموت؟ هل سنضحك أم سنبكي؟ من يدري؟ تداخلت أحلامنا وذكرياتنا، وأشعرتنا بالحيرة والتشتت. سقطت دمعتان من عيني "روكال" فوق غلافي. دمعتان امتزجتا مع ابتساماتٍ مريرة. شاهدتُ من خلالهما رحلة حياتها، ورأيث قصة حبها وما صاحبها من آمالٍ وأمنيات. اشتعلت جذوة الحب في قلبي من جديد. أحببتها كحبي لـ"ليلى".

في الأيام التي تلت وصولها إلى الحرملك، ظلت "روكال" تشاهد والدها ـ الذي كان يتولى دق جرس الكنيسة في بلدتهم ـ في أحلامها، باستمرار. في البداية، لم تكن تتحدث إلا بلغتها، وتردد بصوتها الحزين أغنيةً قديمة تكررها على الدوام:

"إنها مشاعرُ عابرة، وليست حبًّا

فقدري شيءٌ آخر

أمشي وقلبي مثقلٌ بالحزن

t.me/qurssan

الأخبار السيئة تنتقل بسرعة

نانا نا ديدو نانا نانينا".

يتردد صدى صوتها على الحوائط الحجرية الموحشة. لم تكن الأغنية تُعزِّيها، بل تعذبها. كلما استلقت فوق فراشها ليلًا، تترنم باللحن وتردد:

. ناني نا ديدو..

عندما تستسلم للنوم أخيرًا، تستيقظ بعد قليل وقد استبدَّ بها الفزع من الكوابيس التي تطاردها. يلازمها الإحساس بالبرد ويعشش في روحها. سواء وهي تسير في الحدائق ذات الممرات الرخامية، أو وهي تجلس تحت القباب المرتفعة التي تضيئها الشموع أو وهي تتأمل ألوان الربيع في الزهور والنباتات حولها خلال عيد النيروز، وتتناول حلوى العيد المغلفة بالشرائط المبهجة.

بدأت حياتها هنا بخوفٍ عظيمٍ من الخصيِّ المسؤول عن هذا الجناح، والذي يرتدي ثيابًا طويلةً بأقمشة براقة. كانت تخشى

t.me/qurssan

غضبه العارم. لازمها إحساسٌ بأنها في كابوس، وأنها ستصحو منه عمّا قريب. ولكن مع مرور الوقت، بدأت تتقبّل واقعها. كان مما سرّى عنها بعض الشيء، الصداقة التي تجمع بين الجواري القادمات من جزر المارتينيك والجواري الروسيات. كانت حكاياتهن متشابهة إلى حدٍّ كبير، واعتدن مواساة بعضهن البعض. كن يتقاسمن كل شيء تقريبًا، الخبز والفطائر والحلويات، والأفراح والأحلام؛ الشيء الوحيد الذي لا يتشاركن فيه أبدًا هو العطور. ترفض كل واحدةٍ منهن الإفصاح عن نوع العطر الذي تضعه على جسدها وعنقها، حفاظًا على البركة والرخاء ربما. أو من أجل أن يستطيع السلطان أن يفرق بينهن وفقًا للرائحة المتميزة لكل منهن. لكل واحدة من أولئك الفتيات الشابات حكايةٌ هي بطلتها.

خلال فترة حُكم "سليمان القانوني"، كانت الحياة هنا مختلفةً تمامًا. تغير كل شيء في فترة حكم السلطان "سليم". أمّا عندما تسلَّم ابنه "مراد" إدارة الدولة العثمانية، شهدت الحياة في القصر انتكاسًا ملحوظًا، وتدهورًا واضحًا. تدخلت نساء القصر وحريمه في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ تخص شؤون الدولة، بما في ذلك الاجتماعات الرسمية، وقرارات الحروب، والعلاقات الدولية والدبلوماسية.

لـ"مراد" ثلاث زوجات. تهتم الكبرى بشؤون الحرملك، وتقوم بالترتيبات اللازمة لتوفير كل ما يسعد السلطان ويثير اهتمامه. استغلت شغفه بالحكايات غير المألوفة، لإبقائه في غرفته داخل القصر؛ في كل ليلة، تجلب له الحكواتية والرواة والبهاليل، ليسردوا عليه قصصهم الغريبة والطريفة.

إن كلمة "قادن" في التركية القديمة تعني "المرأة المسيطرة" أو "المتحكمة"، وفي هذا القصر الذي تترأسه "خُرّم"، فإن للكلمة رنينًا مميزًا.

ظاهريًا، يحكم السلطان "مراد" الأراضي الشاسعة التي تركها والده وجده، أما فعليًا فإنه لا يجيد إدارتها، ولم يترأس جيوشه

t.me/qurssan

في أي حربٍ أو معركة. اختار أن يتابع شؤون الدولة من قاعات قصره. يُمضي أغلب وقته بصحبة الراوي "طِفلي"، الذي يسليه بحكاياته المشوقة، ويشتت انتباهه عن حقيقة أنه حاكمٌ ضعيف.

في أحد الأيام، تم تقديم "روكال" للسلطان "مراد". كانت لا تزال في السابعة عشرة من عمرها. حمَّموها ودلَّكوا بشرتها الناعمة، وعطروا جسدها، وصبغوا كفيها بالحناء. أشرفت على عملية تجهيزها إحدى الجواري التي اشتراها "خضر خير الدين رئيس"، أو "خير الدين بربروس" كما اشتُهِر، من أحد القراصنة الإيطاليين. عُرِفت تلك الجارية باسم "شيبيري" أو "حورية الليل"، لكن اسمها الأصلي هو "سبيرانزا".

ألبستها "شيبيري" ثوبًا حريريًّا، كشف عن مساحةٍ واسعةٍ من صدرها، ثم وضعت لها خليطًا من العطور المينجريلية على رقبتها، وأوضحت لها بصوتٍ هامس كيف تتصرف بالضبط في حضرة السلطان.

شيعتها نظرات الحقد من عيني الزوجة الأولى للسلطان. دلفت "روكال" كحوريةٍ فاتنة إلى حجرة السلطان "مراد"، بخطواتٍ فائقة النعومة، كريشةٍ لا تكاد تلمس الأرض. شعرت بالإثارة والسعادة، وكأي فتاةٍ أخرى في الحريم، كان هدفها الأول هو إرضاء السلطان لتستمر في زيارته وتصبح إحدى زوجاته. تهدجت أنفاسها وهي تتمنى تحقيق ذلك الأمل. كانت قد قررت أن تصبح جاريةً متميزة، ما دامت لن تغادر هذا القصر إلى الأبد. لا يمكنها البقاء هنا كامرأةٍ عاديةٍ لا يلتفت إليها أحد.

تلقت "روكال" قدرًا جيدًا من التعليم، وتعرف القراءة، وتتقن الغناء منذ كانت تؤدي الترانيم في كنيسة أبيها، كما أنها تعزف على آلة ال"هارب"، وتجيد نظم الشِّعر؛ وأكثر ما تؤمن به هو أنه لا يمكن للمرأة أن تشعر بجمالها إلا إذا كانت بصحبة رجل، وأن الحياة لا تستمر دون لقاءات غرامية وجسدية بين الجنسين.

ولما كانت أفكارها الرومانسية أقوى من أنوثتها الطاغية، فقد قررت أن تبادر بتقديم قلبها للسلطان، قبل جسدها. على عكس ما

t.me/qurssan

أوصتها به "سبيرانزا". كانت تعلم أنه يكتب الشعر الغزلي، تحت اسم "مُرادي"، وأدركت أن اهتماماتهما المشتركة بالشعر والأدب ستجعله يقدّر مشاعرها ووضوحها، وستدفعه لأن يبادلها الحب. سرعان ما فتنته واستولت على قلبه. قصت عليه حكايات من بلدها، وتلت عليه قصائدها الجديدة، وغنت له بلغاتٍ مختلفة. نجحت في إزالة القشرة الخارجية التي تحيط به، واستطاعت الوصول إلى قلبه الحنون. وقع في غرامها، لا بفضل المكر والدهاء الأنثوي، ولكن بحديثها وثقافتها وجَمَعَ الشِّعرُ بينهما.

مع مرور الأيام، لاحظت "روكال" أن البرود والجفاء أصبحا سمة علاقتها بصديقاتها في الحرملك، وعند اكتشافها لحملها، لم تجد بينهن من يمكنها مشاركتها الخبر السعيد. في البداية، لم تهتم كثيرًا للأمر، واكتفت بسعادتها بمشاعر السلطان لها، وحملها بطفله. لكن الأوضاع أخذت في التغير، وانقلبت الأمور رأسًا على عقب.. واختلطت الغيرة بالعداء والأكاذيب. حين لا تكون "روكال" بصحبة السلطان "مراد"، فإنها تبقى في غرفتها، وللتخلص من إحساسها بالوحدة والتوتر تعزفُ على آلة "الهارب"، وتدندن ببعض الأغنيات، وتقرأ دواوين الشعر. لكن وحدتها كانت آخذة في التزايد. لم تعد تتحمل هجر صديقاتها، ونبذهن لها. هل هذا هو الثمن الذي ينبغي لها دفعه لقاء إنجاب أمير؟ وماذا لو كان الجنين بنتًا؟

أنا، "المجنون"، عبد سيدي "فضولي"، تعرفتُ إلى "روكال" في تلك الفترة. أهداني السلطان لها، كي أؤنس وحدتها. جفَّفت الحرف الأسود على أولى صفحاتي، ببعض الرمل الناعم من أدواتها الكتابية الخاصة، ثم تلمستني بأطراف أصابعها وقبَّلتني. كانت تلك هي القبلة الثالثة التي أتلقاها، في الموقع نفسه الذي طبعت فيه "ليلى" شفتيها من قبل، وهي على ضفاف "دجلة"؛ ثم تكرر الأمر ذاته من سيدي "فضولي".

بدأت صداقتنا بطريقةٍ مفاجئة. كان ذلك مساء اليوم الذي دفعت فيه الغيرة بعضهن لمحاولة الإيقاع بينها والسلطان، وإبلاغه بأنها تنوي تنشئة طفلهما القادم أميرًا مسيحيًّا، انتقامًا لأسرها

t.me/qurssan

وتحويلها إلى جارية. قبل أن أنام على وقع نبضات قلبها، حرصتُ على أن أكشف لها المعاني العميقة لأبياتي، وبخاصة تلك التي تبدو غامضةً للوهلة الأولى. أردتُ أن أفرحها وأن أزيل عن نفسها مشاعر الأسى. هزّتها قصة الحب التي خلّدها سيدي "فضولي"، وراحت تفكر في "ليلى"، وتخيلت نفسها مكانها.

كيف كان بإمكاني أنا أن أشعر بالسعادة، في حين تعاني حبيبتي "ليلى" العذاب؟

في تلك الليلة، فتحتْ و"روكال" قلبينا لبعضنا البعض. أدركتُ أنها تفهم معنى وجودي، فقد خاطبتني مباشرةً وتحدثت إلي. باحت لي بجميع أسرارها، ثم راحت تقرأ أبياتي بصوتٍ مسموع.

في تلك الليلة، وجد كل واحدٍ منا عزاءه في الآخر، وعانقنا بعضنا البعض. كانت ليلةً عظيمةً، وحبًّا عظيمًا.

مرّ شهرٌ كاملٌ على آخر لقاء جمع بين "روكال" والسلطان. عمدت الزوجة الأولى، والخصيّ الرئيسي، إلى إغداق الهدايا والعطايا على الرواة، حتى يلازموا السلطان كل ليلة، وينام على صوت حكاياتهم الشائقة. حين يسأل عن "روكال"، تكون إجابتهما التي لا تتغير هي أنها مريضة.

قبل يومين من هروبها، زارتها الزوجة الأولى في غرفتها لتخبرها أن المهد الذي طلبته لطفلها القادم، لن تتم صناعته. أبلغتها أيضًا أن الداية ستنهي الوضع بأكمله، عقب ثلاثة أيام. خلال اختبائها في تجويف شجرة الجوز العجوز، حلمت "روكال" بالمطر، وشعرت بالسعادة كما لو أنها تهز مهد صغيرها المتكور في بطنها. حين أشرقت شمس الصباح، لم ترَ الفتاة الشبيهة بأميرات الحكايات الخيالية الخصلات الفضية التي غزت شعرها. أدركتْ أن ذلك هو الثمن الذي وَجَبَ عليها دفعه، لقاء السعادة التي أحست بها بسبب حملها.

t.me/qurssan

10 حكايات السلاطين والمكانة الرفيعة

نفضّل خبز وطننا، وماء وطننا

على ولائم العالم الفاخرة

ونحبّ بيوتنا الضيقة

أكثر من قصور غيرنا

(باقي)

غفت "روكال" داخل تجويف شجرة الجوز، وهي تضع يدها على صدري. لحظات، امتلكتني رغبةٌ قويةٌ في تسلق أطول فروع الشجرة، لأرى من جديد الأربعين عامًا التي قضيتها بين تلك الجدران. من السهل قول ذلك. أربعون عامًا بالضبط. ما زلت أذكر اليوم الذي التقيتُ فيه "القانوني". لم أصل القصر باعتباري عبدًا لسيدي "فضولي"، وإنما جئته رسول تعزية للتخفيف من آلام الأب الذي تحطمت حياته فجأة، بفقدانه لابنه الأمير "محمد". كم مرةٍ اشتعلت نيران الألم والحنين في قلبه! وكم مرةٍ أديتُ واجبي في إلهامه السلوان!

لقد أحبني السلطان "سليمان"، واحتللتُ مكانةً خاصةً في نفسه.

أمضيتُ عشرين عامًا داخل الحرملك، بين حريم السلطان. نصف عمري بالضبط. أمّا النصف الثاني فقد قضيته في الحفلات الموسيقية والغنائية التي تؤديها الجواري ليلًا، أو في الأجنحة السكنية للخصيان نهارًا. في الحالتين، كان يتم التعامل معي باحترامٍ بالغ، وبمنتهى العناية، وأوضع دائمًا على قاعدةٍ رخامية.

عندما كنت أستمع إلى أغنيات الجواري، التي يؤدينها من مقاماتٍ مختلفة كالسوزناك والنهاوند والحجاز، كان يخيّل إليّ أحيانًا أنني ألمح "ليلى" مقبلةً نحوي. أمّا الجلسات الشّعرية التي تتم في حضرة السلطان، فقد منحتني إحساسًا هائلًا بالنشوة والسعادة، كما تمّ تدريسي للمتفوقين من طلبة مدرسة القصر الموسيقية

t.me/qurssan

الذين يتعلمون وفقًا لإيقاع "سفيان" العثماني. تأرجحت مشاعري خلال تلك الدروس بين السعادة من جهة، والحزن من جهةٍ أخرى، وبخاصة حين تتناهى إلى سمعي الحكايات الممتلئة شوقًا وأسى، التي يتبادلها الأطفال والفتيان الذين يشار إليهم بالـ"دوشيرمه"، والذين أُخِذوا من عائلاتهم بالقوة، وجُلِبوا إلى تركيا لتنشئتهم في خدمة الإمبراطورية العثمانية.

أتذكر المرات التي ضبطت فيها نفسي متلبسًا بالاستمتاع البالغ بالموسيقى، لدرجة أنني كنت أتمنى الرقص على أنغام الكمنجة والعود والقانون والناي والبان فلوت. الآن فقط، أدرك أنني لم أقدّر سعادتي حينها حق قدرها. كان الشعر والموسيقى، بداخل القصر، توأمين لا ينفصلان. الحفلات الصغيرة التي اعتادت الجواري، المسؤولات عن الشؤون اليومية للقصر، إقامتها للتسرية عن أنفسهن ليلًا، كانت تتسم بمزيجٍ من الغموض والفطنة والمكر.

تعلمتُ المزيد من الكلمات الجميلة بين جنبات هذا القصر، وتعرفتُ فيه إلى نوعٍ جديدٍ من أنواع الشِّعر. القصائد القصيرة التي تنتهي بعبارةٍ ساخرةٍ، أو حكمةٍ معبرة. عندها، كنت أشعر برغبتين متناقضتين في آنٍ واحد، أن أضحك وأن أبكي. في قاعات القصر، امتزجت التسلية والمرح بالسياسة العالمية، في الاجتماعات التي يعقدها السلطان مع معاونيه ورجاله، عقب انتصاره في الغزوات والفتوحات المختلفة. تعلمتُ خلال فترة

t.me/qurssan

حكم السلطان "سليمان القانوني" أن أميز من طريقة الاحتفالات والنغمات الموسيقية المتسللة من خارج القصر إلى داخله، مَن الذي مُنِحَ صلاحياتٍ جديدة، وما طبيعة تلك الصلاحيات والمسؤوليات. على أي حال، من الذي يستطيع وصف سعادة الشعب بقائده؟

مرت سنواتي الأربعون بين الولائم الاحتفالية وخوض الحروب، فهذه هي حياة القصور؛ ولائم وحروب. إنهما الأمران اللذان انتقلا بين السلاطين العثمانيين في جيناتهم الوراثية، والتي حملوها معهم - في الأساس - من آسيا الوسطى. إنهما جزءٌ أصيل من شخصياتهم التركية حتى النخاع، ومن مفهومهم وفلسفتهم في الحياة، ولائم ومسرات احتفالًا بالانتصارات، ومحاولة تحقيق انتصارات جديدة من أجل المزيد من المتعة والسرور. يرافق اللهو والتسلية مناقشاتٌ جادة في شتى المجالات، مصحوبة بالموسيقى. ثم تأتي ليالي الشتاء الطويلة، التي يتصدرها الشِّعر. تُتلى فيها القصائد، وتتبعها سجالاتٌ حولها. شرفتُ عدة مرات بقراءتي من البداية إلى النهاية. ليس هناك من لم يتأثر بحكايتي ويتألم لتفاصيلها. يخيّل إليَ أن سيدي "فضولي" سيدخل الجنة دون حساب، لكثرة الأدعية الطيبة التي يرددها رواد القصر له عقب كل مرة يسمعون فيها حكاية "ليلى" وحبيبها "قيس"، بقلمه.

حمل القصر لقب "باب السعادة". تنتشر في طرقات هذه المدينة، وبين الناس، المهارة والحكمة والبهجة. حرص "سليمان القانوني" على توفير السعادة لأفراد شعبه، ما جعل الدولة في حالة استقرار. عشتُ حياةً آمنةً ووادعة، تخلو من الخوف والقلق، لدرجة أنني نسيتُ تمامًا رجال "جمعية بابل"، ولصوص الآثار، الذين يبحثون عني، ويتحينون الفرصة لسرقتي.

شيَّد السلطان "محمد الفاتح" مبنى سكنيًا في أكثر مناطق القسطنطينية تميزًا، والمسماة بـ"زيتينليك"، نسبةً إلى بساتين الزيتون المنتشرة فيها. يقع المبنى على جبلٍ تنتشر فيه الأشجار، يطل على البحر؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن فخمًا، وليس به شيء من ملامح القصور، فإن الناس أطلقوا عليه اسم "القصر

t.me/qurssan

الجديد". في فتراتٍ لاحقة، في "عصر الخزامى" تحديدًا، أصبح المكان يُعرف بقصر "توبكابي"، وصارت الأرض المحيطة به تحمل اسم "سراي بورنو". في تلك الأيام، كانت المباني هنا أقل مما هي عليه الآن، والحدائق أصغر مساحةً. أصرّ "محمد الثاني" على عدم قطع أي شجرة خلال تنفيذ البناء، وهو ما شكّل معضلةً ضخمةً للمهندسين والبنائين.

في اليوم الأول لوصولي، دخلت من الساحة المخصصة لانطلاق المواكب واستقبالها، المعروفة بـ"الباب الهمايوني"، من جهة "آيا صوفيا". انتشرت الزينة في المكان، وامتدت الشرائط الملونة بين جذوع الأشجار. أحاط فرسان سلاح الخيّالة بموائد تمتلئ بالطعام. فهمت لاحقًا أن "خُرّم" قد أنجبت أميرًا قبل يومين، أطلقوا عليه اسم "جهانجير".

ولجتُ القصر من البوابة الوسطى، حيث تجمّع الخصيان ذوو البشرة البيضاء، وتوجهتُ من هناك إلى غرفة المعاملات. ما زلتُ أذكر كيف تهلّل السلطان "سليمان القانوني" عند الإشارة إلى سيدي "فضولي"، وتحدث عنه بمودةٍ بالغة، وعلّق بأنه كان قد أمر له بمرتبٍ قدره تسع عملاتٍ فضية.

خلال السنوات التي أمضيتها في القصر، شهدتُ التوسعات التي نالت مركز القيادة والقوة هذا. أُضيفت إليه ملحقاتٌ متعددة؛ مطابخ وأفران، وساحة أسلحة، ومخزن لحفظ الأسماك، ومرفأ صغير للمراكب الخشبية، وقاعة مُقبّبة في الساحة الثانية للقصر، ومركز لصناعة السلال، وغيرها من المباني والممرات المسقوفة. استقررتُ في النهاية داخل صندوقٍ خشبي في الخزنة الإمبراطورية، التي تضم أسلحةً مرصعةً بالأحجار الكريمة، إلى جانب الجواهر النفيسة التي تلقّاها القصر كهدايا من بلدانٍ أخرى، وكنوزٍ شتى حصلت عليها الدولة غنائم حرب.

الواقع أن الأوقات التي أمضيتها داخل صندوقي، كانت معدودة. فقد كنت في قاعة السلطان أغلب ليالي الشتاء، وفي الكثير من فترات العصر الحارة في الصيف. في بعض الأحيان، كنت أقضي

t.me/qurssan

ساعاتٍ من يومي داخل حجرة إحدى المحظيات. وفي معظم الأحيان، بصحبة كبار الموظفين في مكاتبهم. تختلف الأمزجة والأفكـار والمشـاعر والأفـراح والأحزان، بـاختلاف القـاعات والحجـرات والقرّاء. لكن الشيء الثابت الذي لا يتغير في هذا القصر هو روح المنافسة، التي تخلق جوًّا من الأسى في المكان. تحتـدم المنافسـة بـين الجميع عند غياب السلطان "سليمان القانوني" وابنه "سليم" عن القصر، حين يسافران في بعثاتهما المختلفة، عندها تتزايد الصراعات والاحتكاكات وتصبح أكثر وضوحًا، وتتحول إلى خُططٍ ومؤامراتٍ ودسائس. هذا ما جعلني أظنّ - في بعض الأحيان - أن الحياة خارج القصر أكثر سعادةً.

في أثناء فترات حكم السلاطين الثلاثة، الذين تولوا إدارة الدولة تباعًا، خلال وجودي في القصر، راقبتُ كيف تُدار الإمبراطوريات العظيمة، وأدركتُ أن الحُكم مسؤوليةٌ جسيمة. لاحظتُ أيضًا أن الحُكم والدولة، عقب وفاة "القانوني"، قد اختُزلا ليصبحا القصر نفسه، وهو ما جعل تلك الجدران الكئيبة تبعث نوعًا من الخوف والإجلال والإعجاب في نفوس الناس، والشعوب الأخرى. لطالما أردتُ أن أسأل أولئك الذين ينظرون إلى أسوار القصر من الخارج بفضول، وهم يفكرون في طبيعة الحياة داخله: "كم يومًا تودون الإقامة هنا؟"

أنا متيقن من أنه، عقب وفاة "سليمان القانوني"، لم يعد هناك من يرغب حقًّا في البقاء بين جدران هذه المباني.

مَن مِن أولئك الذين يحسدون ساكني القصر، سيتحمل الرياح الباردة التي تهب على ممرات القصر ودهاليزه على الدوام؟

على أي حال، وعلى الرغم من كل شيء، فقد بقي بعض الأفراد في العالمين المسلم والمسيحي يحلمون بسكنى القصر ولو ليلةً واحدة، فيما طمح عددٌ آخر إلى أخذ أي شيء من ممتلكات القصر. مهما تعرض هذا المبنى للإهمال، سيبقى محط إعجاب البعض، دون شك.

أضاء انعكاس الثلج الناصع على وجه "روكال"، خديها الحمراوين.

t.me/qurssan

استمرت في احتضاني وهي تجلس في تجويف الشجرة، فيما واصلتُ التفكير في الأربعين سنة التي أفنيتها في هذا القصر.

أمسك بي الكثيرون، وتحسسوا جسدي، وربَّتوا على وجهي، للدرجة التي جعلتني أشبَه نفسي . في بعض الأحيان . ببائعات الهوى حول أسوار المدينة. اتسخ ثوبي، بعض الشيء، مع مرور الوقت، وتقشرت أجزاءٌ صغيرةٌ من ألواني في بعض المواضع. أصبحتْ صوَر "ليلى"، التي تركتها منذ زمن في بلاد ما بين النهرين، وقصة حبي المقدس، أشياءَ منتهكة ومفضوحة. بكيتُ في بعض الأوقات، عندما شعرتُبأن حواراتنا أنا وحبيبتي، تفتقر إلى الخصوصية، وأنها متاحةٌ للجميع؛ لكن أحدًا لم يشعر بحزني أو دموعي، في "باب السعادة".

أضفيتُ الحيوية والشباب على قلب كل مَن قرأني، كنتُ أشعر بذلك، لكن عيون البعض وهي تتأمَّل الصور التي تجلس فيها "ليلى" بجواري، أتعبتني. أرهقتني كذلك أحاسيسهم الصادقة، وتعاطفهم معنا ومع حبنا الذي أماتنا في نهاية الأمر. بللتني دموعهم، وأفسدتْ صفحاتي، وملأتها ببقعٍ دكناء. في كثيرٍ من الأحيان، شاركتهم البكاء والأحزان. قد تعضُّ إحدى المحظيات شفتها في أسى، وقد ترمق الصور التي أعانق فيها "ليلى" في الصحراء بقدرٍ من الاشتهاء والرغبة. عندها أشعر بالغضب وتجف دموعي على الفور. لا أتحمل فكرة أن يتعامل أحدٌ مع حبي بنوعٍ من الفسق أو الخلاعة. إن كُن يبحثن عن هذا الجانب تحديدًا، ويرغبن في رؤية صورٍ ماجنة، فليتركْنَنِي وليبحثن عن كتاب الـ"باهنامه" في مكتبة القصر. أردتُ أن يبقى حبي طاهرًا وعفيفًا. ربما كانت جرأة بعضهن هي الثمن الذي وجبَ عليَ دفعه، نظير الاطلاع على أسرار القصر وخباياها، ومشاهدة الجواري العاريات.

لن أنسى ما حييت الطريقة التي كنتُ أنطلق فيها من أعماق قلب من يقرؤني إلى قلوب الجالسين حوله، في الليالي التي تضيئها النجوم، في حدائق القصر بـ"زيتينليك"، وقد أحاطت بنا أصوات الجنادب والسناجب وطيور البوم.

t.me/qurssan

بين الحين والآخر، كنت أغفو بين يدي والدة السلطان، وفي أحيانٍ أخرى فوق صدر زوجته الأولى "جلبهار"، أو إلى جوار "ديليفروز".. تغطيني خصلات شعرها.

في بعض الأوقات، كنتُ أمضي الليل ساهرًا وأنا أستمع إلى حكايات كبار العساكر المسؤولين عن تأمين حراسة القصر، وكبار الموظفين ورجال الدولة، وهم يستعيدون ذكرياتهم مع حبيباتهم في بلدانهم.

لكن أكثر من كان يبحث عني، ويواظب على استعارتي هو "يامالي مصطفى"، الذي يعمل في مطابخ القصر.

في ذلك الوقت، كانت فترة حكم "القانوني" توشك على الانتهاء. في الليالي الشتوية الطويلة، وبعد أن تُغلَق أجنحة الحريم، وبعد أن يخلد كل من في القصر إلى النوم، يبدأ "يامالي مصطفى" في قراءة صفحاتٍ مني على العزّاب من رفاقه من الحرس والعمال. كانت كلماتي توقظ مشاعرهم وتُذكِّرهم بالجانب الإنساني في شخصياتهم. كانت هذه القراءات تسعدهم، وتشعرهم بالعرفان تجاه صديقهم. تعلم "يامالي مصطفى" القراءة على يد أسطى حلويات دمشقي، عندما كان يعمل مساعدًا له وهو طفلٌ صغير.

في الليالي التي يجمع فيها أصدقاءه لهذه القراءات، كان يستعد أولًا بتحضير بعض المزّات التي يتسلل لأخذها من المطبخ، دون علم الموظف المسؤول شيئًا عن ذلك؛ كما كان يحضر القليل من نبيذ الأمير "سليم"، ويتناول ورفاقه رشفات صغيرة منه. ما أثار دهشتي في تلك السهرات، هو اكتشافي الجوانب السرية في حياة هؤلاء الرجال. نهارًا، كانوا يثيرون الاحترام والخوف في قلوب الناس، بسبب صرامتهم الشديدة. يشعر البعض تجاههم بنوعٍ من الغيرة والحسد بسبب النفوذ الذي يتمتعون به؛ لكن ما إن يأتي الليل، وتبدأ هذه السهرات والقراءات العاطفية، حتى تسيل دموعهم، ويجهش بعضهم بالبكاء كالأطفال الصغار. لكلٍّ منهم "ليلاه" التي تركها مضطرًا في بلاده البعيدة، وودعها بقلبٍ يعتصره الألم.

t.me/qurssan

في تلك اللحظات، كنت أشعر أنني أكثر حظًّا منهم.

وضعت "روكال" أصابعها التي جمّدها البرد على صدرها، وبدأت تحلم ما إن أغمضت عينيها. كانت في بيتها القديم في جبال القوقاز، تنصت إلى الحكايات التي ما زالت تحفظها وتحنُّ إليها.

قلتُ لنفسي: "لقد بقيت حكايات عائلتها معها، أينما ذهبت. فماذا عني؟ ما الذي أحمله معي من هذا القصر وسوف يبقى معي أينما أرحل؟".

حاولتُ أن أتذكر كل شيء، وتوالت الأحداث المهمة أمام عيني. تذكرتُ مثلًا أن كبار الخصيان كانوا يتفحصونني بدقة، كل سبع سنوات، للتيقن من تماسك صفحاتي وغلافي. أدركتُ حينها أنهم أعضاءٌ في "جمعية بابل" ولا شك. وعادةً، كنتُ ألمح بعض النساء بصحبتهم. كن من المحظوظات اللواتي تمتعن بفترة حكم "سليمان القانوني".

واقع الأمر أن القصر لم يخلُ قط من أعضاء "جمعية بابل"، في مختلف فترات الحكم، لكن أحدًا غيري لا يعرف ذلك. كانت مهمتهم الأساسية هي التيقن من سلامتي، والحفاظ عليّ. أغلب الظن أنهم فشلوا في تمييز الشيفرات التي أحملها بداخلي، نظرًا لضآلة علمهم وثقافتهم. كانوا - من جانبٍ آخر - يخافون السلطان "سليمان القانوني".

حين بدأت "خُرّم" تمد أذرعها في كل صوبٍ واتجاه، وراح نفوذها يتزايد، كانت سلطات السلطان قد بدأت تضعف بشكلٍ ملحوظ. في تلك الفترة، صار من المعتاد أن يُخبّئني المسؤولون عني في غرفٍ مقفلةٍ، كل ليلة. عينت "جمعية بابل" ثلاثة رجال لتفحصي والاطلاع عليّ بشكلٍ دوري. كانوا يقرؤون أبياتي، لا بنيّة كشف أسراري، وإنما لمجرد الاستمتاع واستعادة ذكرى "مردوخ" العظيم. آمن جميع أعضاء الجمعية بأن العِلم لم يتقدم بما يكفي للسماح لهم بمواصلة أبحاث الفضاء، وتم الاتفاق على أن يظل أمر الجمعية سرًّا، إلى أن يحين الوقت المناسب.

t.me/qurssan

من كل أعضاء الجمعية الذين عملوا في القصر، كان السوداني "عبد السلام آغا" هو الوحيد الذي يفهم معنى الحب، ويجيد القراءة. كلما سنحت له الفرصة، اصطحبني إلى حجرته، وقرأني بتمهلٍ وتركيز، على ضوء الشموع. كان يقرأ البيت الواحد عدة مرات، ويرتب الأبيات وفق عملياتٍ حسابية يقارن فيها بين الحروف الأبجدية وما يقابلها من أرقام. يدوّن النتائج في دفترٍ يحرص على ألا يراه أحد. لم أكن أدري حينها ما الذي كان يفعله بالضبط بتلك النتائج والحسابات، ولكنني كنت موقنًا أنه يقوم بنقلها لشخصٍ خارج القصر.

قبل نحو سنة، دسّني تحت قميصه وخرج بي متوجهًا إلى منزلٍ مجاور لجامع "كوجا مصطفى باشا". هناك، أخرجني لشخصٍ لم أتعرَّف إليه، يرتدي ملابس العلماء. تحدث بلكنةٍ يونانية، وقال ناصحًا:

. إذا أردتَ أن تحل لغز هذا الكتاب، فعليك حصر الأبيات التي تذكر كلمة "حب".

سرت الرعدة في جسدي، وأحسست بالغدر والخيانة. ماذا لو تم كشف السر الذي وضعه سيدي "فضولي" بداخلي؟ هل سأنتهك ثقة "فضولي" فيّ، إن حدث ذلك؟

تمنيت، في الأيام التالية، أن يتمزق غلافي وتتساقط صفحاتي.. ذلك يشبه أن يدعو الإنسان على نفسه بالشلل.

أضاف الرجل اقتراحًا جديدًا:

. لنقم الآن بنسخ الأبيات التي تذكر كلمة "حب"، ولنترجمها وفقًا للكتابة المحفورة على المسلّة الموجودة في ميدان "آتميداني".

أمعنت النظر في الرجل. كان يتزين بسلسلةٍ تنتهي بقرص الشمس الذي تقدّسه الحضارة الآشورية. تأملت الشمس جيدًا عن كثب. كتاباتٌ مسماريةٌ على أحد الجانبين، وصورة لـ"نبوخذ نصر"، الملك الكلداني الذي حكم بلاد ما بين النهرين قبل أربعة آلاف سنة، على الجانب الثاني. تداخل مع القرص رأس الكائن الخرافي

t.me/qurssan

"سيروش".

في تلك الليلة، تولى "عبد السلام آغا" قراءة أبياتي التي تحتوي على كلمة "حب"، بينما راح الرجل الأسمر يُدوِّنها بدقة. عندما فرغا من ذلك، كان لديهما ستة وستون بيتًا. لحسن الحظ، لم يكتبا هذه الأبيات بترتيب حدوثها في الحكاية، وإنما وفقًا لحساباتهما الخاصة.

في الليلة التي غادرتُ فيها القصر بصحبة "روكال"، تمنيتُ أن أرى الأسى الذي سيرتسم على ملامح "عبد السلام آغا" عند إدراكه أنه فقدني. كنتُ متشوقًا، في الوقت ذاته، إلى معرفة الطرف الذي يقوم بنقل المعلومات له، ومعرفة الاتجاه الذي يطير إليه الحمام ذو الحلقان اللامعة.

إلى جانب حبي الكبير لـ"روكال"، فإن من الأسباب الأخرى التي دفعتني للذهاب معها رغبتي في الهروب، وروحي التوّاقة للمغامرة على الدوام. لا أدري إن كنتُ سأظل أشعر بالأمان في المكان الذي ستأخذني إليه "روكال"، كما كان حالي داخل القصر، لكنني فررتُ من شخصٍ كان يوشك على فك شيفرتي.

ربما كنتُ مخطئًا في تخوفي، وخاصةً أنني لم أكن أستطيع التمييز بين أعضاء "جمعية بابل" - الذين انصب اهتمامهم على الانتقال بين المجرات وموضوع الثقوب السوداء - ولصوص آثار "بابل"؛ لكنني خشيتُ أن أصبح مهددًا إن عرفوا بأمري. أكثر ما أثار قلقي هو ارتفاع عدد الناس الذين يبحثون عني، ويقومون بجمع نسخي المختلفة، من أجل تحليلها وتفحصها بدقة. كانوا يلهثون وراء أي نسخةٍ يسمعون عنها من "ليلى والمجنون"، في سعيهم المحموم للعثور عليّ. إنني متأكد - كما أنا متأكد من حب "ليلى" - من أن اختلاف شكل النسخ، وحجم أوراقها، وترتيب بعض أبياتها، يثير غيظهم وجنونهم. فكل كتاب منها، يمنحهم نتائج مختلفة لحساباتهم، وأتوقع أن المسألة تنتهي في كل مرة بمجادلات وشجارات وشتائم متبادلة.

سوف يعيدون حساباتهم، فور حصولهم عليّ.

t.me/qurssan

في كل مرة، يُهرعون للحصول على أي نسخةٍ يجدونها، آملين أن تكون أنا. لكن أيًّا منها لا يشبه الآخر. كُتِب بعضها بخط الرقعة، وبعضها الآخر بخط النسخ، إلى جانب ما كُتِب بخط التعليق الفارسيِ الأصل. اختلف عدد الأبيات في مجموعةٍ منها، وقام الخطاطون باستبدال أماكن بعض الأبيات، ووضعها بترتيبٍ جديد. أثارت هذه الأمور الحيرة والبلبلة بينهم، وجعلت عددًا منهم يعيد التفكير في جدوى هذه المهمة من الأساس. أنا وحدي من يملك القدرة على حل اللغز، لأن من كتبني ويعرف تفاصيلي هو سيدي "فضولي" نفسه. هو من خبّأ شيفرة "معبد عشتار" بداخلي. إن كانوا يريدون الوصول إلى الأسرار العلمية الخطيرة لـ"جمعية بابل"، أو يرغبون في الاستيلاء على التماثيل الذهبية الخاصة بالمعبد. فإن عليهم العثور عليّ أولًا. سوف يدركون عمّا قريب أنه من المستحيل أن يخوضوا هذه الرحلة، بمجرد البحث عن نسخٍ من "ليلى والمجنون".

في السنوات الأخيرة، طاردني هاجس أن كل من يعرف الهيروغليفية، ويستطيع قراءة نقوش المسلات الموجودة في ميدان "آتميداني"، هو على الأرجح عضوٌ في "جمعية بابل"؛ لكن الحقيقة أن أعدادًا كبيرةً من الناس، في الأعوام الماضية، بدأ يستهويهم تعلُّم الهيروغليفية، وقراءة "ليلى والمجنون".

ورغم اختلاف بعض النسخ عن بعض، فإن من يريد كشف السر حقًّا، لن يستسلم، وسوف يواصل البحث عني بدأب. لقد وضع سيدي "فضولي" بداخلي أربع عشرة كلمة تُشير إلى الحب، في سبعة أبيات، ووضعها معًا بترتيبٍ يماثل ترتيب الأرقام الموجودة على باب المعبد. إنها حركة بالغة الذكاء. قلتُ لنفسي:

. تلك فكرة ما كانت لتخطر على بال إبليس نفسه!

في الليلة التي سهرنا فيها قريبًا من مسجد "كوجا مصطفى باشا"، قال "عبد السلام آغا" وهو يشير بإصبعه إلى أحد أبيات القصيدة:

. من المستحيل فك هذه الشيفرة، إن لم تكن تفهم فلسفة الحب.

t.me/qurssan

نظر إلى الرجل ذي اللكنة اليونانية، وسأله:

ـ هل سبق لك أن أحببت، يا سيدي؟ هل تعرف لوعة الحب وعلاجها؟ استمع إلى ما يقوله الشاعر.

أردف قائلًا بصوتٍ مُنغَّم:

ـ رفعت المحبوبة الخمار عن وجهها، فأصبح الحب رفيق الإدانة.

أضاف، شارحًا البيت:

ـ يقصد الشاعر أن الحبيبة المجهولة كشفت الغطاء عن وجهها، فأصبح الحب والاستنكار شيئًا واحدًا. وتمت إدانتها على هذا التصرف. في رأيي، فإن هذا الـ"خمار" أو الـ"غطاء" هو الشفرة المفقودة لـ"معبد عشتار"، وكي نتوصل إلى ذلك علينا أن نعرف العلاقة التي تربط بين كلمتي "حب" و"إدانة". لقد سبق لي الوقوع في الغرام، وأعرف جيدًا رفض الناس له. الدين لا يحرِّم الحب، نحن من حرَّمناه على أنفسنا، لسببٍ غير معروف. إن تاريخ المسيحية في أوروبا، ظل مهزوزًا لعدة قرون بسبب فضيحة الحب. كانت محاكم التفتيش تتهم ضحاياها بالوقوع في الحب، ثم تحرقهم، كي تُطهِّر أرواحهم من أثر الشيطان. المسلمون أيضًا يتعاملون مع الحب باعتباره عيبًا، وينبذون العشاق. كل ما يعرفونه هو الحب المجازي.

تساءل في حيرة:

ـ ما الجرم الذي يرتكبه قلبان، أو حتى جسدان، وحّدهما الحب؟

استطرد "عبد السلام آغا":

ـ وحده الحب المجازي، أي حبنا للخالق تبارك وتعالى، هو الذي يقابَل بالثناء؛ حتى الشعراء يميلون لفعل ذلك. صار كل من يتحدث عن الحب الآن في إسطنبول، حريصًا على تجهيز جِرابٍ كبير لمنارته أولًا. أنت تعرف المثل التركي الذي يقول: "استعدَّ بجِوالٍ ضخم، قبل أن تسرق منارة"، أليس كذلك؟ يعني: اتخذ احتياطاتك قبل أن ترتكب جرمًا.

t.me/qurssan

أضاف:

. الشعراء المتخصصون في المديح، يتلقون الإطراء. أمّا العشاق فلا يقابلهم سوى الاستهجان والرفض والاستنكار. الحب والإدانة متلازمان في الثقافة الشرقية منذ الأزل. يضطر العاشق الحقيقي إلى التخلي عن العقل والمنطق، والاستسلام لما يمليه عليه قلبه. إذا سيطر العقل على الإنسان، غُلِّقت أمامه أبواب الحب.

أردف "عبد السلام":

. يجبر العقل صاحبه على إظهار الاهتمام بالعالم، والتواصل مع جميع من حوله، لا محبوبه فقط، والانخراط في شتى جوانب الحياة؛ لكن الحقيقة هي أن العاشق إذا اهتمَّ . ولو بشكلٍ طفيف . بغير محبوبه، فإن حبه لا يكون خالصًا وعميقًا كما ينبغي له. لهذا يقمع الصوفيون مشاعرهم الحِسية ورغباتهم الجسدية أولًا، للسموّ بعقولهم. إن أكثر ما يثقل على الروح البشرية هو الإحساس بالإدانة والرفض.

أضاف قائلًا:

ـ يحرص أتباع الطريقة الصوفية الملامتية على لوم أنفسهم باستمرار من أجل كسر ما قد يكون في أرواحهم من غرور، أو في أجسادهم من شهوة. إن سلوكياتهم وثيابهم تدفع الناس لرفضهم وتجنبهم واستهجان ما يفعلونه، وتكون النتيجة هي ازدياد شعورهم بالوحدة، ومن ثم اللجوء إلى الله كي يخفف عنهم وحدتهم وأحزانهم. الله - سبحانه وتعالى - هو المحبوب الحقيقي بالنسبة لهم.

سكت "عبد السلام آغا" قليلًا، ثم واصل حديثه:

ـ وعلى النحو نفسه، فإن من لا يمتلكون في أرواحهم مساحةً للحب، يستنكرون مشاعر الآخرين، ويرفضون ما يصاحب الوجد الشديد من تصرفات غير عقلانية، وترجيح كفة العاطفة على العقل، والتي قد تنتهي بالعشاق إلى الجنون. هذا بالضبط ما

t.me/qurssan

حدث في حكاية "قيس". لقد فقد عقله عندما حُرِم حب "ليلى". أصبح مجنونًا، وهام في الصحراء والجبال.

أردف شارحًا لرفيقه:

. هل تتذكر كيف أنهم رفضوا إعطاءه "ليلى"؟ هذا بالضبط هو المبدأ الذي ينتهجه أتباع الطريقة الملامتية. العتاب واللوم يجعلانك تسمو بروحك ومشاعرك. لقد قطع "قيس" طريقًا طويلًا من الإنجازات والفوائد الروحية، بفقدانه عقلَه.

اختتم الرجل السوداني حديثه بالقول:

. كان "قيس" في جنونه، أفضل وأعظم من آلاف العقول المفكرة.

أصغيث إلى "عبد السلام آغا" باهتمام، وأعجبتني أفكاره وطريقة تحليله لحبي العظيم. شعرت تجاهه بالإكبار والإجلال، لكنني في الوقت ذاته أسفت لتمكنه من فك شيفرتي الأولى.

تساءلت في دهشة عن هذا الخصيِ الأسود، الذي خُصِيَ في مرحلةٍ مبكرةٍ من شبابه. كيف تأتّى له أن يعرف كل هذه الأمور عن الحب؟ مَن المحظية التي وقع في غرامها يا ترى؟

أعجبني كل ما قاله، على كل حال، لكنني كنث ما أزال متشوقًا إلى معرفة المزيد.

بسبب فهمه العميق للحب، كان "عبد السلام آغا" هو أول من نجح في اكتشاف شفرتي. كان البيت الذي قرأه، هو بالفعل مفتاح حل اللغز الذي وضعه سيدي "فضولي". لقد اختار البيت الصحيح، الذي يحتل الرقم 617 في ترتيب الأبيات، وهو الرقم ذاته الذي ينبغي ضغطه لفتح بوابة "برج بابل". حتى هذه النقطة، كان "عبد السلام آغا" يسير على الدرب الصحيح في تحليله للأسرار الخفية في القصيدة، ولكن سرعان ما اضطربت أفكاره، وخرج عن مساره، وبدأ يركز تفكيره على كلمتي "حب" و"إدانة"، ويحسب ما يقابلهما من أرقام، ويبحث عن العلاقة بينهما. أرهق عقله ساعاتٍ وهو يفكر في هذه الأمور.

t.me/qurssan

عند أذان الفجر، أراح رأسه المتعب على الوسادة، وقد استبد به الإجهاد. أدركتُ من جديد مدى الذكاء الخارق الذي تمتع به سيدي "فضولي". ففي الزمن الذي اعتاد فيه الناس حساب الحروف والكلمات بالطريقة الأبجدية وما يقابلها من أرقام، لجأ "فضولي" إلى وضع الكلمات كما هي، دون حاجةٍ لإجراء أي حسابات معقدة. لكن أحدًا لم يخطر بباله قط أن تكون الأمور على هذا القدر من الوضوح!

فضّل الشاعر أيضًا أن يجعل من يبحثون عن الشفرة يُقسّمون كلمات البيت على الرقم 7 للحصول على النتيجة المطلوبة، عوضًا عن إحصاء عدد الكلمات التي يضمها البيت. بمعنى أن السطر رقم 617 يتكون من 6+1+7 = 14، وبقسمة ذلك على 7 يكون الناتج هو 2، وهو ثاني رقم ينبغي الضغط عليه للوصول إلى سرداب معبد "عشتار"، حيث وضع "آكيلدان" الأسرار العلمية وكنوز الآلهة الذهبية. لكن كل من يبحث عن الأسرار المخبأة بداخلي، كان يفعل ذلك بطريقة حسابية بالغة التعقيد، يعتمد فيها على الفلسفات البابلية القديمة.

هل كانت "روكال" ستأخذني معها لو عرفت أنني مُطارَد من "جمعية بابل"؟ هل كانت ستغرقني بدمعها، كما تفعل الآن، وتغدق عليّ بحبها؟ لا أدري.

لقد تركنا وراءنا القصر، وأعضاء الجمعية، وبقينا هنا نحتضن بعضنا البعض. فكرتُ في "ليلى"، وحلمتُ بالعثور عليها.

في تلك الليلة، ونحن بداخل تجويف الشجرة العتيقة، لا يصاحبنا سوى صوت الريح والمطر، نمتُ نومًا عميقًا، تغطيني خصلات شعر "روكال"، تمامًا كما حدث مع "ليلى" من قبل. من منهما حبيبتي؟ "ليلى" أم "روكال"؟ لا يمكنني الجزم. لقد تغيرت طبيعة الحب الذي أحمله بداخلي، وتغيّرت معها حبيبتي ذاتها.

t.me/qurssan

11 حكاية السلطان وأغنية الحسناء الروسية

لا شيء أغلى من الوطن.. لدى الشعب

ولا وطن في العالم أغلى من الصحة

(من أشعار "مُحِبّي". السلطان "سليمان القانوني")

قلتُ سابقًا إن هناك امرأتين - إلى جانب "روكال" - لن أنساهما ما حييت. حين أتذكر الأولى، أشعر بحزنٍ شديد، وحين أتذكر الثانية تغمرني السعادة. يرافقني هذا الإحساس حتى الآن. كلتا المرأتين تختلف عن الأخرى تمامًا. بلغت إحداهما قمة المجد وأوج الشهرة، واستطاعت أن تحوّل كل ما تلمسه إلى ذهب، لكن طموحها المحموم الذي لا يهدأ، حرمها الإحساس بالسعادة التي تستحقها. اختارت الأخرى أن تبقى في القاع، لكن صفاء قلبها وطهارة روحها منحاها السعادة الدائمة. الثروة والجاه، جعلا الأولى في حالة نهمٍ مستمرٍ للمزيد، وكرم الثانية عاد عليها بالرضا. تدعى إحداهما "خُرَم"، والأخرى "توتي".

عندما وصلتُ القصر العثماني، بعد تجميلي بالرسوم ومنحي غلافًا فاخرًا بالغ الأناقة، كانت "خُرَم" في أزهى فترات ذكائها وأنوثتها الطاغية. امرأةٌ ناضجةٌ في الأربعينيات، ذات شخصيةٍ قويةٍ تفرض احترامها على الجميع. كانت سلطانة حتى النخاع. تعجز الكلمات عن وصفها. يقال إن الثناء العظيم يرتبط بالصدق العظيم. لا يمر يوم دون ذِكر اسمها بين حريم القصر. كلما غادرتُ القبو، لتقرأني الجواري، اغتبنها ورددن نميمةً عنها.

لو صحّت الحكايات التي سمعتها عنها، فإن اسمها الأصلي هو "روكسيلانا". زهرةٌ نضرةٌ قُطفت من روسيا، وأُحضِرتْ إلى إسطنبول. تعلمتْ داخل القصر القواعد السليمة للمشي وأسلوب الكلام وكيفية توجيه المديح والمجاملات اللطيفة، وطرق تقديم التحية للآخرين. بعد ذلك، كُلِّفتْ بممارسة الأعمال اليومية في

t.me/qurssan

القصر، مع غيرها من الجواري اللواتي أطلقن عليها اسم "روشن". ومثل "روكال"، كانت تمضي أغلب وقتها في استعادة ذكرياتها في بلدها، والحلم بمستقبلٍ باهر في القصر.

في أحد الأيام الخريفية، حممتها رفيقاتها وهن يترنمن بأغنياتٍ مرحة، وعطّرنها وسرّحنَ شعرها، وألبَسْنَها ثوبًا من الحرير الفاخر، استعدادًا للقاء "سليمان القانوني". حين ولجت حجرة السلطان، بكل الفتنة الحِسية التي تمتلكها نساء الجنس السلافي، قررت بينها ونفسها أن تبقى بين جدران هذه الغرفة مهما يكلفها الأمر. لم تعد ترغب في الاستمتاع بالحياة وألوانها المبهجة وموسيقاها الرائعة. صارت هذه الحجرة هي أقصى آمالها وطموحاتها. في تلك الليلة، لعبت الشطرنج مع السلطان، وتبادلا حديثًا طويلًا. عمدت إلى تشويقه وإبقائه متعطشًا لرؤيتها مرةً أخرى، ونجحت في ذلك. أشبعت ميول السلطان في حب الشِّعر والكلمة، ألقت عليه القصائد، وسردت عليه ذكرياتها.

لم يمر وقت طويل، حتى تعلق "القانوني" بها، وصار ينتظر زيارتها بشغف، ليلة تلو الأخرى.

واقع الأمر أن "روكسيلانا" لم تكن ذات جمالٍ مبهر، لكنها استطاعت بذكائها أن تجذب السلطان إليها. حين تدخل عليه، تلمع عيناه ببريق الإعجاب، وتلاحقانها طوال الوقت. آنسته صحبتها، ولم يعد يشعر بالوحدة أو الهموم. حرصت على أن يكون تعبيرها له عن مشاعرها، من خلال أبياتٍ شِعرية. سرعان ما صارت معشوقته. فعلت "روكسيلانا" شيئًا لم يسبقه إليها أحد، لقد تعاملت مع "القانوني" كإنسان وليس كنصف إله، كما يعامله الجميع. في إحدى الليالي، اعترف لها السلطان - أخيرًا - بحبه لها، عبر بيتٍ شعري:

"هل هو الحب الذي يطوّق رقبتي بقيود الأحزان؟

هل هو من حوّلني إلى "مجنون ليلى"؟".

أحست "روكسيلانا" أنها على عتبة حكاية حبٍّ أسطورية، وقررت

t.me/qurssan

أن تدخلها بلا تردد.

انتهكت القواعد التي سنّها "محمد الفاتح"، بالتزام التهذيب البالغ والكياسة في حضرة السلاطين والأمراء، إذ لم تكن تتردد في إطلاق ضحكاتها المرتفعة، حين تكون بصحبة "سليمان القانوني". كانت تجد لذةً واضحةً في سماع صدى قهقهاتها، وهي تعلو إلى قبة غرفة النوم. أحب السلطان رنين ضحكاتها الأشبه بالبلّور، وأسماها "خُرّم"، أي "الضاحكة" أو "الباسمة".

"خُرّم" هو الآن اسم المرأة التي ستغير تاريخ الإمبراطورية العثمانية. أعجبها أن يقترن اسمها بالدولة بأكملها، لا بالرجل فقط، لكنها حين أدركت أنها لا تساوي شيئًا دون "سليمان القانوني"، وقعت في غرامه بالفعل. أنجبت له طفلًا كل عام، ثمار ليالي الوصال الممتدة بينهما. "محمد" و"جهانجير" و"سليم" و"بايزيد"، و"كاميلا" أو "مهرماه". تدريجيًا، نجحت "خرّم" في الاستحواذ على السلطان لنفسها، وأبعدته تمامًا عن زوجته "جلبهار"، بسبب إحساسها الدائم بالغيرة، كما سدّت جميع الطرق التي قد تؤدي إلى تواصل السلطان مع محظياته وجواريه.

خلال أعوامهما معًا، نظم فيها السلطان أعدادًا هائلةً من القصائد، وأهداها بعض ما يمتلكه من دواوين. هكذا تعرفتْ إليها. حين بزغ الفجر، عقب ليلةٍ طويلةٍ أمضياها معًا، أهداها السلطان قمصانًا حريرية، ودسّ بين صفحاتي ورقةً خطّ عليها قصيدةً غزليةً، وناولها إياي.

شهدتُ سعادتها الفائقة، حين لمحت الرسالة التي وضعها بداخلي. كتب القصيدة على ورقةٍ حريريةٍ معطرةٍ بالمسك. قارن فيها السلطان محبوبته "خرّم" بالمدن والبلدان التي يحكمها، وانتهى إلى أنها هي الأجمل، وشبهها بالشمس التي تشرق على العالم:

"يا إسطنبولي، قرماني، وأرض أناضولي

t.me/qurssan

يا بادخشاني، وبغدادي وخراساني".

استكانت "خُرّم" إلى حب السلطان لها، وانتعشت روحها بالقصائد الغرامية التي كان يداوم على نظمها من فرط عشقه لها، لكنها أفاقت بغتةً على صدمة وفاة ابنها الأكبر "محمد". كان من المقرر أن يخلف أباه في الحكم، ليصبح سلطانًا بدمٍ "سلافي". لكن الأم المكلومة سرعان ما استعادت شخصيتها القوية، وبدأت في وضع الخطط التي تضمن ألا يهتم السلطان بغير أولادهما. ساءها ارتباط جميع فئات الشعب، والطبقة الراقية تحديدًا، بالأمير "مصطفى"، ابن غريمتها "جلبهار". لم تعد "خرّم" مجرد أم، بل محاربةً تهدف إلى انتزاع حقوق أبنائها.

امتدت حروب "روكسيلانا" السرية إلى الوزير، الصدر الأعظم "إبراهيم باشا"، زوج شقيقة السلطان القانوني. وضعا معًا أهدافًا مشتركة لخدمة "جمعية بابل"، أو هكذا أقنعته للتحالف معها؛ ولكن فور عودة السلطان من بغداد، أوغرت صدره تجاه زوج أخته، وأوحت له بأن الحل يكمن في التخلص منه خنقًا، وهو ما حدث. تعاظَمَ طموحها مع تقدم السلطان في العمر، وكانت تستخدم حِيَلًا أنثويةً وغراميةً للسيطرة عليه، وجعله يغيّر بعض

t.me/qurssan

القوانين، وفقًا لرغباتها ومصالحها. تكمن المفارقة في عدم جدوى جميع جهودها وخططها، فالأمير "جهانجير" - الثاني في عرش الحكم بعد الأمير الراحل "محمد" - عانى اعتلال صحته، وإصابته بالصـرع، وتشـوهًا فـي العمـود الفقـري. ورغـم وصـول "سـليم" و"بايزيـد" إلـى سـن الشـباب، فإن الأول كان سكّيرًا ويفرط في شرب الخمور، والثاني عنيدًا ومتعنتًا ويثير غضب والده وسخطه على الدوام.

مـن جـانبٍ آخر، عدَّ الناس الأمير "مصطفى"، ابن السلطان من زوجته "جلبهار"، الوريث الشرعي الذي يستحق اعتلاء العرش. كُلِّف الصدر الأعظم "إبـراهيم باشـا" بمؤازرة الأمير "مصطفى"، وإعداده للحُكم. زادت الخطط التي وضعها لـ"جمعية بابل" من سوء موقفه أمام "خرَم". في السابق، كان قد اتفق معها على نشر نموذج "جمعية بابل"، في الولايات والبلدان التابعة للإمبراطورية العثمانيـة، لكـن سـرعان مـا تهاوت هذه الخطة، عندما تضاربت مصـالحهما بشـأن اختيـار ولـي العهد الذي سيرتقي العرش بعد والده. كانت هذه هي النقطة الحاسمة في حياة "إبراهيم باشا"، فبعدها تم التخلص منه بصمتٍ وسرية، عقب أن صدّق السلطان، كالعادة، مؤامرات "خرَم" ودسائسها.

فـي تلك الليلـة، رأيـث فرحتها الطاغيـة، والارتيـاح الـذي انعكس علـى ملامحـها. احتفـالًا بوفـاة "إبـراهيم باشـا"، قـررت "خرَم" أن تتسلى بقراءتي. قربتني من وجهها، واستغرقت في القراءة على ضوء الشموع. عند اقتراب الفجر، وكانت قد بلغت مشهد الموت، تذكرت ابنها "محمد"، فانخرطت في البكاء بحسرة.

أدركـت "روكسـيلانا" أنـها بـاتت بحاجـة إلـى خـادمٍ وفـي، يطيع أوامرهـا كافـة، ويكون بـديلًا لـ"إبراهيم باشـا". سـرعان مـا اسـتقر اختيارها على "رستم"، بطل قصة القمل الشهيرة. قررت أن تمنحه المقعد الذي أصبح فارغًا في "جمعية بابل"، برحيل "إبراهيم باشا". قـررت أيـضًا أن تمنحه العضوية الكاملة، وأن تضع اهتماماتـها المشتركة قيد التنفيذ. شهدت تلك الأعوام إنشاء الدول الصغيرة والولايات وتطويرها، التى تقع فى منطقة البحر المتوسط. بدأت

t.me/qurssan

"خرّم" تفكر في المدينة المناسبة التي يمكن أن تنطلق منها أعمال "جمعية بابل"، في المستقبل. توصلت إلى أنه ينبغي لها أولًا تزويج "رستم" بإحدى الأميرات، كي تضمن ولاءه التام، وتبقيه عبدًا لها. في تلك الفترة، كانت ابنتها "مهرماه"، أميرة القصر المرحة، قد أصبحت حسناء فاتنة الجمال، فرأت أنها العروس الأكثر ملاءمةً لـ"رستم".

أما حكاية "رستم" مع القمل، فهي كالتالي: حاول عددٌ ممن اعترضوا على تزويج "رستم"، والي "ديار بكر" لأميرتهم، نشر شائعةٍ مفادها أنه مصابٌ بالجذام الذي لم تظهر أعراضه عليه بعد. استشار السلطان أطباءه، فقالوا إن القمل لا يعيش مع المجذوم. أرسلت "خرّم" أحد أولئك الأطباء ليدس قملتين في ثياب "رستم". بعد فترة، وعند الكشف على ثيابه، وجد الطبيب أن القمل قد تكاثر وفقس بيوضًا، ما يعني أن الوالي سليم وليس به مرض الجذام.

أقيمت الأفراح، احتفالًا بهذا الزواج. كان العريس يتحرق للاستمتاع بالثروة والسُلطة، تمامًا كما فعل "إبراهيم باشا" من قبله. يومًا بعد يوم، تحطمت الحواجز في ضميره، ولم يعد يمانع في ارتكاب أي فعل يوصله إلى أهدافه. الفرق بينه و"إبراهيم باشا"، أن الأخير كان مرغمًا على ارتكاب الشر، أما "رستم" فإنه هو الذي سعى إليه بكامل إرادته؛ وبينما كان "إبراهيم باشا" محط إعجابٍ واحترام، كان "رستم" عبدًا ذليلًا بمعنى الكلمة، ومثل الكثير من العبيد كان إخلاصه ظاهريًا، أما في أعماقه فقد كان على استعدادٍ للخيانة وتغليب مصالحه الشخصية.

حين تزوج "رستم" بـ"مهرماه"، انتشر بيت شِعر في جميع الأماكن، من أحقر الحانات إلى أفخم المقاهي، وتردد في تجمعات أفراد الجيش الانكشاري، وفي مجالس الأعيان. أينما قيل هذا البيت، ارتفعت القهقهات الهازئة:

"لو كان للإنسان من الحظ جانبٌ وفير

فلن يعدم قملةً تجعله فجأةً أمير".

t.me/qurssan

رافقت هذه الأبيات "رستم" بقية حياته، واقترنت به، وحتى حين يشير إليه المؤرخون، فإنهم يحرصون على ذكر هذه الحكاية.

لـ"مهرماه" نصيبٌ من اسمها، الذي يعني "الشمس والقمر"، فعقلها المشرق بالذكاء هو الشمس، وقلبها الذي يفيض بالعطف والمحبة هو القمر، لكن الحظ السيئ جعل هذه الفاتنة تتزوج ذلك الشخص الوضيع. بغية التغلب على إحساسها بعدم السعادة، كرّست "مهرماه" حياتها من أجل أعمال الخير، والإشراف على بناء المساجد، والنافورات العامة. مع انخراطها في هذه الأعمال، بدأت الابتسامة تظهر على وجهها من جديد.

أمّا "خرّم"، فقد انغمست في أعمال "جمعية بابل"، وصار دورها هو التأثير في السلطان لتنفيذ ما يأمرها به القائمون على الجمعية، لكنها في الوقت ذاته لم تهمل خططها على الإطلاق، فقد بدأت في تشكيل مصير الأمير "مصطفى"، ببطء وثبات. استغلت موهبتها الفذة في تدبير المكائد، بزرع الفتنة بين الأب وابنه، عبر بعض الرسائل المزيفة. بعد تردد، استسلم السلطان "سليمان القانوني" للشكوك التي زرعتها "خرّم" في نفسه، وقرر أخيرًا أن يقتل ابنه رغم حبه العظيم له. تم خنق الأمير في "قونية". أحست "خرّم" بالسعادة، وأرسلت بخبر وفاة "مصطفى" إلى إحدى السفن الراسية في الميناء. في تلك اللحظات، أحست أنها إلهةٌ بابلية تُقدِّم قرابينها للإله "نابو".

منع الغرور والاعتداد بالنفس "خرّم" من الاقتراب من الناس الأقل شأنًا، وحتى حين فكَّر البعض في التواصل معها، حرصت على إشعارهم بعدم رغبتها في ذلك.

تلك التي يسمونها "الدنيا" تأتي وتذهب، ومثل أي إنسانٍ آخر، ودّعتها "خرّم" بكل ما فيها من أُنسٍ ووحدةٍ، وأفراحٍ وأحزان، ونورٍ وظلام. كان قد تم الانتهاء من بناء "مجمع السليمانية"، الذي يطل على "القرن الذهبي"، خلف القصر القديم. شكّلت المباني رمزًا لفترة حكم "سليمان القانوني". أرادت "خرّم" أن تخلّد اسمها هي أيضًا. خطرت لها فكرة، وهي تتأمل حركة البناء والهياكل

t.me/qurssan

الخشبية والقوالب الحجرية الضخمة، وهي اختيار المكان الذي ستبقى فيه إلى الأبد. لم يعترض السلطان، فهذه المرأة الأجنبية تماثله من حيث العظمة. إنها تنتمي إلى هذا المجمع. رغم تناقضاتها وأفكارها غير المفهومة. توفيت الملكة الأكثر شراسة في تاريخ القصر العثماني، ودُفِنت على مقربةٍ من "سليمان القانوني"، الرجل الذي تنازعتها حياله رغبتان متضادتان.. الفرار منه، والبقاء أسيرةً لديه. اصطفت شجيرات الورد بين قبريهما، توزع شذاها بينهما؛ لكن التصميم الذي وضعه المهندس "سِنان" لقبرها، فرض عليها الوحدة حتى النهاية.

تُرى هل كان السلطان "القانوني"، الذي دام حكمه 46 سنة، سيرغب في عناق تلك المرأة التي احتلت وجدانه، لو عَلِم بأمر "جمعية بابل"؟ هل كان سيوافق على أن تدفن بجواره؟ هل كان سيغير القانون من أجلها، كما فعل؟

يشبه السلطان "قيس بن الملوَح"، من حيث عشقهما الهائل لمحبوبتيهما.

حين ماتت "ليلى"، ألقى "قيس" نفسه على قبرها وهو يتضرع إلى الله بأن يأخذ روحه. حين أتأمل حياة السلطان والمجنون أجد أن كليهما كان عظيمًا. تكمن عظمة أحدهما في حُسن إدارته لإمبراطوريته المترامية الأطراف، بينما تتجلى عظمة الآخر في مشاعره الجارفة تجاه محبوبته. الأول هو "سليمان القانوني"، الذي تربَّع على قلب "روكسيلانا" وعرش السلطنة. الثاني هو "قيس" المجنون، الذي أذله الحب والحرمان. أحدهما منح الزمن سر عظمته، والآخر أضفى على الزمن عذوبة.

أنا، من أحمل روح الثاني في أشعاري وفوق صفحاتي، وأحفظ مشاعره الفياضة في قلبي، أعانق "روكال"، وكأنها "ليلى".

t.me/qurssan

12 الشاعر و"الملاك الأزرق" ومرثية السلطان

أليس من الغريب

أنك حين تحبس غرابًا بصحبة ببغاء

فإن من يستاء ويشتكي

هو الغراب؟

(الشاعر "نِفعي")

لا شك أنكم تتذكرون أنني قد أتيتُ - في وقتٍ سابق - على ذِكر شخصٍ يدعى "محمود عبد الباقي أفندي"، الذي بقيتُ معه مدة أسبوعٍ تقريبًا، قبل أن أشهد لقاء "حيدر النقاش" بـ"موسى" المتنكر في هيئة صوفي، داخل ورشة الأسطى "أحمد". تبادلا يومها حوارًا غامضًا عن "جمعية بابل". كان ذلك قبل أن أوضع بين حجريَ الرخام الثقيلين، للبدء في عملية تجليدي. "محمود عبد الباقي" هو الشاب الذي راح ينصت في إعجابٍ ذاهل لأشعار "فضولي"، مع عددٍ من أصحابه. حين التقيته مجددًا، كان قد اكتسب نضجًا أكبر، وأصبح شاعرًا شهيرًا، يثير الإعجاب والحسد في قلوب مستمعيه. تنبّه الناس إلى موهبته، عندما نظم شِعرًا في مديح معلمه "كرمان علي محمد أفندي"، والتي أسماها "قصيدة في الخزامى"، والتي سمعتها في إحدى الليالي بصحبة "جلبهار".

t.me/qurssan

أحب الناس القصائد القصيرة، التي صارت سمة المشهد الشعري في إسطنبول خلال تلك الفترة، وتبادلوا إلقاءها بإعجاب. ترددت تلك الأبيات في جنبات القصر أيضًا، الذي أولى اهتمامًا خاصًا بأعمال "باقي"، وصار من المألوف أن تُقرأ في معظم الأمسيات واللقاءات. يمكنني أن أؤكد أن الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية والثقافية، صاروا مولعين بأشعار "باقي"، وشهدتُ صعود نجمه في فترة "سليمان القانوني"، حيث امتدت شهرته إلى خارج الإمبراطورية، بفضل أسلوبه المتفرد.

بعد أن استأثر سيدي "فضولي" بزعامة الشعر وقتًا طويلًا، خلَّفه "باقي" وساهم في جعل إسطنبول عاصمةً للشِّعر الشرقي. لا أدري بالضبط حجم الدور الذي لعبه تشجيع السلطان لـ"باقي"، لكن أعمال الأخير - الغزلية منها خاصةً - انتشرت في كل مكان: الشوارع، والطرقات، والحانات، وتكيات الصوفيين، وقصور الأعيان، وبيوت الفقراء، وعلى متن السفن، والمراكب. يمكنني القول إن أشعاره هي الأجمل، بعد قصائد سيدي "فضولي". الواقع أن بعض أعمال "باقي" تتفوق عليها من حيث وحدة النغم والإيقاع، وعذوبة الكلمات، لدرجة أنني تمنيث في بعض الأحيان لو أن "فضولي" اختار تلك المفردات لي. عليّ أن أقرّ بأن الغيرة تسللت إلى نفسي أحيانًا لم تتكرر براعة "باقي" في النظم،...

t.me/qurssan

شعراء إسطنبول.

في الفترة التي كان فيها "القانوني" يبني "مجمع السليمانية"، كان "باقي أفندي" قد أصبح مساعدًا للعالِم الديني "قاضي زاده شمس الدين أفندي". خلال ذلك العام، تبارى السلطان و"باقي" في نظم المعارضات، وكان ذلك شرفًا يطمح إليه الكثير من الشعراء.

حَوْلَ كُلِّ سلطانٍ وباشا دائرةٌ من الشعراء المختارين، والفنانين والحرفيين المهرة؛ فطبقة الحُكّام تسعى للبحث عن المواهب المختلفة وإسباغ النعم عليهم تحت مسمى الـ"جائزة". بهذه الطريقة، يتحاشى المبدعون المصاعب المالية، ويقابل إنتاجهم الفني بدعمٍ من الدولة، وانتشارٍ بين الناس. ورغم أن هذه الظاهرة شرقيةٌ بامتياز، فقد عرفت طريقها إلى الغرب في القرون الوسطى، وأصبح لكل ملك دائرةٌ من الفرسان والمبدعين.

بالنسبة للسلطان "سليمان القانوني"، فإن أقربهم إليه هو "باقي"، الذي تكرم بإطلاق لقب "سلطان الشعراء" عليه. عادةً، يقابل الشعراء كرم السلاطين والأمراء بتخليد أسمائهم في قصائدهم، وهو ما كان "القانوني" يسعى إليه عند تقريبه "باقي" إليه؛ ولتوثيق علاقتهما، عيّنه السلطان مشرفًا على عمليات البناء الجارية في "مجمع السليمانية".

لعبت هذه الوظيفة دورًا مهمًا في توسيع مدارك "باقي أفندي"، الذي أمضى معظم وقته في مراقبة المعماري "سِنان آغا" بإعجابٍ ودهشة، وهو ينتقي قوالب حجرية معينة، لوضعها متجاورة أو بعضها فوق بعض. كان ذلك ما يفعله هو أيضًا، ينتقي الكلمات المناسبة ويضعها إلى جانب بعضها البعض، كي ينشئ قصائد متماسكة وبديعة، مثل مباني "خوجة سنان". كلاهما يمتلك القدرة على تأليف ديوان، أحدهما بالكلمات، والآخر بالأحجار. أدرك "باقي"، مع الوقت، أن كلماته تعجز عن وصف المباني المذهلة والمعماري الماهر الذي يقف وراء تشييدها. "سنان باشا" يسبقه بخطوة على الدوام، لكن القدر منحه فرصةً ذهبيةً لاستعراض مواهبه وبلاغته ومشاعره، عقب ذلك بسنوات، كتب أشهر أعماله

t.me/qurssan

على الإطلاق، مرثية السلطان "سليمان القانوني".

سوف أقصُ عليكم ما حدث في عيد "خِضر إلياس".

كان ذلك في أوائل فصل الربيع، وتحديدًا في السادس من مايو. قرر السلطان أن يبحر في البوسفور في سفينته الشراعية الكبيرة، التي تحمل اسم "الملاك الأزرق". بُنيت من أنواعٍ متعددةٍ من الأخشاب: الورد والصندل والعود العِطري والعرعر، وتميز هيكلها بزينةٍ كثيفة. أشرف رئيس الحرس، المسؤول عن إدارة الدفة أيضًا، على الترتيبات اللازمة لهذه الرحلة. توزَّع خمسون راكبًا، من صفوة رجال القصر وحريم السلطان، في السفينة المشدودة بحبلٍ متين إلى رصيف الميناء المواجه للحدائق المجاورة للقرن الذهبي. أمامها، اصطف عددٌ من المسؤولين وعازفي الآلات الوترية، بحسب رُتَبهم، في انتظار الركوب.

في ذلك النهار، ومن مكاني داخل الحقيبة الموشاة باللآلئ وخيوط الفضة المضفرة، التي حملها حارسٌ يزين جسده وشمٌ على هيئة ثعبان، رحتُ أتابع الناس والأحداث بشغف. الشيء الوحيد الذي أفسد متعتي هو رائحة العرق المنبعثة من الحارس.

بدا أن كل من يلعب دورًا محوريًا في إدارة الأحداث، كان موجودًا هناك؛ كبير القضاة الملقب بـ"شيخ الإسلام"، والوزراء، وندماء السلطان ورفاقه، بالإضافة إلى كبار قادة الجيش بملابسهم اللامعة وريش طيور الدرّاج والطاووس الذي يزين عمائمهم.

فهمتُ في ذلك اليوم سبب اختيار لقب "العظيم" للسلطان "سليمان". إنه عظيمٌ لا في الحروب وحدها، بل وفي المرح والتسلية أيضًا. تضم "الملاك الأزرق" 25 مقعدًا زوجيًا، تَسَعُ 50 راكبًا، ويقوم بالتجديف مئتا رجل يرتدون سترات قصيرة بيضاء اللون. أمسك كل أربعةٍ منهم مجدافًا، وقد أحنوا رؤوسهم وركَّزوا نظراتهم على أقدامهم، في انتظار إشارة البدء في العمل من رئيسهم.

اقترب وقع حوافرٍ رتيب من رصيف الميناء، ظهرت بعده خيول

t.me/qurssan

بألجمة مرصعة بالجواهر، وحدوات من الفضة. اصطف الناس على جانبي الممر المؤدي إلى الرصيف، ينتظرون مرور الموكب الإمبراطوري. تقدَّم الرَّكب قائد فرقة الانكشارية، يليه "إبراهيم باشا" صهر السلطان، وبعده شيخ الإسلام "كمال باشا زاده"، ووراءهم كوكبة من الحرس وضباط سلاح المشاة. سار خلفهم كبير الخصيان، على قدميه، متبوعًا بخادماتٍ يحملن بعض الأمتعة، ومن ورائهن عددٌ من المحظيات. في آخر الموكب، ركب بهلوان قصير على حمار، بطريقةٍ معكوسة، إذ جعل ظهره في مواجهة من سبقوه، وراح يخرج لسانه للسائرين ويغيظهم ويسخر منهم. لو كان السلطان قد تنبَّه لما يفعله، لأمر بأن يركب بغلًا بريًّا، بعد تقييد إحدى قدميه، عقابًا له.

اخترق السلطان الجموع المهللة، ووصل إلى السفينة. رفع ركَّاب القسم الأمامي رؤوسهم لتحيته، بينما صفق الجالسون في الخلف، وارتفعت أذرع الحرس بالعصي التي يحملونها، ترحيبًا بقدوم "القانوني". ركب كبار رجال الدولة بعده، تباعًا، وفق درجاتهم الوظيفية.

فيما كانت النساء يصعدن الألواح الخشبية المؤدية لظهر السفينة، بخطواتٍ حذرة، حدث كل شيء. انطلقت صرخاتٌ متوالية، وساد نوعٌ من الهرج والفوضى. كنتُ أتجه نحوهم، بصحبة الحارس الذي يحملني، وبجوارنا المولوي "حسام الدين شلبي أفندي"، و"يحيى أفندي"، أخو السلطان في الرضاعة. كنت أدرك أن "شلبي" يطاردني منذ فترة. لم يره أحد وهو ينخس ساق الحصان الذي يحمل قائد الانكشارية المكلف بحراسة الحريم، غيري. أنا فقط الذي لمحته وهو يفعل ذلك.

كان قد وضع خطةً معقدة، تضمن له تحقيق أكثر من هدف. فهو أولًا سيضمن سقوط القائد، الذي ينتمي للطريقة البكداشية، والذي حاول جاهدًا عرقلة إجراءات بناء تكية لأبناء الطريقة المولوية، من فوق ظهر حصانه، وهو ما سيؤدي إلى اختلال ثقة السلطان في مدى استحقاقه لمنصبه؛ ومن جهةٍ أخرى، سيستغل "شلبي" الجلبة والفوضى التي ستتبع ذلك ويسرقني بسرعة من

t.me/qurssan

حقيبة حارسي، ويُخفيني في حقيبته. لو لم تفشل خطته، لكان قرأني بتمعن بضعة أيام، محاولًا كشف أسراري. كجميع أعضاء "جمعية بابل"، تمتع "حسام الدين شلبي" بالذكاء. مَن كان سيرتاب في اختفائي، وسط البلبلة التي ستعقب اضطراب الحصان؟ والحقيقة أن كل شيء موجود على رصيف الميناء، كان كفيلًا بإثارة انزعاج الخيول: رنين الأجراس، ودق الطبول، وارتطام الأمواج ببعضها البعض، وصوت طيور النورس الشبيه بالصراخ، والعدد الكبير من الناس، بملابسهم المزركشة والمبهرجة.

باءت محاولة "شلبي" للاستيلاء عليّ بالفشل، لكن الحصان اضطرب بشدة، وهو ما مهّد لحدثٍ مبارك، فقد ركضت إحدى المحظيات لتبتعد عن الجواد الهائج، وفي محاولتها لتجنب السقوط في الماء، تعثرت وكادت تقع على السور البحري. الشاب المعمم الذي يقف وسط أمثاله من العلماء، مطأطئ الرأس، مدّ يده بسرعة، وأحاط معصمها بأصابعه، ثم أمسك بخصرها قبل أن تتهاوى على الأرض. أحسَّ الشاب الثلاثيني، ذو الأنف المعوّج قليلًا والملامح الهادئة، بقدرٍ غير قليلٍ من الارتباك. لقد حدث ما لم يكن في الحسبان، لمس رجلٌ غريب جاريةً من الحريم. ليس ذلك فقط، بل احتضنها بين ذراعيه لحظة أيضًا.

شعر الرجل والمرأة بصدمةٍ عنيفة، وأحسّا بالخوف من العقاب الذي سيتلقيانه لتجاوزهما الحدود المتعارف عليها. لشدة رعبهما، استسلمت الجارية لنوبة إغماء، بينما سقط الشاب على إحدى ركبتيه ذاهلًا عمّا حوله.

أشار السلطان إلى طبيبه، وإلى إحدى الدايات، كي يُفيقا المرأة، ثم انتحى بشيخ الإسلام جانبًا، وتبادلا الهمس لبعض الوقت. عمَّ الهدوء السفينة، وساد الصمت، كأنما توقفت الحياة فجأة على متن السفينة وما حولها. في تلك الأثناء، غُسِلَ وجهُ الجارية بماء الورد، وبدأت تستعيد وعيها بعد أن شمّت شيئًا من الكافور. صعدت السفينة، وقد خارت قواها. غادر السلطان "الملاك الأزرق" واقترب من المعلم المُعمَّم، الذي كان يفكر في الإعدام الذي ينتظره، وتناول يده بمودة. اصطحبه معه إلى متن السفينة، وقال

t.me/qurssan

له:

. لا تبتئس يا شيخنا العزيز، إني أمنحها زوجةً لك.

ثم التفت السلطان إلى شيخ الإسلام "كمال باشا زاده"، وقال مداعبًا:

. هل سبق لحضرتكم أن عقدتم قِرانًا أمام مثل هذا العدد الهائل من الشهود؟

تدعى الجارية "توتي"، أي "ببغاء"، أمّا المفارقة العجيبة فهي أن الرجل الذي أنقذ "توتي هانم" لم يكن سوى "محمود عبد الباقي"، الشاعر الموهوب والمعلم، والذي يُشتهر بين معارفه بلقب "غراب"!

أكثر صيغةٍ شائعةٍ لهذه الحكاية، هي ما ذُكِرت في كتاب "جُلِستان"، والتي تحمل عنوان "الغراب والببغاء". قيل إن غرابًا وببغاء وُضِعا معًا في قفصٍ واحد. تذمرت الببغاء:

. يا رب، أي ذنبٍ اقترفته كي ينتهي بي الحال بصحبة هذا الغراب ذي التصرفات الشائنة، والعادات القبيحة، والمنظر البائس؟ لمَ لم أبقى حرةً طليقةً آكل الحلوى وأشاهد صورتي الجميلة في المرايا؟

قال الغراب بنبراتٍ متضرعة:

- يا إلهي، أيّ حظٍّ هذا الذي يمنعني من مواصلة التبختر على الجدران المتداعية مع أصحابي الغربان، ويجبرني على ملازمة هذه الببغاء المتعجرفة والمتغطرسة؟

لكن الواقع أن أجمل قصائد "باقي" لم تُكتب إلا بعد اقترانه بـ"توتي هانم". كانت هي منبع الأحلام العذبة وحب الحياة اللذين تزخر بهما أشعاره، وهي المصدر الأول لدموع إسطنبول وسعادتها اللتين تثيرهما قصائده. عقب ارتباطه بها، أصبح أسلوبه أكثر حرية وجرأة وذكاء، وصار يمتلك قدرةً أكبر على التعبير عمّا يعتمل في قلبه وروحه. لم يعد "باقي" يتناول موضوعاته بطريقةٍ

t.me/qurssan

الفتـرة، بـل وصـف أمـورًا يألفـها النـاس كفصـل الـربيع، وشـتـاء إسـطنبول، وضـوء القمـر. تحـولت أشـياءُ مثـل الحـب والطبيعة والنبيـذ إلـى مُتَعٍ رقيقـة تنقلـها قصـائده للنـاس بكلمـاتٍ منتقـاةٍ بعناية، تنسجم فيما بينها بإيقاعٍ موسيقي.

ذكّرنـي "بـاقي" بسـيدي "فضـولي"، فقـد حظيت أعماله بالشهرة والإعجـاب نفسـيهما، وتناقلـها النـاس بشـغف ووَلَه. سـرعان مـا أحاطت به الشائعات المختلفة، وهزمته طموحاته في نهاية الأمر.

بعد عامين، غادرته "توتي" وانطلقت في رحلتها الأبدية، تاركةً إياه مع طفليهما؛ وعقب ذلك بنحو سنة أُقيل من وظيفته في مكتـب كبيـر قضـاة الأناضـول. امتـدت بعـدها حـربٌ باردةٌ بينه وصـديقه القـديم "صـنع اللـه أفنـدي". تنـازع كلاهـما علـى منصب "شيخ الإسلام".

لـم يبـكِ أحـد، مثلمـا فعـل "بـاقي" يـوم وفـاة السـلطان "سـليمان القانوني". تعدّ مرثيته في السلطان أحد أهمّ أعمدة الشعر التركي وأشهرها. لا يقوى أحد على مقاومة دموعه عند الاستماع إليها، لفـرط صـدقها. ورغـم مـرور أعـوامٍ طويلـة علـى كتابتها، استمر الناس في البكاء بمجرد قراءتها أو سماعها.

"تفيض أعين الناس بالدمع حين يشاهدون الشمس

لا عجب في ذلك فهي تذكرهم بوجه سلطانهم المشرق".

لو لم يكن "فضولي" سيدي، لاخترتُ "باقي" سيدًا لي، ولأعجبه الاختيار.

تخيل روعة أن تُسرَد أحداث حكاية "ليلى" على لسان شاعرٍ من إسطنبول، بعد أن استمعنا إليها من مبدعٍ من الحِلة! تميز كلاهما بموهبةٍ فذة، وكلماتٍ آسرة وغنية بالمعاني. إنهما الشمس والقمر، كلاهما مشرق ومنير. حين نُزِع فتيل الحب من سيدي، اشتعل علـى الفـور فـي ليـالي "بـاقي"، تمامًا كما يظهر القمر بعد مغيب الشمس.

t.me/qurssan

13 أسطورة شجرة الجوز

أن تسعى لامتلاك مال "قارون"

هو عين الحكمة في هذا الزمن

أما حِكَم "لقمان" ووصاياه

فلم تعد تعني شيئًا لأحد

(الشاعر "نابي")

عقب الليلة التي اتحدت فيها نبضاتُ قلبينا أنا و"روكال"، ونحن بداخل تجويف شجرة الجوز، استيقظنا على صوت أذان الفجر، القادم من مئذنة "آيا صوفيا". حين لمحتُ قسماتها المشدودة في توتر، أدركتُ أن آلام كاحلها المكسور لم تعد محتملة. مدت أصابعها، المنتفخة بعض الشيء بفعل الحمل، وتحسست قدمها وهي تئنُّ بعمق. حاولت أن تكتم صوتها حتى لا يسمعها أحد، فالمكان يعتبر جزءًا من الحديقة الخارجية للقصر، وإلقاء القبض عليها هنا سيكون أمرًا مروّعًا.

t.me/qurssan

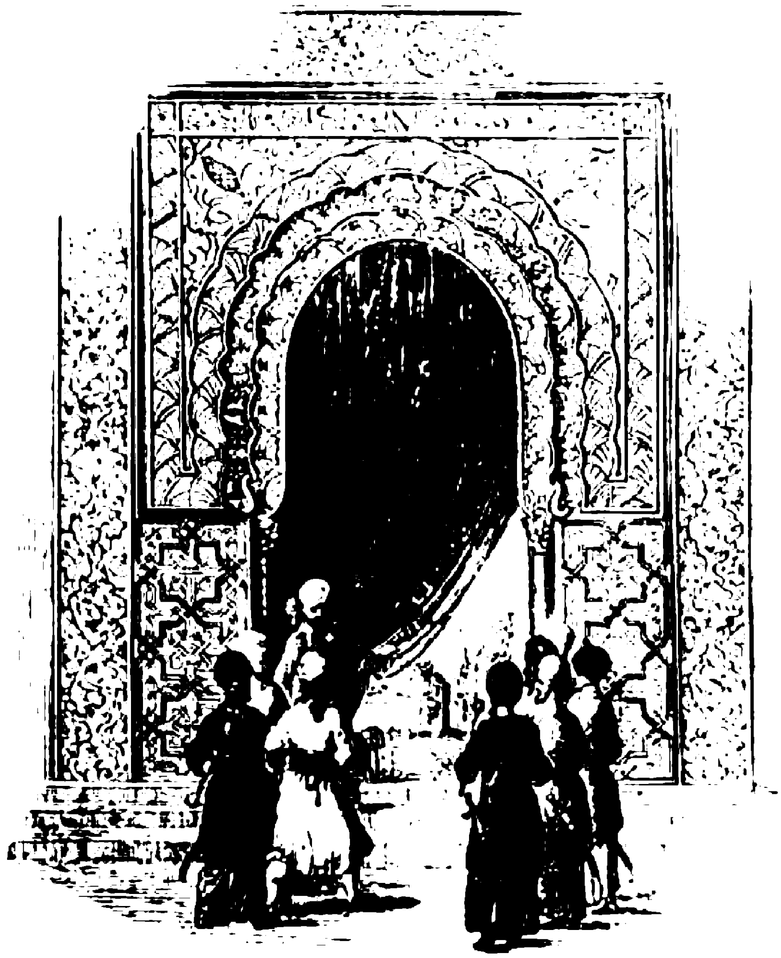

في ضوء الفجر الشحيح، لمحنا أضواء شموعٍ في سكن الا"جوزبيكتشيليري". تلفتت "روكال" حولها فرأت جنديين، يحمل كل واحدٍ منهما إبريقًا، في طريقهما إلى منطقة الاغتسال، على بُعد نحو عشر خطوات من شجرتنا العجوز. خمنتُ أنهما استيقظا للتوّ، بسبب ارتدائهما للملابس الداخلية فقط، وبسبب العبارات المقتضبة التي تبادلاها في فتور.

كنتُ قد رأيتُ أحدهما في القصر، وهو يهدي الخازن سلة جوز، مرتديًا قبعةً مخروطية الشكل، من جلد الجمل، تنتهي بطرفٍ مدبب يشبه قمة أهرامات المصريين. يطلق على هذه الفئة من العساكر اسم "حراس البنات".

سجّل المؤرخون في دورياتهم أنه بعد أشهرٍ قليلةٍ من بناء "محمد الفاتح" للقصر، هربت إحدى الجواري، لسببٍ غير معروف، مثلما فعلت "روكال" تمامًا. قفزت فوق السور، الذي لم يكن بهذا الارتفاع حينها، ورآها درويشٌ فقير، فهبّ لمساعدتها. أبقاها داخل

t.me/qurssan

تجويف الشجرة، وأرسل لآغا "باب السعادة" ينبئه بالمسألة. ثم أعادها سالمةً إلى القصر. عندما علم السلطان بما فعله الدرويش، قام باستدعائه وعرض عليه تحقيق أي طلبٍ يريده. قال الدرويش إنه بحاجةٍ إلى مسكنٍ بجوار شجرة الجوز، يختلي فيه لممارسة عباداته، كما طلب وظيفةً توفر له مصدر رزق. أصدر السلطان قرارًا بتشييد مبنى يحمل اسم "كيزبيكتشيليري"، على أن يتولى الدرويش إدارته، وعيّن أربعين عسكريًا يكونون تحت إمرته، يتولون حراسة حدائق القصر. يبدو أن هؤلاء الجنود الأربعين كانوا هم الجيل الأول من المحافظين على البيئة، من الأتراك؛ فقد اهتموا بزراعة الكمثرى والمشمش والتوت وكروم العنب، وغرسوا شتلاتٍ جديدة من الجوز، وقاموا بإعداد أصنافٍ متنوعةٍ من المربّى بتلك الثمار، وعصروا العنب وقدّموه عصيرًا طازجًا للسلطان. مع مرور الوقت، وتعاقب الأجيال، وظهور فئةٍ جديدةٍ من الدراويش الذين لا هم لهم سوى جمع المال، ماتت الزروع، ولم يصمد من الأشجار سوى الجوز. لم يعد الناس يشيرون إلى أولئك الحراس بـ"كيزبيكتشيليري"، بل قرنوا اسمهم بشجرة الجوز فأصبح "جوزبيكتشيليري"، ثم تحول إلى "جوزبيكتشي".

كانت الشجرة التي آوتنا في تلك الليلة، هي الأقدم في الحديقة، وهي ذاتها التي زرعها درويش "محمد الفاتح" بيديه.

عاد الحارسان الـ"جوزبيكتشي" إلى السكن الخاص بهما، وأدركت "روكال" أن عليها أن تغادر بأسرع ما يمكن، قبل أن تشرق الشمس وتبدد العتمة. احتضنت الصرة القماشية الصغيرة التي تحملها إلى صدرها، ثم رفعت النصف السفلي من ثوبها وأحكمت لفه حول خصرها. مدت رأسها خارج الشجرة، لتتيقن من خلو المكان، ولكن ما إن أخذت خطوتها الأولى، حتى تعثرت وسقطت وأخذت تتلوى من شدة الألم الذي تضاعف خلال ساعات الليل وامتد إلى أصابع قدمها. التأوه القصير الذي صدر عنها، تبعته أصواتٌ أخرى. صوت عصا تُغرز في الطين الرطب، وصوتٌ يصيح:

-مَن هناك؟

t.me/qurssan

كان ذلك "باتلاك ميمي"، أحد الحراس الـ"جوزبيكتشي"، الذي وقف يتبول بجوار شجرة سرو. خلال لحظات، كان يقف أمامنا بالضبط، يعيد ربط شريط سرواله بيد، ويتحسس سيفه المعقوف باليد الأخرى. لـ"باتلاك ميمي" مظهرٌ مرعب. رأسٌ كبير، بخدَّين شديدي الامتلاء، وعينين جاحظتين، وجسدٍ بالغ الضخامة. كان أشبه بوحشٍ مخيف. انطلقت الكلمات من فمه، كيفما اتفق - دون أن نفهم منه شيئًا - تتخللها شتائم غير واضحة. حدّق إلى "روكال"، وسألها أخيرًا:

. من أنتِ؟

كان يحرك يديه، والأفكار تعصف برأسه، هل يلقي القبض عليها بعنفٍ وشراسة، كما لو كانت مجرمة، أم يعاملها بقدرٍ من الاحترام، باعتبارها من سكّان القصر؟ لاحظتُ أنه حين رآها وهي تتألم، أحس بشيءٍ من الشفقة حيالها. ثم تنبّه إلى جمالها، فامتلأت روحه بالإعجاب تجاه هذه الأنثى الفاتنة. تلعثم في بادئ الأمر، ثم راح يُوجِّه لها أسئلةً مختلفة. أراد أن يعرف سبب وجودها في هذا المكان، وما الذي حدث لها تحديدًا؟ كان متيقنًا من أنها لن تستطيع الهرب بسبب آلام قدمها. كان يحاول أن يتقرب منها، على نحوٍ ما.

سألتُ نفسي: "هل يرغب في حمايتها يا ترى، أم في معانقة جسدها المبلل؟".

أدرك "باتلاك ميمي"، منذ اللحظة الأولى، أنها من سكان القصر، بسبب ملابسها. تضاربت الخطط المختلفة داخل رأسه، وتصرف باضطرابٍ أكد لي أنه يتمنى لو لم تقع عيناه عليها. المرأة التي تجلس أمامه، امرأةٌ خطيرة. إنها في خطورة الذهب المنصهر. جميلة وحارقة في آنٍ واحد. من يدري ما عقابه؟ إنه لم يكتفِ بالنظر إليها فقط، بل تحدث معها أيضًا. من أين جاءت يا ترى؟ وأي حُسنٍ فتانٍ هذا؟

t.me/qurssan

14 فتحتُ عينيّ في الظلام ووقعتُ في اليأس

لا أستطيع التعبير عمّا عانيته على يد القدر

فمجرد ذِكر ذلك يشعرني بالعذاب

(المؤرخ رشيد)

صُدِمت "روكال" بوجه المدينة الآخر، الذي لم يسبق لها رؤيته ومعرفته. كان العالم الذي تطل عليه نافذة حجرتها الصغيرة في القصر، مختلفًا تمام الاختلاف. كان أغلب ما يصلها من الخارج، مجرد أصوات. رنين الأجراس المعلقة في رقاب الماشية، ونباح الكلاب الضالة، وضحكات الأطفال وهم يلعبون خارج الأسوار، وصوت بائع الزبادي، الذي يطوف الطرقات مناديًا بصوت مرتفع:

. زبادي. حليب. قشطة.

تأملتُ مكاننا الجديد، وأدركتُ أننا داخل غرفةٍ في خانٍ يطل على ثكنات موظفي الجمارك في بوابة "يديكيول"، التي تقع في أسوار المدينة، ويمر من خلالها الناس ومختلف البضائع طوال النهار، إلى موعد غلقها عند أذان العشاء، حيث يتم رفع الجسر المتحرك برافعةٍ ضخمة، تصدر ضجيجًا عاليًا. بين الحين والآخر، تمر الجنازات بمحاذاة السور، في طريقها للمدافن القريبة منه. كما تعبر من البوابات عربات تجرها ثيران، محملة بالقش أو الخضراوات، بعد خضوعها لتفتيشٍ دقيق. عند الظهيرة، تتعالى أصوات معارك شرسة بين القطط والكلاب، يقطعها نداء الباعة الذين يطوفون بعصيٍ يضعونها على أكتافهم، علقوا عليها أكباد الخِراف والأبقار.

لملمت الشمس آخر أشعتها الهزيلة، ثم غابت عن الأنظار. سار الناس باتجاه بيوتهم بخطواتٍ متعجلة، خوفًا من بدء ساعات حظر التجول قبل وصولهم لمنازلهم. فرغت الشوارع والطرقات فجأةً.

t.me/qurssan

ليلًا، هدأت الأصوات تمامًا، ولم يعد يُسمع منها إلا همهمات حرّاس البوابة، الذين يهتفون بين الحين والآخر:

. لا إله إلا الله..

تكررت العبارة بأصواتٍ مختلفة، كما لو كان بعضهم يرد على بعض.

أغلق الخان، الذي ضمني و"روكال" بابَه المطل على شارعٍ خلفي مُبكّرًا عن المعتاد. لم تفتني ملاحظة الإجراءات المشددة، وما صاحبها من تفتيشٍ صارم، طوال اليوم. من المؤكد أن هناك أمرًا طارئًا لا نعرف عنه شيئًا. استلقت "روكال" المسكينة على الأرض الحجرية، لليلة الثالثة على التوالي، فالغرفة لم تكن مزودة إلا بأريكةٍ صغيرة. قامت بعد قليل، وأخذت تقطع المسافة القصيرة بين النافذة والباب بخطواتٍ بطيئة ومتألمة، وهي تصغي بانتباه لأي صوتٍ قادمٍ من خارج الباب. تزاحمت آلاف الأفكار في رأسها. كان إبريق الماء فارغًا، ولم يبقَ من الطعام سوى كسرة خبزٍ جافة.

تزايدت قوة الريح في الخارج، وأطلقت صفيرًا مزعجًا تسلل إلينا عبر إطار الشباك. تلاشت الأصوات القادمة من الجامع، عقب انتهاء الصلاة، وعمّ الشوارع صمتٌ تام. لم يأتِ "باتلاك ميمي"، كما وعد "روكال". هاجمها دوارٌ شديد، بسبب الإرهاق والجوع. جَبَّرتْ قدمَها مُجبرةُ كسورٍ محترفة، فور وصولنا إلى هنا، لكن الألم كان يسوء بمرور الوقت. أوشك زيت المصباح على الانتهاء، وخفُتَ الضوء. عند انتصاف الليل، طُرِق الباب بدقتين قصيرتين متبوعتين بدقتين طويلتين. كانت "روكال" توشك على الإغماء من شدة الإرهاق. استجمعت قواها، وأنصتت للدقات جيدًا. تكررت مرة أخرى، بالطريقة نفسها. رفعتْ الترباس ببطء. في الضوء الشحيح للممر، شاهدنا رجلًا ضئيل الجسم. انسل داخلًا، ما إن فتحت "روكال" الباب. قال بصوتٍ أقرب للهمس:

. لا تخافي يا أختي. جهزي نفسك بسرعة. علينا أن نغادر في التوّ.

t.me/qurssan

يعني أنه يعلم من تكون ويعرف حكايتها. كانت "روكال" قد وصلت إلى هنا، متخفيةً في زي رجل، وهي تضع شاربًا ولحيةً اصطناعيين. كان تنكرها متقنًا، لدرجة أن صاحب الخان لم يدرك أنها أنثى. كرر الرجل طلبه بإلحاح:

. ضعي حاجياتك في الصُرَة، لنغادر فورًا. هيا، قبل أن يلحق بنا أولئك العقارب!

أحست بالذعر. ارتدت العباءة التي تشبه ثياب شيوخ الطريقة الجعفرية، وتسللت في الممر شبه المعتم، وقد استبدّ بها الخوف. قال الرجل محاولًا طمأنتها:

. سوف أخبركِ بكل شيء في الطريق.

عندما وصلنا إلى الباب الخارجي، مَدَّ الرجل يده في حقيبته الجلدية، وأخرج منها كيس نقودٍ صغيرًا، ناوله لخادم الخان، الذي فتح لهما الباب على الفور. غطى صوت نباح الكلاب الضالة على صوت الباب وهو يُفتح ويغلق.

كان الهواء العاصف الذي يلطم وجهيهما، يعرف كل شيء. إن ما حدث لا يقل في قسوته عن جبروت الريح. داخل ثكنات العساكر، اجتمع 16 عميلًا من قسم الخدمات السرية مع رئيس الحرس الإمبراطوري، لمناقشة هروب الجارية "روكال"، الذي لم يكن بالأمر الهين. كان أول إجراء جرى اتخاذه، هو إقالة كبير خصيان السلطان "مراد الثالث" من وظيفته، وإحالته للسياف تمهيدًا لإعدامه. قال رئيس الحرس محذرًا:

. إما جاريتنا، وإما رأسك!

t.me/qurssan

ثم أمهله ثلاثة أيام للعثور عليها.

قام الـ"بستانجي آغا"، القائد المسؤول عن حراسة القصر، بإلباس اثنين من مساعديه ثيابًا نسائية، وعمد إلى تغطية وجهيهما بالبراقع، وكلفهما بالتنصت على سيدات المناطق القريبة. أرسل أحدهما إلى سوق العبيد، والآخر إلى الجوامع التي تضم مصليات نسائية. حدد لهما مناطق بعينها للبحث فيها، وبخاصة تلك التي تضم بيوت لهو ومخابئ للخارجين عن القانون. كلف اثنين آخرين بالتفتيش في خانات إسطنبول، والتحقيق مع ملاحي السفن والمراكب الذين ينقلون المسافرين إلى "أوسكودار". كما وزّع القائد ثلاثة من رجاله في الميناء، متنكرين في هيئة متسولين. بعث بامرأتين إلى بيوت الدعارة المجاورة لسور المدينة، لاستطلاع ما يحدث فيها. لم يهمل القائد الاستعانة بالأشخاص الذين يعانون العرج، أو فقد أحد أطرافهم، فكوّن منهم جماعات - تنكّر بعضهم في هيئة دراويش والبعض الآخر في هيئة متسولين مصابين بالعمى - أطلقها في شوارع المدينة.

في ذلك اليوم، استدعى الـ"بستانجي آغا" العاملين في السوق

t.me/qurssan

المغطاة، من أصحاب الدكاكين، والخياطين، والصاغة، وحتى الشحاذين، وأطلعهم على حقيقة الوضع. أوصاهم بمراقبة الزبونات، بسريةٍ تامة، وأخبرهم بأن الشخص المطلوب هو جاريةٌ هاربة. أوقف حظر التجول، الذي يعقب صلاة العشاء، الناس عن مواصلة البحث. عددٌ قليلٌ منهم فقط كان يحمل تصريحًا من قائد الحرس بالسير في الشوارع ليلًا، مذيلًا بختمٍ يصوّر ثلاثة أهلّة، بالحبر الأحمر.

كنتُ مخطئًا حين ظننتُ أن من يلاحقنا هم أعضاء "جمعية بابل"، فقد تيقنتُ من أنهم جميعًا من رجال الـ"بستانجي آغا".

أظهرت والدة السلطان اهتمامًا عظيمًا بالمسألة. اجتمعت مع قائد الانكشارية، بسرّية، وأصدرت أوامرها بالعثور على تلك الجارية بأسرع ما يمكن. فور خروجه من الاجتماع، استدعى الـ"بستانجي آغا"، وطلب منه إبلاغه بتطورات الموقف، لحظةً بلحظة.

حين رآنا "باتلاك ميمي" للمرة الأولى، داخل تجويف شجرة الجوز، فإن أول ما خطر بباله هو ضرورة إعادة "روكال" إلى القصر، وتسليمها للمسؤولين عنها، تمامًا كما فعل الدرويش القديم، مؤسس هذا القِسم من العسكرية، وقائدهم الروحي، ومثلهم الأعلى؛ لكنه سرعان ما تراجع عن هذه الفكرة، حين تذكر بأنه معرضٌ للمساءلة والتحقيق. تأمّل بريق حجر الزمرد الكبير في خاتمها. سال لعابه، وقال لنفسه: "فليذهب ذلك الدرويش إلى الجحيم!".

أبقاها بداخل التجويف يومًا كاملًا. جلب لها بعض الشوربة الساخنة، بالإضافة إلى مرهمٍ لعلاج قدمها. عرض على زملائه أن يتولى الحراسة في تلك الليلة. أحضر لها ملابس رجالية وقبعة كبيرة، وشاربًا ولحيةً اصطناعيين. جعلها تستند إليه، واصطحبها سيرًا على الأقدام - دونما أي اهتمامٍ بكاحلها المكسور - إلى "آكساراي"، معتمدًا على الشوارع الخلفية والطرقات الفرعية. هناك، امتطى كل واحدٍ منهما جوادًا، واخترقا المروج والمراعي الهادئة، إلى أن وصلا إلى حيِ "ساماتيا" الأرمني، ومنه إلى الخان

t.me/qurssan

في "يديكيول".

خلال الطريق، أخبرها عن صديقه الذي سيصطحبها إلى "مينجريليا". ستذهب أولًا إلى "آلانيا" بالمركب، وهناك سيساعدها أحد تجار الرقيق في استكمال رحلتها. قال لها إنه سيزودها باسمه وعنوانه. طمأنها أن كل شيء سيسير وفق ما خطط له، ما يعني أنها ستعود إلى أهلها بعد شهرين على أقصى تقدير، وسوف تلد الأمير الصغير هناك.

قال لها إنه سينتظر مكافأته منها، عقب وصولها إلى ديارها، وأن عليها أن تفكّر في الطريقة التي ترد بها معروفه، مستقبلًا.

وصلا الخان مع أذان العشاء. أحضر لها مُجبِّرة. عالجت الكسر، ولفت قدم "روكال" بالأربطة. راقب "باتلاك ميمي" الموقف، وداخَلَه شعورٌ بالارتياح والشهامة. أعجبته فكرة اعتمادها التام عليه. قال لها:

. حسنًا، سوف أغادر الآن لاستكمال نوبة الحراسة. سأعود غدًا. سأطرق الباب بدقتين قصيرتين، تتبعهما دقتان طويلتان. احرصي على عدم الحديث مع أحد.

فور ذهابه، أحست "روكال" بمزيجٍ من الخوف والوحدة. حاولت أن تبدد تلك المشاعر باحتضاني إلى صدرها. كنتُ سعادتها وحزنها وآمالها وأحلامها.

سارا طويلًا، ثم استراحا بجوار حائط الكنيسة اليونانية، الممتد مع سور قصر "توبكابي". أعاد الرجل لف ضمادات "روكال". كان ألمها يتزايد. قال لها:

. أنا زميل "ميمي"، على فكرة. اسمي "آلاباتشا تيمور". سآخذكِ إلى الميناء بعد يومين. ستستقلين مركبًا يحملكِ إلى "أنطاليا". أما الآن، فنحن في طريقنا إلى منزل أختي في "فنر". سوف تعتني بكِ وبقدمك. أحمل معي الخطاب الذي ستقدمينه للتاجر في "آلانيا"، كي يساعدكِ. سوف أسلمكِ إياه عند وصولنا للميناء.

t.me/qurssan

أضاف بعد برهة، وقد التمعت عيناه:

. مقابل أن تعطيني كتاب "ليلى والمجنون" الذي بحوزتك.

لم تكن "روكال" في وضعٍ يسمح لها بالتفكير أو الرفض؛ ولم تكن تعلم أن مصيرنا نحن الاثنين مشترك. استغرقت في ترديد الأدعية، راجيةً من الله أن يرعاها ويحميها من أي شَرٍّ قد يرتكبه هذا الغريب. أدركت أنه ليس أمامها سوى الاستسلام والإذعان. فتحت صرتها وتحسستني بأصابعها. أحست ببعض الأمان لوجودي.

خامرها الشك في نيات الرجل، فجأة، وسألت نفسها: "كيف عرف أن كتاب "ليلى والمجنون" معي؟".

كانت قد استعارتني من كبير الخصيان قبل يومين من هروبها من القصر. استغرقت في تفكيرٍ عميق: "إن كان هذا الشخص يعرف أنني أحمل الكتاب، فإن ذلك يعني أنه على تواصل مع كبير الخصيان، وأن الأخير يتابع خط سيري، وأن هذا الـ"تيمور" هو بدوره أحد رجال السلطان، وأنه مكلف بإعادتي للقصر".

قالت لنفسها: "لا بأس، فحتى لو حدث ذلك، فإنني سأصارح السلطان بكل شيء، وأخبره عن رغبة زوجته في إجهاضي بالقوة".

فكرت بفزع: "ولكن ماذا لو كان هذا الشخص يعمل لصالح السلطانة نفسها؟ هذا يعني أنني في طريقي للموت!".

تداخلت الأسئلة والتصورات في رأسها، وتعقدت المسألة تمامًا. رحت أنا أيضًا أفكر في الأخطار المحيطة بنا، من أعضاء "جمعية بابل".

لن يصدِّق السلطان أن هذه المحظية الفاتنة قد فرت من القصر بسبب خوفها، ورغبتها في الحفاظ على جنينها. سوف يظنُّ أنها امرأةٌ منحلّة وخائنة، ولن يتردد في إعدامها. هل سيهتم السلطان المسؤول عن رعاية مصالح إمبراطورية كاملة، بالخلافات الدائرة

t.me/qurssan

بين حريمه؟ إنه يجدها أمورًا شديدة التفاهة. السلطان، من جانبٍ آخر، يجهل كل ما يتعلق بـ"جمعية بابل"؛ وحتى لو سمع عنها، فإنه سيعجز عن فهم تفاصيلها العلمية وأهدافها. كان أقصى ما يهتم بـه هـو الحكـايات المسـلية، التـي يسـتمتع بالإصـغاء لتفاصيلها اللطيفة. لم يكن يتخيل أصلًا أن هناك أي نوعٍ من المشكلات في أراضيه.

فهمث ما يحدث بالضبط. إن "جمعية بابل" ترى أن وجودي في القصر أمر خطير، يفتقر إلى الأمان المطلوب، فها هي محظيةٌ ساذجة تنتزعني من القصر وتصحبني معها، بمنتهى السهولة. لا يمكـن للجمعيـة أن تعرضـني لمثـل هذا الخطر مرة ثانية. قد لا يكون الرجل أحد الأعضاء الفاعلين في الجمعية، لكنه - بالتأكيد - رسولهم لإنقاذي وإعادتي إليهم، ولكن ما مصير "روكال" يا ترى؟ اقشعر بدني لمجرد التفكير في ذلك.

أنا و"روكال" نطوف في الأحياء المشبوهة لإسطنبول، بصحبة رجلٍ مجهول. لم تعد قراراتنا بأيدينا. علينا الاستسلام لمشيئة الآخرين. أدركنا أخيرًا المأزق الذي تورطنا فيه.

تشاغلت "روكال" بترديد بعض الأبيات الغزلية التي قرأتها في صفحاتي البارحة، وهي تغالب دموعها، وتسأل الله أن ينصفها وأن يوضـح الصـورة كاملـةً للسـلطان. أعطـاها "تـيمور" بعـض البسكويت شديد الجفاف. تناولت قضمةً منه، لم تستطع ابتلاعها. أخـذت تسـعل بقـوة. قـدّم لـها زمزميته كـي تشـرب بعـض المـاء. شـربت وهـي تضـرب صـدرها براحـة يـدها. اصـطدمت أصـابعها بالتميمة التي علّقها والدها حول رقبتها في طفولتها، عندما كانت تذهب معه إلى الكنيسة. تحسست التميمة بأناملها، وهي تفكر: "آه يا أبي الحبيب، لديك ابنة سيئة الحظ!".

لم تتخلَ "روكال" عن هذه الحلية قط. إنها الأثر الوحيد المتبقي لـها مـن طفولتـها وأسـرتها وبلـدتها. إنـها أغلـى مـا تملكـه علـى الإطلاق. مجرد وجودها على صدرها، يشعرها بالأمان والراحة. إنها الآن في أقصى حالات ضعفها واحتياجها للأدعية المحفورة

t.me/qurssan

على سطحها. لفَّت أصابعها حولها بقوة. تذكرت أمرًا منحها إحساسًا إضافيًا بالارتياح. في إحدى الليالي الممتعة، قرأت على السلطان ثلاث قصائد، فأهداها ثلاث ماسات. في ليلة رحيلها، وضعتها في قطعة قطن، ودستها داخل التميمة، حتى لا يفطن إليها أحد. لم يفتها أن تحيط الحلية مثلثة الشكل بقطعة قماش مغموسة في شمع النحل، وأن تستبدل خيطًا رخيصًا بالسلسلة الفضية.

باتت التميمة الآن تشكل لها ثروةً روحية ومادية، في آنٍ واحد.

بعد أن نالت قسطًا من الراحة بجوار سور الكنيسة، أخرج "تيمور" طقمين من الملابس النسائية السوداء، يتكون كل واحدٍ منهما من قميصٍ فضفاض وسروالٍ طويل. ناولها أحدهما، واستدار ليرتدي الآخر. حين نظرتُ إليه، هالني أن أرى حزام زمزمية سيدي "فضولي" ملفوفًا بعناية حول خصره. لقد اتضحت الصورة الآن! ارتجف جسدي من فرط الانفعال. تمنيت لو أنني أستطيع الكلام. كنت سأقول لـ"روكال": "أنا هدفه، وليس أنتِ".

هاجمني شعورٌ عميقٌ بالأسى.

خلعت "روكال" الملابس الرجالية، ونزعت عن وجهها الشارب واللحية المستعارين، وخبأت كل ذلك بين الشجيرات المزروعة أمام الحائط. انطلقنا، وأنا أراقب الطرقات بانتباه، علني أتمكن من تحديد المكان الذي نتوجه إليه. تناهى إلى أسماعنا نباح كلاب عساكر الانكشارية، المدربة على اقتفاء الآثار والروائح.

كنتُ أحاول تخيل مصير "روكال"، بينما انشغل "تيمور" بالتفكير بي. من يأتون من القاع، يظلون في القاع، مهما يحاولوا الصعود، لأن المعرفة هي الأمر الوحيد الذي يمنحك القوة الحقيقية. هذه الإمبراطورية تحكمها القوة. بدأتُ أستشعر قوة "جمعية بابل".

تأمَّلت "روكال" معالم المدينة من حولها، وقالت لنفسها في دهشةٍ وسذاجة:

- إسطنبول أضخم بكثير من قصر مولاي "مراد"!

t.me/qurssan

أنا، عبد سيدي "فضولي"، اعتدتُ شذا الورود، وتغريد الطيور والعنادل، في جنبات القصر وحدائقه. إن الأشواك خارج أسواره قد بدأت تدميني. لا أستطيع إسماع صوتي للآخرين، وأقف عاجزًا أمام أحزان حبيبتي "ليلى" وعذاباتها.

t.me/qurssan

15لؤلؤة في البحر وبيع حبي للبابا

الوعد الذي قطعته الحورية لي

بالمرور في أحلامي مرة

سرّني وأسعدني لدرجة أني

لم أنعم بالنوم منذ سنوات

(الشاعر ذاتي)

أنا، عبد سيدي "فضولي"، في طريقي لمكانٍ مجهول. وجدتُ نفسي فجأةً في باطن سفينة كبيرة. كنتُ أصارع الموت. لقد مرّ على بدء الرحلة ثلاثة أيام، وكلما مضى الوقت، تزايد إحساسي بالحيرة والضياع والغثيان. خفتُ الفشل، وخشيتُ ألا أتمكن من الحفاظ على الحب الذي تقوم عليه حكايتي، أو أن أتعرض للاتهام بالخيانة، أو أن أفرّط في سرّ "آكيلدان"، أو أن تتعرض الكنوز - التي لا يعرف بأمرها سوى أعضاء "جمعية بابل" - للنسيان، وتبقى الأبواب التي ستصلنا بالفضاء الخارجي موصدةً للأبد.

أنا محبوس داخل صندوق، تحاصرني الأخطار المختلفة، لعل أهمها ماء البحر المالح، والفئران.

آلمني فراقي لإسطنبول، أرض السعادة. استمعتُ إلى حوارٍ بين البحارة، فهمتُ منه أن شهر رمضان قد بدأ في ذلك اليوم، كما أعلن المرسوم الصادر عن خليفة المسلمين. قلت لنفسي في حسرة:

. لم أشاهد هلال رمضان هذا العام!

صرتُ عاجزًا عن التفكير، وغلبني الحنين لكل شيءٍ مألوف. هذا هو إحساس السجناء داخل زنازينهم، لا شك. لم يعد بإمكاني فعل أي شيء سوى الانتظار. في بعض الأحيان، أواسي نفسي بالقول: "ما شاء الله سوف يكون".

t.me/qurssan

وفي أحيانٍ أخرى، أستسلمُ للأسى، ويعصف بي حزنٌ شديد، وأقول: "ليس من المفترض أن يحدث هذا لي".

اليوم شغل هلال رمضان تفكيري. أذكر أن سيدي اعتاد أن يشير إليه بـ"حاجب عين الحبيبة"، وفي أوقاتٍ أخرى بـ"المشكاة". كان يقول:

. ما الهلال مقارنةً بالبدر؟

كان يتعجب من انبهار الناس بشيءٍ غير مكتمل، ومن إصرارهم على ربطه ببدء الصوم والأعياد والعام الجديد.

لم يتوقع قبطان السفينة، ولا القراصنة الأشداء، أن تكون عواصف البحر الأبيض المتوسط بهذه القوة هذه المرة. كان الجو سيئًا للغاية، تعالت فيه الأمواج وارتطم بعضها ببعض بقسوة؛ أما أنا، فإنها رحلتي الأولى فيه ولم أكن أعرف عنه شيئًا.

على سطح السفينة، توزع نحو مئتي حارس مدججين بالأسلحة، وثلاثة وأربعين ملاحًا من الطاقم. امتلأت المخازن بالبراميل والصناديق، والجِرار الخزفية التي احتوت على زيت الزيتون والنبيذ والسمسم وماء الورد.

في بادئ الأمر، ظننتُ أنهم سيضعونني في المخازن العلوية للسفينة، التي رأيت العمال يضعون فيها البضائع غالية الثمن، بحرصٍ شديد يقترب من الخوف. أقمشةٌ حلبية، وأسلحةٌ مرصعة بالجواهر، وأقواسٌ وسهامٌ صُنعت في إسطنبول، وألجمةُ خيولٍ من الجلد، وفراءٌ قوقازي، وحُليٍ من أسواق إسطنبول، وسياطٌ جلدية، وآلاتٌ موسيقيةٌ متنوعة، وأطقم مائدة من الفضة.

شاهدتُ عمالًا آخرين يُنزلون أقفاص ببغاوات من الشرق الأقصى إلى باطن السفينة، ومعها خيولٌ عربية، وأنواعٌ متعددة من الكلاب. لم يخطر ببالي قط أن تُستَغلّ تلك الحيوانات لإخافة بعضها البعض، من أجل التسلية على مدار الرحلة.

تداخلت أصوات الببغاوات، وأصبح كلامها غير مفهوم. واقع

t.me/qurssan

الأمر، إنها لم تعد تقول شيئًا واضحًا، بل مجرد أصداءٍ متنافرة لصياحٍ صاخب. أثار اصطدام الأمواج بالسفينة ذعر الحيوانات والطيور واضطرابها. وُضِعَ صندوقي بجوار الأحصنة، التي راحت تضرب الأرض بحوافرها في خوف، بينما تعالى نباح متواصل من الجهة الأخرى، تتخلله صيحات الببغاوات المتوترة.

لم يكن هناك من يعرف بوجودي داخل ذلك الصندوق، عدا الربّان وقائد الدفة، لكنهما كانا يجهلان أمر قِطع الذهب والألماس المخبأة معي.

فور مغادرتنا للميناء وابتعادنا عن القلاع المطلة عليه، وعند تقدمنا في الدردنيل، قام الربان بإنزال العلم الذي يعلو السفينة، ورفع مكانه واحدًا آخر رُسِمَت عليه جمجمة وعظمتان متقاطعتان. استبدل البحّارة زيهم الموحد، بثيابٍ عادية، وتزودوا بأسلحةٍ ومعداتٍ مختلفة، وشقت السفينة طريقها في البحر وفقًا لنظام القراصنة. سارع العمّال بخُفوت الإنارة عبر تغطية السراج الذي يعلو الصاري بقطعةٍ من قماش اللباد. لم أدرِ إن كانوا يتأهبون للهروب أم للمطاردة، لكن الهرولة المستمرة للبحارة وتمتماتهم الغاضبة والمتوترة، جعلتني أفهم أن الوضع غير عادي.

t.me/qurssan

حين وصلت السفينة إلى تركيا، قبل فترة، كانت ترفع علمًا تجاريًا. وتولى القائمون عليها تقييد البضاعة التي تحملها في سجلات الميناء. تكونت الشحنة من نبيذٍ لسكّان "جالاتا" من غير المسلمين، وزيت طعام لأسواق "بالكاباني". تعود ملكيتها لعائلة يهودية من إشبيلية، فرّت من إسبانيا أيام محاكم التفتيش، ولجأت إلى إسطنبول خلال فترة حكم السلطان "بايزيد". اقترب عميد العائلة "يوسف ناسي" من دائرة الحكم، من خلال عمله مستشارًا للسلطان "سليم الثاني". استمرت علاقات أبنائه وأحفاده بالسلاطين وصفوة رجال الدولة، عبر عملهم مترجمين وأطباء بالقصر.

اتجه فرعٌ من عائلة "ناسي" إلى إيطاليا، بينما استقر عددٌ منهم في فرنسا؛ لكنهم جميعًا عملوا - بشكلٍ أو بآخر - في مجال التجارة البحرية، واستطاعوا الحصول على توكيلاتٍ تجاريةٍ مهمة في عواصم ومدن مختلفة. لكن أعمالهم وتجارتهم وأرباحهم، تتأثر - كما هو الحال مع جميع القراصنة - بحركة الرياح وحالة البحر، ووجود سفن قرصنة أخرى. في بعض

t.me/qurssan

الأحيان، يحققون أرباحًا خيالية، وفي أحيانٍ أخرى، تختفي مراكبهم لعدة أشهر دون أن يعرفوا عنها شيئًا. في بعض المرات، تتعرض أموالهم وبضائعهم للنهب من قراصنة آخرين. قبل نحو خمسين سنة، اجتمع أفراد عائلة "ناسي" معًا، وناقشوا مسألة التجارة البحرية. توصلوا إلى أن مخاطرها أكبر من أرباحها غير المضمونة، وقرروا البحث عن مصدر رزق آخر. في نهاية الأمر، وجدوا أن الحل الأمثل يكمن في استغلال سفنهم التجارية الكثيرة، في تكوين شبكة جاسوسية عالمية.

منذ ذلك الوقت، أصبحت التجارة الفعلية لعائلة "ناسي" هي بيع المعلومات وشراءها في دول البحر الأبيض المتوسط، عبر استغلال صراع القوى المتنافسة، فمن أجل إعلاء الصليب، اشتعلت المنافسة بين مملكة إسبانيا، وجمهورية البندقية، ومركز البابوية في روما، وجمهورية جنوا، وإنجلترا، وفرنسا؛ أما بهدف نصرة الهلال ورفع لواء الإسلام، فقد برزت على الساحة عدة دول تابعة للإمبراطورية العثمانية.

تتغير قيمة المعلومات وأهميتها، وفقًا للدولة التي تتصدر المشهد السياسي.

تقوم عائلة "ناسي"، بين الحين والآخر، بالمضاربة من خلال صك مجموعات من العملات المعدنية المزورة، باسم الهند والشام، إلى جانب سبائك الذهب الزائف التي تحمل أختامًا فارسية وعباسية. بالإضافة إلى ذلك، يعمد أفراد العائلة إلى تخزين الأموال، متسببين في إحداث حالة تضخم، تُيسِّر لهم اقتناء السلع بأثمانٍ أرخص.

شملت أعمالهم أيضًا الاتجار في المنشطات والمخدرات. احتل هذا الجانب حيزًا كبيرًا من نشاطهم، لا يقل في أهميته عن تجارة المعلومات بالنسبة لهم. في كل مركبٍ وسفينة، لديهم خزائن سرية يحتفظون فيها بالذهب، والبضائع المهربة.

في كل بلد، هناك فردٌ ينتمي لهذه العائلة، يحتل منصبًا مهمًا في الدولة، أو على علاقةٍ وثيقةٍ بالملك أو السلطان، ويحصل على

t.me/qurssan

صناديق مليئة بالمال مقابل المعلومات التي يقدمها عن الدول الأخرى.

تمتعت سلالة "يوسف ناسي" بنسيجٍ متماسكٍ من الأعمال المشتركة، التي تعود بأرباحٍ وفيرةٍ على الجميع. لم يقع أيٌّ منهم فريسة للطمع فيما يملكه الباقون.

في بعض الحالات، عاش الأقارب وماتوا دون أن يجمع بينهم أي لقاء. باعوا واشتروا، وتقاسموا الأرباح، وتبادلوا الثقة العمياء، دون أن يروا بعضهم. كان من أهم تعاليم "يوسف ناسي" لمن حوله، ولمن جاء بعده، هو إبقاء العلاقات العائلية التي تربط بعضهم ببعض سرًّا لا يُطلِعون عليه أحدًا، مهما تكن الظروف. نتيجةً لذلك، تعاملت معهم الدول المختلفة كجواسيس منفردين، وليس كشبكة جاسوسية متكاملة الأركان. بهذه الطريقة، لم تنجح أي دولة في فرض سيطرتها عليهم. الغريب أن كيانات مثل "فرسان الهيكل"، على سبيل المثال، والتي تولت تسيير العلاقة بين الصليبيين والبابوية، لم تكن تملك كل هذا التفاني الذي ميّز العلاقة بين أفراد "ناسي"، والذين كانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم من أجل أقارب لهم لم يروهم مطلقًا.

لو كان الأمر بيدي، لما سافرتُ في رحلةٍ عبر البحر المتوسط وأنا حبيس هذا الصندوق الذي غُطيت جوانبه الداخلية بالزنك، حتى لا تتسرب إليه المياه. أنا أشعر بالاختناق هنا. لم أكن سأختار أن أوضع في مكانٍ سري في باطن السفينة، يحيط بي صهيل الخيول المتواصل، وصياح الببغاوات الذي لا ينقطع. كنتُ أفضل البقاء في مكان مريح من السفينة، أستمتع فيه بالهدوء وبهدهدة الأمواج لي. جاورني داخل الصندوق ثلاثة صلبان مقدسة من قبرص، وتمثال ذهبي صغير للإلهة "إيزيس"، اشتُرِيَ بثمنٍ بخس من غجر الإسكندرية لتقديمه هدية للبابا. إضافة إلى تقارير حول السيطرة العثمانية في شرق المتوسط وبلاد المغرب، موجهة لملك فرنسا. هناك أيضًا نسخة عن وثيقة تعكس رأي السلطان في سياسات دول البحر المتوسط. ضم الصندوق أيضًا تقارير عن جدوى حفر قناة في السويس تربط البحرين الأبيض والأحمر،

t.me/qurssan

إلى جانب تقرير عن القناة التي تصل البحر الأسود ببحر مرمرة. تنوعت الكتب والمؤلَّفات الموضوعة داخل الصندوق، فإلى جانب نسخ "ألف ليلة وليلة"، و"توتي نامه" أو "حكايات الببغاء"، و"كليلة ودمنة" - وكلها هدايا للأساقفة - هناك أيضًا مؤلفات عن السلاطين العثمانيين، بهدف تحليل شخصياتهم؛ وبعض الأعمال العلمية والتاريخية والطبية المكتوبة بالإغريقية والسريانية واللاتينية والعربية. يوجد كذلك كتابٌ عن التداوي بالأعشاب. بالإضافة لكل ذلك، كان من ضمن المحتويات بعض الماسات، والحلي المرصعة بالياقوت، والخناجر المزينة بالأحجار الكريمة.

فُتِحَ هذا الصندوق عنوةً، بطريقةٍ عنيفة، ما سمح للجرذان الضخمة - التي يقترب حجمها من القطط - بالتردد عليه. واقع الأمر أنني دخلته في الأساس بمحض المصادفة، أو هكذا ظننت في بادئ الأمر. لكن مع عدم وجود ما أفعله في مكانٍ كهذا، سوى التفكير، فقد توصلت إلى نتيجةٍ مغايرة.

يا لتلك المسكينة "روكال"! كنت أحتضنها كما لو كانت "ليلى". لقد صارت ذكراها بعيدة جدًا، وكأن أعوامًا طويلة مرت على افتراقي عنها. كم أشتاق إليها! أحنُّ أيضًا إلى الساعات التي أمضيتها في الأحياء الفقيرة في إسطنبول، وأنا أقاوم أشواقي لها. أتذكر جيدًا اليوم الذي كنتُ فيه داخل الحمام الشعبي، بانتظار تسليمي إلى رئيس "جمعية بابل"، بينما كانت هي داخل المنزل الذي أخذها إليه "تيمور"، ومشاعرها تتأرجح بين الخوف والأمل. أتذكر كيف حاول بحّار من "كريت" أن يجرها إلى فراشه، وكيف قاومته بشراسة، حفاظًا على شرفها. كانت أقصى أمنياتي ألا أفارقها أبدًا. رغبتُ في حمايتها. شعرتُ بالعجز والألم.

صباح اليوم التالي لحادث البحار، استيقظت "روكال" وقد انتابها الخوف، وبللت قطرات الدم طرف ثوبها. ولما كان هذا موقفًا مألوفًا في هذا البيت، فقد استدعت القوادة التي تديره الداية التي تتعامل معها، للقيام بما يلزم.

ما إن رأتها الداية، حتى قالت بثقة، بحكم خبرتها الطويلة:

t.me/qurssan

- لقد تعرضتِ للإجهاض يا بنيتي. تلزمكِ الراحة بضعة أيام.

كان جنين "روكال"، الذي جازفت بكل شيء من أجل الحفاظ عليه، مجرد كتلة مغطاة بالدماء، تقبع في صحنٍ معدنيٍ عميق، تغطي حوافه بقع الصدأ. أخذوه إلى المدافن القريبة، وتركوه هناك وسط نباح الكلاب الجائعة.

كل ما أرادته "روكال" حينها هو الموت. رأيتها وهي تدعو الله بكل جوارحها أن يقبض روحها بأسرع ما يمكن. كانت في أقصى حالات الغضب، لدرجةٍ أفزعتني.

غنيٌ عن القول أن "تيمور" لم يكن صديقًا لـ"باتلاك ميمي"، بل أحد جواسيس الـ"بستانجي آغا". علِمَ بقصة "جمعية بابل"، فقرر البحث عن الكنز. في اليوم التالي لاختفاء "روكال" من القصر، حقّق مع زملاء "باتلاك ميمي". حين انتهت نوبة حراسة الأخير، اصطحبه "تيمور" إلى زنزانة واحتجزه بداخلها، ثم قيد أطرافه، وبدأ بانتزاع شعيرات أنفه، عرّضه بعدها لشتى أنواع التعذيب. في النهاية، أفقده القدرة على المقاومة وعلى التفكير.

من أجل انتزاع المعلومات التي يريدها منه، أجبره "تيمور" على ابتلاع مسامير مربوطة بخيطٍ طويل. رأى "باتلاك ميمي" الموت بعينيه، كلما سحب "تيمور" الخيط، أو دفعه بداخله. شعر بتقطع أحشائه. لم يستطع أن يقاوم طويلًا، وسرعان ما انهار مقرًّا بكل ما يعرفه عن المسألة. حتى اللحظات الأخيرة التي سبقت شنقه على يد "تيمور"، راح "باتلاك ميمي" يتوسل إليه أن يرحمه، وهو يسبّ "روكال" ويلعن اليوم الذي رآها فيه؛ لكن "تيمور" صمم على التخلص منه حتى لا يعرف أحد غيره تلك المعلومات.

سارع "آلاباتشا تيمور" بالتوجه إلى الخان في "يديكيول"، واحتال على "روكال" كي تغادر معه، قبل أن يسبقه إليها رجال الـ"بستانجي آغا". اصطحبنا إلى بيت الدعارة، الذي تربطه بصاحبته علاقة عمل، فرجاله يعملون على توفير سبل الراحة لزبائنها، وعلى حمايتها وفتياتها.

t.me/qurssan

وضع "تيمور" نهايةً مختلفةً لهروب "روكال"، عن تلك التي عرفها من "باتلاك ميمي". التقى بصاحب سفينة من "جنوا"، في "كاراكوي"، وأبلغه بأنه سيحضر له امرأة فائقة الحُسن، عقب يومين بالضبط. أي قبل مغادرة السفينة للميناء، مباشرةً. مقابل ذلك، أعطاه الربّان ثلاثة أكياس من العملات الذهبية. لكن "تيمور" لم يكن حينها يعلم أن "روكال" تحمل في أحشائها طفل السلطان. حين تعرضت للإجهاض، أصيب بالذعر، ولجأ إلى إحدى حانات "جالاتا" محاولًا تجاوز صدمته البالغة. هناك، أفرط في الشرب، إلى أن خارت قواه، ولم يستطع حضور الاجتماع الليلي الذي عقده الـ"بستانجي آغا" لرجاله الذين أطلقهم في شوارع إسطنبول لجلب أي معلومات تتعلق بالمسألة.

لاحظ الـ"بستانجي آغا" غياب "تيمور" عن الاجتماع، فساورته الشكوك في مدى ولائه، وأرسل أحد رجاله للبحث عنه ومراقبته.

عندما وصل "تيمور" إلى الماخور، مساء اليوم التالي، كان تحت المراقبة.

واصل الرجل المكلف بالتجسس عليه مراقبة البيت، ولم يشعر بالارتياب حين لمح امرأتين تتأبطان ذراعي إحداهما الأخرى، وتغادران المبنى. ظل واقفًا في مكانه لبعض الوقت، حتى أدرك بغتةً الخطأ الذي وقع فيه. تتبع خطوات السيدتين في الأرض الموحلة إلى أن وصل إلى رصيف الميناء. كان قد لاحظ أن آثار حذاء إحداهما أكبر بكثير من أن تكون لامرأة. لقد طار العصفور! استأجر الرجل مركبًا صغيرًا، وحاول اللحاق بهما.

عند وصوله للميناء، استعان بالموظف التابع للخدمات السرية، وأبلغه أنه من طرف الـ"بستانجي آغا"، وطلب منه الاطلاع على وثائق السفينة. في تلك اللحظة، كانت "روكال" تصعد على متن السفينة، وليس معها سوى صرة صغيرة تحوي قطعًا قليلة من ملابسها التي خبأتني وسطها. وضعت إحدى يديها على التميمة التي تعلقها حول رقبتها. تبلل سطحها ببعض العرق الذي انساب على صدرها الناهد. "روكال"، حبيبتي البائسة، التائهة، التي لم

t.me/qurssan

تكن تعرف شيئًا عن وجهتها ولا مصيرها. الشيء الوحيد الذي كانت متيقنة منه، هو أنها لم تعد تخشى الـ"بستانجي آغا". لم يعد لأي أمر أهمية بالنسبة لها. لقد فقدت السلطان الذي أحبته، وابنهما الذي تمسكت به. كنتُ عزاءها الوحيد. احتفظت بي كي أسرّي عنها لحين وصولنا إلى "مينجريليا"، وكانت تدعو الله ألا تفقد ماساتها الثلاث خلال الطريق.

ما إن وضعت قدمها على السطح ذي الضوء الخافت، حتى اقترب منها بعض البحارة بطريقةٍ وقحة، وراحوا يخاطبونها بلجاجة، بلغةٍ لا تعرفها. كانوا يطلبون منها دفع رسم الدخول. اعتقدتْ أنهم يريدون ثمن الرحلة، الذي ظنت أنه سبق لها تسديده. أحست بالخوف والتوتر. صاحت بأسى:

- يا إلهي! أي مصائب أخرى في انتظاري؟

لم يعد لديها أي عملاتٍ فضية في كيس نقودها. مدت يدها تتحسس الحزام المحيط بخصرها. اكتشفت أنه لم يعد موجودًا. تزايد إحساسها بالقلق. شعرتْ بترددها. لم تكن تدري إن كان عليها أن تعطيهم إياي، أم تمنحهم التميمة التي تلبسها. تضاعف حبي لها في تلك اللحظة. إن قيمتي لديها لا تقل عن قيمة الألماس.

ارتعشت يداها، وأحست بالبرودة والخوف. شعرتْ بالدوار والضعف، بسبب كميات الدم الكبيرة التي فقدتها مؤخرًا. خارت قواها، وانفلتت الصرة من بين أصابعها. حتى تلك اللحظة، لم يكن أي شخص يعرف بوجودي وسط ملابسها، عدا رجل الـ"بستانجي آغا" ربما. سقطتُ على أرضية سطح السفينة بقوةٍ آلمتني بشدة. كاد كعب غلافي يتمزق. هل كان ألمي بسبب سقوطي، أم لابتعادي عن يديها؟ لا أدري، لكنه كان شيئًا يفوق احتمالي.

انهارت "روكال" على ركبتيها. حاولت أن تقوم، رغم الآلام المبرحة في كاحلها المكسور. رفعتني، ومسحت عليّ بأصابعها للمرة الأخيرة، قبل أن تناولني أولئك اللصوص الذين أصروا على قبض

t.me/qurssan

ثمن ركوبها معهم. ضحك أطول الرجال، ذو المظهر القذر، على سقوط "روكال" وضعفها الواضح. استفزه جمالها الصارخ، على الأرجح. مد ذراعه نحوها ليساعدها على الوقوف، لكن زملاءه أصروا على أن تدفع لهم أولًا.

عندما ناولتهم "روكال" إيايَ، ذقتُ مرارة الفراق، وأدركتُ أن أيامي دونها ستكون عذابًا خالصًا. هل يمكن لـ"قيس" أن يتحمَل ابتعاده عن "ليلى" للمرة الثانية؟ هل روح "قيس" مستعدة للاستسلام لفكرة الافتراق عن "ليلى" الجديدة؟ إن كان الانفصال هو قدري الذي سأستسلم له، فهل سيحسدني "قيس" ضفاف نهر دجلة، و"قيس" صحراء نجد؟ كنت مستغرقًا في هذه الأفكار، حين هاجمني الألم من جديد. لقد أسقطني أحدهم ثانيةً، في غيظ، وانفصل عددٌ من أوراقي عن بعضها البعض.

صاح الرجال بإلحاح:

. ذهبًا! نريد ذهبًا..

رغم آلامي، تحاملتُ على نفسي كي أراقب وأفهم ما يحدث. هذا هو الصبر الذي يتمسك به المحبون، رغم قسوة الظروف وبشاعتها. لم تستطع "روكال" الحبيبة أن تدعني ملقى بهذا الشكل، حاولت أن تنهض من مكانها كي تأخذني، لكنها انزلقت على الأرض الخشبية المبللة، وسقطت على وجهها. همَت بالوقوف، ثانيةً، فلاحظتُ أن إصبعها السبَابة قد جُرِحت، وأن الدماء تسيل منها. في تلك اللحظة، ظهر ربان السفينة وأنقذها منهم. من يدري لأي مدى كانوا سيزعجونها ويتحرشون بها؟

تفرق الرجال على الفور، تنفيذًا لأوامر القبطان، الذي طلب منها أن تبقى داخل الحجرة الوحيدة في السفينة، وأن تغلق بابها جيدًا. أضيف ألم يدها المجروحة إلى آلام قدمها. نظرتُ إلى إصبعها، في ضوء الشمعة الهزيل، فوجدت أنها لا تزال تنزف. سقطت قطرةٌ من دمها عليَ. أزعجها ذلك بشدة. تأملتُ البقعة الحمراء وهي تعلو حرف الألف، الذي خطته بيدها عقب ليلةٍ سعيدةٍ أمضتها بصحبة السلطان. صار للحرف الآن شكل زهرة

t.me/qurssan

خشخاش حمراء اللون. تساقطت ثلاث قطرات جديدة. تحولت الصفحة إلى منظر غروب الشمس، تتوسطه زهور يانعة مبهجة الشكل. هذا هو المكان نفسه الذي كتبت فيه "ليلى" ضفاف نهر دجلة اسم حبيبها "قيس"، عندما كنتُ لا أزال مجرد ورقة؛ وهو الموقع ذاته الذي طبعت عليه قبلةً بشفتيها. كدتُ أجن! كيف اختارت "روكال" هذا الجزء مني لتكتب فوقه، وتترك أثرًا من دمها عليه؟ وكأنها اكتشفت قصة حبي لـ"ليلى"! ليتني أستطيع أن أهمس في أذنها أنني أحببتها هي أيضًا، وتمنيتُ أن تعرف أسراري. فاض قلبي بالسعادة. ها هما حبيبتاي، "ليلى" و"روكال"، تلتقيان على صفحتي قبلةً حارقةً من إحداهما ودماء ساخنة من الأخرى. لم يعد في مقدوري تحديد حبيبتي الفعلية، هل هي "ليلى" أم "روكال"؟ أيهما أقرب لروحي ووجداني؟ لا أريد أن أعرف الإجابة.

بعد وقتٍ قصير، استأذن القبطان في الدخول. أسند رأسه إلى النافذة الصغيرة، وتأمل "روكال" وهي تطالعني، منكسة الرأس. دون تفكير، سألها في دهشة إن كانت تحب القراءة. لم يكن معتادًا رؤية نساءٍ قارئات. أومأت، وحاولت إخفاء دموعها. نظرت قليلًا إلى زهرة الخشخاش التي أصبحت جزءًا من غلافي، وقالت أخيرًا:

- أحب الشِّعر.

- هل يمكنني الاحتفاظ بهذا الديوان لبعض الوقت، سيدتي؟ يمكننا أن نناقش محتوياته ونحللها، بعد أن أنتهي من قراءته.

أحست "روكال" بالارتياح تجاهه، ومنحته ثقتها، ولكن قبل أن تعلن له ذلك، كان قد انتزعني من يدها، وغادر حجرتها.

استدعى القبطان اثنين من العملاء السريين، اللذين يجيدان لغاتٍ مختلفة. سألهما عن رأيهما فيّ. قالا له إن عنواني هو "ليلى والمجنون"، ثم أشارا إلى الأختام السلطانية على صفحاتي الداخلية وأبلغاه بأنها تخص مكتبة القصر. توجه مسرعًا إلى "روكال". ما دمتُ أنا من ممتلكات القصر، فلا بد أنها هي أيضًا

t.me/qurssan

كذلك.

القبطان رجلٌ ذكي، إن كان ما توقعه عن "روكال" صحيحًا، فقد فهم على الفور أن صفقة "روكال" - التي دفع ثمنها ذهبًا - ليست سوى عملية فاشلة. ما إن انتهى من توجيه أسئلته لها، وتلقى إجاباتها التي أكدت ظنونه وشكوكه، حتى قرر أن يرسل خبرًا للقصر بوجود الجارية الهاربة على سفينته؛ ولكن قبل أن يفعل ذلك، سمع صخبًا وضجيجًا في الخارج، وأدرك أن قارب حرس الحدود يقترب منهم.

صباح اليوم التالي، حين أشرقت الشمس على تلال "أوسكودار"، رفعت السفينة مرساتها، وغادرت الميناء. بعد قليل، سمعتُ صوت "روكال" للمرة الأخيرة. شق سكون الصباح الباكر بصرخةٍ حادة، أعقبها صمتٌ مطبق.

كان ثلاثة من ضباط الانكشاريين قد صعدوا إلى السفينة، للتحقيق مع "روكال". أجابت على جميع أسئلتهم، وصارحتهم بتفاصيل مغامرتها الفاشلة. استمعوا إليها بهدوء، في الهواء الطلق، على سطح السفينة. حين انتهى التحقيق، رحلوا عنها وتركوها بمفردها على السطح، أو هكذا دبروا المشهد. سرعان ما ظهر بعض البحارة، وأحاطوا كاحلها بقيدٍ مربوط بقنبلة مدفع كروية تزن نحو خمسين أوقية. أخبروها أن ذلك مجرد إجراء وقائي، حتى لا تتعرض للسقوط.

استندت "روكال" على سور السفينة، ونظرت إلى الرصيف البحري. تأملت قصر "توبكابي"، الذي تركت فيه حبيبها، وأدركت أنها ترى هذا المبنى - الذي أمضت فيه أعوامًا طويلة - بوضوح، للمرة الأولى. غامت عيناها بفعل الدخان المنبعث من المدخنة، وغمرها إحساسٌ هائلٌ بالأسى. لكن شعورها بالحزن لم يدم طويلًا، ففي لمح البصر كانت قد سقطت في الفراغ، وندَّت عنها صرخةٌ مرتفعة، تبعها هدوءٌ شديد، بعد أن سحبتها القنبلة الكروية بسرعة إلى قاع الـ"بسفور".

كان قد تم التخطيط لكل شيءٍ بدقةٍ تامة.

t.me/qurssan

استدعى الـ"بستانجي آغا" قائد الحرس الانكشاري، وأبلغه أنهم قد توصلوا لمكان "روكال". أعلن القائد بأن المهمة أصبحت تابعة له. اجتمع بثلاثةٍ من رجاله، وطلب منهم تولي المسألة بأنفسهم، مع الحرص على إبعاد العيون والجواسيس عن الميناء والسفينة.

حقَّق اثنان من الحرس مع "روكال"، فيما تجوَّل الثالث في السفينة، وخلخلَ سورها العلوي، ووضع أمامه قنبلةً ثقيلة، باتجاه البحر. ربط خيط سنارة طويل بأحد أعمدة السور، وأنزله إلى الجزء السفلي من السفينة. لم يبق من تفاصيل الخطة إلا وقوف الضحية على السطح، واستنادها إلى السور.

في اليوم التالي، حمل رسولٌ خطابين إلى القصر، يحملان عبارة "سرّي للغاية". كُتِب في أولهما:

"سيدي، جلالة السلطان العظيم

نحيط عظمتكم علمًا بأن خادمتكم، المدعوة "روكال"، والتي حاولت الهروب على متن سفينة بضائع من "جنوا"، قد لقيت حتفها في ساعةٍ مبكرةٍ من فجر الأمس، وغرقت في أعماق بحر مرمرة. تغمدها الله بواسع رحمته. وبالبحث والتحري، تبين ضلوع كلٍّ من "باتلاك ميمي"، من سلاح الـ"جوزبيكتشي"، و"آلاباتشا تيمور"، أحد عساكر سلاح الانكشارية، بالإضافة إلى حارس من طاقم السفينة المذكورة، في مساعدة الجارية الراحلة على الهرب، وقد أُعدِموا على الفور.

نترك الباقي لتقدير عظمتكم وقراراتكم.

خادمكم المطيع:

علي

تحريرًا في 13 من ربيع الآخر، عام 999".

أما الخطاب الثاني، فكان موجهًا لزوجته، والدة ولي العهد، ولم يكن ممهورًا بأي ختمٍ أو توقيع. تكوّن من جملةٍ واحدة:

t.me/qurssan

"لقد أسقطنا اللؤلؤة في البحر".

قرأت ذلك، ثم سارعت بتمزيق الورقة إلى قطعٍ متناهية الصِّغر.

عندما وصلت بي الذكريات إلى ذلك اليوم، أخذتُ أفكر فيما حدث. لو أن الضابط الانكشاري لم يعد حينها إلى السفينة مرة أخرى، ليأخذني عنوةً من القبطان، لكنتُ قد انطلقتُ في رحلةٍ تماثل هذه منذ سنوات. لقد تفكك كعب غلافي، بفعل الرطوبة، وعاملتني مختلف الأيدي بخشونةٍ وقسوة، وكنتُ محور نزاعات مستمرة بين من هم على استعداد لفعل أي شيء من أجل الوصول إلى كنوز "جمعية بابل"، ومن يسعون للوصول إلى الحقائق العلمية. خبّأني الطامعون في جحور إسطنبول، بينما أكرمني محبّو العلم والمعرفة والثقافة، وأسكنوني الدُّور الفخمة والقصور. الفقر المدقع للفئة الأولى، هو نتيجةٌ حتميةٌ للثراء الفاحش لدى الفئة الثانية.

واصلتُ تأملاتي، وأدركتُ للمرة الأولى أن المسألة ليست خيرًا صافيًا أو شرًّا مطلقًا. إنها نسيجٌ يجمع بين الاثنين. روعةٌ تخالطها قذارة. الطرف الباحث عن المعرفة والأسرار العلمية لا يقل في ضراوته عن الطرف الباحث عن الثروة والمال، كلاهما على استعداد تامٍّ لارتكاب أي جريمة في سبيل الوصول إلى هدفه، وكلاهما يملك حججًا وأعذارًا عديدة تبرر قسوة أفعاله. أحدهما يحمي البشرية بأكملها، والآخر يحافظ على نفسه. مَن منهما أكثر صدقًا وموضوعيةً من الآخر، يا ترى؟

وسط كل هذه الأوضاع الملتبسة، التي أشعرتني بالحيرة، استطعتُ تمييز أمرًا واحدًا: اللصوص هم الذين يمتلكون حزام الزمزمية الخاصة بسيدي "فضولي". أما من يحتفظون بالخنجر فهم العلماء والباحثون عن المعرفة. لطالما تمنيتُ ألا يعثر أحد على خنجر أمين المكتبة الضرير، وألا يقع في أيدي اللصوص إن وجده أحد. ظنَّ الباحثون عن الكنز أن الخطوط والنقوش الموجودة على السطح الداخلي للحزام هي خارطة ما، وبحثوا عن نصوصٍ هيروغليفية تعينهم على فهم تلك الخريطة. عندما

t.me/qurssan

رأوني، لم يهتموا بالنص، قدر اهتمامهم بالمنمنمات التي احتوى عليها، وقارنوها بالرسومات الأكبر حجمًا الموجودة على بعض صفحاتي. أمَّا أعضاء "جمعية بابل" فقد تركزت جهودهم على تحليل القصيدة، ومحاولة العثور على إشاراتٍ سريةٍ بين أبياتي الشعرية. لقد بثُّ أشعر بالغثيان من مطاردات كل فئة لي، وتمعنهم فيَّ بالساعات.

لم أكن مهمًّا ككيانٍ مستقلٍ، كنتُ مجرد أداة يستخدمونها للوصول إلى أهدافهم، وهذا أمرٌ جارح.

ناقش أعضاء "جمعية بابل"، في اجتماعاتهم التي تُعقد كل سبع سنوات، ضرورة العثور عليَّ والاحتفاظ بي رهينةً لديهم، حمايةً لي. اللصوص، من جانبٍ آخر، رغبوا في العثور عليَّ لتمزيقي فور رؤيتي، حتى لا يستفيد مني غيرهم.

كلا الطرفين عالَم مختلف تمامًا عمَّا اعتدتُه. بقيتُ غريبًا بالنسبة لهم. مرّ بي الزمن، دون أن ألحظ ذلك. تهاونتُ عن قراري بالبحث عن "ليلى"، ولم تعد القصائد الشعرية تشعرني بالسعادة أو المتعة. لو عادت "ليلى" إليَّ، من تلقاء نفسها، فسوف أردد على مسامعها الأبيات الشعرية:

"إن كنتُ أنا.. أنا،

فمن تكونين؟

وإن كنتِ أنتِ.. أنتِ،

فمن أكون إذًا؟".

حين وصف "فضولي" لقاء "قيس" و"ليلى" في الصحراء، كان كمن يصف الورطة التي عانيتُها، وبخاصة حالة الجنون العابرة التي تنتابني بين الحين والآخر. لم يعد هناك فرق بين "مجنون ليلى" وبيني. إحساسي بالوحدة يماثل ما شعر به "قيس" سنواتٍ في الصحراء القاحلة. كلانا أُجبِر على الفراق وعذابه؛ لكنني مع ذلك أتشبث بالأمل. حبيبتي هي "ليلى" مكسورة الفؤاد على

t.me/qurssan

ضفاف دجلة، وهي أيضًا "ليلى" ابنة الصحراء في حكاية سيدي "فضولي"، وكذلك هي "روكال" المسكينة. تطاردني الكوابيس كل ليلة، الحب يحيط بي من كل جانب، ولا أستطيع تحديد مَن منهن حبيبتي.

لكنني لا أعرف اليأس. لديَّ آمالي وأحلامي وأفكاري، وأبياتي الشعرية التي تمنح الناس الإلهام.

أمضيتُ ليلتي وأنا أحلم بشخصٍ يأتي إليّ ليقرأني، ويتحدث عني. لقد مرت عشر سنوات على وفاة "سليمان القانوني". إن "صقلي محمد" باشا هو الذي يسيطر على العاصمة الآن، ووراءه عددٌ كبيرٌ من الأتباع المخلصين، والداعمين لسياسته في الـ"دوشيرمه"، والتي تتلخص في أخذ أولاد العائلات المسيحية، وتحويلهم إلى الإسلام، وتدريبهم على الفنون العسكرية ليصبحوا ضمن جنود الانكشارية.

كنتُ في منزل "خسرو" باشا، وزير "صقلي محمد" باشا، في منطقة "أوسكودار"، حين دخل علينا "فريدون" بيك. تميزت ملامح وجهه بالألفة والحميمية، وكأنه صديقٌ قديم. عرفتُ لاحقًا أنه كاتبٌ يهتم بالنثر. كان قد تزوج مؤخرًا بـ"عائشة"، حفيدة السلطان القانوني، وبدا واضحًا من طريقته وكلامه أنه يستمتع بحالة عشقٍ حقيقي. عندما أمسك بي، شعرتُ بنبضات قلبه وهي تتسارع. تحسس بأنامله الوردة الحمراء التي خلفتها "روكال"، ثم تشمم الغلاف ببهجةٍ خالصة. أدركتُ مباشرةً أن هذا الرجل يفهم معنى الحب ويقدّره.

تصفحني على عجل، وألقى نظرةً سريعةً على صفحاتي. لم يكن يقرؤني، أو يتعرف إليّ، فقد كان يحفظني عن ظهر قلب. عرفتُ حينها بأن نسخًا عديدةً مني تُباع في أسواق إسطنبول والأناضول، وأن الناس تُقبِل على شرائها، لرغبتهم في قراءة أشعاري مرةً تلو الأخرى. في ليالي رمضان الشتوية، حين يتساقط الثلج في الخارج، يجتمع الناس بعد ساعات الصوم في القاعات الدافئة، داخل البيوت الفقيرة والغنية على السواء، وفي

t.me/qurssan

المقاهي، ليستمعوا إلى أشعاري بإعجابٍ ووله، وهم يكفكفون دموعهم. خاطبت كلماتي قلوبهم ومشاعرهم.

واصل "فريدون" تقليب صفحاتي، وكأنه يبحث عن شيءٍ معين. توقف فجأة، وقرأ بحماسة:

"تكرّمي يا أمي بإخباري ما هو الحب

فلتبوحي لي بهذا السر الغامض".

اختيارٌ صائبٌ تمامًا. لقد وضع سيدي "فضولي" شيفرةً واحدةً في رقم هذا البيت، وهو 688، عبر كلمتيَ "السرّ الغامض". آمن "فريدون" بيك بأن الحب سرٌّ غامضٌ بالفعل، وهو ما لفت نظره لهذا البيت في الأساس. كان يعرف جيدًا أسلوب "فضولي" ويتوقع الطريقة التي سيتبعها في الكتابة. هذا هو حال القرّاء مع كتّابهم المفضّلين، وهكذا شرح الأمر لأعضاء "جمعية بابل" من الحاضرين. إنه مُلمٌّ بالتشبيهات التي يستخدمها "فضولي" في أعماله. قال:

. وفقًا للسيّد "فضولي"، فإن العاشق يُشبِه الفراشة. اسمعوا هذا البيت..

"كما ينجذب الفَراش للضوء، فيحرق نفسه في النار

يُلقي العاشقُ نفسه في نيران الحب ويحترق بها".

أضاف "فريدون" شارحًا:

. لا العاشق ولا المعشوق هما محور هذا البيت، بل الحب نفسه. والاحتفاء بالحب هنا ليس لأنه يجمّل وينمّق الشِّعر، وإنما لأنه المرآة التي تعكس لنا معنى الوجود. الحب بالنسبة لـ"فضولي" هو النور واللون والإثارة. إنه العنصر الذي يجعل الحياة محتملة. في رأيه، يمكن للمرء أن يقع في الغرام، من أجل الحب نفسه، أمَّا بقية المسألة فهي همساتٌ وكلامٌ حلو وشيءٌ من الإغواء مع بعض الوهم، لا أكثر.

t.me/qurssan

واصل حديثه:

- إن هوية المحبوب، سواء في الحالات الروحية كما في الصوفية، أو في الحالات الحِسّية كما هو الحال لدى المطربين والمغنين، لا تغيِّر من المسألة شيئًا. "فضولي" ذاته يخلق لنفسه محبوبًا، متى شاء. يبدأ بفكرةٍ مجردةٍ في خياله، يفصّلها وفق ما يتواءم مع أحلامه، ويسبغ عليها الجمال بإفراط، إلى أن يصبح كل بيتٍ في شِعره هو الجمال عينه، ويشعر كل عاشق أن الشاعر يتحدث عنه هو تحديدًا، ويصف حاله وأشواقه وألمه والعذاب الذي لحق به جرّاء افتراقه عن حبيبه. يجد كل شخص في تلك القصائد تجسيدًا لتجربته في عالم الحب. إن أشعار "فضولي"، في مجملها، تسهب في تفاصيل الابتلاء بالفراق والغياب، وما يعقب ذلك من آلام الحنين.. أمّا لقاء الأحبة واجتماعهم معًا في سرورٍ وبهجة، فتلك أمورٌ بسيطة لدرجة تقترب من التفاهة، ولا يحبذ تناولها. إنه يؤمن أن الإنسان يصبح أكثر نضجًا وسموًّا عن طريق المعاناة فقط. يمكن القول إن السيد "فضولي" يجد في المعاناة والعذاب نوعًا مختلفًا من المتعة. يسهل فهم الأمر إن تذكرنا دومًا أنه إنسانٌ معجونٌ بالحب، وأن عالمه محكومٌ بالحب.

استطرد "فريدون" بيك قائلًا:

- فلنستمع لما قاله "فضولي" عن الحب والجمال..

خلق الله سبحانه وتعالى من الطين كائنات فائقة الجمال، لهن خدودٌ كالزهور الحمراء، وصدورٌ كالورد الأبيض؛ ومن أجل تقدير هذا الجمال، أشعل الله نار الحب في قلوب المحبّين. شاءت إرادته تعالى أن تعاني تلك القلوب العذاب والأحزان، لكنه منحها في الوقت ذاته قدرةً هائلةً على تحمّل الآلام. خلق الله الجمال، وخلق القلوب التي تعشق الجمال. لا عجب أن العشاق يتعرضون لنار جهنم وهم لا يزالون في هذه الدنيا.

أضاف "فريدون":

- إن هذه الصورة التي رسمها "فضولي" للعشاق، هي في الواقع

t.me/qurssan

أقرب لنظام العبودية والسُخرة، ولكن إن نجح المحب في تجاوز هذه المرحلة، فإنه سيتخلص من نار الحب وينعم بجنة اللقاء والوصال. الحقيقة أنه كي تدخل الجنة، فعليك أولًا أن تتطهر لبعض الوقت في جهنم. الواقع أن الحب نفسه هو النار التي تطهر الروح وتنقيها من أي دنس. من هذا المنظور، فإن نيران الحب تسمو بالعاشق وتجعله في موقع أعلى من غيره. يجب أن تكتوي بتلك النار، بشدة، كي تستمتع باكتمال الحب وامتلاك المحبوب. كلما زاد اللهب، نضج المحب. الحب هو علاج جميع العلل والآفات. إنه النهاية، وليس بعده سوى خواء رهيب.

أردف قائلًا:

- فلننظر إلى ما يقوله في موضعٍ آخر..

"لديّ طاقة حب أكبر مما يمتلكها مجنون "ليلى"

أنا صاحب العشق الحقيقي وهو صاحب الصيت والشهرة".

نلاحظ هنا أن الحب لا يتغير مع تغير العصور، بل ينتقل من زمنٍ إلى آخر، ومن جيلٍ إلى الذي يليه. بدأ مع "آدم" و"حواء"، ووصل إلينا. له رموزٌ بارزة، تضرب بها الأمثال، كـ"قيس" و"ليلى"، و"روميو" و"جولييت". والآن، أيها السادة، كم عدد المستعدين للاستسلام التام لعذابات الحب وتحمل قسوتها، والتحول إلى عبيدٍ أذلاء له؟

سكت "فريدون" لحظات، ثم قال:

- "فضولي"، العاشق لفكرة الحب الحقيقي، هو القائل "أعددتُ مائدة شِعر لكل شعوب العالم. الخيرات على مائدتي تناسب أذواق جميع ضيوفي من الأتراك والعرب والفُرس. أرحب بهم جميعًا، في أي وقت. النِّعَم هنا لا تنضب أبدًا". إن كرمه وعطاءه يتوافقان مع بيئته، أي بلاد ما بين النهرين، ومع حكماء تلك المنطقة، مثل حكماء بابل على سبيل المثال، و"آرشيا آكيلدان" تحديدًا. إن مائدة "فضولي" المتنوعة، هي نموذج لتراكم الحضارات العظيمة المختلفة في تلك الأماكن.

t.me/qurssan

أضاف:

. لو تحدثنا عن الشِّعر تحديدًا، نجد أنه ينتقي من الكلمات أعذبها، ومن المفردات أجملها، ليعبّر بها عن الحب الخالص: وتلك مسألة تحتاج إلى معرفةٍ واسعةٍ وعميقة. إن من أشهر أقوال "فضولي" في هذا المجال: "الشِّعر دون معرفة، جدارٌ دون أساس. والجدار الضعيف معرّضٌ للانهيار". وهذا ما يفسِّر نبوغه في مختلف مجالات المعرفة والثقافة، كعِلم المنطق، والهندسة، والفلك، والطب، إلى جانب علوم الدين كالتفسير والحديث والعقيدة والفقه؛ ومع ذلك فإن تقديره وإجلاله للحب أكبر بكثير من احترامه للعلم والمعرفة، ويفضّل القلب والمشاعر على العقل والتفكير.

استطرد "فريدون" في الكلام:

. أظنّ يا أصدقائي، أو هكذا يخيّل إليّ، بأنه لا يوجد أي شاعر تركي استطاع أن يتحدث عن الحب ويقدمه بهذه الصورة بالغة الرقة والاكتمال، كما فعل السيد "فضولي". لقد نجح في إزالة الجانب الحِسي والشهواني عن الحب، وأسبغ عليه قدرًا هائلًا من القدسية. أضاف إليه الرِفعة والجمال، وهو ما جعل كل الناس يتقبلون كتاباته، بل يتعلقون بها. إنه يتبع الطريقة التي قدّمها "أفلاطون" في وصف الجمال منذ قرون، ولكن بأسلوبٍ أكثر عصرية، يتوافق مع أيامنا هذه.

اختتم حديثه بالقول:

- إن السيد "فضولي" يستحق، عن جدارة، أن يخلَّد اسمه في مصاف أعظم الشعراء.

كان الكل يصغي بانتباهٍ واهتمام لخطبة "فريدون" الأدبية، التي ألقاها عليهم باندفاعٍ ملحوظ. سرتْ في القاعة همهماتٌ متداخلة، تؤيد كل ما قاله، وتشيد بأهمية سيدي "فضولي" وعظمته. من شدة الحماسة الجماعية، أوشكتُ على الظنّ بأنهم سيعلنون - باسم "جمعية بابل" - تنصيب شاعري العظيم حكيمًا، مثل

t.me/qurssan

صاروا يتعاملون معي باحترامٍ أكبر.

راودتني رغبةٌ شديدة في أن يقرأني "فريدون" بيك بتمعن، تلك الليلة، كي يكتشف أسراري ويستخرج كنوزي. أدركتُ في تلك اللحظة تحديدًا بأنني أفتقد الحوارات الأدبية والمناقشات الشِّعرية، وأن بداخلي شوقًا جارفًا لمجالس الشعراء وصحبتهم الممتعة. كلامهم يشبه السُّحُب الماطرة التي توزع ماءها وبهجتها على الأرض العطشى. الحب بالنسبة لهم صدقاتٍ يمنحونها بسخاء لكل من حولهم. كنت أحن لتلك الأجواء.

أردت لمساتهم المحبة، ووددتُ لو تزيل عني تعبي وإنهاكي. صرتُ درويشًا يرقص بحبٍّ نقي، ويدور طويلًا، إلى أن يتملكه الإجهاد. دائرة الحب تحيط بي وتدفعني للتحرك داخلها. أشواقي لـ"ليلى" تحرق قلبي، وتطلق شرارها في السماء، من شدة حسرتي ولهفتي. رغبتُ في انهمار الماء من عيني، علَّه يُطفئ نيران غرامي؛ لكن النار كانت أكبر وأقوى من دموعي. عَبَراتي تزيد، واللهب يعلو. الماء والنار والحب تتصارع بداخلي. أصبحتُ شمعةً. أحمل فوق رأسي لهب الحب، بينما تسيل دموعي بلا انقطاع على جوانب جسدي الزاوي، الذي يذوب شيئًا فشيئًا. فتيل الحياة يحترق ويوشك على الانتهاء. دموعي تكاد تُغرقني.

لم أنتبه إلى قسوة الأشواق التي تعصف بي، إلا حين التقيتُ "فريدون" بيك. ليته يأخذني ويصبح صاحبي الجديد. كنا سنمضي أوقاتنا في الحديث عن الحب والبكاء عليه. هذا الرجل المسكين يكابد غرامًا سرِّيًا، كما يبدو. لبلاب الحب يلتف حول جسده الناحل، ويوشك على القضاء عليه. في اليوم التالي، بلغتنا أنباءٌ مؤسفة. تم العثور على جثمانه العاري على شاطئ "زيندان كابيسي". ألقت الأمواج بجسده الجريح على البر، بعد أن أكل السمك عينيه.

انتشرت على الفور قصةٌ مختلقةٌ، مفادها أنه انتحر بسبب قصة حبه الفاشلة لحسناء يونانية. طعن صدره أولًا بخنجر، ثم غرز

t.me/qurssan

سيفًا قصيرًا في بطنه، وبعدها ألقى نفسه في مياه "القرن الذهبي".

لكنني عرفتُ الحقيقة من أعضاء "جمعية بابل"، حين استمعتُ إلى حوارهم الهامس. لقد تبعه لصوص الآثار، الساعون وراء كنوز هرم بابل. اختطفوه إلى خانٍ صغير، وعرضوه لتعذيبٍ شديد، كي يجبروه على إخبارهم بكل ما يعرفه. طعنوه بسكاكينهم في صدره وبطنه، ثم ألقوا جثته في "القرن الذهبي"، عند شروق الشمس، وبدء الديكة في الصياح.

بعد كل ما مررت به وشهدته من ابتلاءات وجرائم وإزهاقٍ للأرواح، بدأت روحي تنسى الحب وتألف القسوة والغلظة. حدث ذلك دون رغبةٍ مني، وأزعجني بشدة. بالإضافة إلى ذلك، تغير شكلي ومظهري أيضًا. التهمت الجرذان الشرسة أجزاءً من بعض صفحاتي، داخل سفينة القراصنة. تشققت أوراقي بفعل الرطوبة. تمزقت بعض جوانبي، نتيجة ارتطامي المتواصل بالصندوق الذي كنت بداخله. رغم كل ذلك، لم أكن منزعجًا لسفري إلى بلادٍ غريبة، لا يفهمني فيها أحد. ظللتُ أردد لنفسي مواسيًا: "التغيير مطلوب، ولا بأس به".

رحيلي عن إسطنبول أعاد إليَ ذكرياتي الأليمة عن مغادرتي لـ"ليلى" في تلك القرية البدوية، وانطلاقي إلى المجهول. إن نسيانك لذكرياتك أمرٌ مستحيل، لكن أن ينساك الغير بسهولة هو قدرك المكتوب عليك. لقد سبق لي المرور بهذه التجربة. لم يعد ألم ابتعادي عن "ليلى" موجعًا وملموسًا، كما كان في أوله؛ لكن ذكرى "روكال"، التي ستبقى معي إلى الأبد، هي الوجع الحقيقي. تلك الزهور الحمراء التي تركتها على غلافي، والتي شكّلتها بدمها على نحوٍ بديع، هي أغلى ما في الوجود بالنسبة لي. أزهارها وقبلاتها، وقبلة "ليلى" مكان اسم حبيبها الذي كتبته بالفحم.. جميعها أمورٌ أعتزُ بها. كل من يحبني سيترك قبلةً مماثلة على خدي.

لقد منحتني أزهار "روكال" حياةً جديدةً، وأضفت عليَ الجمال،

t.me/qurssan

ومنحتني الحب.

خلال السنوات التي أمضيتها في إسطنبول انهمرت الأمطار مرات عديدة، وامتلأت فصول الشتاء بالعواصف، وحتى الربيع كان حزينًا. تعاقبت الفصول بكآبة. تغير شكل الوردة الحمراء التي تزين غلافي. لم تعد برونقها القديم. اعتراها الذُبول. إنها خير تجسيدٍ لعذابي ومشاعري.

هذا التغير في شكل الزهرة، جعلني أدرك أن "روكال" أحبتني بصدق. ربما بقدر "ليلى" مثلًا. لعلها أصبحت "ليلى". أتذكر كيف كانت دموعها تتساقط عليّ بغزارة، في الليالي التي تقرؤني فيها.

انزاحت جميع وساوسي، وحلّ محلها شعورٌ عميقٌ بالإخلاص.

تلك الوردة، زهرة الخشخاش، زنبقة الجبال.. أيًا ما كانت.. سوف تحرق قلبي إلى الأبد. احترقت قطرة ندى على وجه "روكال"، في الليلة التي أمضيناها معًا داخل تجويف شجرة الجوز العجوز. ضرب البرق أغصان الشجرة، وقطرات الندى، فحرقها. سقطت قطرة الندى النائمة في زاوية عين "روكال"، على خدها الشبيه بالياقوت، ومن هناك إلى زهرة الخشخاش. وهكذا دام الحريق في صدرها إلى الأبد.

البرق الذي أصاب "روكال"، والذي لم يكن أقل قسوةً من البرق الذي ضرب "نارسيسوس" في الأساطير اليونانية، لم يستطع تغيير شيءٍ في مظهري. زهرتها الحمراء هي التي غيّرتني تمامًا، وظلت تومض على غلافي كجمرةٍ مشتعلة.

كلما لمحتُ زهورها الحمراء، أرسلتُ لها قبلاتي كي تطوف على خديها الشبيهين بالياقوت. كم أحببتكِ يا "روكال"! أحببتكِ، كأنكِ "ليلى" بالضبط. يا زهرة القوقاز، ليس هناك من تضاهيكِ جمالًا. أنتِ الحبيبة التي تركتها على نهر دجلة.

لقد أحبّت "روكال" الزهور وتعلقت بها، لإدراكها أنها لن تحملها بين يديها كأي عروس، أبدًا. سترافقني "روكال" على الدوام، بزهرة الخشخاش التي خلفتها وراءها. يضطرب قلبي كلما تذكرتُ القبلة

t.me/qurssan

لتي طبعتِها عليّ يا "روكال".. آه يا زهرة القوقاز!

MAGNOLIA [illegible]
[illegible]

t.me/qurssan

16الفاتيكان والألفية الجديدة

الأصدقاء قساة، والعالم ظالم

والوقت شديد الشراسة

المشكلات جمّة، وأنت وحيد

الخِصم قوي، والحظ ضعيف

(الشاعر "فضولي")

تعبث من عَدّ السنين. أنا متعبٌ جدًّا. مغامرةٌ مليئةٌ بالاضطرابات، استمرت ستَّ عشرة سنة. رحلةٌ من الرطوبة والبارود في عرض البحر، يغلفها الضباب. إنها تقبع في مكانٍ قَصِيٍ داخل عقلي. إن لم أشرح المسألة الآن، فلن أتمكن من تقديم تفسيرٍ لها لاحقًا. لقد شوهتني قنابل المدافع المتبادلة بين قراصنة "جنوا"، في المنطقة الواقعة بين "كريت" و"مالطا"، وآلمتني المسامير المثبتة في حزام من قام بتهريبي من سفينة الأمير البحري العثماني "مراد رايس الأكبر". وكيف أنسى منظر البحارة الذين تناثرت أشلاؤهم خلال ضربهم بالقنابل، على متن المركب الذي هُرِّبتُ فيه؟

كانت تلك أيام بالغة الصعوبة بالنسبة لي. كنتُ أعاني الإهمال والوحدة والاغتراب، ومن الترهُل والارتخاء. حين دخل الماء المخزن الذي وُضِعتُ فيه، توقف هجوم الجرذان عليّ، لكنه أصابني بالرطوبة، وهو ما أدى إلى تعفن الخيوط التي تمت حياكة صفحاتي وتثبيتها بها، وطمس بعض كتاباتي، وإزالة الزهرة الحمراء التي بقيت لي من "روكال"، واختفاء قبلة "ليلى" من على غلافي.

توقعتُ أن تنتهي رحلتي في مدينة "البندقية"، أرض الاحتفالات والمهرجانات والبذخ والدسائس والمؤامرات، لكننا كنا في طريقنا إلى "روما"، ببيوتها الفسيحة وتماثيلها الكثيرة، ورهبانها وقساوستها. كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، بسبب الحرب في "دلماسيا"، على الساحل الشرقي من البحر الإدرياتيكي. حاول

t.me/qurssan

القبطان تجنب الإبحار قريبًا من جزر ومدن بعينها، لعلمه بأنها تقع تحت سيطرة محافظ البوسنة "تيلي حسن" باشا ورجاله، بالإضافة إلى "مراد رايس الأكبر" وبحارته؛ ولهذا السبب تحديدًا أصدر قرارًا مذهلًا، فور اقترابه من مياه مقاطعة "راجوزا" بجزيرة "صقلية"، وهو الاتجاه يمينًا. بعد ثلاث ليالٍ، وصلنا إلى "أنكونا". ومن هناك، استغرقت رحلتنا إلى الفاتيكان يومين كاملين، رافقنا خلالهما عددٌ من الحرّاس والجنود.

هنا فقط، أدركتُ أنني أصبحتُ عبدًا بكل ما تحمله الكلمة من معاني البؤس والهوان. لم أعد كما كنتُ على الدوام، أسير إبداعات سيدي الشاعر العظيم "فضولي"، بل أختطَف وأباعُ وأشترى في صفقاتٍ أقرب لتجارة الرقيق في أسواق النخاسة. بتّ أنظر إلى حياتي الماضية في أراضي العثمانيين، كحلمٍ سعيدٍ. الفاتيكان، المعروف بقاعاته، وزنازينه التي تقع تحت الأرض، وبرهبانه، وبأسلوب حياته المختلف كليةً عن أي نظامٍ آخر حول العالم، عالمٌ قائمٌ بذاته.

ليس هناك من يستمع إليّ، في هذه القاعات التي زينها "رافاييل". يمر يومي في سكونٍ تام، وأنا أصغي للجميع. لا أفهم ألسنتهم، ولكنني أشعر بقلوبهم وما تنطوي عليه نفوسهم. أسعدتني قدرتي على فهمهم وكشف خباياهم. ذلك نوعٌ من المعرفة. لكن الحقيقة أن معرفة سرائر الناس عبءٌ ثقيل، وسلاحٌ خطير. لا يتقبل المعرفة إلا من يملك فهمًا شديد العمق للأمور والأوضاع. يتعمد الناس عادةً إخفاء أفكارهم ونياتهم. بدأ الناس من حولي يشعرون بشيءٍ من الخفة، بسبب تحررهم من عبء إخفاء شخصياتهم الحقيقية خلف أقنعةٍ متعددة. كنتُ أنا مَن ساعدهم على فعل ذلك. أنا الذي حررتهم، وأشعرتهم بالراحة والأمان، وفهمتهم، والتزمتُ الصمت وحافظتُ على أسرارهم. رأيتُ المنتصرين وهم يخسرون، وشاهدتُ انكسار الطغاة، ووفاة المواليد، وبقيتُ صامتًا. لقد أثبتت كلمات سيدي "فضولي" صحتها على مرّ الأيام، فالمعرفة أسيرة النميمة والثرثرة، وكل ما في الحياة مصدره الأساسي هو الحب، وللقلب أولويةٌ على العقل.

t.me/qurssan

ورغم كل شيء، بقيتُ صامتًا، ساكنًا، أراقب قلوب الناس التي يتحكم الله وحده في مصائرها.

بقينا وقتًا طويلًا داخل قصرٍ تطل نوافذه العالية على "كاتدرائية القدّيس بطرس"، والحدائق الممتدة وراءه. إننا في قلب روما، داخل دولةٍ ثيوقراطية، أي تحكمها حكومةٌ دينية، تحت رعاية سلالة "هابسبورج" الإسبانية. ما زالت آثار عصر النهضة هي المهيمنة، كالأعمال الفنية لـ"مايكل أنجلو"، وفلسفة "ميكيافيللي". البابا، الذي يترأس الكنيسة الكاثوليكية، هو في الوقت ذاته أعلى سُلطة قضائية، وصاحب صلاحياتٍ مطلقة في الجوانب الدينية؛ وقد ساهمت هذه الأمور في منح الفاتيكان نفوذًا أعلى بكثير من القوى البروتستانتية.

هزت المشكلات المالية، التي بدأت قبل حوالي عشرين سنة، كلًّا من جمهوريتي "جنوا" و"البندقية"، ومملكتي "نابولي" و"صقلية"؛ أمَّا في "روما" فلم تتدنَّ قيمة العملات العثمانية أكثر من عشرين في المئة بالنسبة للفضة، وعشرة في المئة بالنسبة للذهب. بالنسبة لعملات الفاتيكان، فإنها رفيعةٌ ورقيقة كورق شجر اللوز، وفي خفة قطرة ندى، لكن قيمتها - مع ذلك - تتساوى مع قيمة العملات الفضية في المناطق الإيطالية الأخرى. سبع قطعٍ منها تساوي واحدة من العملة العثمانية "آقجة".

حين أخذوني للبابا "يوليوس الرابع"، كنتُ أول من أخرجوه من الصندوق الذي أمضيتُ فيه فترة الرحلة الطويلة بأكملها. وضعوني على طاولة تتوسط قاعة تضيئها شمس الظهيرة.

t.me/qurssan

تمهل شقيق "يوسف ليفي"، وقبطان السفينة، في إخراج محتويات الصندوق، وترتيبها على الطاولة بحرصٍ بالغ. عندما فرغا من ذلك، عرّفا القساوسة بكل قطعةٍ من المعروضات. في البداية، استعرضا أطقم الطعام المصنوعة من الفضة، بالإضافة إلى الأسلحة المرصعة بالجواهر. بعد ذلك، جاء دور الأوراق والمخطوطات والمؤلفات. ولما كانت اللغة الأساسية للقراءة في هذا المكان هي اللاتينية، فإن كتب الطب والصيدلة المكتوبة باللاتينية كانت أول ما تم توزيعه عليهم. في هذه الرقعة من الأرض، تتحكم البابوية في العِلم وكل ما يتعلق به. إن من يكتبون وينسخون ويوزعون الكتب، هم رجال الدين، ولا يشاركهم في ذلك أحد، ذلك أن التفكير والكتابة من الأمور المتميزة، التي لا ينبغي تركها للعامة. تقدّر الكنيسة الفنانين، فهم أداتها للتعبير عن سلطتها، ولذلك تتولى رعاية الرسامين والنحاتين وتدعمهم من جميع النواحي، وتعهد إليهم بأعمالٍ ضخمة، كي يخلدهم التاريخ.

كرّم الأساقفة "يوسف ليفي" والقبطان، لنجاحهما في مهمة توصيل كل هذه المؤلفات المهمة إليهم، ودعوهما إلى غداءٍ رسمي. عقب ذلك، ركعا أمام البابا، الذي منحهما أوسمةً تقديرًا

t.me/qurssan

لجهودهما، إلى جانب وعدٍ بالحصول على خمسين كيسًا من العملات الذهبية قبل رحيلهما. قدّما شكرهما للبابا، وغادرا القاعة وهما يتأملان الرسومات المبهرة التي تزين الأسقف، والتي رسمها "بوتيتشيللي" و"مايكل أنجلو".

بعد أن غادر الضيفان، وقام الحراس بإغلاق الأبواب، سارع البابا والأساقفة بالتجمع حول الطاولة وتفحص الكتب والوثائق والمخطوطات والرسوم. أثبت البابا أنه أكثرهم علمًا وثقافةً، حين أبدى فهمه لمحتويات كل كتاب ومخطوطة، رغم اختلاف لغاتها.

بدأ الأساقفة بتصفح الكتب اللاتينية. لم يلمسني أحد منهم. أوشكت ساعات النهار على الانتهاء. تجمعوا تحت الصليب اللامع في الجانب الشرقي من القاعة، وجثا كل واحدٍ منهم على ركبتيه. اشتركوا في غناء الترانيم، بصوتٍ هادئ في البداية، أخذ يعلو شيئًا فشيئًا. كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها صلاةً على ذلك النحو. بعد مدةٍ طويلة، قُرِعَت الأجراس، وتردد صداها في كل أرجاء المدينة.

قبل ثلاثة أشهر، أصدر البابا قرارًا يفرض قرع الأجراس ثلاث مراتٍ يوميًا. يشار إلى هذا القانون بـ"الجرس التركي". فبعد الهجوم المتكرر من القراصنة التابعين لـ"كرواتيا" على السفن العثمانية في البحر الأدرياتيكي، وفشلهم في كل مرة في تحقيق أي انتصارٍ على العثمانيين، لجؤوا إلى البابا ليجد لهم حلًا. فرض البابا على رعيته الدعاء بالهزيمة على الأتراك، كلما سمعوا صوت النواقيس.

كنتُ آخر كتابٍ تصفحه البابا في تلك الليلة. لم يفهم لغتي، لكنه عرف قيمتي، وأعجب بالمنمنمات التي تزين صفحاتي. أدركت ذلك من التماع عينيه، وتسارع نبضات قلبه. خمّن أني ديوان شِعر، وأنني أتناول موضوع الحب. لو عرف أن حكايتي تشبه قصته مع حبيبته، التي عرفها قبل الرهبنة، لاحمر خجلًا. تأمل اللوحات المرسومة بداخلي، ببعض الأسى، وهو ما أحزنني. لقد لمحها للمرة الأولى داخل إحدى الحدائق، ثم تكررت مشاهدته لها

t.me/qurssan

مراتٍ عديدة، لكنه لم يستطع أن يتحدث إليها ولا أن يصارحها بإعجابه ومشاعره. لو فعل ذلك، لما أصبح قسيسًا، ولأمضى بقية عمره وهو ينحت الخشب في ورشة والده، مستمتعًا بجميع ملذات الحياة. كان سيتناول خصلات شعرها الأشقر بين أصابعه، ويستنشقها باستمتاع. كان سيطبع قبلةً حنونًا على جبينها، حين تنجب له طفلهما. كان سيجلب لها هدايا صغيرة عند عودته للمنزل مساءً. وحتى حين يعود إليها خاوي اليدين، يكون قلبه عامرًا بالحب.

لم ينسَ قط عينيها الزرقاوين، فقد كانتا تبعثان الدفء في قلبه. رغم مرور كل هذا الزمن، ما زالت روحه ممزقة بين واجباته الدينية، وتلك الحبيبة الرقيقة.

احتل الحب كامل قلبه، ولم ينقص أو يزيد بمرور الوقت. ما زال كما هو. وما زال يتساءل أحيانًا: إن كانت تلك الفتاة قد أحبته يومًا؟ هل فكرت فيه على هذا النحو، ولو مرة؟ إن كان الأمر كذلك، فسوف يلتقيان ويتحدان في نعيم الفردوس، في حياتهما الأبدية. لعل هذا ما يفسر تناوله لموضوع الحب في كل محاضراته ودروسه، والتي يردد فيها دائمًا:

. الحب هو مجموعة عناصر مختلفة، تتحد داخل أرواح جميع الكائنات.

على عكس ما يحدث في قطع المغناطيس، فإن الأشباه تتجاذب، والأضداد تتنافر. هذا ما يحدث بين أرواح الناس، بشكلٍ عام، وليس الأحبة والعشاق فقط. من المستحيل أن ينجذب أحد لشخص آخر، إن لم يكن بينهما تشابه في بعض الصفات والاهتمامات، فذلك ما يمنح الارتباط قوة.

اعتاد أن يطمئن نفسه بأنها هي أيضًا تفكر فيه، إذ لا يعقل أن يكون التفكير من جانبٍ واحدٍ فقط.

احتضنني البابا بين يديه، كما فعلت "روكال" داخل تجويف الشجرة في تلك الليلة الماطرة، واستغرق في التفكير في المرأة

t.me/qurssan

مراتٍ عديدة، لكنه لم يستطع أن يتحدث إليها ولا أن يصارحها بإعجابه ومشاعره. لو فعل ذلك، لما أصبح قسيسًا، ولأمضى بقية عمره وهو ينحت الخشب في ورشة والده، مستمتعًا بجميع ملذات الحياة. كان سيتناول خصلات شعرها الأشقر بين أصابعه، ويستنشقها باستمتاع. كان سيطبع قبلةً حنونًا على جبينها، حين تنجب له طفلهما. كان سيجلب لها هدايا صغيرة عند عودته للمنزل مساءً. وحتى حين يعود إليها خاوي اليدين، يكون قلبه عامرًا بالحب.

لم ينسَ قط عينيها الزرقاوين، فقد كانتا تبعثان الدفء في قلبه. رغم مرور كل هذا الزمن، ما زالت روحه ممزقة بين واجباته الدينية، وتلك الحبيبة الرقيقة.

احتل الحب كامل قلبه، ولم ينقص أو يزيد بمرور الوقت. ما زال كما هو. وما زال يتساءل أحيانًا: إن كانت تلك الفتاة قد أحبته يومًا؟ هل فكرت فيه على هذا النحو، ولو مرة؟ إن كان الأمر كذلك، فسوف يلتقيان ويتحدان في نعيم الفردوس، في حياتهما الأبدية. لعل هذا ما يفسر تناوله لموضوع الحب في كل محاضراته ودروسه، والتي يردد فيها دائمًا:

- الحب هو مجموعة عناصر مختلفة، تتحد داخل أرواح جميع الكائنات.

على عكس ما يحدث في قطع المغناطيس، فإن الأشباه تتجاذب، والأضداد تتنافر. هذا ما يحدث بين أرواح الناس، بشكلٍ عام، وليس الأحبة والعشاق فقط. من المستحيل أن ينجذب أحد لشخص آخر، إن لم يكن بينهما تشابه في بعض الصفات والاهتمامات، فذلك ما يمنح الارتباط قوة.

اعتاد أن يطمئن نفسه بأنها هي أيضًا تفكر فيه، إذ لا يعقل أن يكون التفكير من جانبٍ واحدٍ فقط.

احتضنني البابا بين يديه، كما فعلت "روكال" داخل تجويف الشجرة في تلك الليلة الماطرة، واستغرق في التفكير في المرأة

t.me/qurssan

الوحيدة التي أحبها، متسائلًا: كيف تبدو الآن عقب كل هذه الأعوام؟ سرعان ما استسلم لنومٍ عميق.

كان أول ما فعله صباحًا هو طلب مترجم يجيد لغتي. عند اقتراب الظهيرة، دخل عليه قس في الستينيات من عمره، يحمل أقلامًا ودواة حبر وبعض الأوراق. إنه من "البندقية" ويُدعى "أنطونيو". كان قد تم أسره وهو طفلٌ صغير، خلال رحلةٍ بحريةٍ قام بها مع أبيه إلى "مالطا". تم أخذه إلى الأراضي العثمانية، بعد معركة بين السفن، انتصر فيها "خضر خير الدين باربار وس". قُدِّم "أنطونيو" هدية للسلطان "بايزيد" في إسطنبول. أثار الطفل - الذي أطلقوا عليه اسمًا جديدًا هو "أورهان" - إعجاب الجميع بذكائه الفذ، ولذلك حظي بمعاملةٍ خاصة، وتلقى تعليمًا متميزًا، أهلّه لأن يصبح أحد مترجمي البلاط. عندما أتم أعوامه الثلاثين، انطلق إلى "جالاتا" لدراسة الطب، ومنها اتجه إلى "مالطا" لإتمام تخصصه في هذا المجال. عرف هناك أن أفضل كتب الطب ومراجعه موجودةٌ في مكتبة الفاتيكان، فانتقل إلى هناك. سرعان ما عاد إلى دينه القديم، والتحق بسلك الرهبنة.

يترأس "أنطونيو" الآن قسم الشؤون العثمانية، ويتولى إدارة المؤلفات العثمانية في مكتبة الفاتيكان؛ كما يدّعي أن هناك صلة قرابة تربطه بالسلطانة "صفية"، زوجة السلطان "مراد"، والتي تعود أصولها إلى مدينة "البندقية".

تلقفتني يدا "أنطونيو" بمنتهى الود والترحاب، وكأنني صديقٌ قديم. يبدو أن معلمه القديم "حسن آغا" كان يُكثِر من ترديد حكاية "ليلى والمجنون" على طلابه.

أطرق "أنطونيو" باحترامٍ بالغ، وخاطب البابا بتوقيرٍ عظيم:

. قداسة البابا، هذا الكتاب يشبه "روميو وجولييت".

تتبع العنوان بإصبعه، وقال:

. إنه يحمل اسم "ليلى والمجنون".

t.me/qurssan

أضاف:

. جميع سكّان الشرق، كبارًا وصغارًا، ورجالًا ونساءً، يعرفون هذه الحكاية. صاغها المؤلفون والشعراء في نسخات عدّة، بمختلف اللغات. هذه النسخة من نظم شاعرٍ من بغداد يدعى "فضولي"، وعليها ختم مكتبة قصر السلطان "مراد". لا أعرف يا صاحب القداسة كيف أمكن خروج هذا الكتاب من المكتبة، ولا كيف وصل إليكم، لكن يمكنني التأكيد أنه عملٌ مهم وله قيمةٌ كبيرة، كما أن المنمنمات التي يحتوي عليها تزيد من أهميته.

قال البابا "يوليوس":

. اقرأ لي شيئًا منه يا "أنطونيو".

سرد "أنطونيو" أبياتي الأولى، التي يقع فيها "قيس" في حب "ليلى"، خلال عُمرٍ مبكر. ناقشا هذا الجزء بالتفصيل، قرابة ساعتين متواصلتين. اهتم "أنطونيو" بشرح تفاصيل الرسومات الدقيقة على صفحاتي. تعاطف الرجلان مع ما مررتُ به من مآسٍ في حبي لـ"ليلى". تأثّر البابا كثيرًا بالجزء الذي تلتقيني فيه "ليلى" في الصحراء. لم تكن هذه المشاعر العاطفية غريبةً على البابا، لقد خبرها ومر بها، ويعرفها جيدًا.

علّق البابا متفكرًا:

. إن أشعار "فضولي" لا تقل في جمالها وروعتها عن لوحات الفنان "سينيوريللي".

زفر ببعض الضيق، وأضاف:

. الشعراء الذين يملكون هذه القدرة الهائلة على الوصف، قليلون جدًّا لدينا.

مدت الشمس أشعتها الأخيرة عبر النافذة. تأملها البابا لحظات، ثم قال:

- يمكنني القول إن الناس في الشرق يستخدمون الكلمات

t.me/qurssan

والأصوات لرسم لوحاتٍ بديعة، أما هنا فنستعين بالريشة والألوان لفعل ذلك.

أردف قائلًا:

. حافظ على هذا الكتاب جيدًا، واجعل الأساتذة في ورشنا الفنية يطّلعون على منمنماته ويدرسونها جيدًا.

سُجِّلتْ في مكتبة البابا الشخصية، تحت عنوان "ليلى والمعتوه"، بدلًا من "ليلى والمجنون"! لا بأس، رغم أنني أُفضِّل عنواني الأصلي، لأنه يصف حالتي بدقةٍ أكبر.

أصبح "أنطونيو" طبيبي. عالجَ أوجاعي وشفى جروحي، واهتم بإعادة جمالي المفقود، والحفاظ على رونقي. كان يتحدث إليَ بين الحين والآخر، ويسرد على أسماعي ذكرياته القديمة، كلما مر ببيتٍ شِعري ذكره بشيءٍ من ماضيه. لقد صار سيدي الجديد. ولخمس سنوات، كنتُ أمضي معه أينما اصطحبني، وأسعد باستقباله كلما احتاجني. في تلك الفترة، كنت أجهل تمامًا كل ما يحدث في الأراضي العثمانية. مع مرور الوقت، بدأت ذكرى "روكال" تتلاشى من مخيلتي شيئًا فشيئًا. وحلت "ليلى" محلها بقوة، وغمرتني بمشاعرها الفياضة. حين ظهرت "روكال" في حياتي، تعاملتُ معها على أنها "ليلى". والآن "ليلى" هي التي تبتسم لي، بملامح "روكال" وقسماتها الهادئة. يا لبشاعة الوحدة! وما أفظعها حين تكون في بلدٍ غريب لا يتحدث فيه أحد لغتك! هناك رائحةٌ لا تفارقني، أشمُّها على الدوام، ولكن مَن صاحبتها يا ترى؟ أهي "ليلى"/"روكال"، أم تلك الفتاة ذات الجدائل السوداء على ضفة دجلة؟ تداخلت أطيافهن في رأسي. إن التزامي الصمت يحافظ على حبي من النسيان. في بعض الأحيان، أنغلقُ على ذاتي تمامًا، كي أبتعد عن أجواء المكتبة، وعن "أنطونيو" نفسه، وأحاول مساعدة نفسي على تجاوز آلامي، بالألوان.

في تلك السنوات، عمل لدى البابا "يوليوس الرابع" أربعةٌ من الرسامين العظام، وهم: "كارافادجو"، و"آنيبيل كاراتشي"، و"روبنز"، والألماني "إلشيمر". زرتُ المرسم الخاص بكل واحدٍ

t.me/qurssan

منهم، وشاهدتُ عن كثب الطريقة التي يتعاملون بها مع تلامذتهم، وأساليبهم في تملق الأثرياء والنبلاء. تابعتهم وهم يوجهون طلبتهم ويشرحون لهم كيفية رؤية الأشياء من مختلف الاتجاهات، وكيفية استخدام الألوان على النحو الصحيح. واكتشفت من خلالهم أن الأمر لا يختلف عن مفاهيم الموسيقى الشرقية، فلكل شيءٍ روح، ينبغي الحفاظ عليها عند توصيلها للمتلقي.

اكتفيتُ بدوري مشاهدًا ومراقبًا، والتزمتُ الصمتَ تمامًا. الملاحظة أمرٌ رائع. تابعتُ باهتمام عملية توزيع الألوان على سطح العمل الفني؛ ليس على مساحاتٍ محدودةٍ كصفحاتي، بل على لوحاتٍ ضخمة وجداريات تمتد عدة أمتار. عقدت الدهشة لساني وأنا أرى الفنانين ينقلون في أعمالهم رسوماتٍ بالغة الدقة والوضوح لأي شيءٍ حولهم. يصورون الأشياء كما هي. دون زيادةٍ أو نقصان. كنتُ أقارن بين أسلوب كل واحدٍ منهم في رسم الوجوه والأشخاص. بعضهم كان أفضل من الآخرين، في هذا المجال. في أحيانٍ أخرى، أقارِنُ أعمال فنانٍ واحد ببعضها ببعض. كثيرًا ما قلتُ لنفسي في حسرة: "لو أن "روبنز" كان في إسطنبول، لرسم "روكال" على صفحةٍ مني".

وكنت أفكر: "لو كان لها وجه "ليلى"، لما عذبني الشوق لهذه الدرجة".

كان بإمكاني الاستمتاع بعالم الفن والرسم والألوان، لولا شعور الوحدة والاغتراب الذي ظل ملازمًا لي. كنتُ أفتقدُ "روكال"، وأشتاق إلى "ليلى" التي تركتها قريبًا من نهر دجلة، بخصلاتها الفاحمة السواد، وعينيها الكحيلتين. لا أعرف من كانت بالضبط، لكن حنيني لها لا يهدأ.

سئمتُ رؤية الملابس الدكناء لرجال الدين المترددين على المكتبة. كنتُ أكثر استمتاعًا بصحبة الفنانين، وأسرتني ألوانهم المبهجة. في بعض الأحيان، كان الأب "أنطونيو" يتركني في مرسم أحدهم، كي ينقلوا منمنماتي، أو يأخذوا أفكار بعض

t.me/qurssan

لوحاتي، لرسمها على جدران القصور والبيوت الفخمة. كانوا يأخذونني معهم إلى منازل ضخمة مبهرة، في الريف الإيطالي.

حين تعيش مع الفنانين، تلاحظ على الفور نمط حياتهم الذي يميل للسعادة والاسترخاء. أما مَن تعاملتُ معهم، فإنهم - فوق ذلك - يتميزون بنوعٍ من غرابة الأطوار أيضًا. ربما كانت تلك طبيعة حياة الفنانين، بشكلٍ عام، لكنني لم أستطع استيعابها تمامًا. على سبيل المثال، حبيباتهم لسن مثل "ليلى". وهم يتعمدون تصويرهن في أوضاعٍ جريئة ووقحة؛ والأهم هو أنهم يعتبرون جميع النساء عشيقات لهم. هنا، يجري التعامل بين الرجال والنساء ببساطةٍ شديدة، وليس هناك ما يمنع الاختلاط، وتبادل الإطراء والمجاملات، ومناقشة أمور الحب والغرام، حتى دون سابق معرفة! والحقيقة أن الكنيسة لم تكن تشجع هذا السلوك والتصرفات، لكن الناس لم يُظهِروا اهتمامًا بذلك، وواصلوا اندفاعهم وراء مشاعرهم ورغباتهم. اشتُهر أحدهم، بوجهٍ خاص، بعلاقاته الغرامية المتعددة. لن أذكر اسمه بالطبع. لم يكن يستطيع منع نفسه من التعبير عن حبه لأي امرأةٍ ثريةٍ يرسمها. وبَّخته بعضهن، مثل "آنتونيللا ليلى"؛ لكنه - بشكلٍ عام - كان معروفًا بغواية السيدات الغنيات، حتى يتمكن من رسمهن في أوضاعٍ مُخِلة. والأدهى أنه كان يطلب من أزواجهن دفع مبالغ إضافية نظير تلك اللوحات الفجة. وصلت أنباء أفعاله الشائنة إلى البابا، الذي اختار أن يتعامل معها باعتبارها مجرد شائعات، لسببين؛ الأول هو إعجابه الصادق بأعماله الفنية المتميزة، والثاني لعدم ورود شكوى صريحة من الأزواج المتضررين. في أحد الأيام، طلب منه البابا تأدية طقس الاعتراف، فأخذ الفنان يتحدث عن تفاصيل مغامراته النسائية ببساطةٍ متناهية أزعجت البابا. أمَّا عن المثقفين، فإنهم لم يعترضوا على انتشار الإباحية والخلاعة في الفن والأدب، ورأوا أنها من العناصر الجوهرية في هذين المجالين المترابطين بصورةٍ وثيقة.

يمكن ملاحظة هذا الارتباط عند متابعة الرسامين وهم منهمكون في العمل، فحين يصور أحدهم النساء شبه العاريات، يبدأ في

t.me/qurssan

ترديد مقاطع شعرية تصف نهودهن وأردافهن ورشاقة خصورهن. كانوا جميعًا يحفظون عددًا هائلًا من القصائد.

لفت انتباهي خلال الأعوام التي أمضيتها في روما، أن الشِّعر لديهم ليس له وزنٌ ولا قافية! وأن هذا النوع من القصائد يحظى بإعجاب الطبقة الأرستقراطية. أما في إسطنبول، فإن الشِّعر لا قيمة له إن لم يكن هناك سجعٌ يربط بعض الكلمات ببعض، ويخلق نغمًا موحدًا. إذا لم تتبع الأوزان الصحيحة، فإن ما تكتبه ليس شعرًا بأي حالٍ من الأحوال.

الوضع هنا مختلفٌ تمام الاختلاف، بل لديهم جنسٌ أدبي غير مألوف يطلقون عليه اسم "رواية". الحكايات التي يسردها أدباء الشرق في قوالب شعرية وأبياتٍ منغمة، يحكونها هنا دون وزنٍ ولا قافية! وكأنها كتب علوم! إن من أهم عيوب الرواية هو عدم المحافظة على الخصوصية. كأنك تزيح الأسقف عن المنازل، وتتلصص على ساكنيها. كأنك مثلًا تصطحب القارئ معك لاقتحام حجرات نوم شخصيات الحكاية.

الشِّعر أكثر رقيًا ونبلًا. إنه يتناول المشاعر والأحاسيس، دون التطرق إلى تفاصيل مبتذلة. الرواية تصريحٌ ومجاهرةٌ بكل شيء، والشِّعر جراحٌ ينبغي تغطيتها بالضمادات. في المنطقة التي ينتمي إليها سيدي "فضولي". الحكايات نوعان: إما إنها عن حُبٍّ عفيف، وإما عن سيرة حياة بطلٍ شجاع. وهي في الحالتين دروسٌ عظيمة للقراء والمستمعين.

الرواية في رأيي مجرد وسيلة لهو وتسلية للطبقة البرجوازية؛ وفي حين يصف الشعر كل ما هو مثالي، تقدم الرواية موضوعات عادية وتقليدية. واقع الأمر أنه يمكن للرواية أن تكون أداة فعالة في تقليص الصراعات التي تنشأ في المجتمعات التي تعاني فجوات طبقية، ولكن ما حاجة الناس إليها في المجتمعات التي تنعم بالاستقرار؟ الشِّعر بمفرده كافٍ جدًا.

يمكن لأي شاعرٍ في إسطنبول أن يضع جميع الأحاسيس الواردة في روايةٍ كاملة، داخل بيتٍ شعري واحد؛ والعكس صحيح، بيتٌ

t.me/qurssan

شعريّ واحدٌ من إسطنبول يمكن أن تنتج عنه رواية ضخمة من عدة أجزاء، هنا في إيطاليا. الكلمة هنا مجرد جزءٍ من الحديث، لكنها هناك وسيلة تعبير تجمع بين العذوبة واللباقة. العمل الأدبي هنا يقوم على الإطالة والإسهاب، بينما يعتمد هناك على الإيجاز والاختصار.

في روما، تعرفت إلى أسطورة التوأم "رومولوس" و"ريموس"، ابنا الأميرة "سيلفيا" والإله "مارس". يتكرر سرد هذه الحكاية في كل مكان.. في المعابد والمسارح وعروض السيرك الترفيهية، وفي الحمامات العامة والأسواق الشعبية. تذكّرني "سيلفيا" بـ"روكال"، وهو ما جذبني لهذه الأسطورة. في الحكاية، يستولي الملك "آموليوس" على عرش "سيلفيا"، فتسعى لحماية طفليها من بطشه، تمامًا كما فعلت "روكال". تبكي بحرقة، كما فعلت "ليلى"، ثم تلقي أطفالها إلى النهر. تعثر عليهما ذئبةٌ برية، وتُرضِعُهما. عندما يكبران، يُنشئان مدينة "روما". لا يمكن تخيل تاريخ "روما" دونهما.

عرفتُ أيضًا أن "روما" اعتمدت، في بداية نشأتها، على نموذج الحُكم الإغريقي، وأنها تحولت إلى المسيحية لاحقًا؛ كما سمعتُ أنها كانت في يومٍ من الأيام مركز حضارةٍ عظيمة، امتد تأثيرها من إسبانيا إلى مصر، ومن بحر البلطيق إلى آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين. على مدار مئات السنوات، ضمت "روما" العديد من الدول والبلدان إلى ممتلكاتها الشاسعة. تلعب الحضارة العثمانية حاليًا هذا الدور، وتحتل الأراضي التي كانت تابعةً لـ"روما" قديمًا.

حين عرفتُ تلك المعلومات، فهمت السبب وراء إطلاق اسم "ديار الروم" على الأناضول، وإطلاق لقب "خاقان الروم" على السلطان.

ارتبطت "روما" في نظري بشيئين: الزنازين ومرض الجذام. إن أغلب السجناء هنا من البحّارة المسلمين، الذين أُسِروا في البحر المتوسط. يتعرضون جميعًا لقدرٍ كبيرٍ من الظلم والاضطهاد قبل موتهم. يعمد القساوسة إلى ابتكار وسائل تعذيب بالغة القسوة، بغية تطهير أرواح ضحاياهم؛ فإذا تعرض هؤلاء الأسرى إلى

t.me/qurssan

الإغماء من فرط الألم، يلجأ السجانون إلى إفاقتهم على أيدي أطباء متخصصين، ثم مواصلة تعذيبهم من جديد. آلات التعذيب هنا تعمل على ثني جسم السجين مرتين أو ثلاثًا، وكسر عظامه، بدءًا من العمود الفقري. الجميع يعرف صليب "سانت آندرو" الذي يُصلَب عليه الأسرى، والعرائس الحديدية، وقيود الكاحل ذات المسامير، والرماح ذات الرؤوس الشبيهة بالأمواس الحادة، والخطافات المصنوعة لنزع اللحم عن العظم، والأذرع المعدنية المخصصة للضغط على الرؤوس والجماجم وتحطيمها. جميع وسائل التعذيب، المشهورة وغير المشهورة، موجودةٌ هنا.

يوميًا، وعلى مدار الساعة، يموت السجناء جرّاء التعذيب. في الليل، أستيقظ من نومي على ما أظنه للوهلة الأولى بكاء طفلٍ رضيع، ثم أكتشفُ في كل مرة أنه صوت الأسرى وهم ينتحبون من شدة أوجاعهم. في بعض الأحيان، تصل صرخاتهم المتألمة إلى خارج المبنى، وبخاصة حين يتم تهشيم عظام أقدامهم داخل أحذيةٍ حديديةٍ ثقيلة. في تلك اللحظات تحديدًا، يمكن رؤية ابتسامات الرضى وهي تعلو شفاه القساوسة المسؤولين عن هذه العمليات. تختلط بهذه الأصوات أصواتٌ أخرى هي صياح المجذومين الذين يتضورون جوعًا. يمر الصراخ المعذب بسماء المدينة طوال اليوم.

حين يُحضِر القرويون بضاعتهم من الدقيق والعسل والحليب إلى أسواق المدينة، يتوقفون للاستماع إلى الاعترافات التي يدلي بها رجالٌ ونساءٌ أبرياء، تحت الإكراه، عن علاقاتٍ جسديةٍ مزعومة قاموا بها. ينصت الفلاحون بدهشة لتلك التفاصيل، وقد سال لعابهم. يراقبون العملية للنهاية، أي إلى اللحظة التي يتم فيها حرق المدانين وهم على قيد الحياة، كي تتطهر أرواحهم من الخطيئة. تابعتُ، أنا شخصيًا، عددًا من تلك العمليات، ورأيتُ اشتعال النار في أكوام الحطب التي وُضِع عليها الخطاة المقيدون إلى صلبان. شاهدتُ أيضًا مئات الأسرى ممن تم قطع آذانهم وأنوفهم، لتمسكهم بالإسلام، ورفضهم تغييره بدينٍ آخر. كانت عقوبة الحرق تنتظر معظمهم. في إحدى المرات كان الجو خانقًا

t.me/qurssan

وحركة الريح قليلة، وعند حرق الضحايا ظلت رائحة أجسادهم المتفحمة تملأ المكان عدة أيام. لبشاعة الرائحة المقززة، لم يستطع الناس أن يأكلوا أو يشربوا خلال تلك الفترة.

"روما" بالنسبة لي حضارةٌ منفصلةٌ بذاتها عن بقية الحضارات، بمميزاتها ومساوئها. قررتُ أن أُمضي وقتي في الاستمتاع بالألوان، إلى أن غامت الألوان في عينيَ فجأةً، عندما وجدتُ "جمعية بابل" بالقرب مني.

أحببتُ الرسام "إلشيمر" منذ اليوم الأول للقائي به، ولكن مع مرور الوقت استحال هذا الإعجاب إلى غضب. لاحظتُ منذ البداية أنه على عكس الآخرين، لم يكن مهتمًا بمنمنماتي، بل بأبياتي الشِّعرية. خلال شتائي الثاني في "روما" أدركتُ السبب الحقيقي وراء سعيه لتعلم اللغة التركية، ووراء اهتمامه البالغ بي. صار الآن يعرف الأبجدية العثمانية، ويفهم ما يقرؤه مني.

مساء أحد الأيام، وبعد إعدامٍ جماعي لأحد عشر شخصًا، وما تبع ذلك من هرجٍ وفوضى في ميدان المدينة، أخذني "إلشيمر" معه إلى مسكنه، بدلًا من إعادتي إلى المكتبة. حين دخلتُ بيته فهمتُ المسألة. لا يمكنني وصف المشاعر التي انتابتني فور وصولي، ورؤيتي لبرج بابل الذي رسمه بامتداد الحائط. تزايد هلعي عندما رأيتُ في جانبٍ من اللوحة الجدارية الخنجر الذي دفنه سيدي "فضولي" تحت شجرة التوت في بغداد.

هل يمكن أن يكون هذا المنزل وهذه المدينة هما المقر الجديد لـ"جمعية بابل"؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن التل الذي يحتاجه أعضاء الجمعية لبناء مرصدهم يقع بالقرب من هنا. ربما كان الأعضاء السبعة يجتمعون هنا كل سبعة أعوام. لو كانوا حقًّا يجتمعون ببعضهم البعض، فما الذي يناقشونه في لقاءاتهم؟ لماذا لم يأخذ الأعضاء الأقراص الطينية السبعة، ذات الشيفرات العلمية، ليواصلوا أبحاثهم عن طريقها؟ لماذا يخشون إزالتها من المكان الذي دُفِنت فيه؟ هل يعتقدون أن العلم لم يتقدم بما فيه الكفاية بعد؟ ما مهام الأعضاء السبعة تحديدًا؟ لماذا ينشئون

t.me/qurssan

ممالك جديدة، ويدمرون أممًا أخرى؟ ما الذي يهدفون إليه من وراء إعادة توزيع القوى السياسية العالمية؟ وبافتراض تمتعهم جميعًا بمناصب توفر لهم التمتع بالسُّلطة، لماذا يختار بعضهم التنكر في هيئة متسولين أو تجار، في بعض الأحيان؟ ما دلالة هذه النقطة، إن كان الشخص وزيرًا عظيمًا أو سلطانًا؟

تتابعت الأسئلة في رأسي، دون هوادة، وتبخر إحساسي بالأمان بشأن الخنجر المدفون في بغداد، إذ أدركتُ بغتةً أنه لم يعد في مكانه. أحسستُ بالضياع.

ربما عثرت الجمعية على الخنجر منذ زمن، لكنهم لا يملكون الحزام الذي كُتبت عليه الأرقام والحروف على الأرجح؛ وهذا ما يجعلهم يعتمدون عليَ وحدي في البحث عن الإشارات السرية المخبأة بين سطوري. ليس للأمر سوى نتيجة واحدة، ما إن يتوصل الأعضاء لما يريدونه، فسوف يمزقونني أو يحرقونني، حتى لا أقع في يد أشخاص غيرهم. ولكن، لماذا أنا في "روما"، ولستُ في إسطنبول؟ لماذا انتقلت الجمعية إلى أرضٍ بابوية؟ ألم تعد إسطنبول منبع العلوم، وموضع الرخاء الاقتصادي؟

ساورتني الشكوك للمرة الأولى.

جلس ثلاثة رجال حول شمعدانٍ من الفضة. حيّوا بعضهم بعضًا بأن وضع كل واحد منهم يده فوق يد الآخر بأصابع متفرقة. انبعثت في المكان رائحة البخور، ورددوا بعض الصلوات، قبل أن يتصفحوني. شعرتُ بأنني مقبلٌ على مغامرةٍ جديدة.

مما فهمته من مناقشاتهم، فإنهم استغرقوا وقتًا طويلًا، وبذلوا مجهودًا كبيرًا للعثور عليَ؛ وحين وجدوني استغرق الأمر عدة سنوات لإخراجي من القصر العثماني. وضعوا العديد من الخطط لحمايتي من السرقة على يد لصوص الآثار. خاضوا معارك فعلية على أطراف مدينة إسطنبول، سُفِكت فيها دماؤهم. لقد ضحوا بدمائهم من أجلي، وهأنا الآن بين أيديهم. رفعوا كؤوسهم ليشربوا نخب هذه المناسبة السعيدة. تصفحوني بعنايةٍ وانتباه، باحثين عن أي أرقامٍ أو شيفرات محتملة.

t.me/qurssan

كان أول من نطق منهم، هو التاجر النمساوي، الذي بدا أكثرهم ذكاءً. قال بصوته العميق:

. إن مهمتنا صعبةٌ جدًّا.

أضاف:

. لو كان أمين المكتبة قد باحَ بالسِّر للسيد "فضولي"، فلا بد أن الأخير قد وضعه في مكانٍ ما من هذا الكتاب. لقد فحصنا جميع المؤلفات التي وضعها عقب هذا العمل، وليس بها أي شيء. هناك مئات النسخ عن "ليلى والمجنون"، كلها تحمل الحكاية نفسها والأحداث نفسها، والأسلوب الأدبي نفسه، مع تغييرٍ طفيفٍ في بعضها. الأكيد أن هذه النسخة الأصلية هي وحدها التي تضمُّ الشيفرة السِّرية.

قال الطبيب الإيطالي، الذي ينتمي لمدينة "البندقية":

. فلنبحث بتأنٍّ في كل صفحة.

أردف متفكرًا:

. ولكن ماذا لو كانت الشيفرة مكتوبة بحِبر سري؟

سارعوا بإحضار ثلاثة شمعداناتٍ كبيرة، وقرَّبوا كل صفحةٍ مني إلى ضوء الشموع، علهم يلمحون شيئًا. لم يروا آثار شفتي "ليلى"، لكنهم لمحوا بعض الحروف الشبيهة باللغة الكلدانية، مكتوبةً بطريقةٍ غير مرئية، باستخدام ورقة شجر صفصاف.

لو كانوا يعلمون أن أوراقي معالجة بطبقة نشا، لما بذلوا كل هذا المجهود. كان بإمكانهم محو أي جزء يرغبون، بأطراف أصابعهم المبللة فقط.

عندما انتهوا من تفحص جميع أوراقي، بدؤوا يتأملون الزهرة الحمراء التي خلفتها "روكال" على غلافي. ليتهم سمعوا صراخي وهم يمسحونها بخرقةٍ رطبة وقذرة، لفهموا أن ما يقومون به هو جريمة لا مبرر لارتكابها، لا كنوز الدنيا ولا مصلحة "جمعية بابل"!

t.me/qurssan

كان تدميرهم لزهرة الخشخاش دليلًا على جهلهم، ما الفرق بينهم وبين مَن حطموا أيقونات الكنيسة مِن قبل؟ كلاهما متعصب. مع حركة الخرقة الرطبة على الغلاف، بدأ دم "روكال" يتوزع على الصفحة، وشعرتُ برغبةٍ ملحةٍ في الموت. قطرات دمها تلك، هي آخر ما تبقى لي من المرأة التي أحببتها. أردتُ أن أغمض عينيّ إلى الأبد، علني أستريح.

بعد أن فرغوا من اعتصار أوراقي، وتصفحها بخشونة، وفتحها وإغلاقها عدة مرات، ظلوا على حيرتهم ولم يتوصلوا لشيء. قال "إلشيمر":

. أجمعت التقارير الصادرة عن الاجتماعات الستة الأخيرة، التي تُعقد كل سبع سنوات، بأن الكتابات على الحزام الذي كان يلتف حول مقبض الخنجر لم تكن دقيقةً على الإطلاق؛ فقد نقلها "فضولي" عن الهيروغليفية، على هيئة رسومات، ومن نقلها بعده على الحزام لم يلتزم الدقة المطلوبة، فأصبحت الكتابة غير واضحة، ولها معنى يختلف عن المعنى الأصلي المقصود.

أضاف "إلشيمر":

ـ كلنا نعلم أن الرقعة الجلدية الأصلية التي صُنِع منها الحزام، اختفت منذ مدةٍ طويلة. لحل اللغز، لم يبقَ لدينا سوى الأرقام المخبأة في نَص هذا الكتاب. كما اتفقنا في الاجتماعات الماضية، فإن "فضولي" وضع الشفرة في أبيات تحتوي على كلمة "حب". ليس للمسألة تفسيرٌ محدد، سوى أهمية الحب نفسه للشاعر، أو ربما لأن أمين المكتبة أخبره أن هناك سبعة أسرار حقيقية لمن يعرفون الحب. على أي حال، الكلمة مذكورة في ستة وستين بيتًا، بالضبط. حين يتم حساب هذه الأحرف باللغة العربية بما يوازيها من أرقام، وفقًا للطريقة الشرقية، فإننا نحصل في نهاية الأمر على كلمة "الله".

استطرد قائلًا:

. اقترحت الاجتماعات السابقة، في الوقت ذاته، عدم الاكتفاء

t.me/qurssan

بالتركيز على كلمة "حب" وحدها، لوجود مفردات لا تقل عنها في الأهمية، كـ"أسرار" و"اختفاء" و"أنباء". الحب هو الموضوع الأثير لدى شعراء الشرق، وهو الأساس في أغلب أعمالهم، وعلاقتهم به معقدة بعض الشيء، ولذلك فإن الخطوة الأولى في مهمتنا هي محاولة فهمه من وجهة نظرهم. إنهم يتناولونه من عدة زوايا؛ مجازية، وإلاهية، وخفية، وحسية. أما بالنسبة لشاعرنا "فضولي"، فإن الحب لديه أفلاطوني.

استدرك "إلشيمر":

. علينا ألا نغفل المفهوم الشرقي الذي يحمل اسم "جونول". الكلمة تعني "القلب". لكنها لديهم ليست مجرد كلمة، بل أسلوب يميل إلى التجريد. لا يمكن وصفه، إذ لا يفهمه إلا أتباع دين "محمد". هم أنفسهم لا يصفونه، بل يعيشونه. إنه جزءٌ من الروح. الحب والعلاقات الجسدية كما نعرفها في أوروبا، ليست سوى وجهٍ واحد من أوجه هذه العاطفة لديهم، بل لعلها أبسط شكلٍ لها، فللحب سبع طبقاتٍ أو مراتب.

لكي نفهم المسألة على الوجه الأمثل، يجب أن ندرك أنهم يتعاملون مع الحب كمرض، والمريض لديهم مستمتعٌ بعلّته ولا ينشد الشفاء. إنه نوعٌ من العذاب، حيث يروم المحبوب تلقي المزيد من المشاعر، ويسعى المحب للبقاء سقيمًا. رغم الصعوبة الظاهرية للوضع، فإنه أمرٌ شديد البساطة. العاشق على استعدادٍ دائم للتضحية بحياته من أجل محبوبه. أشواقه وعذاباته هي التي تجعل لحياته معنى. سلامه الداخلي مرتبطٌ بالألم. الحب هو السهاد، والتفكير في الحبيب ليلًا، ولذلك يشار للمحبين أحيانًا بـ"رعاة النجوم". تتوحد أعينهم مع الطبيعة، تصبح سحابًا، وتصبح بحارًا. يتعامل المحب مع غريمه بقسوةٍ بالغةٍ مصدرها غيرةٌ عمياء.

أضاف:

. لديهم في الشرق نماذج بارزة لحبٍّ من نوع آخر، وأعني بذلك الحب الصوفي، كـ"ابن عربي" و"جلال الدين الرومي". كل جملةٍ

t.me/qurssan

لديهما، منظورٌ مختلفٌ لهذه العاطفة. تمتلئ المكتبات في تلك البقاع من الأرض بمجلداتٍ ضخمة حول الحب وتعريفه. إنه نوعٌ من المعرفة القائمة بذاتها. لو أنهم أنفقوا نصف ذلك الوقت في الأبحاث العلمية، لتوصلوا لعلاج الموت ذاته!

يمتلك "إلشيمر" معرفةً واسعةً، تؤهله للتحدث ساعاتٍ، وهو ما جعل رفيقيه ينصتان إليه باهتمام وشغف. لم يدركا، حتى هذا اليوم، أن للحب كل هذه الجوانب. اهتم "إلشيمر" بالمسألة لأنها مرتبطة بشيفرات "جمعية بابل".

واصل الفنان حديثه:

ـ اهتم أعضاء الجمعية السابقون، ممن تدارسوا هذا الكتاب، ببيتين على التحديد. الأول هو ذاك الذي يصف بداية الحب بين "قيس" و"ليلى" في صغرهما..

رفعت المحبوبة الخِمار عن وجهها

فأصبح الحب رفيق الرفض

أما البيت الثاني، فهو

تكرّمي يا أمي بإخباري ما الحب

فلتبوحي لي بهذا السِّرِّ الغامض

يوضح هذا البيت ردّ "ليلى" على تأنيب أمها لها، بسبب مشاعرها تجاه "قيس". أرادت "ليلى" أن تفهم ماهية الحب، لتعرف إن كان ما تشعر به هو الغرام حقًّا أم لا.

ترجع أهمية هذا البيت إلى أنه يتناول شيئين أساسيين في البحث عن الشفرة المفقودة: الحب، بالإضافة إلى السرية والغموض.

أضاف "إلشيمر" شارحًا وجهة نظره:

ـ وضع الشاعر هذين العنصرين معًا في بيتٍ واحد، ليوضح

t.me/qurssan

ضرورة إخفاء الحب وإبقائه سريًا؛ لكن هدفه الحقيقي، على الأرجح، هو الإشارة إلى أن سِرَّ الشيفرة موجودٌ في هذا البيت تحديدًا.

هتف التاجر النمساوي بحماسةٍ شديدة:

. فلنركز في بحثنا على الأبيات التي تتناول السرية والغموض في الحب!

في تلك اللحظة، شعرتُ أن نهايتي وشيكة، فتحليل "إلشيمر" صحيحٌ تمامًا، وهذا بالضبط ما فعله سيدي "فضولي" عند نظمه لهذه القصيدة. في الماضي، توقف أعضاء "جمعية بابل" عند هذين البيتين، لكنهم لم يدركوا ما لهما من أهمية، واكتفوا بإجراء حسابات لما يحتويان عليه من أحرفٍ وكلمات. لكن الفكرة التي توصل إليها "إلشيمر"، جعلتهم يقتربون خطوةً إضافيةً من حل اللغز.

بدأ "إلشيمر" في إعادة تصفحي على عجالة، من البداية. صاح فجأةً:

. نعم! هذا بيتٌ آخر!

هبّ واقفًا في حماسةٍ، وقرأ بصوتٍ مرتفع:

- "لا توجد أسرار حيثما يكون الحب

لا يعرف المُحِب إلا قلة الراحة".

إن مفتاح حل اللغز هنا هو كلمة "أسرار"، وللمرة الثانية أرتعدُ خوفًا. هذا هو البيت رقم 607، وهو أول الشيفرات المرتبطة بهذا الرقم. في الماضي، اهتمَّ أعضاء الجمعية بالبيت رقم 617، وهو ثاني الشيفرات، ولم يفكر أحد بالعودة إلى الأبيات التي تسبقه. يتمتع "إلشيمر" بذكاءٍ خارق، وتفكيرٍ منطقي، وفهمٍ تامٍّ للأمور السياسية. إنه فنان عميق الثقافة وواسع الاطلاع. إن امتلاكه لهذه الصفات يؤهله، في رأيي، لترؤُس "جمعية بابل"، وتولي إعادة تشكيل لجنة البحث فيها. ومثل غيره من الأعضاء، كان

t.me/qurssan

"إلشيمر" على استعدادٍ كامل للتضحية بحياته من أجل المبادئ السامية للجمعية، وكان يجري أبحاثه على هيئة رسومات، وينتج احتمالات فلكية مصورة بريشته. أراد أن يحمي الأرض وبقية الكواكب، من أي أخطارٍ محتملة، حفاظًا على أهداف "آرشيا آكيلدان". لم يراودني أدنى شك في أنه سيواصل بحثه في أبياتي، عند عودته لمنزله ذلك المساء، وأنه سينجح في فك شفراتي التي بقيت مستعصيةً على الجميع منذ أيام "فضولي". لكن في تلك الليلة، وبينما كان لا يزال بصحبة التاجر النمساوي، استأذن خادمه في الدخول، معلنًا أن صاحب القداسة مريض، وأن رسوله ينتظر بالباب. ارتفع صهيل الخيول في الخارج، وحاول الحوذي تهدئتها حتى لا توقظ النائمين.

تساءل "إلشيمر" في غيظ:

. ألم يجد قداسته وقتًا آخر ليمرض فيه؟

ناولني لزميله النمساوي، وقال:

. خَبِّئ الكتاب، ونَم يا صديقي العزيز. سوف أتوصل للحل عند عودتي.

لكن "إلشيمر" لم يستطع مغادرة البابا المُحتَضر إلا بعد ثلاثة أيامٍ بأكملها. أنا متيقن من أنه لن ينسى الرعب الذي أحس به فور دخوله البيت، لبقية حياته. كانت الفوضى تعم جميع أرجاء المنزل، والأشياء مبعثرة في كل مكان، وقد ذُبِحت القطة وقُطِعت أجزاءً، وكذلك الببغاوات. حُبِست النساء والأطفال في إحدى الغرف، وتعالى صراخهم المفزوع. أجبر الجناة التاجر النمساوي والطبيب الإيطالي على إخبارهم بكل ما يعرفانه، قبل أن يقتلوهما، ثم الاستيلاء على جميع ما وجدوه من ذهبٍ وفضة.

عرفتُ لاحقًا بأن "إلشيمر"، منذ ذلك اليوم، صَبَّ كل أحزانه في أعماله الفنية. استأجر ثلاثةً من أفضل الفرسان لمساعدته في التوصل إلى أولئك المجرمين الذين لم يكتفوا بالقتل والنهب، بل سرقوني أيضًا. نجح، بمساعدة الفرسان، في القبض على عددٍ من

t.me/qurssan

الخارجين عن القانون، ولم يتوانَ عن قتلهم وتمزيق جثثهم بلا رحمة، لكنه لم يعثر عليَّ قط.

ما كان سيجدني، لأن اللصوص سلَّموني في الليلة ذاتها إلى الأب "جيوفاني"، أحد مساعدي البابا الشخصيين. لم يعرف أحد بوجودي، ولا حتى طبيبي الخاص "أنطونيو". وضعوني في حجرته دون علمه، إلى اليوم الذي غادرتُ فيه "روما".

خلال انتظاري لمصيري المجهول، كنتُ أسمع صوت "جيوفاني" وهو يردد في حسرة:

. ليتني لم أتسرع في الحصول عليك. ليتني انتظرتُ حتى يعثر "إلشيمر" على جميع الشيفرات وحلّها.

في السنوات التالية، أمضيتُ وقتي في "روما" وأنا أتابع السفن والمراكب العثمانية وهي تصل الساحل أو تغادره. صحيحٌ أن هذه المدينة أخذت "ليلى" مني، لكنها منحتني في المقابل عالَمًا ما كنتُ لأتخيله أبدًا.

تصادف الافتتاح الرسمي لقصر "كيرينالي"، مع الذكرى الخامسة لوصولي إلى الفاتيكان. في ذلك اليوم، الذي حضر فيه حُكام جميع المناطق الإيطالية الكاثوليكية، قرر البابا "يوليوس" أن يعيِّن الأب "جيوفاني" نائبًا له. في اليوم التالي، غادرتُ غرفة القس للمرة الأولى والأخيرة. أراد أن يهديني للبابا تعبيرًا عن شُكره لتعيينه في المنصب الجديد. لم يجد هديةً أفضل وأكبر قيمةً مني. لكنه كان يجهل أنه سبق للبابا رؤيتي، بل الاستماع إلى بعض أشعاري.

وبينما كانت شوارع "روما" تموج بالاحتفالات الصاخبة، كان يتم قطع رأس القس "جيوفاني" داخل أحد الأقبية. استمرت الاحتفالات في المدينة ذلك النهار، واليوم الذي يليه، وانتشرت رائحة الخمور في كل الطرقات. تبارى الناس في الترويح عن أنفسهم بجنون، لدرجة جعلتهم يتقاعسون عن أداء صلواتهم اليومية الثلاث. ليس ذلك فحسب، بل إن قارعي الأجراس

t.me/qurssan

أنفسهم، أهملوا دقها وتعريف الناس بمواعيد الصلاة. شعر البابا وأعضاء مجلسه بانزعاجٍ بالغ، واجتمعوا لوضع خطةٍ عاجلةٍ لمستقبل "روما". تم ذلك في القاعة التي التقيث فيها البابا "يوليوس الرابع"، فور وصولي إلى الفاتيكان بصحبة "يوسف ليفي". كان الاعتقاد السائد في نفوس أغلب الحضور هو أن "روما" تفقد بريقها، وأنها آخذةٌ في الانهيار. النجوم الساطعة اليوم هم الأتراك. تداول الحاضرون فكرة مواجهة الخطر العثماني المتصاعد. استنتجتُ مما سمعته أن "روما" تعاني مشكلات جمة، لعل أهمها هي علاقتها بإسطنبول. وكنوعٍ من إثبات حُسن النيات، قرر المجتمعون إرسال مبعوثين إلى السلطان العثماني، بمناسبة حلول العام الألف على الهجرة النبوية؛ وعلى كل حال - هكذا قال بعضهم لبعض - فإن السلطانة "صفية"، والدة السلطان "محمد الثالث"، تُظهِر ميلًا واضحًا تجاه كل ما هو مسيحي. في تلك اللحظة، تذكرني البابا "يوليوس"، وأمر بإضافتي إلى قائمة الهدايا المرسلة للعثمانيين، فالسلطانة وابنها يحفظان أشعاري ولا شك، كما قال البابا، وسوف يسعدان بتلقيهما إياي كهديةٍ متميزة.

لا أدري إن كان سبب سعادتي في ذلك المساء هو معرفتي بعودتي الوشيكة إلى بلادي، أم إحساسي بقرب استعادتي لذكرياتي مع "ليلى"، لكن الأكيد هو أنني لم أعرف في حياتي فرحة تضاهي تلك التي شعرتُ بها في تلك الليلة.

لقد وصلتُ إلى هذا البلد وأنا في أسوأ حالاتي، وعشتُ في اغترابٍ كامل دون أن يفهمني أحد، وهو ما زاد في آلامي. عذبتني الأشواق، وأوجعني الحنين؛ لكنني تعلمتُ فوائد الصمت والملاحظة، وعرفتُ أنهما يجعلان الشخص أكثر ارتباطًا بالواقع، وأنهما يزيدان من حصيلته من المعرفة.

ما الذي أفتقده تحديدًا في إسطنبول؟ ما الذي ينتظرني هناك سوى الذكريات الأليمة؟ لا شيء. لكنها إسطنبول، في نهاية الأمر، وهذا في حد ذاته أمرٌ عظيم.

t.me/qurssan

في الحقيقة، لا أدري إن كان ما يجذبني إلى إسطنبول هو حب "ليلى"، أم قَدَري ومصيري؟

ألفيةٌ سعيدة!

t.me/qurssan

17قطرة مياه في البحر، ومعركة مع القراصنة

ليس من السهل على البحّار أن يميز الثابت من المتحرك

فحتى الساحل في عين المَلّاح يمشي ويتحرك

(محمد راغب باشا)

أن تتابع سفينةً وهي تقطع مياه البحر، وأنت تتأمل الشاطئ، يشبه استغراقك التام في محاولة فهم أمر غامض. في ذلك الوقت من السنة، يتسم الـ"متوسط" بشيءٍ من الطيش والنزق. يتأرجح بين السكون والهدوء حينًا، والرياح الغربية العاصفة في حينٍ آخر. لا بحر يماثله في الغموض، أبدًا. راقبتُ أمواجه في إعجابٍ واستمتاع، وأنا في طريقي إلى إسطنبول، ومن فرط سعادتي كنت أمضي كل وقتي هائمًا في أحلام اليقظة. مضى يومان تقريبًا على بدء الرحلة. تركنا "ميسينا" و"صقلية" وراءنا.

سرنا في البحر على هيئة جناحي طائر، فقد أحاط بسفينتنا المزينة بالأعلام الملونة، أسطولٌ صغيرٌ من المراكب ذات المجاديف، ومراكب البضائع، من الجانبين. شعرنا بالأمان لركوبنا سفينة البابا الشخصية، إذ خشي القراصنة الاقتراب منا، من جهة، كما أننا كنا بمأمنٍ من الهجمات التركية، من جهةٍ أخرى، بسبب حمولتنا المكونة من هدايا وخطابات صداقة موجهة لسلطانهم. لكن البحر المتوسط يموج بأخطارٍ أخرى كقراصنة ساحل بلاد المغرب، بالإضافة إلى الجماعة المعروفة بـ"فرسان مالطا" الذين دأبوا على مهاجمة أي مركب يمر بهم. وعادةً، تنشب المعارك ويُطلَق الرصاص من البنادق قبل أن يتبين أي طرف هوية الطرف الآخر.

السمك الكبير يأكل السمك الصغير. هذا هو الحال منذ الأزل. تبحر مراكب القراصنة بهوياتٍ زائفة، ويتطلب الأمر بعض الوقت، وعددًا من الإشارات المتبادلة، إلى أن يتم التيقن مما إذا كانوا

t.me/qurssan

أصدقاء أم أعداء. الحقيقة أن اقتراب بعض السفن والمراكب من بعضٍ لإرسال الإشارات، يشكل خطرًا كبيرًا في حد ذاته.

كنتُ ملازمًا لصديقي "أنطونيو" طوال الوقت. أرسله البابا مبعوثًا خاصًا من طرفه للسلطان. شعر "أنطونيو" بقدرٍ من الاضطراب والارتباك لذهابه إلى إسطنبول عقب كل تلك الأعوام. لاحقته ذكرياتٌ عديدة عن الأيام التي أمضاها بين جنبات القصر، وفي المدرسة الداخلية، واستعاد في ذهنه أيام شبابه، وتمنى لقاء أصدقائه القدامى.

أمَّا عن ذكرياتي أنا، فلا أمنيات فيها ولا آمال. المدينة التي أتجه إليها تخلو من أحبائي. ليس فيها أحدٌ منهم. هل سيحقق القدر أحلامي يومًا؟ لا أدري. تهدهدني الأمواج، فأستسلم لأحلام اليقظة داخل مكاني في أصغر حجرتيِ المركب، حيث تخزن الآلات البحرية والأجهزة الملاحية والخرائط. يعاني "أنطونيو" دوار البحر، ويتقيأ كثيرًا. تقع الحجرة الأخرى بجوارنا، وأمامنا مساحةٌ فارغةٌ مخصصةٌ لقائد الدفة. يتغير المراقبون أعلى الصاري كل أربع ساعات، أمَّا حين تشتد العواصف أو تهطل الأمطار بغزارة، فيُستعاض عنهم بقردٍ مدرَب. أحسستُ بدهشةٍ بالغةٍ حين رأيت تلك القردة للمرة الأولى، وشاهدتهم وهم يضعون أصابعهم بمحاذاة جباههم، ويراقبون المياه بانتباه. تزايدت دهشتي حين سمعت الأصوات التي يصدرونها عندما يلمحون اليابسة، أو يلاحظون اقتراب سفينةٍ أخرى.

داخل غرفة الملاحة، فوق الرف الذي يعلو مقعدًا صغيرًا لا يكاد

t.me/qurssan

يتسع لشخصٍ متوسط الحجم، وُضِعَت خرائط ملفوفة، ببعضها بجوار بعض؛ أما على الطاولة المجاورة، فتزاحمت أجهزة الإسطرلاب والبوصلات وبعض الفحم والعصي الفولاذية، وآلات السدس والأرباع المستخدمة لقياس المسافات والزوايا. نتحرك في البحر وفقًا لمواقع النجوم، التي تحددها بدقة أجهزة الإسطرلاب.

بين فناجين البابونج التي يشربها "أنطونيو" لعلاج الغثيان المصاحب لدوار البحر، يتسلى بالاطلاع على الخرائط، ومطالعة الدليل الجغرافي الذي وضعه "بطليموس" بالإغريقية، وأطلس العالم لرسام الخرائط الإيطالي "باتيستا آجنيسي"، الذي نفذه لأجل البابا خصيصى قبل اثنتي عشرة سنة. كما انكب "أنطونيو" على دراسة الخرائط التركية التي استولى عليها قراصنة "فرسان روديس"، كجزءٍ من الغنائم، عند أسرهم لـ"عروج بربروس" شقيق "خضر خير الدين بربروس". اطّلع "أنطونيو" أيضًا على اللوحات التي تصوِّر موانئ البحر الأبيض المتوسط وفناراته، والتي صُودرت من سفن القراصنة، بالإضافة إلى الخرائط الضخمة التي تركها البحارة العرب. تصفح كذلك المدونات التي تضم إشارات الاتصالات البحرية. باختصار، قرأ كل ما وجده أمامه في تلك الحجرة. ليس من المألوف أن تضم السفن كل هذا الكم من الخرائط والمراجع، ففي أغلب الحالات يجيد الربابنة رسم الخرائط بأنفسهم، والاعتماد على البوصلات في تحديد خط سير رحلاتهم.

تأملت كل تلك الخرائط، وتساءلت: "ترى، هل يوجد بينها خارطة المحيط الأطلنطي، التي وضعها "بيري ريس"، الجغرافي العثماني الشهير؟".

بالأمس، أمضى "أنطونيو" النهار بأكمله وهو يحاول حفظ أشكال الأعلام المثلثة والمربعة والمستطيلة، وما يعنيه كل واحدٍ منها في لغة الإشارات المستخدمة للتواصل بين السفن في عرض البحر. أراد أن يتأكد بنفسه من إخلاص الربان في عمله، ومن أنه يتجه بنا في الطريق الصحيح. استهوت المعلومات البحرية

t.me/qurssan

والملاحية "أنطونيو"، وأثارت اهتمامه وإعجابه. تمنيث من داخلي أن تعاوده الأحاسيس العاطفية الرقيقة التي جعلته يتأمل الأمواج البيضاء، ليلة البارحة، وهو يقرأ الأبيات التي تُصارِحُ فيها "ليلى" القمر بحبها لـ"قيس". لكن "أنطونيو" واصل الاطلاع على المؤلفات الملاحية بشغفٍ واهتمام، بينما استسلمتُ أنا لأفكاري الحالمة.

أمّا البحارة، فلم يبدِ أيٌّ منهم أدنى اهتمامٍ بنا. ولو لم يضطروا لإحضار الطعام والشراب لـ"أنطونيو"، ولو لم يتردد الربان على الحجرة لأخذ خارطة أو جهاز، لقلتُ متيقنًا إنهم نسوا أمرنا تمامًا. لحسن الحظ، كان لديّ ما يسليني، وهو مراقبة القردة وهي تعتلي الصاري. أدهشتني أذرعها الطويلة، وأعجبتني حركاتها وبخاصة مد الأصابع بمحاذاة الجبين لرؤيةٍ أوضح!

واصل "أنطونيو" التدقيق في الرسومات والخرائط والأعلام والرموز، واللوحات التي تظهر رجالًا أفارقة لهم بشرات سوداء، تحيط بهم الأسود، وبعض القردة المستغرقة في النوم. في لوحاتٍ أخرى، يظهر رجالٌ يرتدون زي الجيش الانكشاري، وهم يقفون أمام قلاعٍ في الأناضول، حاملين بيارق خضراء. هناك رسومات لجِمال في منطقة البحر الأحمر بمصر، وحصون في فرنسا وإسبانيا، وصلبان ضخمة، وأشجار أرز.

في جميع تلك الخرائط والرسومات المصورة على رُقع جلدية، أمران ثابتان؛ الأول هو شكل "وردة البوصلة" أو "وردة الريح"، وهي شبيهة بتلك الموجودة في جميع البوصلات، والتي تُظهِر الجهات الأصلية الأربع؛ بالإضافة إلى صورة أو عبارة توضح دين من نفَّذ الرسمة؛ فإذا كان الرسام مسيحيًّا، عمد إلى وضع صورة للعذراء والمسيح، أمّا إن كان مسلمًا فإنه يزين لوحته بالأهلة وببعض الآيات القرآنية.

لو كان "أنطونيو" على علمٍ بأمر "جمعية بابل"، ولو كان يعرف شيئًا عن تماثيل الآلهة البابلية المصنوعة من الذهب، للفتت نظره الخارطة التي تحمل رسم الخنجر الذي يزين رأس "سيروش"

t.me/qurssan

مقبضه؛ وعندها كان سيترك بقية الخرائط واللوحات، وينصب اهتمامه عليها وحدها، ولعله كان سينجح في فهم العبارة المكتوبة بالمسمارية تحت الخارطة، والتي تقول: "احمِ هذا، باسم آرشيا آكيلدان".

ومن جديد، أدركتُ أن الكثيرين ممن حولي، يجهلون قيمتي الحقيقية ومصيري الغامض.

رحتُ أفكر في طبيعة الحياة على متن سفينةٍ أجنبية، وكم تتسم بالبرود وانعدام الود والمشاعر الدافئة. حتى الكلمات هنا قليلة ونادرة. الملاحون لا يظهرون أي قدرٍ من أحاسيس الحب أو الحزن، كما يفعل نظراؤهم في السفن الشرقية. رغم أن البحر يليِّن القلوب ويحرِّك المشاعر. إن رؤية انعكاس ضوء القمر على سطح الماء، كفيلٌ - بمفرده - بفتح أبواب السعادة. يمكن للإنسان أن يسافر مع أحلامه لأبعد مدى، وهو يصغي لصوت الأمواج، سواء كان هادئًا أم عنيفًا. كنتُ على استعدادٍ لبذل أي تضحية، في سبيل أن أقول ذلك لـ"أنطونيو"، وأن أخبره بمشاعري تجاه "ليلى"، وأن أعرفه بليالي الصحراء الدافئة، وأن ألفت نظره لهذه المياه المتلألئة.

كنتُ في طريقي إلى إسطنبول، ومع ذلك لم أكن سعيدًا بالرحلة. انتابني شعورٌ بالاغتراب، وبأنني في مكانٍ بعيدٍ عن موطني الفعلي. تابعتُ الغروب، وراقبتُ الشمس وهي تغطس في مياه البحر، وقد أثقلتني الهموم. هأنا أقترب من العودة للقصر، لكن "روكال" ومن أحببتهم هناك لم يعودوا موجودين. ربما سأستعيد مكانتي في القصر، لدى السلطان ووزيره ورسامي البلاط السلطاني. ربما تمكنتُ من مواصلة البحث عن "ليلى"، إن كان هناك من لا يزال يتذكر اسم سيدي "فضولي". لكن بعض العذاب كان يحرق صدري. إنها آلام الفراق. افتراقي عن "ليلى" أو "روكال"، لستُ أدري تحديدًا. أحسستُ أن الحياة حلم حزين، في قيلولة يومٍ ماطر. ظهر البدر ثم اختفى وراء غيومٍ رمادية، واشتدت قوة الريح. كان لصوت الأمواج المتلاطمة وقع قصيدةٍ جميلة. اقترب الفجر، ونحن ندنو من مدينة "ميثونى"، أو

t.me/qurssan

"مودون" كما يطلق عليها أهل "البندقية"، في جنوب اليونان.

أصدر القبطان "جاكوبو ماجيولو" أوامره لرجاله بالتحرك ومباشرة مهامهم المختلفة، بينما تعالى صراخ القرد الذي يعتلي الصاري حين لمح أنوار ثلاثة مراكب وهي تومض ثم تنطفئ، بالقرب من ساحل "ميثوني". لا بد أنها تابعة لـ"مالطا". يبدو أن القراصنة قد راقبونا ثم تابعونا، ليهجموا علينا في الظلام، فتلك هي الطريقة المفضلة لـ"فرسان سانت جون"، رغم أن القراصنة - بشكلٍ عام - لا يفضلونها ويجدونها مهينةً إلى حدٍّ كبير.

غادر "أنطونيو" مكانه، وتوجَّه إلى القبطان، ليكون قريبًا منه. استقر "فرسان سانت جون" في جزيرة "مالطا"، كجماعةٍ كنسية، لكنهم عُرِفوا - في الوقت ذاته - كأشد القراصنة بطشًا وقسوة. يخشاهم الملاحون في هذا الجزء من المياه، منذ خمسين عامًا. أقامت الجماعة حامياتٍ لها على الجزيرة، للتبشير الديني، وعقد صفقات تجاريةٍ ملاحية لدعم مستوطناتهم الاستعمارية. لا يتردد أفرادها في إعدام الأسرى المسلمين، وبيع الأسرى المسيحيين عبيدًا لتوفير دخلٍ مالي للكنيسة. قاموا بإنشاء كلية بحرية في "مالطا"، وسيطروا سيطرةً كاملةً على البحر الأبيض المتوسط، خلفًا لـ"بارباروسا". الخَصم الوحيد الذي لا يقتربون منه أبدًا هو السفن التابعة للسلطان "محمد". أما فيما عدا ذلك، فإنهم لا يترددون في الهجوم على أي سفينة وأخذ كل ما عليها، ومَن عليها، كغنائم.

وصل للجماعة خبرٌ مفاده أن البابا سيرسل العديد من الهدايا الثمينة للسلطان، احتفالًا بالألفية الهجرية؛ وكالعادة، غيَّروا مظهر سفنهم لتبدو عربية الطابع، وأزالوا أعلامهم إمعانًا في الخداع، ورفعوا مكانها أعلامًا برتغالية، ثم بدؤوا في الاقتراب من سفينة "ماجيولو".

كان في نية "ماجيولو" أن ينتظر تغير حركة الريح مع الفجر، ليواصل الإبحار بسرعةٍ أكبر، لكن اقتراب القراصنة أربكه. أراد أن يبلغهم أن للسفينة مهمة مقدسة، وهي إعلاء شأن البابوية ومد

t.me/qurssan

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

جسور السلام بين الفاتيكان والعثمانيين، وربما أيضًا الضغط على السلطانة "صفية" لتتدخل من أجل إطلاق سراح خمسمئة سجين مسيحي من السجون التابعة للأتراك. أراد أن يلفت نظرهم إلى أن هذه السفينة ذات الطوابق الثلاثة، محملة بهدايا متميزة لتسهيل تحقيق هذه الأهداف. على متنها جياد من سلالات ممتازة، وصقور مدربة، وغزلان بكواحل مزينة بالحلي، وعدد من كلاب الـ"سلوقي" المخصصة للسباقات؛ إلى جانب عشرين فتاة، وعشرين شابًا لعرض هذه الهدايا وغيرها على السلطان. من المفترض أن يتم تقديمي له على صينيةٍ فاخرة يحملها أحد هؤلاء الفتيان والفتيات.

لم يشأ القبطان "ماجيولو" تعريض حمولته لأي خطر، أو الدخول في معركة مع تلك الجماعة، ولذلك قرر أن يواصل الإبحار، وفق الخطة المرسومة مسبقًا، على أن تقوم بقية المراكب المرافقة له من الجانبين بالتصدي لهؤلاء القراصنة.

عندما أشرقت الشمس، وكنا قد ابتعدنا قليلًا، رأينا ثلاثًا من السفن البابوية واثنين من المراكب المالطية في حالة احتراق، وقد اشتعلت بهم النيران. وقف سكان البلدة على الساحل يراقبون ما يحدث. رغم ابتعادنا، لاحقتنا الصرخات المتألمة والمذعورة للضحايا من الجانبين. انهمك أفراد المركب المالطي الوحيد الذي بقي سليمًا في انتشال الجرحى.

ما إن التقط "ماجيولو" أنفاسه، وأعلن بارتياح أننا تجاوزنا الخطر، حتى فوجئنا جميعًا بثلاث عشرة سفينةً من الأسطول المالطي في انتظارنا. توقفنا دون حراك. تشاور القبطان و"أنطونيو" سريعًا، وتوصلا معًا لضرورة الاستسلام. بذلك سيتجنبان خوض معركة، ويحافظان على ممتلكات السفينة. قررا أن يوضحا المسألة للخاطفين عند وصولهم لـ"مالطا"، لإنقاذ الأرواح على الأقل.

بدلًا من العودة إلى "مالطا"، أبحرت سفينة "ماجيولو" باتجاه جزيرة "كريت"، ترافقها مراكب القراصنة. حلَّ الظلام، ولم تعد

t.me/qurssan

الجزر مرئية. لا أتذكر ما حدث في تلك الليلة. أمرٌ واحدٌ فقط أتذكره جيدًا، الصيحة التي انطلقت فجأة، لتشق السكون، بصوت "مراد ريس الأكبر":

. هاجِموا هؤلاء الكفار! إلى الأمام! هيا أيها الذئاب!

استحال الوضع جحيمًا في لحظاتٍ معدودة. لا أعرف كم مضى علينا من الوقت؟ لم أفهم ما الذي حدث بالضبط؟ ولم أدرِ ما مصيرنا تحديدًا؟ عانقتُ طيف "ليلى" كي يبعدني عن الأهوال المحيطة بي.

t.me/qurssan

18 الذكريات القديمة وقلبي المشتعل

هؤلاء الذين أخذوا قطعة حب من حبيبي وأعطوني إياها، ثم أخذوا روحي ومنحوها للحبيب.

(عزت)

تحت السُحُب الرمادية، أرسل "مراد ريس" مراكب صيدٍ صغيرة لتشعل النار في سفن "فرسان مالطا". صاح في رجاله مشجعًا:

. قاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا!

نجح "ماجيولو" في التحرك بسفينته، بمناوراتٍ حذرة، كيلا تمسك بها النيران. وأخيرًا، اقتربنا من إسطنبول، تحيط بنا قطع من الأسطول العثماني. لم أشعر بالقنابل التسع التي ضربت جانبي السفينة، إذ كنتُ غائبًا عن الوعي، عقب سقوط الإسطرلاب النحاسي فوقي.

بدأت أستعيدُ وعيي، مع إحساسي بتمزق صفحاتي. هاجمتني ذكرياتي القديمة، بغتةً، حين شممتُ الروائح المألوفة للحديقة. لقد أمضيتُ أربعين سنةً بين هذه الأسوار الحجرية. هبّت نسائمُ منعشة، ذكّرتني بضفاف "دجلة"، ودفعتني للبكاء. وصل السلطان، واستقبلته أنغام الفرقة الموسيقية العسكرية. كنت ما أزال أتألم بسبب مسمار الإسطرلاب الذي اخترقني بوحشية.

أنا الوحيد الذي شاهد الدموع الحبيسة في عيني السلطان "محمد"، حين انحنى ليقبل موضع الزهرة الحمراء. أنا وحدي الذي سمعت همساته الخافتة:

. ليتكِ عرفتِ يا "روكال" كم أحبكِ أبي! أنا أعرف الحقيقة. لقد قتلوكِ.

يظنُّ السلطان أن مَن قتلوا محظية والده، فعلوا ذلك بدافع الغيرة. لم يكن يعرف شيئًا عن "جمعية بابل". ها هو يمسك بي بإجلال، دون أن يدرك بأن وجودي كان أحد الأسباب التي أدت

t.me/qurssan

للتخلص من تلك المسكينة. لو كان يعلم الحقيقة، لتغيرت معاملته لي، دون شك.

شاهدته وهو يلثم الخاتم المحيط بإصبعه، وقد اعتلت شفتيه ابتسامةٌ حزينة. نظرتُ للخاتم، واستطعت تمييز الفص البراق الذي يزينه، على الفور. إنه إحدى الماسات الثلاث التي كانت بحوزة "روكال". أحسست بالارتياح، فمعنى ذلك أنهم انتشلوا جثتها، ولم تبقَ في ماء البحر طويلًا.

أعجبتني قبلتي السلطان. لقد ترك خمسة أشخاص آثار شفاههم على غلافي، وأولهم "ليلى". تشاركوا حبي، ولم يتشاركوا عشاقهم. ما هذا الذي أقول؟ هل

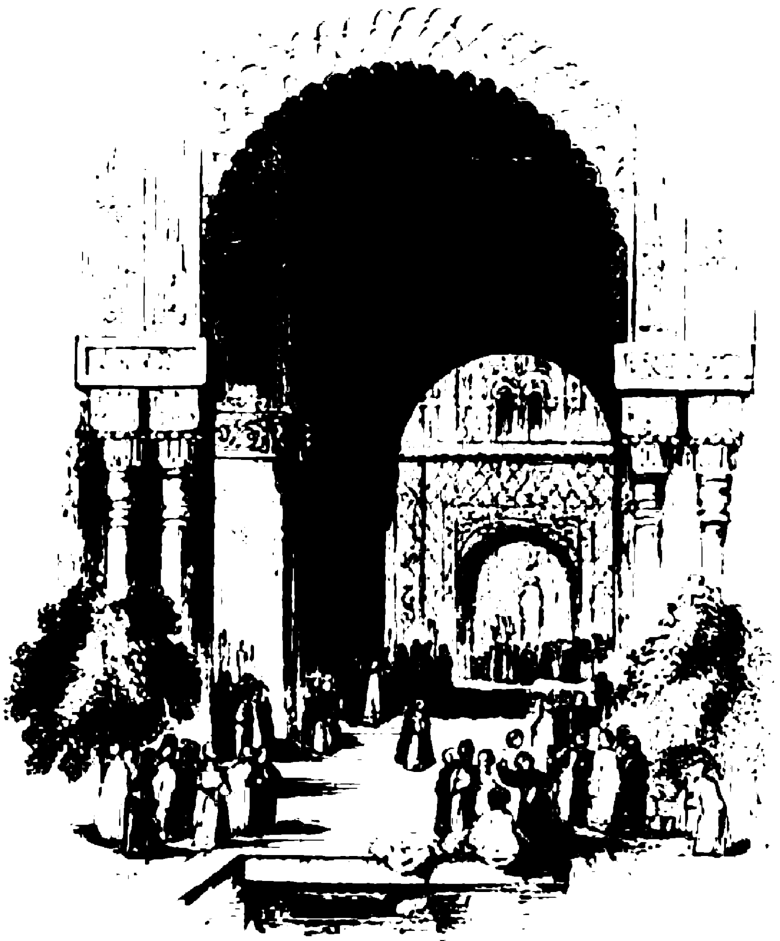

ذلك ممكن أصلًا؟ هل يقبل المحب أن يشاركه غيره في محبوبه؟ هل يتسع القلب الواحد لغرامين؟ إنه بيتٌ لا يرحب بأكثر من ضيفٍ واحد.

فكرت في أصحاب تلك القُبَل، "ليلى" وسيدي "فضولي" و"روكال" و"سليمان القانوني" والسلطان "محمد" جميعهم يقدّمون قلوبهم،

t.me/qurssan

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويفـهمون المعنــى الحقـيقي للحـب. لقـد طُمِسَ معظـم الزهـرة الحمراء، وحل محل شكلها الأصلي قبلاتٌ دافئة تضيء جبيني كشموسٍ صغيرة.

بعـد فتـرة صمتٍ طويلة، استغرق خلالها السلطان في ذكرياته القديمة، نظر حوله وطاف بعينيه بين كَتَبة القصر ومدونيه، إلى أن استقرت عيناه على رجلٍ مُسنٍّ له وجه شاحب، وهتف:

. "محمد" بيك!

أضاف متباسطًا:

. الذي يشاركني الاسم ذاته!

أردف باحترام:

. سبق أن أهديتنا مجموعةً من قصائدك البديعة، فاسمح لنا الآن أن نهديك نحن هذه النسخة من "ليلى والمجنون". كان السلطان "سليمان" قد أهداها لمحظيته "روكال"، وظننا بعدها بأننا فقدنا هـذه النسـخة للأبد، ولكن يبدو أنها كانت تطوف العالم! ها قد عادت إلينا من جديد، ولكن من المعروف أنه من غير اللائق أن نحتفظ في القصر بشيءٍ خرج منه، لأي سببٍ من الأسباب، ثم تمت إعادته. أرجـو أن تقبلـه هـديةً منا، وألا تبخل على السيد "فضولي"، وأهل هذا البيت جميعًا، بصالح دعائك.

لم يتسنَّ لي سابقًا معرفة هذا التقليد الذي يقضي بعدم عودة شـيءٍ خـرج مـن القصـر إليـه ثانيـةً. أزعجنـي ذلـك، وشـعرتُ بالإحباط. لكنني ذكّرتُ نفسي بأنني بعد السنوات الخمس التي أمضيتها في مدنٍ لا أحد فيها يتكلم لغتي، عدا "أنطونيو"، فإنه ينبغـي لـي أن أسـعد بصحـبة أديـب عظـيم كهذا الرجـل، عُرِف بأسلوبه الشِّعري الفريد.

الذكرى التي سترافقني للأبد من لحظاتي الأخيرة في القصر، هي مشـهد السـلطانة "صـفية"، وهـي تتـابع توالـي هدايا البابا لابنها السلطان "محمد"، ثم احتضانها إحدى الفتيات الصغيرات التي

t.me/qurssan

أرسِلت لها خصيصى. لعلها ذكرتها بطفولتها، حين كانت لا تزال تحمل اسم "بافو" في مدينة "كورفو" اليونانية. قبل مغادرتها للقاعة، ضمت ثلاثة من أصابع يدها اليمنى وأشارت بها خفيةً لشخصٍ لم أتبينه. من الواضح أنها كانت تُجدِّد انتماءها وولاءها لـ"جمعية بابل".

اتسمت دعوة ابنها لها لحضور اللقاء بسفراء البندقية، بالتوقير البالغ لشخصها ومكانتها، لكنه لم يتوقع أن تترك القاعة بعينين دامعتين.

عندما بدأت الاحتفالات بالألفية الهجرية الجديدة، أحسستُ أنني أولَد من جديد.

امتدت الاحتفالات أربعين يومًا وأربعين ليلة. تخللتها عروضٌ بحرية على السواحل، وحفلات خِتان الأمراء الصغار. لكنني، رغم البهجة التي عمت البلاد، كنت أفكر في أمرٍ واحدٍ فقط وهو رغبتي الملحة في زيارة شجرة الجوز العتيقة، التي أمضيتُ فيها ليلةً هانئةً مع "روكال". أردتُ استعادة تلك الساعات الحزينة، لكن أحدًا لم يصطحبني إلى هناك، وظل حنيني يتراكم داخل صدري.

"محمد حقاني بيك" من رجال البلاط الإمبراطوري الذين يتمتعون باللطف والتهذيب ودماثة الخلق، وهو إلى جانب ذلك شاعرٌ موهوب. رغم أن وظيفته تستنزف وقته، فقد استطاع نظم ديوانٍ شعري متميز. في بعض الأحيان، يخط على عجالة بعض الأبيات الغزلية، تكاد في جمالها تقترب من روعة أعمال سيدي "فضولي". حين يُذكَر اسمه، يعلق الناس بأن جنونه يضاهي موهبته. إنها العبارة المقترنة به، لسببٍ ما. حتى نحو عامين، كان "محمد بيك" يقطن في المساكن المخصصة لكَتَبة الديوان. بعد أن انتهى من كتابة عمله الفذ "حلية السادة"، والذي ينتمي لنوعية "الحلية الشريفة"، أي تدوين صفات النبي "محمد" صلى الله عليه وسلم، بخطٍّ عربي على النمط العثماني، وفق تصميمٍ مزخرف ومذهب، أراد السلطان أن يكرّمه، لكنه وقع في حيرةٍ بالغة، فقيمة هذا العمل كبيرةٌ جدًا ولا تقدر بمال. في نهاية الأمر، قال لوزرائه:

t.me/qurssan

. فليسأله أحدكم عما يحتاج إليه، أو يريده، وسوف نلبي طلبه على الفور.

عقد الوزراء اجتماعًا مع الشاعر، ونقلوا له سؤال السلطان. قالوا له:

. فلتطلب ما تشاء!

وماذا كان رده؟ أجابهم بمنتهى البساطة:

. سامحوني، ولكنني سأطلب أجرتي عن هذا الكتاب، من مولانا السلطان، في الآخرة. لأن أي ثمن سأحصل عليه في هذه الدنيا، سيكون بخسًا.

تبادل الوزراء نظرات قلقة، وسألوه:

ـ كيف سنقول للسلطان شيئًا كهذا؟ إنه أمرٌ واجب التنفيذ، والمسألة لا تحتمل النقاش.

أصر الطرفان على موقفهما. تشبث الشاعر بقراره، فيما ألح عليه الوزراء بأن يطلب شيئًا. بدؤوا يفقدون صوابهم، وكاد بعضهم أن يضربه من شدة الغيظ. أخيرًا، قال "محمد بيك":

. حسنًا، إن كان مُصِرًّا على مكافأتي، فيمكنكم إبلاغه بأن العمر قد تقدم بي، ولم يعد بإمكاني السير مسافات طويلة. أجد صعوبةً في العودة لمنزلي، وبخاصة في المطر والأوحال، ولذلك أرجو أن يتكرم بإصدار إذنٍ يسمح لي بالتنقل باستخدام حصان.

تنهد الوزراء في ارتياح، وقالوا:

. لا بأس. سنحضر لك جوادًا على الفور.

اعترض أحد أفراد الفرقة الانكشارية، قائلًا:

. ولكن رتبة وهوية الأفراد الذين يمكنهم ركوب الخيل بين أسوار المدينة، محددة سلفًا، وهو لا ينتمي لهم. لا يمكننا كسر التقاليد وإفساد النظام القائم، من أجله.

t.me/qurssan

هنا، برزت مشكلةٌ جديدةٌ، تتعلق بالبروتوكول هذه المرة!

بعد بحثٍ ومداولات، توصل الوزراء إلى إهداء الشاعر منزلًا جديدًا قريبًا من مكان عمله، حتى لا يضطر للسير مسافاتٍ طويلة.

منذ ذلك اليوم، لا يتوقف الناس عن ترديد هذه الحكاية في دهشة وتندر، كلما أتت سيرة "محمد بيك".

أحسَّ "محمد بيك" بسعادة بالغة لاستلامي، وقدَّم جزيل الشكر للسلطان. لم يتردد في إخباره بأنه قد سبق له قراءة حكايتي التي كتبها بالفارسية الشاعر "نظامي الكنجوي"، كما اطلع على نسخةٍ أخرى من القصة نفسها. أعرب عن سروره لحصوله على هذا الكتاب المزين بالمنمنمات والعناوين المذهبة وختم مكتبة القصر.

احتفالًا باقتنائي اشترى لعائلته حلويات فاخرة، واصطحبني معه إلى منزله. بادر إلى إصلاحي وإعادة تثبيت صفحاتي، وإرجاع غلافي السميك إلى ما كان عليه قبل أن يتمزق كعبه.

يمكن رؤية القصر الإمبراطوري من منزل "محمد بيك". لقد تغيرت ملامح المدينة بشكلٍ كبير. بدايةً، هناك الجامع الجديد والمجمع الذي تكفلت ببنائه والدة السلطان، كما إن إحدى منارات "آيا صوفيا" تخضع للترميم.

أمضيت أعوامًا من الشِّعر والأدب في منزل "حقاني بيك". في كل ليلة يلتقي الشعراء وعشاق الأدب في بيته لمناقشة المؤلفات المختلفة، وفي شهر رمضان يستقبل "محمد بيك" ضيوفه من التجار والأعيان على مائدة الإفطار. ذكرتني تلك السهرات بليالي القصر القديمة.

نهارًا، كنتُ أراقب العمال من النافذة وهم يمارسون أشغالهم في الجامع الجديد و"آيا صوفيا". أما مساءً، فأنصت لمناقشات سيدي الجديد وضيوفه ودعاباتهم، وقد أشرد أحيانًا في أحلام يقظة ممتعة.

t.me/qurssan

لكن أسعد لحظاتي هي تلك التي أواجه فيها نوافذ الجهة الجنوبية من البيت، التي تداعبها الأغصان الطويلة لشجرة الجوز التي شهدت ذكرياتي القديمة مع "روكال". لا أدري إن كان جذعها الأجوف لا يزال على حاله، فلا يمكنني رؤيته من مكاني.

تُذكِّرُني خادمة البيت، "ديلبيستي"، بالحبيبة، بـ"ليلى" فتاة الصحراء، التي تركتها على ضفاف "دجلة". تنتابني سعادةٌ غامرة حين أكون قريبًا من خصلات شعرها الكستنائي، وبشرتها المتوردة بالغة النعومة، أو حين أتأمل عينيها السوداوين. عمرها لا يتجاوز العشرين بأي حالٍ من الأحوال. وقعت في غرام الجنايني الذي يعمل في حدائق "أياس باشا"، في البيت المجاور لنا، إلا أنها لم تستطع البوح بمشاعرها. كنتُ أعلم أن الشاب يحبها بدوره، لكن خوفه من المستقبل جعله يغض بصره ولا ينظر إليها، رغم تردده الدائم علينا لتوصيل الهدايا التي يرسلها سيده لأبناء "محمد بيك" الصغار. استشعرتُ ألمه وعذابه، كلما رآها. منعه الشرف والاستقامة من تجاوز حدوده. كم من العشاق وأدوا حبهم، ولم يستسلموا لمشاعرهم!

لم أرَ أحدًا من أعضاء "جمعية بابل"، أو من لصوص الآثار، خلال وجودي في بيت "محمد بيك". حاولتُ أن أطمئن نفسي، في بعض الأحيان، بأنهم فقدوا أثري، أو أنهم يعتقدون أنني ما أزال في القصر؛ لكن تلك الحجج لم تكن مقنعةً على الإطلاق، فليس من المعقول أن أيًّا من أولئك الأعضاء السبعة الذين يمكنهم اختراق أي مكانٍ في العالم، مهما تكن تحصيناته، ليس موجودًا في الدولة العثمانية.

بقيتُ آمنًا في بيتي الجديد، لا يهدد وجودي لصوص منتصف الليل، ولا زبائن الحانات الوضيعة، ولم يصطحبني أحد إلى دهاليز الكنائس المعتمة التي تزينها شمعداناتٌ من الفضة، ولم أذهب إلى "جالاتا". الحقيقة أن "حقاني بيك" كان رجلًا متدينًا، ويرفض الوجود في أي جلسةٍ تضم خمورًا، وهو ما ساهم في حمايتي من الأخطار. لكنني أيضًا، خلال الاحتفالات الصاخبة المتوالية

t.me/qurssan

بالألفية الجديدة، لم ألمح الخنجر المرصع ولا حزام زمزمية سيدي "فضولي" الذي رأيته للمرة الأخيرة في "روما". على كل حال، تعرضتُ لبعض المواقف التي أشعرتني بالرعب. منها ذلك اليوم الذي قام فيه رجلٌ غجري بملاحقتنا، عقب انتهاء مراسم الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، في أول أيام مهرجان "آيا صوفيا".

كان الرجل نشالًا محترفًا، "يسرق الكحل من العين" كما يقولون. ظل يتابعنا في سيرنا، إلى أن أدرك أن هذا الشيخ لا يحمل معه - على الأغلب - سوى عملات نحاسية قليلة. لمح ضحيةً أخرى، يبدو أكثر ثراءً، فتركنا أخيرًا وبدأ بملاحقته. في ذلك اليوم، استبد بي الذعر، وبخاصة حين اقترب الغجري من سيدي وتحسس جيوبه بخفة. خمَّن ما تحتوي عليه، لكنه فشل في تخمين قيمتي الحقيقية.

التجربة المخيفة الثانية تتعلق بمتسولٍ تردد على منزل "محمد بيك" عدة مرات، وفي كل مرة يسأل إن كان لدى صاحب البيت كتبٌ قديمة يودّ الاستغناء عنها، معلنًا بأنه يحب القراءة. كنتُ أقول لنفسي، في خوف:

. إنه يحاول معرفة نوعية الكتب الموجودة هنا.

لكنه انقطع عن الحضور بعد فترة.

أما الرعب الحقيقي، فهو ما حدث لنا في مقبرة "زندان أركاسي" بحيِ "قاسم باشا". هناك، وجدنا أمامنا رجلًا أشعث، رث الهيئة، وبدا واضحًا أنه يدمن نوعًا من المخدرات. بين أشجار السرو المهجورة، والقبور المتهدمة، استل الرجل سيفه القصير وخاطب "محمد بيك" بغلظة:

. هاتِ كل ما لديك.

في ذلك اليوم، أخذني "محمد بيك" معه، كي يتسلى بقراءتي في الهدوء المحيط بالمكان، عقب انتهائه من زيارة القبر الذي جاء من أجله.

t.me/qurssan

شاهد القبر الذي رُسِم على سطحه وردٌ وزهور، كان متهدمًا بفعل الإهمال. إنه المكان الذي دُفِنت فيه والدة شاب من تلاميذه، يدعى "مَيت زاده"، يعطيه "حقاني بيك" دروسًا في اللغة الفارسية وعلم العَروض. يزور "محمد بيك" قبرها بين الحين والآخر، ليقرأ لها الفاتحة، ويتأمل حكايتها العجيبة.

وفق ما يقصُه "محمد بيك" على رفاقه ومعارفه، فإنه حين حارب العثمانيون ضد المجر، قبل سبعة عشر عامًا، كان من بين المقاتلين في سلاح الفرسان جنديٌ في الأربعينيات، بدأ الشيب ينتشر في شعره. كان شارد البال على الدوام، مهمومًا بالتفكير في عروسه الشابة التي تركها في إسطنبول، ولم يمر على قرانهما أكثر من ستة أشهر. لم يكن له ولزوجته أقارب يأتمنهم عليها وعلى مولودهما القادم.

عندما تم ضمه للحملة العسكرية، قال باستسلام:

- إنه واجبي، وعليّ أداؤه.

ثم صلى ركعتين، وتوجه إلى ربه بالدعاء:

- يا رب، أنت العالم بحالي. لديّ إحساسٌ بأنها ستلد قبل عودتي. اللهم إني أتوكل عليك في رعاية طفلي.

لكن الجندي كان مخطئًا، ففور مغادرته مرضت زوجته مرضًا شديدًا، وماتت بعد أربعة أشهر، قبل ولادتها صغيرَها. أحضرها أهل القرية إلى هذه المقبرة، ودفنوها في جانبٍ منها. لكن ما حدث بعد ذلك، أمرٌ عجيبٌ جدًا، فقد بقي الجنين على قيد الحياة. وُلِد بعد بضعة أيام من دفن أمه، ثم تحرك بمعجزة إلى صدرها، والتقم حلمتها وبدأ في الرضاعة.

الواقع أن الحكاية، بكل تفاصيلها، أثارت استغرابي.. كيف وجد الرضيع حليبًا في صدر امرأةٍ ميتة؟ وكيف بقي على قيد الحياة في ذلك المكان المظلم، الخانق؟

"ما شاء الله كان"، هكذا يقولون، وهو التفسير الوحيد للقصة، كما

t.me/qurssan

يبدو.

عقب الوفاة بأسبوع، عاد الجيش من المجر، ورجع العسكري إلى بيته بأسرع ما يمكن. لكن الباب ظل موصدًا، ولم يفتحه أحد. حين خرج الجيران من منازلهم لإبلاغه بالمسألة، أخذ يردد بعدم تصديق:

ـ مستحيل! لقد توكلتُ على الله وعهدتُ إليه بمولودي. إنه لا يخذلني أبدًا. لقد حفظ لي أمانتي.

دلّه الجيران على مقبرة زوجته الراحلة. ما إن اقترب الفارس الشجاع ذو الشارب الأنيق من قبرها، حتى ألقى نفسه عليه وهو ينتحب بمرارة. فجأةً، صمت تمامًا وألصق أذنه بالأرض. ما ذلك الصوت؟ إنه بكاء طفلٍ صغير! صاح فيمن حوله:

ـ أريد جاروفًا. إن ابني على قيد الحياة!

هُرع الجيران بإحضار واحدٍ له، وتم فتح القبر على الفور. استقبلهم منظرٌ لن ينسوه أبدًا. مولودٌ صغير يتشبث بجسد أمه الآخذ في التحلل، ويمتص ثديها الأيمن. كان أغرب ما استلفت انتباههم هو أن التغيرات التي طرأت على شكل جسد الأم ولونه، لم تمس صدرها الذي بقي كما هو. أخذوا الطفل، وأعادوا ردم القبر.

بعد عامين، مات الزوج أيضًا، فتكفَّل "حقاني بيك" بتنشئة الصغير وتعليمه. كان طفلًا ذكيًا ووسيمًا. لا أعرف اسمه الحقيقي، لكن الجميع ينادونه "ميت زاده"، أي "ابن المتوفاة". في بعض الأحيان، يستعيد "ميت زاده" ما حدث لأمه، فيغلبه البكاء، وتنساب دموعه. شهدتُ بنفسي هذا الموقف، أكثر من مرة. في أحدها، قال له "محمد بيك":

ـ أرجو أن تُدفن بجوار أمك، يا ولدي العزيز، بعد عمرٍ طويل، وأن تكون حينها وزيرًا مُهمًّا!

كنا نقترب من الغروب. ألقت أشجار السرو بظلالها الدكناء على

t.me/qurssan

المكان، فأمسى أكثر قتامة. صاح الرجل من جديد:

. ناولني ما لديك أيها الشيخ!

حَل "محمد بيك" كيس النقود الذي يضعه تحت حزامه، لكن الرجل وضع طرف سيفه على رقبة "محمد بيك" وقال:

. أكثر! أريد أكثر! أريد كل شيء!

أشار إلى الخاتم، وإلى السوار الذي يحيط بعضده، والمزين بماسة، وإلى خنجره المرصع بالأحجار الكريمة. ناوله "حقاني بيه" إياها. ارتعدتُ وأنا أفكر: "سوف يستولي عليّ، دون شك، ومن يدري كيف ستكون نهايتي؟".

لم يبقَ على "محمد بيك" سوى ملابسه الداخلية فقط، كما لو كان أحد المشردين الذين يطوفون طرقات المدينة. دس قدميه في حذاء "محمد بيك"، وارتدى الصديري المنسوج في "بورصة"، ثم لف شاله الناعم كحزامٍ حول جسده. تأمَّل القميص الذي استولى عليه، ثم سأله بمزيجٍ من الاستياء والسخرية:

. ولماذا لا يضع شخصٌ مثلك أزرارًا من الصدف الفاخر في ثيابه، بدلًا من هذه الأزرار التقليدية الرخيصة؟

أخذ الرجل عمامة "محمد بيك"، فقال الأخير مستعطفًا:

. من فضلك يا سيدي، اترك لي قفطاني على الأقل، لأتمكن من العودة إلى منزلي. لا تُهِنّي.

ضحك اللص، وأجابه:

. أنت مُحقٌّ. لا ينبغي أن تراك زوجتك بهذا المنظر، وإلا ظنت أنك كنت في سهرةٍ ماجنة! قفطانك لا يناسبني، على كل حال. إن لبسته، فلن يضيف لي شيئًا من هيبتك ووقارك، وإن بعته، فسوف أتعرض للمساءلة وإلقاء القبض علي.

أزال القفطان المصنوع من القطيفة الناعمة، من بين بقية قطع الملابس. تحسس جيوبه الكبيرة، فوجدني في أحدها. مد يده

t.me/qurssan

القذرة، وقال ضاحكًا، بنبرة انتصار:

. هذا هو ما كنتُ أبحث عنه!

أخذ يتصفحني. لن أنسى أبدًا رائحة جسده المقززة. قلّب صفحاتي باستهانة ولامبالاة. خُيِّلَ إليَّ أن أوراقي ستتمزق بين يديه. حدق إلى رسوماتي ببلاهة. توقف عند اللوحة التي تصوّر لقائي بـ"ليلى" في البرية. علّق بكلامٍ مبتذلٍ وفاحش.

قلتُ لنفسي: "إنه من لصوص الآثار، دون أدنى شك".

بعد لحظة، كنت أطير في الهواء. تبين أنه مجرد شخص حشاش وسكّير، وأنه كان يسخر من وجود كتابٍ مصور مع شيخٍ وقور. لم يكن يبحث عني، ولم يسمع بي من الأساس. قذف بي بقوة، فارتطمتُ بوجه "حقاني بيك". لو انفصل كعبي عني، من جديد، فسوف أخضع مضطرًّا لآلام عملية التغليف. أزعجتني الفكرة جدًّا.

عدنا إلى المنزل بإصاباتٍ ظاهرة، وحالةٍ نفسيةٍ سيئة. منذ ذلك اليوم، توقف سيدي عن زيارة قبر والدة "ميت زاده". بعد نحو شهر، وبالمصادفة البحتة، شاهدنا اللص نفسه راكبًا على حمار، باتجاهٍ عكسي، وقد قيدت يداه. سار وراءه قائد الشرطة، ومن خلفهما منادٍ يصيح:

. يا أيها الناس، انظروا واسمعوا وتعلموا! سرق هذا اللص ثياب رواد حمّام "آكيبيك"، ولن يفلت من العقاب. يا أيها الناس! انظروا!

مرت عدة أعوام على وجودي في منزل "حقاني بيك". ذكرياتي هناك كلها حلوة. كنتُ أعلم أن هناك من لا يزال يبحث عني، لكن "محمد بيك" لم يدرك أنه كان مؤتمنًا عليَ، لحين قدوم الشخص الذي يرغب في الاحتفاظ بي. أحبني "محمد بيك" بشدة، وبادلته الشعور نفسه. كنتُ بجواره عند احتضاره. في لحظاته الأخيرة، علت شفتيه ابتسامةٌ سعيدة، وقال بوضوح:

t.me/qurssan

تأكدتُ حينها أن كتابته للـ"حلية"، قد ضمنت له السعادة في الدارين، وسرّني ذلك.

امتلأت سنواتي في هذا البيت بالقصائد والأدب والمحبة، لكنني لم أستطع خلالها الاهتداء إلى "ليلى". حين كنت أمد بصري خارج النوافذ الجنوبية، كنت أرى أوراق شجرة الجوز وهي تغيّر ألوانها بتغيّر الفصول والمواسم. يتناهى إلى سمعي أحيانًا صوت "روكال"، فتقفز إلى ذهني صورة غزالٍ أليف.

في هذا البيت، نسيت "جمعية بابل" ولصوص الآثار، ولم أعد أفكر إلا في ذكريات الحب والغرام.

كم كانت مبهجةً تلك الأيام!

t.me/qurssan

19خداع "جونتر الكافرُ"

وعذاب الأشواق

لا أحد يعرف طول الليالي

ولا حتى الفلكي أو الميقاتي

وحده المُعذَّب، الساهر

يعرف عدد ساعاتها بدقة

(ثابت)

يعرفه الجميع بـ"نفعي زاده". إنه ابن "نفعي يحيى أفندي"، الذي اشتُهر كونه شاعرًا كبيرًا في زمن "سليمان القانوني"، وهو نفسه "شيخ الإسلام يحيى أفندي" الذي أصدر الفتوى التي أثارت جدلًا واسعًا حول عدم تحريم تدخين التبغ. أما اسمه الحقيقي، فهو "عطاء الله". مجالات اهتماماته واسعة ومتعددة، ومنها الشِّعر وفن التذهيب ورسم المنمنمات، ودراسة العلوم العامة، والصوفية. ونظرًا لنبوغه في كل مجالٍ منها، فقد تم تعيينه مدرسًا مساعدًا في "كانبازيي"، وهو في الثامنة عشرة من عمره. كان "عطاء" دائم التردد على منزل "محمد بيك" لإنهاء إجراءات التركة والميراث، وتعبيرًا عن تقدير أفراد الأسرة لمجهوداته، أهدوني له.

مَرَّ على صحبتنا الممتعة عامان كاملان، سعدتُ خلالهما بلقاء أصدقائه الأدباء، كـ"جاني زاده نادري" و"عزمي زاده حالتي". في كل مرة يجتمعون بها في منزله، يتناقشون في فلسفة عِلم الجمال، والصوفية، والفنون الجميلة، ويترحمون على سيدي "فضولي" وهم يقرؤون أبياتي.

إلى جانب ثقافته العالية وعشقه الشديد للقراءة، يتميز "عطاء" بشخصيته المرحة المحبة للمزاح والهزل. بدأ يعاني في الفترة الأخيرة ازدياد وزنه، فصار يشرب الكثير من البابونج، والشمر،

t.me/qurssan

والينسون، ونقيع زهرة السوسن الفارسية، ويسير مسافاتٍ طويلة إلى القرى المحيطة بالمدينة.

انصبَّ طموحه في تأليف خمسة دواوين متتابعة، اختار عناوينها بالفعل: "كتاب الساقي"، و"نسائم الورد"، و"حوار العذارى"، و"الدروب السبعة"، و"جمال المبادئ". أعد الرسومات التي سيزين بها هذه المؤلفات، وحرص على أن يخبئها عن الجميع، بمن في ذلك زوجته.

قبل أيامٍ قليلة من انتهاء شهر رمضان، كان هناك من يدق على بابه مساءً. فتح "عطاء" ليجد جنديين من الانكشارية، يتوسطهما شخص بملابس إفرنجية. تبادل "عطاء" والضيف نظراتٍ مذهولة، وقد علت وجهيهما ملامح الدهشة والاستغراب. أحسَّ كل واحدٍ منهما أنه ينظر لانعكاس صورته في المرآة.. الفم نفسه والأنف والعينان الواسعتان بلونهما العسلي. الفرق الوحيد بينهما هو أن اللحية والشارب في وجه "عطاء"، غير موجودين لدى الزائر.

انتقلت الدهشة إلى الحارسين، فأخذا ينظران للرجلين بتعجب، وأخيرًا قال أحدهما بتلعثم:

- من الواضح أن هذا الأجنبي أحد أقربائك.

في تلك الليلة، تعارف الرجلان وتبادلا الحكايات، إلى الفجر. وفقًا لما رواه الاثنان، وأحدهما يكمل للآخر أجزاءً من قصته، فإن جد والد "عطاء"، أي الحاج "كمال أفندي"، انتقل من "أنقرة" إلى "مالقرة" في إقليم "مرمرة". وكان له ابنٌ يدعى "نصوح أفندي"، وحفيدان هما "علي" و"رضا"، الذي اشتهر بين الناس بأسم "إرزا". انتسب "علي" - وهو جد "عطاء" - إلى الطريقة الصوفية الخلوتية، ثم أصبح رئيسًا لها؛ أمّا "إرزا" فقد التحق بسلاح الفرسان، ثم أسره الألمان في إحدى معاركهم مع "سليمان القانوني". نسجت الأقاويل والشائعات حكايةً أقرب للأسطورة عن "إرزا"، تناقلها الناس على مدار أعوام.

قال الرجل الأجنبي الواقف أمامه - والذي يكاد يكون نسخةً منه -

t.me/qurssan

إنه حفيد "إرزا"، وأنه جاء إلى إسطنبول بحثًا عن أقاربه، كما أنه ينوي دراسة القصص الشعبية ليعتمد عليها في تأليف كتابٍ عن الحكايات الشرقية، تزينه الرسومات. أبدى سعادته لنجاحه في العثور على قريبه، أخيرًا. راودني إحساسٌ، لا أعرف مصدره، أن هذا الضيف لا يقول الحقيقة كاملةً. هناك سببٌ آخر لزيارته. لكلٍ من هذين الرجلين المتطابقين شكلًا روحٌ مختلفة تمام الاختلاف عن الآخر. راقبتُ الزائر وهو يحاول أن يتودد إلى "عطاء أفندي". يلمس ذراعه بخفة وهو منهمكٌ في السرد، أو يلقي دعابةً لطيفةً وسط الكلام، لكن شيئًا في تصرفاته كان يفتقر إلى الصدق. أوحى إليّ سلوكه بأنه جاسوسٌ مدرّب، وشعرتُ بأنه غير أجنبي، بل يتظاهر بذلك.

واصل ثرثرته، واضعًا يده على كتف "عطاء أفندي". لاحظتُ أنه مدّ إصبعيه السبّابة والوسطى، وقام بثني البنصر والخنصر إلى داخل كفه. إنها الطريقة ذاتها التي يحيي فيها أعضاء "جمعية بابل" الإله "مردوخ". كنتُ قد سمعتُ "إلشيمر"، في منزله بـ"روما"، وهو يوضح أنها تحية الأرواح الكلدانية للأجانب، خلال الاحتفالات المخصصة لإله القمر "سِن"، وأن الهدف منها هو ترك أثر غير مرئي عليهم.

أكّد "جونتر" - وقد ادّعى الزائر أن ذلك هو اسمه - أنه من أبناء عمومة "عطاء"، رغم أن الأخير ساورته الشكوك بشأن هذه المسألة. صحيحٌ أن فكرة ظهور قريب أجنبي بشكلٍ مفاجئ، طريفةٌ ومسلية، لكنها مريبةٌ أيضًا؛ لكن اللطف البالغ الذي أظهره "جونتر"، أشعره بأنه أخ له، وليس مجرد قريب غائب.

قال "جونتر" إنه حين أُسِرَ "إرزا أفندي"، عقب سقوط مدينة "ليريز" في أيدي الألمان، اشتراه كبير مترجمي وكَتَبة "فرديناند"، المعروف بـ"سير ديفيد". استطاع الشاب الأسمر، بجده واجتهاده، أن يكسب ثقة ومودة سيده اليهودي؛ كما استطاعت وسامته أن تجذب انتباه ابنة اليهودي له. بعد فترةٍ قصيرة، تزوجا وأنجبا "شمعون حسن"، والد "جونتر".

t.me/qurssan

الواقع أنني وجدتُ أن جوانب كثيرة في قصته مقنعة وقابلة للتصديق، لكنني حين أمعنتُ النظر في بعض النقاط، عاودني الارتياب وأدركتُ أن "جمعية بابل" قد بذلت جهدًا مضاعفًا هذه المرة في الإعداد للترتيبات اللازمة للحصول عليّ. استُغِلَّ الشَّبهُ الواضح الذي يجمع مبعوثهم هذا بـ"عطاء أفندي"، وعلّموه اللغة التركية، وزوّدوه بالمعلومات المتعلقة بالبنية الاجتماعية في المجتمع العثماني، وعاداته وتقاليده.

بعد أن أمضى بيننا بضعة أيام، لم يجد "جونتر" حرجًا في أن يسأل "عطاء"، بلا مواربة:

. هل ديوان "ليلى والمجنون" موجودٌ لديك؟ أعني النسخة التي كتبها "محمد فضولي الحِلّي".

تناولني "عطاء" من فوق أحد الرفوف، وقال وهو يربت بكفه على غلافي:

. إنني أقرؤه حاليًا. إنه مثيرٌ للإعجاب.

أضاف:

. إنها أجمل قصة عذاب كُتِبَت حتى يومنا هذا.

لو لم يكن "عطاء أفندي" مشغولًا بتأملي، للاحظ على الفور الاضطراب الشديد الذي طرأ على ضيفه. كاد "جونتر" يفقد وعيه، ما إن وقعت عيناه عليّ. ارتعشت يداه وهو يتلمس غلافي. من يدري منذ متى وهو ينتظر هذه اللحظة؟

t.me/qurssan

تصفحني بسرعة، وتوقف حين رأى أول المنمنمات. تفحصها جميعًا ببهجةٍ خالصة، كما لو كان طفلًا في محل حلوى. لم أفهم في البداية سبب تركيزه على الرسومات، وليس الأشعار. كان كمن يبحث عن خريطة الكنز، وسط تلك الصور.

لم أعد أدري إن كان تابعًا لـ"جمعية بابل"، أم مجرد لصٍّ وضيع؟

قلتُ لنفسي:

ـ لعله سئم تحليل الأبيات الشعرية وحساب أحرفها، وقرر أن يبحث عن الشيفرة في الرسومات المصاحبة لها.

ثم فكرتُ قليلًا في المسألة:

ـ وحدهم لصوص الآثار الجهلة، وصائدو الكنوز، الذين يعتمدون في بحثهم على الخرائط فقط. إن كان الأمر كذلك، فإن "جونتر" يبحث عن التماثيل الذهبية والأقراص الطينية التي حُفِرَت عليها الاستنتاجات العِلمية. ربما سيحتفظ بالتماثيل والكنوز لنفسه،

t.me/qurssan

ويسلّم الأقراص الطينية للجمعية.

قال "جونتر" لـ"عطاء":

. إنني أبحث عن هذه المنمنمات منذ نحو خمس سنوات، لصالح مؤسسة "شارل الخامس الفنية الملكية" في مدينة "دريسدن" الألمانية. لقد أعددتُ دراسةً حول أوجه الشبه بين اللوحات والمنمنمات.

أتبع ذلك بحديثٍ مطول عن الفن التشكيلي، وتكوين العُمق والأبعاد المجسمة في اللوحة باستخدام الألوان.

خلال فصل الشتاء، لم يكن لدى "عطاء أفندي" ما يفعله عادةً بعد انتهاء ساعات التدريس، سوى قراءة الكتب ونظم الشعر. هذه المرة، أمضى معظم وقته مع "جونتر" وهما يتناقشان في شتى الموضوعات. عند انتهاء شهر رمضان، عرَّف "عطاء" "جونتر" إلى بقية أقاربهما الذين جاؤوا للتهنئة بحلول عيد الفِطر. استمتع صغار العائلة بالإنصات إلى اللغة التركية التي يتحدثها الضيف، وانطلقت قهقهاتهم مع كل خطأٍ لغوي يرتكبه. اعتذر للجميع، قائلًا إن هذا ما تعلمه من جده.

أصغر أبناء "عطاء" الثلاثة، وهو طفلٌ كثير المزاح والمشاغبة، منح "جونتر" - كما يفعل مع الجميع - لقبًا متميزًا، فصار اسمه "جونتر الكافر"! جزءٌ من هذه التسمية يعود إلى شعور الصبي بالغيظ من هذا الزائر الذي رسمه وشقيقه، فجعل الأخ أكثر جمالًا منه. اعتاد "جونتر" تسلية الأطفال برسمهم على أوراقٍ صغيرة في حجم الكف. يسارع الصغار بالوقوف أمام المرآة لمقارنة اللوحات بأشكالهم الحقيقية. كان "جونتر" رسامًا بارعًا، ورغم الملل الذي أحس به، بعد فترة، فقد استمر في تنفيذ ما يطلبونه، لإدراكه بأن لطافته مع الصبية ستضمن له تقديرًا أكبر من جهة مضيفه؛ ولكثرة ما رسمهم، صار يحفظ الخطوط التي ينبغي عليه وضعها على الورقة، ثم أصبح يصورهم بدقةٍ وسرعة وهو مغمض العينين.

t.me/qurssan

مضى شهران على وصول "جونتر الكافر" إلى "إسطنبول". في بعض الأحيان، يتجول في المدينة راسمًا خرائط لها، كما أمضى ساعاتٍ طويلة وهو ينقل منمنماتي، ويصنع نسخًا عنها. اهتم بشكلٍ خاص بالرسم الذي كاد يغمى عليه عند رؤيته أول مرة، أمام خيمة "ليلى"، وهي تضع رأسي على ركبتيها، وتحاول إفاقتي بمسح ماء الورد على وجهي. ظل ينسخه مرةً تلو أخرى. تصوّر خلفية اللوحة عددًا من الخِيام والأشجار، وجدول ماء، وجبالًا بعيدة. كان "جونتر الكافر" يبحث عن خارطة، وبدا مقتنعًا بأن للوحاتي أصلًا جغرافيًا في الحقيقة. في بعض النسخ التي أعدّها، غيَّر عددًا من المناظر وفقًا لما يراه حوله؛ لكنه لم يطلع عليها أحد، وحرص على إبقائها مخبأةً تحت قميصه.

تركزت حوارات "جونتر الكافر" و"عطاء أفندي"، بعد فترة، على آثار "إسطنبول"، والفنون، وأساليب الرسم المعتمدة في كتابي. في إحدى الليالي، اعترف "عطاء" لرفيقه بأنه يرسم المنمنمات، ولا يُطلِعُ عليها أحدًا. على الفور، أصر "جونتر" على أن يرسما معًا، كي يستفيد كل منهما من أسلوب الآخر في العمل؛ لكن الحقيقة أنه أراد اكتشاف الخارطة التي يؤمن بوجودها بين منمنماتي. قال لـ"عطاء" متوددًا بأنهما قد ورثا موهبتهما الفنية من "نصوح أفندي".

لكن "عطاء" أصيب بنوعٍ من الصدمة عندما وجد "جونتر" يساوي بين رسم المناظر الطبيعية والمنمنمات. صاح باستنكار:

- ما قيمة اللوحات التي تنقل الطبيعة كما هي، وتصورها تصويرًا دقيقًا؟

أضاف شارحًا:

- المنمنمات شيءٌ آخرٌ تمامًا. يشعر المرء عند تنفيذها بمتعةٍ روحيةٍ خالصة. الفنان الحقيقي هو من يصف ما يرغب في رؤيته، لا ما يراه فعلًا، أليس كذلك؟

المنمنمات في نظره هي الفن عينه.

t.me/qurssan

قال "جونتر" مدافعًا:

ـ في أحيانٍ كثيرة، ينجح الفنان في أن ينقل للمتلقي صورةً تضاهي ما خلقه الرب.

أردف بتصميم:

. يمكن تحديد مدى براعة الفنان في مجاله، فقط عبر قدرته على محاكاة الرب. هكذا هو الأمر في حقيقته.

نصّب "جونتر" الفنانين شركاءَ للخالق سبحانه وتعالى، بمنتهى البساطة! استمر الجدل بينهما حول هذه النقطة طويلًا؛ ظل "عطاء" مقتنعًا بأن الفن الحقيقي يتجاوز نقل الطبيعة، وأن محاولة محاكاة خَلق الله تعد شِركًا صريحًا. وتجنبًا للوقوع في هذا الفخ اعتمد الفنانون الشرقيون على عمليتي الحذف والإضافة عند تنفيذ أعمالهم، وبذلك صنعوا لأنفسهم أساليب متميزة.

أما "جونتر"، فيرى أن الرسومات الشرقية مجرد تشويه للمساحات والمسافات والأبعاد، وأنها فنٌّ غير مكتمل، إذ ينبغي للفنان أن يسعى للكمال، وأن ينقل الإبداع العظيم للخالق - سواء أكان ذلك في الناس أو الطبيعة - للمتلقي. عند هذه النقطة، تدخل "عطاء" ليقول إن الكمال يأتي فقط من داخل الروح، ولذلك فإن التجريد هو الذي يكوّن التشابه بين الفن والحقيقة.

واقع الأمر، أن كل واحدٍ منهما تشبث برأيه ولم يقتنع بحجج الآخر. لم يفصح "عطاء" لقريبه عن قلقه المتزايد من أن تتسبب آراؤه في إثارة مشكلاتٍ لهما بين سكان إسطنبول من المسلمين المحافظين، لكنه اشترط عليه - مع ذلك - عدم التحدث في أمور الفن خارج جدران منزله. قال لنفسه بامتعاض، أكثر من مرة: "أتمنى أن ينفد الورق الذي بحوزته، ليتوقف عن الرسم، وننتهي من هذه المسألة برمتها!".

أجبر "جونتر الكافر" قريبه "عطاء أفندي" على أن يتدارس معه متمنماتي، على ضوء الشموع، خلال ساعات الليل الطويلة.

t.me/qurssan

كانت أولى اللوحات التي قاما بتفحصها وتحليلها، هي تلك التي تصف لقائي بـ"ليلى" للمرة الأولى في المدرسة. علق "جونتر الكافر" بأنه، وفقًا للنَّص الشعري، فإن مدرستنا كانت عبارة عن خيمة، لكن الرسم المرفق يظهر مدرسةً على الطراز العثماني، بجدرانٍ حجرية تزينها قطع الفسيفساء، ونوافذ زجاجية، وأرضيات ذات ألواحٍ خشبية. تساءل باهتمام: إن كان قد تم العبث بالصورة الأصلية واستبدالها هذه بها؟ قال "عطاء" إن الأحداث وقعت في صحراء "نجد"، كما هو مفترض، لكن الراوي - ويقصد سيدي "فضولي" - والرسَّام الذي نفَّذ اللوحة، ينتميان للمدن، وهي العالم الذي يعرفانه ويجيدان التعبير عنه سواء بالكلمة أو بالصورة. أضاف مبتسمًا:

. في الصفحات القادمة، ستجد أنهارًا وأشجار صفصاف، في قلب الصحراء!

تأمل "جونتر" الطريقة التي يجلس بها الأطفال أمام معلمهم، في خطين متجاورين، أحدهما للأولاد والآخر للبنات. كنتُ و"ليلى" نجلس في المقدمة. تساءل عن سر تقسيم الصغار على هذا النحو، كما أراد أن يعرف المزيد عن النقوش التي تزين أرضية حجرة الدراسة، وعن سبب ارتدائنا ألوانًا معينة. تمعن في قدمي التلميذ المعاقب في مؤخرة الصورة، اللتين احمرّتا من شدة الضرب. ونظر مطولًا للطريقة التي أمسك بها الأطفال كتبهم؛ لكن أكثر ما لفت نظره في تلك الصورة هو النظرات المتبادلة بيني و"ليلى". استفسر من "عطاء" عن سببها. أغلب الظن أنه ظنَّ أن مفتاح حل لغز "جمعية بابل" يكمن داخل هذه الصورة تحديدًا. لسوء الحظ، لم يلفت شغفه الواضح نظر "عطاء أفندي"، ولو كنتُ مكان الأخير لقلبتُ الحقائق ولزودته بمعلوماتٍ خاطئة، كي أتسبب في ارتباكه وحيرته.

ولعدة ليالٍ متواصلة، استمر الاثنان في قراءة الأبيات نفسها ومحاولة تحليلها بالتفصيل. في كل ليلة، أمسى إحساسي بالألم أكثر عمقًا، وانتابني شعورٌ بالحرج البالغ لإصرارهما على مناقشة

t.me/qurssan

غرامي بـ"ليلى"، وكأنها قصة حب عادية ومبتذلة. انزعجتُ على وجه الخصوص من "جونتر الكافر" الذي تعامل مع المسألة من وجهة نظر فنية، متحررة لدرجة الانحلال، دون فهمٍ لطبيعة غرامي، ولا اهتمامٍ بخصوصياتي. حين قام سيدي "فضولي" بوضع هذا الكتاب، لم يجعله مصدرًا للمعلومات، بل منبعًا للمشاعر الصادقة. أراد أن يقرأه الناس ليفهموا معنى المعاناة والأسى؛ ومع ذلك فإن "عطاء أفندي" اكتفى بالإجابة عن أسئلة قريبة بما لديه من معلومات، ولم يعبِّر عن أحاسيسه تجاه أحداث الحكاية.

كلما تدافعت تساؤلات "جونتر الكافر" حول تفاصيلي المختلفة، شعرتُ بوخزات الألم من جديد.

تأملا معًا لوحاتي، باهتمامٍ وانتباهٍ بالغين، وبخاصة تلك المتعلقة بشبابي المبكر، حين توجه والدي رحمه الله لأهل "ليلى"، خاطبًا إياها لي. تدارسا أيضًا المشهد الذي أتحدث فيه مع الأسود والغزلان في البرية، وذلك الذي أزور فيه الكعبة، والمناظر التي تصور التقائي بـ"ليلى" في الصحراء الحارقة، ثم احتضاني لقبرها ولحاقي بها. ظل "جونتر" يرسم لوحات لحكايتي، تبعًا لرؤيته وملاحظاته؛ واستمر "عطاء" في التعليق بأنه لا يفهم قريبه ولا يفهم رسوماته. لكنه في الوقت ذاته كان متحمسًا لرؤية الكتاب الذي ينوي "جونتر" تأليفه ووضع هذه الأعمال الفنية بين صفحاته. لم يداخله الشك في نيات "جونتر".

لو عَلِمَ "عطاء" أن "جونتر" أمضى الليل ساهرًا في غرفته، عقب انتهاء نقاشهما، وهو يواصل التأمل في رسوم الكتاب، محاولًا العثور على الطريق الذي سيوصله للتماثيل الذهبية، لزايله الارتياح والبساطة اللذان يتعامل بهما مع ضيفه.

لم يشغل "عطاء أفندي" نفسه بالتفكير فيما يفعله ضيفه - الذي أسكنه في جناحٍ فخم داخل منزله الفسيح - خلال الساعات التي يمضيها هو في تدريس طلابه، ولم يهتم بمعرفة الأماكن التي يرتادها "جونتر"، وكان يكتفي بسؤاله بين الحين والآخر، من باب اللياقة واللباقة:

t.me/qurssan

. كيف كان يومك يا أخي؟

يُجيبه "جونتر" بأنه يتردد على المعبد اليهودي في "جالاتا" للصلاة، وأخبره أنه صادقَ عددًا من يهود المدينة. في إحدى المرات، طلب منه "عطاء" أن يتعرف إلى أصدقائه الجدد. سعد "جونتر" بهذا الاقتراح، وقال إنه ينبغي اصطحابي معهما.

حين غادرنا أسوار المدينة، بمحاذاة ميناء "باهتيشكابي"، استقبلتنا ريحٌ شماليةٌ شرقية، جعلت بعض سفن الصيد ترتطم ببعض على سطح الماء. اخترقنا الحدائق للوصول إلى مبنى الجمارك الملاحية، والتقينا في طريقنا بعددٍ من الوزراء الذين ذهبوا هناك لحضور اجتماعات المجلس السلطاني. قابلنا أيضًا كبير الخصيان، وأحد عساكر الحرس السلطاني، وبعض النجارين وعمال الرخام وكبير مهندسي البلاط السلطاني المنهمكين في أعمال البناء الخاصة بمسجد السلطانة "صفية" الجديد، المقام وسط تلك الحدائق. سار "جونتر" بخطواتٍ مسرعة، وكأنه يتحاشى أن يلمحه أحد. قال "عطاء" ممازحًا:

. ماذا بك؟ لا تخفْ! نحن لا نأكل الغرباء!

لكن خوف "جونتر" كان نابعًا من أن يستوقفه عسكري الحرس ويتحدث معه.

ركبنا قاربًا للوصول إلى "جالاتا". في الطريق، قال "جونتر الكافر" إنه ينوي ذرف الدموع داخل أحد المعابد، تعبيرًا عن ندمه على فشله في التوقف عن الرسم في أيام السبت المقدسة، بينما أعلن "عطاء أفندي" عن رغبته في صعود برج "جالاتا" لرؤية المدينة بأكملها من هناك، عقب مقابلته أصدقاء "جونتر".

قال "جونتر"، فجأةً:

- برأيك.. كم يومًا كان يمكن تأجيل غزو إسطنبول، لو لم يقم الإمبراطور "قسطنطين" ببناء جدران "القرن الذهبي" من طبقةٍ واحدة، وليس من عدة طبقات كما فعل عند تشييد الأسوار الخارجية للمدينة من قبل؟

t.me/qurssan

أجابه "عطاء" بفتور: إنه لم يفكر في المسألة من قبل؛ لكنه في تلك اللحظة تحديدًا بدأ يتساءل: أكان هذا الرجل الغريب يمت له بصلة قرابة فعلًا؟

لم يتمكنا من رؤية ما حولهما بوضوح، فقد امتلأ المرفأ بالعديد من المراكب والزوارق، إلى جانب السفن الأوروبية المتوقفة في الميناء منذ أشهر بسبب فشل ملاحيها في الحصول على أذونات الدخول، نظرًا لفساد موظفي الجمارك؛ أما مدخل "القرن الذهبي" فقد سدته السفينة السلطانية الجديدة التي تحمل اسم "النورس الأبيض"، التي ينوي السلطان ركوبها لاحقًا في ذلك اليوم، لزيارة قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري". بعد أن عبرنا بين عددٍ من الزوارق، استطعنا أخيرًا أن نلمح مقدمة السفينة الجديدة، بلونها الأبيض الناصع. كنا قد وصلنا إلى "كاراكوي".

لو اطلَع أحد على عقل "جونتر الكافر" ومشاعره، لأدرك مدى الإثارة التي غمرته عند رؤيته السلطان، رغم أنه لمحه من مسافةٍ بعيدة. راقب مشدوهًا مظاهر البذخ والفخامة في موكب السلطان. كان متأكدًا أن المخبرين وأفراد الخدمة السرية يملؤون المكان.

حين مر الرجلان بجوار الدير الأرمني، كانت شمس الظهيرة ترسل أشعتها الدافئة في أفق المدينة. بمشقةٍ بالغة، صعدا التل المغطى بالطين والثلج. فجأةً، قام اثنان من الرهبان بمهاجمتهما بضراوة، وقد ظنَّا أن الغريبين بصدد التسلل إلى المبنى. سقط "جونتر" أرضًا وانزلق على الجليد. اتسخت ثيابه، وغطى الطين الفراء الذي يرتديه. اندفعت كلماتٌ بذيئةٌ وعباراتٌ فاحشةٌ من فم "جونتر"، وهو في أقصى حالات الغضب. ما إن سمعها "عطاء" حتى انطلقت قهقهاته مدويةً في المكان. أطلت رؤوس الجيران من نوافذ بيوتهم في فضول، وتحلق أطفال الحي حول الزائرين.

حين وصلا أخيرًا إلى المعبد، المشيد على الطراز القوطي، كان التعب قد استبد بهما. وجَه "جونتر الكافر" بعض الأسئلة للحارس، بلغةٍ لم يفهمها "عطاء"، لكنه استنبط من تعبيرات وجه قريبه أن

t.me/qurssan

الإجابات أثارت غضبه. مع استمرار الحوار الغامض بين الحارس و"جونتر"، ازداد وجه الأخير غضبًا أكثر فأكثر، وبدا أنه في مزاجٍ سيئ.

تنهد "عطاء" في أسى، وقال لنفسه لائمًا: "ليتني تعلمتُ لغة غير المسلمين، إلى جانب العربية والفارسية!".

أنا وحدي الذي فهمت حقيقة ما يحدث. المسألة بأكملها مجرد تمثيلية. "جونتر" ليس غاضبًا، وليس له أصدقاء أو معارف في هذه الأنحاء، وكان قد قدم رشوة من بعض العملات الذهبية للحارس كي يوافق على لعب هذا الدور؛ أما شجارهما المفتعل فإنه ليس سوى كلماتٍ مبهمة لا تنتمي لأي لغة من الأساس!

أخيرًا، التفت "جونتر" نحو رفيقه قائلًا:

. توفيت زوجة أحد أفراد الجماعة اليهودية، وقد غادروا جميعًا لحضور جنازتها.

أضاف معتذرًا بأنهما لن يتمكنا من مقابلة أيٍّ من أصدقائه. أردف بغضبٍ زائف:

. تلك العجوز الملعونة لم تجد نهارًا تموت فيه إلا اليوم!

لم يُبدِ "عطاء" أي إحساسٍ بالأسى أو الاستياء. واقع الأمر أنه أظهر قدرًا غير هين من اللامبالاة. قال ببرود:

. لا بأس، سوف أصعد البرج إذًا. أراك الليلة في المنزل.

الحقيقة أن "عطاء" لم يكن مهتمًا بلقاء أصدقاء "جونتر"، وكل ما أراده هو التيقن مما إذا كان قريبه يقول الحقيقة أم أنه يكذب؟ حين تابع حديثه مع الحارس، تأكد من صدقه. اطمأن "جونتر" لنجاحه في خداع "عطاء"، وقرر أن يضرب عصفورين بحجرٍ واحد، فأعلن بحماسة:

. سوف أرافقك.

في تلك الفترة، كان يتم منع الأجانب من زيارة برج "جالاتا"،

t.me/qurssan

بسبب جريمة قتل ارتُكِبَت داخله منذ مدة. انزعج "عطاء" من إصرار "جونتر" على الذهاب معه، وقال معترضًا:

- اسمعني يا أخي، في بعض الأحيان يحتاج الإنسان للاختلاء بنفسه لبعض الوقت، وهذا ما أريده الآن. أودُّ التمتع بمشاهدة "إسطنبول" بأكملها، تؤنسني أبيات "ليلى والمجنون". أنا وديوان الشِّعر هذا فقط.

لكن "جونتر الكافر" قابَلَ رفض "عطاء" بعدم اهتمام، وقال بإلحاح، بتركيةٍ رديئة:

- لا بأس.. لا بأس. أنا مثلك فنان. أنا كذلك أرسم لوحات!

دسَّا بعض المال في يد حارس البرج، كي يسمح لـ"جونتر" بالدخول، ثم صعدا السلم الحلزوني الداخلي وهما يتناقشان في الفن والرسم. اقتربا من الوصول للشرفة العلوية، وشاهدا النوافذ والحجرات التي استخدمها كبير الفلكيين "تقي الدين محمد" لنصب معداته وأدواته وتخزينهما، قبل بناء المرصد الجديد الذي تكلف نحو عشرة آلاف عملة ذهبية. كان هذا هو المرصد الثالث في العالم، بعد مرصدي "آرشيا آكيلدان" و"القوشجي".

لم تتسنَّ لي مقابلة "تقي الدين"، ولم ألتقِه قط. ما زلتُ أتساءل: إن كان الفلكي الراحل أحد أعضاء "جمعية بابل" أم لا؟ إن كان كذلك، فلا بد أنه الوحيد الذي فهم عملهم وأبحاثهم، واستوعبها بشكلٍ جيد.

لاحقًا، أمر رجل الدين "قاضي زاده محمد أفندي" بهدم المرصد، في إطار محاربته للبدع المستحدثة وحث الناس على العودة إلى نقاء الدين. أعلن، مدافعًا عن قراره، بأنه من غير الجائز أن نستخدم النجوم والكواكب للكشف عن الغيب. خمنتُ بأن يكون "تقي الدين" قد تقلب في قبره حزنًا على مرصده العظيم. فكرتُ قليلًا ووجدتُ أن العذاب الحقيقي لأي عالِمٍ ومثقف هو الحياة وسط الجهلة.

حين وصلتُ إلى قمة البرج، أدهشني المنظر تمامًا.. فالمدينة

t.me/qurssan

الممتلئة خضرةً وأشجارًا مورقةً خلال الربيع، استحالت إلى أسطحٍ ناصعة البياض بفعل الثلج، تحيط بها زرقة مياه البحر. أمامنا مباشرةً، امتدت حدائق القصر الداخلية، كفردوسٍ مُصغَّرة، تلتفُّ حوله أسوار عالية.

أحسّ "جونتر الكافر"، من شدة سعادته، برغبةٍ قويةٍ في الرقص. تأمل مشهد المدينة باستمتاعٍ بالغ. حجبت الشمس بعض أشعتها في دلال، ونثرت البعض الآخر على الثلج، فتخللته كخيوطٍ من ذهب. وضع "عطاء" كفه فوقي بخفة. أراد أن يقرأ عددًا من أبياتي قبل حلول الظلام. ما إن فتح غلافي، حتى صاح "جونتر":

. أخبرني، قل لي: كيف يمكن لأي مدينةٍ أن تكون بهذا الجمال الخلاب؟ ولماذا هي جميلة أصلًا؟ عرفني إليها أكثر. أطلعني على أسرارها كافةً. أرني مناطقها وقُراها.

في تلك اللحظة، نسي "جونتر" أمر التماثيل الذهبية والمنمنمات وأبياتي التي تحمل أسرارًا غامضة. انتشى بحلاوة المناظر المحيطة به من كل جهة؛ ورغم علمي بحقيقة هذا الشخص، فقد أحببتُ كيف حوّله الجمال إلى طفلٍ يجمع بين البراءة والسذاجة. أرجع "عطاء أفندي" أسئلة "جونتر الكافر" إلى اهتمامه بالمناظر الطبيعية.

أخرج "جونتر" بعض الأوراق والقصاصات، وبدأ يرسم سريعًا صورًا لأسوار إسطنبول وجدرانها وممراتها المائية، ثم وضعها داخل حقيبته، وخبأ بعضها الآخر داخل فردتي حذائه دون أن يراه "عطاء". لم يلحظ "عطاء أفندي" ما حدث، ولم ينتبه للخرائط، ولا لـ"إسكتشات" السريعة التي تصور المناظر المختلفة، وبلطفه المعتاد بدأ يصف المدينة لرفيقه، قائلًا:

. حول أسوار المدينة وبواباتها، تقع المزارع والقصور التي يمتلكها أكبر أغنياء إسطنبول. وراءها، تجمعاتٌ سكنية وبيوت متجاورة تشكل كل مجموعةٍ منها منطقة معينة. لا يفكر الناس ببناء بيوتٍ جديدةٍ في الأراضي الخالية التي ترعى فيها الخيول، ويفضلون مواصلة السكنى في أحيائهم. إلى الجنوب من هنا، تقع مناطق

t.me/qurssan

تتسم بنوعٍ من الخطورة، لعزلتها وبُعدها عن العمران. من المستحسن ألا يذهب إليها أحد بمفرده.

أضاف "عطاء":

. في الربع الأخير من القرن الماضي، صمَّم الناس على الاستمرار في تشييد منازلهم وفق الطراز البيزنطي، رغم صدور قوانين تمنع ذلك.

تأمل "جونتر الكافر" قباب المساجد ومناراتها، مأخوذًا. فكر في روعة أن يراقب الإنسان شروق الشمس في هذا الجانب من المدينة، عقب ليلة غرام مع امرأةٍ يحبها.

انتشله صوت "عطاء" من شروده، وهو يقول:

. داخل أسوار المدينة وخارجها، عالمان مختلفان تمام الاختلاف. جميع تحركات الدخول والخروج مسجلة ومدونة. في العام الفائت قاد الانكشاريون حملة عصيانٍ وتمرد، في منتصف فصل الشتاء تقريبًا، وكان هدفها عزل الأغوات وكبار موظفي البلاط. ساءت الأمور، وجلبوا للمدينة من خارجها بعض الأوباش وحثالة المجرمين.

صمت "عطاء" قليلًا، وأخذ يفرك كفيه إحداهما بالأخرى طلبًا للدفء، ثم واصل حديثه:

. أشعلوا النار في عددٍ ضخمٍ من الكتب. حدث ذلك بعد شنق امرأةٍ يهوديةٍ تدعى "كيرا" مع ولديها. جرى ذلك في "يديكول"، أعني القلعة ذات الأبراج السبعة. إنها هناك. هل تراها؟

سأله "جونتر":

. ولماذا شنقوا "كيرا"؟

. بسبب ضلوعها في عددٍ من قضايا الفساد. كانت تلك المرأة بائعة متجولة، تطوف بالبيوت حاملةً بضاعتها من الأقمشة، ثم بدأت تتردد إلى القصر في زمن "سليمان القانوني"، وبشكلٍ ما أصبحت

t.me/qurssan

وسيطة لعمليات الرشاوى المتعلقة بترقية الضباط إلى أعلى الرتب. أذكر الشائعات التي ترددت حولها حين كنتُ مراهقًا. قال الناس إنها على علاقةٍ وطيدةٍ بالسلطانة "صفية"، وهو ما سمح لنفوذها بأن يتعاظم داخل القصر. قيل أيضًا إنها كانت رسول غرامٍ بين العشاق داخل القصر وخارجه. توصِّل خطاباتهم المتبادلة، وتعمل على مصالحة المتخاصمين منهم. أكد والدي أنها كانت تعرف عددًا هائلًا من أجمل قصائد الحب، وتحفظ المئات من أبيات الغزل عن ظهر قلب.

هبت نسمةٌ خفيفة، تناثرت معها ندف الثلج على الأرض. انهمك "جونتر الكافر" في إحصاء المناطق المختلفة، وعَدّ المآذن. أظهر اهتمامًا خاصًا بالتل الصغير والبيوت المشيدة عليه. تتمتع كل منطقةٍ في "إسطنبول" بمميزاتٍ خاصة بها وحدها. تحيط المنازل بالأبنية الدينية من مساجد وكنائس ومعابد. جميع المناطق حيوية، وتتطور وتشيخ مع مرور الأزمنة والقرون. يتحمل سكان كل منطقة مسؤولية مدنية تجاه أنفسهم وبعضهم البعض وممتلكاتهم، ويعيشون كعائلةٍ كبيرةٍ واحدة، أو كمنظمةٍ غير حكومية.

هزّ "عطاء أفندي" رأسه ويديه، كأن الكلام أرهقه. أخرجني ثانيةً وقال بحزم:

. تابع مشاهدتك وملاحظاتك، بينما أقرأ لبعض الوقت.

التزم "جونتر" الصمت، ولم يعلق. لبثتُ بين يديّ "عطاء أفندي". أعجبني جامع السلطانة "مهرماه"، وراقني منظر الشمس وهي تسحب أشعتها الأخيرة من على قبته. قلتُ لنفسي مُذكِّرًا: "للسلطانة "مهرماه" مسجدٌ آخر في أُسكُدار".

يقال إن البدر في الليالي التي يتساقط فيها الثلج يكون ساطعًا بشكلٍ خاص. لقد رأيتُ البدر هناك وهو يتوسط مئذنتي المسجد. لو كان "عطاء أفندي" قد شاهد ذلك المنظر، لانطلق قلمه مدونًا أجمل الأشعار. اسم "مهرماه" يعني "الشمس والقمر". والآن بينما تغرُب الشمس عن أحد الجامعين اللذين شيدتهما ابنة السلطان

t.me/qurssan

"القانوني"، فإن البدر يسطع على الآخر. بغتةً، هاجمت "ليلى" أفكاري. كأنني أرى وجهها يتوسط القمر.

وقفنا نحن الثلاثة في حالة ذهول. "عطاء أفندي" بالأبيات الشِّعرية الرائعة التي نظمها سيدي "فضولي"، و"جونتر" بالمظهر الحالم للمدينة، وأنا بجمال جامع "مهرماه" الذي يتحدى الزمن. لم ندرِ كم مرَّ من الوقت؟ كأن الحياة توقفت بنا فجأةً، داخل هذا البرج القديم. صحت في حماسة: "هنا. في هذه المدينة! إنها هنا!".

احتلت "ليلى" تفكيري ووجداني، ووجدتني أقول: "إن كانت الشمس والقمر يلتقيان في هذه المدينة، في آنٍ واحد، فإن النهار والليل يتقابلان معًا. إن "ليلاي" موجودةٌ هنا، دون أدنى شك، وسوف نلتقي".

أحاطني دفء "ليلى". شعرتُ به يسري في أوصالي.

انتزعني الصوت الأجش لحارس البرج من سعادتي بـ"ليلى". هتف صائحًا من الأسفل:

. هذا يكفي! اهبطا في الحال!

على الفور، أعادني "عطاء أفندي" تحت حزامه العريض، بينما سارع "جونتر الكافر" بدس رسوماته داخل الجيوب السرية في حقيبته الجلدية. تضمُّ الحقيبة رسومات توضيحية للمناطق السكنية في إسطنبول، وملاحظات تتعلق بالخطط المفترضة لحماية المدينة في حالة الحرب؛ إلى جانب ما كتبه ورسمه اليوم من تقسيمات جغرافية ومائية وفقًا لما شرحه قريبه.

في طريق عودتنا إلى المنزل، رافقنا نباح كلابٍ بعيدة. خيم على المدينة شعورٌ غامضٌ بالحزن، تَرافقَ والعتمة التي تسللت مع غروب الشمس. بدأت أشعتها الحمراء الخافتة تنسحب تدريجيًا من على أسطح النوافذ الزجاجية. مرةً أخرى، طيّرت الريح ندف الثلج من على التلال وقمم الأشجار، وبعثرتها في كل مكان. عبر الرّجلان نقطة تفتيش الجيش الانكشارى، وواصلا سيرهما فى

t.me/qurssan

عقب رحلتهما الطويلة. أما أنا، فقد عصفت بي دوامةٌ من الأسى الخالص، وأحسست بحنينٍ جارف تجاه "ليلى". نظرتُ إلى "عطاء أفندي" في شُكرٍ. لقد تشاركنا كل شيءٍ تقريبًا.. بل إننا بكينا معًا عدة مرات، وبخاصة عند قراءته للنهاية الحزينة لحكايتي. أسعدني أن أجد شخصًا يفهمني ويشعر بي لهذه الدرجة. كلما طال بقائي مع هذا الرجل، صاحب الجسد الممتلئ والشخصية المرحة والعاطفية في آن، أحسست بالأمل في إمكانية الوصول إلى "ليلى" الحبيبة. أحببتُ عائلته وأطفاله ومنزله، لأنهم منحوني إحساسًا هائلًا بالانتماء، لم أعرفه من قبل سوى مع "روكال". إن القصائد التي ينوي نظمها، ستزخر بذكرياتي الشخصية. قد أستطيع العودة إلى الحياة من جديد بهذه الطريقة. إن الاحترام الذي يُكنُّه لسيدي "فضولي" هو مصدر الإلهام لجميع المؤلفات التي هو بصدد كتابتها.

خلال الشهر الماضي، دخل بيننا شخصٌ أفسد جمال علاقتنا الراقية: "جونتر الكافر". لم يعجبني منذ اللحظة الأولى التي رأيته فيها. بثَّ أخشاه الآن. إن ما يفعله في الخفاء، دون علم سيدي "عطاء"، يشعرني بانزعاجٍ بالغٍ وخوفٍ شديد.

وأنتِ! يا ابنة الصحراء. إنني على أتم استعدادٍ يا "ليلى" لمحاربة كل من يبتغي انتزاعكِ من قلبي. إن هذه المدينة فائقة الجمال يا "ليلى"، ووحدها التي تليق بكِ.

ليتني فقط أعثر على الدرب الذي يوصلني إليكِ!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

ليس هناك إنسانٌ بلا أحد

لكل شخص أحد، إلايَ

أنا مهمَلٌ ومهجور

فتعالَ لإنقاذي يا رفيق الوحدة

(روشني)

يـوم الثلاثـاء مـن كـل أسـبوع، هـو إجـازة "عطـاء أفنـدي" مـن التدريس في الجامعة. في ذلك اليوم، يتوجه إلى مكتبة المعهد الديني في "السليمانية" لمواصلة أبحاثه وقراءاته، ويعود إلى بيته في ساعةٍ متأخرة. لا أظن أن أحدًا في إسطنبول لم يكن يعرف عادته هذه، بسبب انتظامه فيها ومداومته عليها. عند خروجه من المكتبة، يتوجه للقاء أصدقائه من الشعراء، مثل "جـاني زاده نـادري" و"كـافزاده فـايزي" و"صـبري" و"وجـدي" وغيرهم، لمناقشة الشؤون الأدبية. تتغير أماكن اجتماعاتهم بحسب فصول السنة، إما في الحدائق تحت ظلال الأشجار، عندما يكون الجو صحوًا، وإما في ركنٍ هادئٍ من المقاهي الممتلئة

t.me/qurssan

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

برائحة التبغ والنشوق، في الأيام الباردة.

عادةً، يتحمَّل محبو الأدب والشِّعر دفع ثمن الشاي والقهوة والنشوق التي يستهلكها الشعراء في جلساتهم، لكسب ودهم والتمكن من متابعة مناقشاتهم الثرية. اعتبر الناس لقاءاتهم محاضرات أكاديمية عالية القيمة. أعرف ذلك جيدًا، لأن "عطاء أفندي" اصطحبني معه بضع مرات. أدركتُ من متابعتي لهم، في تلك الزيارات المعدودة، أن القصائد الغزلية للشعراء الأتراك تتفوق في رقتها وعذوبتها على تلك التي ينظمها نظراؤهم من الإيرانيين. دارت أغلب حواراتهم حول ضرورة تجديد القوالب الشعرية التقليدية. لو كان سيدي "فضولي" حاضرًا في تلك اللقاءات، لأضاف عمقًا متميزًا لأحاديثهم، وجوانب عاطفية مختلفة، منبعها غرامه الدائم بابنة أستاذه.

تولدت فكرة الدواوين الشعرية الخمسة التي ينوي "عطاء أفندي" نظمها، في أحد هذه الاجتماعات الأسبوعية، وعاهَدَ صديقه "نادري" على كتابتها، ووقع على وثيقة العهد بدمه.

ليلة الإثنين، جمع "جونتر الكافر" كل الأوراق الصغيرة التي رسم عليها مناظر إسطنبول كما رآها من أعلى البرج، ونوافذ "تقي الدين"، وخبَّأها داخل فردتي حذائه. بعدها، اتجه إلى "عطاء أفندي" وراح يسأله عن منمنمات سيدي "فضولي"، باهتمامٍ بالغ. في تلك الليلة، استأذن مضيفه في أن يصطحبني إلى حجرته، ليطالعني قبل أن ينام. لم يبدِ "عطاء" أي اعتراض. تركني معه، وغادرنا إلى غرفته. أحسستُ بتوترٍ شديد، تعجز عن وصفه الكلمات. في تلك اللحظات، أردتُ أن تكون "ليلى" بجانبي، علّ قربها مني يؤنس وحشتي ويُهدِّئ مخاوفي. لم أشعر باحتياجٍ لأحد، قدر احتياجي لها في تلك الساعة. تجاوز فزعي من "جونتر" الخوف الذي انتابني حين سمعتُ صرخات المعذبين في الزنازين الإيطالية، أو حينما أُلقيَتْ "روكال" في البحر، أو عندما تعرضنا للهجوم الدموي في طريقنا من بغداد إلى إسطنبول.

حاولتُ أن أشغل نفسي بالتفكير في "روكال" والوردة الحمراء

t.me/qurssan

التي تركتها بدمها على جبيني، والقبلة الرقيقة التي لثمت بها صدري.. تسللت "ليلى" إلى تفكيري دون أن أدري، وبدأتُ أشعر بوجودها معي. في الوقت الذي راودني فيه الأمل بإمكانية العثور عليها، واللقاء بها ثانيةً في إسطنبول، هأنا أتعرض للخطف من جديد. عذبني افتراقي الوشيك عن أحبتي، واعتصر قلبي.

كانت تلك من أطول الليالي التي مرت عليَّ. شعرتُ بأنها قرن كامل.

صباح اليوم التالي، وضعَ "جونتر الكافر" لوحاته الكبيرة داخل حقيبته بعنايةٍ تامة. لم تلفت المسألة انتباهي في بادئ الأمر، لكنه حين أخذ يجمع حاجياته الشخصية، أدركتُ على الفور أنه سيسرقني ويغادر المنزل.

وصلنا إلى بيت الطبيب اليوناني، في "جالاتا"، عقب ساعتين فقط. كان بانتظارنا ثلاثة أشخاص. عرفتُ بعد قليل أنهم زملاؤه في "جمعية بابل". أولهم هو "دودج شتايجر"، رئيس مخابرات الأمير "فريدريك" في "سالزبورج". أما الثاني فهو قبطي خبير في اللغة الهيروغليفية، جاء من القاهرة. الثالث كيميائي من منطقة "فنار" في إسطنبول. لو لم يقوموا بتحية بعضهم البعض بضمِّ قبضات أيديهم ووضعها الواحدة فوق الأخرى، لما عرفتُ أنهم من أعضاء الجمعية، ولخُيِّل إليَّ أنهم من لصوص الآثار التافهين. أصغيتُ إلى حوارهم، ففهمتُ أن الجمعية تسعى الآن وراء التماثيل الذهبية أيضًا؛ أو لعلِّي كنتُ مخطئًا ولم أفهم جيدًا، فالحديث بين "جونتر" و"شتايجر" كان غامضًا وغريبًا في الواقع. ربما لم يكن القبطي عضوًا في الجمعية أصلًا، بل مجرد خبير لُغوي استأجروه للمساعدة في ترجمة ما التبس عليهم من نصوص وكتابات.

قال "جونتر" فور دخوله، مخاطبًا "شتايجر":

. لقد انتهت مهمتي في القسطنطينية، يا "مردوخ" العظيم.

وقفَ صامتًا لبعض الوقت، بعد أن تفوه بذلك. راقبه الثلاثة

t.me/qurssan

الملتفون حول طاولةٍ في الغرفة القذرة، المليئة بذرات الغبار.
أجابه "شتايجر":

. يشرفني أن أبلغك تقدير صاحب العظمة، أيها العزيز "جونتر".

قام واقفًا، وشبك ذراعه بذراع "جونتر"، واصطحبه إلى رأس الطاولة، ثم أشار له بالجلوس، وقال:

. والآن، أخبرنا كل شيء من البداية، بالتفصيل.

أخرج الطبيب اليوناني علبة نشوق من جيبه، وقدمها إلى الزائر القبطي:

. تفضَّل.

تكلم "جونتر" قائلًا:

. إن "عطاء أفندي" يشبهني جدًّا في الملامح والبنية الجسدية، ومثل جميع أتباع دين "محمد" فإنه يصدق بسهولة كل ما يقال له. كان اختياره لتنفيذ مهمتنا موفقًا جدًّا. اقتنع على الفور أنني قريبه، ما إن تحدثت معه في أمور الشِّعر والفن، وأوحيت إليه بأن اهتماماتنا مشتركة. يجب أن أعترف أنني أحببتُ قصائده، كما أحببتُ..

سكت بُرهةً، وهو يخرجني من حقيبته. استطرد وهو يضعني أمامهم على الطاولة، قائلًا بنبرات انتصار:

. هذا الكتاب! "ليلى والمجنون".

أضاف:

. لا شعراؤنا يعرفون كيفية نظم قصائد بهذه الحلاوة والرقة، ولا أدباؤهم الأتراك يعلمون قيمة الكنوز التي يؤلفونها!

راح يوزع رسومه على سطح الطاولة، وهو يقول:

. في البداية، احتجتُ لأن أكسب ثقة مَن زعمتُ أنه ابن عمي، فقمتُ بحفظ بعض الأشعار، وقرأت الكثير في الأدب، كي أمتلك

t.me/qurssan

ما يكفي من معلومات عند محاورته. عقب أسبوع من بقائي في بيته، بدأتُ في زيارة الآثار البيزنطية، ودراسة الممرات المائية وأنظمة الصرف الصحي والشوارع الخلفية والطرقات الجانبية. في كل مرة، كنت أدعي أنني أذهب إلى المعبد اليهودي.

دخل الغرفة شيخٌ مُسنٌّ، يحمل زجاجة النبيذ وأربع كؤوس. حتى اللحظة التي دخل فيها هذا الرجل - يبدو أنه صاحب البيت - فإن أحدًا غير "جونتر" لم يتكلم. ظلت أنظارهم معلقةً بـ"جونتر"، الذي راح يستخرج أشياءَ مختلفةً من حقيبته الجلدية، ويعرضها أمامهم. أمسك بي، وتحدث باحترامٍ بالغ:

. لقد أعددتُ لك يا سيدي، يا رئيس جماعة القسم العثماني في منظمة "فرسان الإسبتارية" العسكرية، هذه الرسومات، لتتكرم بتقديمها إلى "فريدريك"، خادم إمبراطورنا "شارل الخامس". على كل حال، هناك ما هو أهم من ذلك، إذ يسعدني أن أعرض على سيادتكم، "رئيس جمعية بابل" الموقر، "مردوخ السادس عشر"، هذا العمل القيّم الذي يحمل عنوان "ليلى والمجنون". كما يسرني أن أقدم لسيادتكم المعلومات والملاحظات التي دونتها في هذه الأوراق، بخصوص الميزانية الحالية للدولة العثمانية، والمسائل المتعلقة بخزينة الدولة والجيش. كما تضم وصفًا دقيقًا للممرات المائية، والقنوات، وأنظمة الصرف الصحي، وهي المعلومات التي أمرتم بجمعها للمساعدة في تشكيل مستقبل الجمعية، يا سيد "مردوخ". أؤكد لسيادتكم أنني قمتُ بإعداد هذه الخرائط والرسوم التوضيحية بمنتهى الدقة والإتقان، وفق توجيهاتكم الكريمة. لقد علمتني أن أحمل معي - على الدوام - أقلام فحم ودواة حبر أسود، وقد استفدتُ من هذه النصيحة عند رسمي لهذه المناظر التي تصور معالم المدينة، وسوف أستغلها مستقبلًا في إنتاج كتابٍ مصورٍ عن إسطنبول.

استطرد "جونتر":

. سوف أنام الليلة بعمق، للمرة الأولى، منذ أن كلفتني سيادتكم، يا "مردوخ" الموقر، بتنفيذ هذه السلسلة من الرسومات لصالح

t.me/qurssan

الجمعية و"فرسان الكون". سوف أقوم بعمل نسخ لفروعنا في هولندا وفرنسا والبندقية وإيطاليا وإسبانيا وجنوا؛ وأرجو أن يتفضل قداسته بمباركتي من خلالكم يا سيدي العظيم.

قال "جونتر" العبارة الأخيرة وهو يؤدي بعض الحركات غير المألوفة، والتي هي جزءٌ من طقوسهم الخاصة كما يبدو، ثم أضاف:

. عليَّ أن أعترف بأن الخوف تملّك مني في بعض الأحيان، وكثيرًا ما تساءلت عن مصيري إذا ما تعرف عليَّ أفراد المخابرات العثمانية، المشهورين بمهارتهم وكفاءتهم. شعرتُ بارتياحٍ بالغ اليوم، وأنا أغادر منزل "عطاء" للمرة الأخيرة، فقد أنجزتُ مهمتي على النحو الأمثل.

أردف باسمًا:

. أتخيل شكل "عطاء أفندي"، وتعبيرات الدهشة والحيرة التي ستعلو وجهه، حين يكتشف اختفائي!

تبادل الجميع الابتسام، ثم رفعوا كؤوسهم في نخبٍ مشترك. بعدها، أخذني الكيميائي ووضع على منمنماتي قطراتٍ من مواد مذيبة، وأخذ يمسح أجزاءً من ألواني، بغية اكتشاف ما إذا كان هناك رسومٌ أخرى أسفل منها أم لا. فعل ذلك بعنفٍ ولا مبالاة، ودون مراعاة لذكرياتي الدافئة، ولا تقدير لإبداع وجهد الفنانين الذين رسموني.

ساعةٌ واحدةٌ كانت كافية لتدمير الرسوم الدقيقة التي تزينني. تداخلت ألوان اللوحات مع حبر النص الشّعري. في الرسم الذي يصور لقائي الأخير بـ"ليلى"، قبل أن تُمنع من مواصلة تعليمها في المدرسة، أفسدت مواده الكيميائية ثوب حبيبتي، ومزقته من المنتصف، كما حطمت قلبي تمامًا. قلتُ لنفسي إن هذه الأعين الغريبة ستطلّع على جسد "ليلى" العاري، الذي اختفت ثيابه، وآلمني ذلك بشكلٍ يفوق التصور. جرحت تلك المواد المذيبة صفحاتي، وشوهت كل ما فيها من خيام وشجر وأحصنة وجِمال

t.me/qurssan

وأسود وغزلان وصحارى. فقدتُ جمالي تمامًا.

حين انتهى مني الكيميائي، تناولني الرجل القبطي. أمسك بعدسةٍ مكبرة، محاولًا العثور على الأحرف المتشابهة في كتابات سيدي "فضولي" وكلٍ من الحروف البابلية والخط المسماري. بحثَ عن الآثار التي خلّفها قلم الخيزران الذي تمت كتابة النص بواسطته، وقام بترجمتها. عندما فشل في العثور على أوجه التشابه بين أحـرفي العربيـة ذات المنحنيـات، وتلـك المسـمارية المسـتقيمة كالوتد، بدأ بوخز سطحي بطرف إبرةٍ حادة، وبخاصة في مواقع الكلمات التي تحتوي على الألف والكاف واللام، كونها مستقيمة وحادة. استمر في إيلامي بتلك الطريقة، حتى خُيِّلَ إليّ أنه لن يتوقف أبدًا، وأنه سيقوم بسلخي كما حدث لـ"منصور الصوفي" الذي اشتهر بين الناس لتعرضه للسلخ وهو على قيد الحياة.

بعد قليل، شعرتُ بالوهن والضعف بسبب التعذيب الذي أتعرض لـه علـى يديه. أحسستُ كما لو أنني جاسوسٌ تُنزَع أظفاره، أو يُسلَخ جلده بواسطة مجموعة من المسامير؛ أو أنني من العبيد الذين كان سادتهم الرومان يتسلون بمشاهدتهم وهم يتعرضون لحـرق جلـودهم بالحـديد السـاخن، بينمـا هـم يرتشفون كؤوس النبيذ ويداعبون الراقصات نصف العاريات.

لو كنتُ أستطيع الكلام، لهتفت:

. أنتم مخطئون أيها السادة! اقرؤوا أبياتي بدلًا من إيلامي بهذه الطريقة. يمكنكم العثور على ما تبحثون عنه عن طريق الحب وليس العنف.

لكننـي، حـين فكـرتُ فـي المسـألة قليـلًا، وجـدتُ أنهم لـو كـانوا يعـرفون الحـب ويفـهمونه، لمـا تعـاملوا مـع الشِّعـر والفن بـهذه الطريقة. يبدو أن "جمعية بابل" صارت تضم أعضاءً في منتهى الحقارة. مقارنةً بـ"آرشيا آكيلدان" المبجّل، وأمين المكتبة الفاضل الـذي كـان صـديقًا لسيدي "فضـولي"، فإن الأعضـاء الحـاليين وحوشٌ كريهة.

t.me/qurssan

أي مهمة في الحياة، يمكن تحقيقها بنجاح من خلال الحب؛ أما الشر والعنف فلا يؤديان لنتيجة. كنتُ أتوقع أن يعرف هؤلاء الرجال هذه الحقيقة، لكونها بديهيةً جدًّا؛ أما جهلهم بها فيظهرهم كأفراد عصابات لصوص الآثار. تأكدتُ عند رؤيتهم أن الجمعية لم تعد مهتمةً بالعِلم، كما كانت على الدوام، بل أصبح يحكمها أمرٌ واحدٌ هو الطمع. ربما صارت الأبحاث والدراسات تتطلب أموالًا ضخمة، ولعل هذا يفسر تغير اهتماماتهم وأولوياتهم. من الواضح أن الأعضاء الحاليين لا يعرفون شيئًا من الاحترام والكياسة اللذين تمتع بهما من سبقهم. يجهلون معنى الطيبة والإحسان. لطالما تمنيتُ أن ألجأ لـ"جمعية بابل"، هربًا من مطاردات عصابات الآثار، ولكنني أتمنى الآن لو كنتُ بين أيدي اللصوص، بدلًا من وجودي هنا.

وللتيقن من أن أوراقي لا تحمل كتاباتٍ سرّية، ثقب القبطي أربع صفحاتٍ مني، ثم راح ينسخ بعض الحروف في ورقةٍ منفصلة. راح يقارن بينها وبعض الحروف المكتوبة على ورق بردي جلبه معه. رفع الأوراق باتجاه الضوء، ليراها بوضوحٍ أكبر. إنه خبيرٌ في مجاله، دون شك، لكن الألم الذي سبّبه لي جعلني أشعر بنوعٍ من الانتقام والشماتة لتيقني من عدم قدرته على الوصول لأي نتيجة. لم أستطع تقبل تصرفاتهم غير المتحضرة، وعدم فهمهم للحب الأفلاطوني الذي تفيض به أبياتي. أخذتُ أدعو الله بحرارة:

. يا رب، أبعدني عن هؤلاء الجهلة. يا رب، لا تكشف أسراري إلا لمن يجد المعرفة أمرًا مقدسًا.

استمرت محاولاتهم حتى ساعة متأخرة من الليل. في النهاية، أعلن "شتاينجر" بنفاد صبر:

. وفقًا لنصيحة الكاهن الأكبر، علينا الآن أن نسلّم المهمة لعظمة الباشا في "الباب العالي". يجب أن نبلغه بأننا بذلنا مجهودًا خارقًا، لكننا فشلنا في التوصل لأي معلومة. الحل الوحيد الآن هو محاولة فهم العلاقة بين أبيات هذا الكتاب، وهو أمرٌ نعجز عن

t.me/qurssan

القيام به، وبذلك تصبح المسألة من اختصاصه.

أعاد وضعي داخل الحقيبة الجلدية، بحركاتٍ تنمُّ عن العصبية. تفهمتُ إحساسه بالغيظ، النابع من اضطراره للاستسلام وإعلان الهزيمة. استبدّ بي الفضول، وأردتُ معرفة الباشا الذي يشير إليه. ترى من يكون هذا الوزير، عضو الحكومة العثمانية؟

رغم غضبه، شعرتُ أنهم جميعًا يشعرون بقدرٍ كبيرٍ من الارتياح، إذ لا يمكن لأحدٍ أن يسرقني من بيت الوزير الذي يقصدونه، ما يعني أنني سأبقى تابعًا للجمعية، مهما يحدث. قلتُ لنفسي، مهونًا: "قد يكون هذا هو الحل الأمثل؛ سأكون بمأمنٍ من اللصوص، إلى أن يظهر فرسان العِلم والمعرفة الحقيقيون، لإنقاذي. وإلى أن يحدث ذلك، ستكون جروحي قد شُفيت واندملت".

أحسستُ أنني مثل المرضى الذين غادروا للتوّ غرفة العمليات الجراحية. أفقدتني المواد الكيميائية المستخدمة لإذابة ألواني شيئًا من وعيي، وأشعرتني بالبرودة، بينما ما زالت آثار الوخزات المؤلمة تحرقني من الداخل. تذكرتُ فجأةً أنهم لم يزيلوا آثار الوردة الحمراء التي تزين جبيني. إنها مزيجٌ من دم "روكال" وقبلة "ليلى". أسعدني ذلك الخاطر وخفَّف من حزني.

تحدث "شتايجر" مخاطبًا "جونتر":

. أخبرنا يا عزيزي عن موارد المياه، وأنظمة الصرف الصحي في هذا البلد.

أشار "جونتر" بحماسة إلى الخرائط واللوحات التي وضعها أمامهم، وقال:

. هذه الخطوط الزرقاء تشير إلى الأنظمة التي صممها المعماري "سنان باشا"، أما...

في تلك اللحظة، فُتِح الباب بعنف. قلتُ في سعادة، وعدم تصديق:

. أخيرًا! أخيرًا!

t.me/qurssan

اقتحم المنزل رجالٌ أشداء، وصاح أحدهم:

. ابقوا في أماكنكم، دون حركة!

كان ذلك أحد رجال المخابرات العثمانية، يتبعه مساعدوه، وقد تنكر وإياهم في ثيابٍ رثة وأسمالٍ بالية، تماثل ما يلبسه الشحاذون. تعتمد هذه الفرقة من المخابرات على التسول في الطرقات لجمع المعلومات.

فور دخولهم، ألقوا القبض على "شتايجر" و"جونتر"، وشلّوا حركتهما. شرع القبطي في إلقاء نفسه من النافذة، لكن الضابط لحق به مسرعًا، وتمكن من الإمساك بقدميه في اللحظة الأخيرة. راح الكيميائي يتمتم بخوف:

. أنا.. بر.. بريء.. بريء!

ضحكتُ بسرور وشعرتُ بالشفقة حيال "جونتر"، في الوقت ذاته. توقعت أن يبتلع قرص السُم الذي يحمله معه في كل مكان، تحسبًا لمثل هذه اللحظة؛ لكنه أثبت جُبنه ووقف خانعًا دون أن يجرؤ على ابتلاعه.

كان آخر من دخل علينا، هو "عطاء أفندي". ورغم الآلام التي لازمتني بسبب الجروح التي أحدثها القبطي، إلا أن فرحي برؤية سيدي أنساني كل شيء. لم يكن "عطاء" ساذجًا كما ظننت، بل كان يدبر لخطةٍ محكمةٍ للإيقاع بـ"جونتر" ومن معه. وددتُ أن أهتف من أعماق قلبي، كي تسمعني إسطنبول بأكملها: "هذا هو سيدي حقًا! هذا هو عطاء أفندي!"

وقف بعزةٍ وكرامة، كمحاربٍ حريص على حماية وطنه. كان ذلك في الواقع هو ما فعله بالضبط. حين رآه "جونتر"، أطرق برأسه وتحاشى النظر إليه. لم يحرجه سيدي بقول أي شيء. اكتفى بنظراتٍ صامتة تجاهه، وكأنه يخبره: "لم أنخدع قط بكلامك وأفعالك".

اقترب مني "عطاء"، وحملني بين يديه برفق. قلتُ لنفسي: "ما

t.me/qurssan

دام الله قد استجاب لدعائي بشأن إنقاذي من تلك العصابة، فلعله سيستجيب لدعائي أيضًا فيما يتعلق بموضوع ليلى".

يـا رب.. اجمعنـي بـ"ليلى" بأسرع ما يمكن. احمني من هذه المغامرات الخطيرة، ودعني ألتقي محبوبتي. عشقي لها هو الذي يبقيني في هذه المدينة. يا رب.. أريد أن أعرف إن كانت قريبةً مني أم بعيدة؟ ساعدني يا الله في معرفة مصيري. دعها تسمع صوتي كي تعلم أني أحبُّها.

وحدك يا رب تعرف كم أحبها!

t.me/qurssan

21نهاية حياة والذهاب إلى الفضاء؟

أنا ببغاء ينطق بالمعجزات، لا بالثرثرة

لا أتحدث مع القَدَر، فمرآته غير صافية

لا أسمّي غير الأنقياء "طيبين"

أين الإنصاف في عدم معرفة الطيبين بعضهم بعضًا؟

"نفعي"

فكرتُ في أوضاع البلد، وتوصلتُ إلى أن إسطنبول التي عرفتها على مدار ربع قرن لم تشهد قط مثل هذه الظروف المعقدة التي نمرّ بها الآن. لم يسبق لها المعاناة من فراغٍ في السُلطة، كما يحدث هذه الأيام.

كان اليوم الذي فارقتُ فيه "عطاء أفندي" هو بداية تردّي الدولة، ومعاناتها من سوء الحظ، لكنني لم أدرك ذلك إلا بعد انقضاء بعض الوقت. بدأت المسألة بخلع "عثمان الثاني"، الابن الأكبر للسلطان "أحمد"، من العرش، بعد مرور أربع سنوات على حُكمه، وكان لا يزال فتى في السابعة عشرة من عمره. عقب ذلك، تحكمت في البلاد أيادٍ خفية، مدة عام ونصف، هي الفترة التي تولى فيها "مصطفى" - الذي اشتُهر بجنونه وبكرهه للنساء - أمر البلاد. لا أدري إن لعبت "جمعية بابل" دورًا في إدارة الدولة، لكنني حين أحاول تحليل المسألة الآن، لا أجد الأمر مستبعدًا، فلديهم من النفوذ والسُلطة والمال ما يمكّنهم من السيطرة على جميع ممالك الأرض. لو لم يُظهِر "مراد" ذلك الغضب العارم، لربما أثارت الجمعية الفتنة وحرَّضت الانكشاريين على القيام بثورة، ليتسنى لها فرض سيطرتها على القصر.

اعتلى "مراد الرابع" العرش وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره. سرعان ما انقلب على الانكشاريين الذين أعانوه على عزل أخيه الأكبر "عثمان"، وتنصيبه بدلًا منه. في تلك الفترة، لم يعد الجيش الانكشاري عونًا في إدارة شؤون البلاد، بل أصبح غريمًا

t.me/qurssan

شرسًا، يدبّر المكائد ويحيك المؤامرات والدسائس. ولسوء الحظ، لم يعرف أحدٌ غيري أن كل الأحداث كان يُديرها أعضاء "جمعية بابل" بشكل سري، الذين أنفقوا أموالًا طائلةً في محاولاتهم لنشر الفوضــى والإطاحــة بالـدولة. لقـد ظنـوا أن بإمكانـهم فـرض سيطرتهم على "مراد"، كما فعلوا مع غيره من الحكام، لكنه حين تصـدى لـهم مكشـرًا عـن أنيابـه، تـراجعوا واضطروا إلـى تغـيير هدفهم.

تغير "مراد" خلال سنوات نموه، وتحول من أسدٍ حبيس يفتقر إلى القوة، إلـى بطـلٍ قـويٍ يتمتع بالشجاعة والبسالة. ارتبطت ذكريـــــــات أيــــــام طفولتـــــــــه

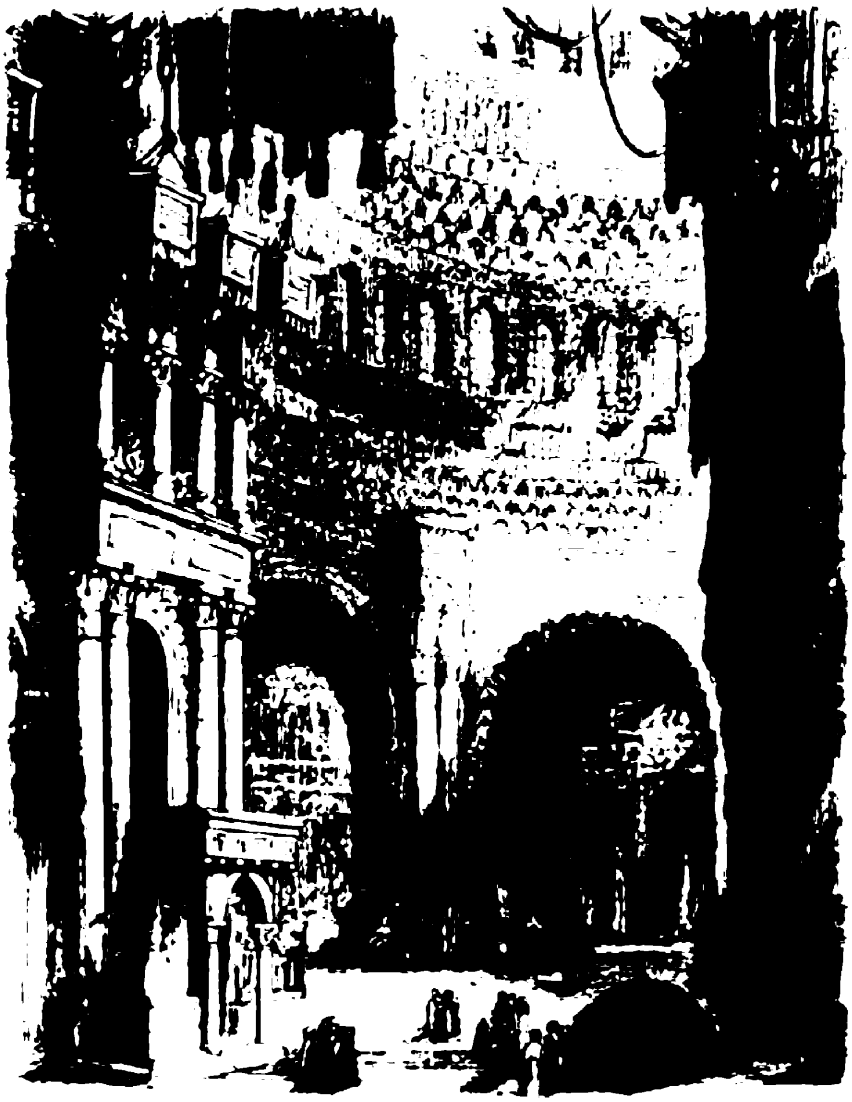

باضطهاد أخيه الأكبر "عثمان"، وغيره من كبار رجال الدولة. لم ينسَ تلك الأيام العنيفة والدماء التي أريقت فيها. ولّدت تلك الـذكريات الأليمة فـي نفسـه إصرارًا قـويًا علـى تنصيب نفسـه سلطانًا، والانتقام من قيادات الجيش الانكشاري. ولعامين كاملين،

t.me/qurssan

طاف كالإعصار، مدمرًا كل ما يقف في طريقه، وبدايةً، قام بحبس أمه السلطانة "مه بيكر كوسيم" في حجرتها، لينفرد بالسُلطة دون شريك.

أحسَّ أعضاء الجمعية بالأسى لفشلهم في مهمتهم. لم يدرك "مراد" أن قمعه للطموحات السياسية للجمعية، جعلته هدفًا لهم. لكن ما أخافهم ودفعهم للتراجع عن الانتقام منه هو خوفهم الشديد من قراراته الجريئة والحازمة، وبخاصة بعد أن أصدر أوامره بإعدام عددٍ من قادة الانكشارية في ميدانٍ عام.

صار الناس يرتعدون خوفًا عند سماعهم اسم السلطان "مراد"، وبخاصة الثوّار وعساكر الجيش. اعتمد السلطان الجديد نظامًا جديدًا لجنوده، يقضي بتوكيل مهامَ عديدة لهم، وعدم بقائهم في ثكناتهم. نتيجةً لعملهم وتدريباتهم المتواصلة، تمكن أفراد الجيش من تحقيق انتصارات متوالية، لعل أهمها حملة استعادة بغداد. كانت الدولة العثمانية تتأهب لاستقبال عصرٍ زاهٍ جديد.

بدأت صداقتي بـ"عُمَر نفعي أفندي" في تلك الأعوام. تعرفتُ إليه في السوق المغطاة. كان شاعرًا لا يخلو من النزق والرعونة، لكنه - مع ذلك - طيب القلب. اتصف أيضًا بالكبرياء الذي يصاحب القرويين عند اعتلائهم درجات السُلَم الاجتماعي. اشتهر بثلاثة أشياء؛ قصائد المديح، وغنائه لأشعاره، وكثرة ترديده للسباب عبر أشعار الهجاء! وجد "عمر نفعي أفندي" متنفسًا لهذه الأمور في المجلس الخاص بالسلطان "مراد"، حيث يُطلَب منه تأليف قصائد ساخرة حول رجال الدولة. استمتع السلطان بهذه الأشعار، لأنها كانت ترضي مشاعر الكراهية التي يحملها لرجاله. في فترات الاستراحة من الحملات العسكرية المتعددة، صار السلطان يعقد اجتماعات متنوعة في حدائق قصره. في أيام الجمعة، يلتقي أهل المعرفة والثقافة، ومطربي البلاط، والموسيقيين. خُصِصَت أيام السبت للشعراء، فيما كانت أيام الأحد للهو والمرح. والحقيقة أن المشروبات الروحية والتبغ التي حرّمها على الشعب، وعاقب من يستهلكهما بعقوباتٍ قاسيةٍ تصل إلى الإعدام، كانت موجودة في قصره بوفرة، ومتاحة للجميع.

t.me/qurssan

كان "نفعي أفندي" هو فاكهة هذه اللقاءات. يُضحِك السلطان، ويلقي قصائده الساخرة لتسليته. في المقابل، كان يحظى بامتيازاتٍ كثيرة، ويعامَل بكل حفاوة وتكريم، لكنه - مع ذلك - ظل يشعر بالقلق من اقترابه الشديد من الحاكم الذي لا يتردد في إصدار أوامره بقطع رقبة أي شخصٍ لا يعجبه؛ وفي الوقت ذاته كان "نفعي أفندي" يردد على الدوام:

- إذا لم يتمكن الإنسان من أن يعيش حياته الخاطفة كما يهوي، فمن الأفضل ألا يبقى على قيد الحياة أصلًا!

ولذلك، استمر "نفعي" في إرضاء غرائزه كما يحب.

اتسم سلوك "نفعي أفندي" وتصرفاته بالرجولة والحرية المطلقة. كان متحررًا من الإحساس بالعرفان لأي شخص. وكغيره من محبي الأدب، يتملكه إعجابٌ بالغ عند قراءته القصائد الغزلية التي نظمها سيدي "فضولي"، لكنه - على عكس الكثيرين - لم يكن يشعر بالغيرة من سيدي السابق وموهبته الفذة. في بعض الأحيان، كان يقول لنفسه وهو يردد تلك الأبيات:

- إنها عظيمةٌ حقًّا، لكنني كنتُ سأعبر عن هذا الموقف بشكلٍ مغاير، وبكلماتٍ مختلفة تمام الاختلاف..

ولهذا السبب تحديدًا، كنت أحمل له قدرًا هائلًا من الاحترام، يفوق ما شعرتُ به تجاه كل من عرفتهم. أما عن الحب في حياته، فلم يكن عفيفًا ولا عاجزًا، ولم يرتبط غرامه بالبؤس والشقاء، كما هو معتاد. تلذذ "نفعي" بالمتع الحِسِّية والجسدية، وحرص على استقبال الجواري في حجرته ليلًا، بسريةٍ تامة. خلال ملازمتي له، رأيتُ جوانب حياتية لم يسبق لي معرفتها، وبخاصة أن الأجواء في منزل "عطاء أفندي" كانت أسرية تمامًا. أما هنا، فالوضع مختلف.. الأنفاس محمّلة بالشبق والشهوة، والأجساد دافئة ومتعرقة. الرجل الخمسيني ذو البشرة السمراء، يلتقي بجميلاتٍ في العشرينيات. يغزو أجسادهن البضة، ويستمتع بملمس بشراتهن الناعمة، المتلألئة. كنتُ أشعر بالشفقة

t.me/qurssan

تجاه هذا الكهل وتلك الفاتنات الصغيرات، لأنهم لا يعرفون من الحياة إلا جانبها الحِسي فقط.

بالأمس، رأيتُ صاحبي السابق "عطاء أفندي". كان يتلو بعض أشعاره الغزلية في المجلس الإمبراطوري، بصوتٍ خافت ونبرات هادئة. التقيته أكثر من مرة، منذ افتراقنا، لكنه لا ينتبه لوجودي على الإطلاق، ولا يعرف أنني أصبحتُ ضمن ممتلكات صديقه "نفعي أفندي". تمنيتُ أن يلاحظ، لكن ذلك لم يحدث. بدا منشغلًا على الدوام، وشارد الذهن. سمعتُ أنه قد بدأ في نظم دواوينه الخمسة، التي كان يتمنى إصدارها منذ زمن، وسعدتُ بذلك.

مرَّ "عطاء أفندي" بسلسلةٍ من المشكلات، وعرف سوء الحظ طريقه. بدأ الأمر في الفترة التي قام فيها الانكشاريون بثورتهم، وسعوا للانتقام من السلطان "عثمان الثاني". في إطار الفوضى التي اجتاحت البلاد حينها، تعرض منزل "عطاء" لحريقٍ مُتعمَّد، مثل العديد من البيوت والمساكن. نهبَ عاملُ ميناء، تعود أصوله إلى جزيرة "كريت"، جميع ممتلكات المنزل الثمينة من ذهبٍ وفضةٍ وأوانٍ نفيسة، وأخذني أنا أيضًا، ثم باعني لتاجرٍ صغير. قام الأخير بعرضي في أحد مزادات السوق الكبيرة، واشتُريتُ بمبلغ ثلاثة تومن.

كانت عملية البيع والشراء مهينةً إلى حدٍّ كبير، وذكرتني بما عانيته في أيام العبودية. كنتُ قد نسيتُ تلك الأيام، واعتدتُ الاحترام والتوقير وحياة الرفاهية بين السلاطين والأثرياء.

بعد مرور شهرٍ كامل، أخذت الفوضى تتلاشى، وعاد الهدوء إلى شوارع إسطنبول، وبدأ الناس في الخروج من منازلهم وممارسة أنشطتهم المعتادة. في مزادٍ أقيم بالسوق المغطاة، اشتراني "عمر نفعي أفندي" بمبلغ اثنتين وثلاثين عملة ذهبية. دفع ثمني راضيًا، إجلالًا لذكرى سيدي "فضولي". في ذلك المزاد، حاول شخصٌ آخر شرائي. شعر بالغيظ عندما أدرك أنه لا يحمل معه سوى ثلاثين عملة ذهبية فقط، وأطلق سيلًا من السباب واللعنات. كان واحدًا ممن يسعون لسرقة تماثيل بابل الذهبية. لمحتُ اثنين من أعضاء

t.me/qurssan

الجمعية في ذلك اليوم. لم يشاركا في المزاد، واكتفيا بمتابعة أحداثه بانتباهٍ بالغ. لم يفاجئني ذلك. كل ما كانا يريدانه هو معرفة صاحبي الجديد. ولوقتٍ طويل، تساءلتُ: أكان سيدي الجديد عضوًا في "جمعية بابل"؟ تأكدتُ بعد مرور أشهر أنه لا يعرف شيئًا عن تلك الجمعية.

في تلك الفترة، لم ترغب الجمعية باقتنائي، وإنما أرادت فقط أن تتأكد أنني بين أيدٍ أمينة. كانوا لا يزالون يراقبونني، كي يتيقنوا من سلامتي، لكنهم لم يسعوا للاستيلاء عليّ. على الأغلب، كانوا يشعرون بالارتياح لوجودي مع شاعر، فقد يعمل على فك شيفراتي وأسراري الغامضة. كلما اجتمع الأعضاء، كل سبع سنوات، قيّموا الوضع وناقشوا مسألة شيفراتي السرية، وتساءلوا: أكان عليهم اتباع أساليب جديدة لحل ألغازي؟ تناولوا في أحاديثهم أمور الحروب العالمية، والصراعات الداخلية، وربطوا بينها وكيفية الوصول إلى هرم "بابل". لم يكن هدفهم الأساسي هو الحصول على الذهب، وإنما السيطرة على البشرية بأكملها.

في الفترة التي تم بيعي فيها من خلال المزاد، سمعتُ أنباءً مؤسفةً عن "عطاء أفندي"، ولم أكن قد رأيته منذ غادرت منزله. في خضم الفوضى والاضطرابات التي ضربت البلاد، تم اختطاف ابنته واغتصابها وبيعها في سوق العبيد. حين رأيته بعدها، عرفتُ كيف يمكن للحزن أن يحطم الإنسان. تسبب فقدانه لابنته في تغيره التام. لم يعد الشخص الذي عرفته. عكست قصائده الجديدة الآلام المضنية التي صارت جزءًا من حياته. تمنيتُ لو كان بإمكاني مواساته والتخفيف عنه.

لو علم "عمر نفعي أفندي" أنني أعود في الأساس لـ"عطاء أفندي"، لما تردد في إعادتي إليه على الفور. اعتاد أسيادي وأصحابي السابقون الكتابة على هوامش صفحاتي، أو على غلافي الداخلي، أو حتى بين سطوري في بعض الأحيان. في بعض المرات، كانوا يسجلون تواريخ ميلاد أبنائهم، أو المبالغ المالية التي استدانوها، أو يدونون تاريخ لقائهم بالسلطان. كانوا يكتبون أسماءهم أحيانًا، وكان هذا يغضبني ويشعرني بعدم احترامهم لي ولخصوصيتي،

t.me/qurssan

وهأنا أتحسَّر الآن على عدم كتابة "عطاء" أي كلمةٍ عليّ. حين أفكر في المسألة حاليًا، أجد أنه حتى الأبيات الشعرية التي كتبها بعضهم على هوامشي . والتي أزعجتني في وقتها - لها أهميةٌ كبرى، وقيمة عظيمة، فبواسطتها يمكن تمييز الناس الذين مروا بحياتي، وتركوا آثارهم في ذكرياتي. ما زلتُ أرى مَن سَكَبَ عليّ بضع قطرات من عصير البطيخ، ومَن بقيت علامات أصابعه وبصماتها على صفحاتي، وأستعيد نظراتهم المتأملة وهي تتمعن في منمناتي. يعد غلافي الداخلي سجلًا للمرات التي أُجِّرتُ فيها. كانت الصيغة كالتالي:

.أُجِّرَ هذا الكتاب مدة عشرة أيام، بمبلغ عشرة آقجة لليوم الواحد، للسيد "سراج عارف". حُرِّرَ في شهر رمضان 1011.

اعتادت العائلات العريقة في إسطنبول استئجاري، أو استئجار نسخٍ مني، للتسرية عن أنفسهم وضيوفهم خلال شهر رمضان، بقراءة أجزاءٍ من الحكاية كل ليلة، ثم مناقشة شتى الموضوعات المتعلقة بالأحداث. من خلال هذه الممارسة، أُتيحَ لي التعرُّف إلى العديد من الناس، ونشأت أجيالٌ كثيرة على أشعار سيدي "فضولي" المليئة بالعواطف الرقيقة.

هل أخبرتكم أن الشاعر "عمر نفعي أفندي" إنسانٌ طيب؟

عليّ أن أذكر ذلك، اعترافًا بفضله عليّ. لقد منحني أفضل تجربة حياتية يمكنني اختبارها. متى حدث ذلك تحديدًا؟ ربما عقب أن مزَّقت القوات الموالية لـ"حافظ أحمد باشا" جسد السلطان "مراد"، وباعت لحمه للناس في إسطنبول، تحت زعم أنه يشفي عددًا من الأمراض كالجذام وآلام المفاصل؛ أو لعل ذلك كان بعد وفاة الأمير "موسى جلبي"، الابن الثاني للسلطان "بايزيد الأول"، الذي أحبَّه الناس بعد أن انتشرت بينهم قصيدة الرثاء التي كتبها السلطان بنفسه:

"انطلق حبيبي في رحلة

وتلكأ "موسى" ولم يعد

t.me/qurssan

تلكأ "موسى" ولم يعد".

مع مولد ابنة السلطان "مراد الرابع"، التي أطلق عليها اسم "كايا"، تلاشت أجواء التشاؤم التي سادت البلاد، وانتشر الأمل بين الناس، مع البهجة التي صاحبت قدوم الأميرة الصغيرة.

أنهى "نفعي أفندي" عمله في الحسابات، في ساعةٍ مبكرة، ليتمكن من الذهاب إلى القصر. قبل مغادرته، مد يده وتناولني من مكاني في الدُّرج الخشبي، واصطحبني معه. لا أدري لمَ فعل ذلك، لكنني سررتُ بزيارة القصر الذي ابتعدتُ عنه منذ أربعين سنة، في العام الألف الهجري. تذكرتُ "روكال"، التي أخرجتني منه، فتساقطت دموعي حزنًا عليها.

منذ نشأته، اتّبع الجيش العثماني نظامين أساسيين، هما ما يطلق عليه بالتركية "بِزم" و"رِزم": فأما الكلمة الأولى فتعني "الإحياء والتجديد"، بينما تحمل الثانية معنى "معركة". مع تتابع القرون، وتوالي العصور المختلفة، تراجع النظام العسكري العثماني، ولم يعد أشهر ما يتميز به هو الإقدام والشجاعة، كما كان قديمًا، بل أصبح مرتبطًا بالتقدم الثقافي. لم تؤثر الهزائم الكثيرة، ولا الانتصارات المتباعدة، في نجاحه في تجديد الجوانب الثقافية للمجتمع. لاحظتُ ذلك خلال الاحتفالات التي صاحبت مولد الأميرة الجديدة، فتجمهر الناس للمشاركة فيها والاستمتاع بها، كان أمرًا جديدًا. لا يمكن تخيل حدوث ذلك في فترة حكم "سليمان القانوني"، قبل قرنٍ من الزمان. توزعت الاحتفالات في الميادين الرئيسية، وشاركت فيها النساء بحرّية وبهجة. استغل أسافل الناس الوضع، وأخذوا يتحسسون أجسادهن بحجة مساعدتهن على النزول من الأراجيح المنتشرة في كل مكان؛ ولولا خشية الناس من قسوة النظام السلطاني، لساءت الأمور وانعدم الأمن في الشوارع والطرقات، خلال تلك الأيام.

لاحظتُ أيضًا ازدياد حب الناس لشتى صنوف التسلية، وما نتج عنه من ابتكار العديد من وسائل اللهو الجديدة. فقد انتشرت بين

t.me/qurssan

العامة فنون التمثيل الصامت، والأكروبات وألعاب التوازن والخِفة.

عقب انتهاء صلاة الظهر، استعدّتْ الفرق الموسيقية الإمبراطورية لمواصلة معزوفاتها، وتأهب سكان القصر لمشاهدة عرض "لاجري حسن"، الذي جهز صاروخًا بسبعة أجنحة، ثم استعد للطيران به عبر إحاطة جسده بخمسين أوقية من البارود. وقف مساعدوه حوله، لمعاونته في الانطلاق جوًّا. هتف "لاجري حسن" مخاطبًا السلطان:

- أستودعك الله يا مولاي. إنني في طريقي للقاء المسيح عليه السلام.

انطلق بصاروخه، تصحبه صيحات الفزع. احتضن عدد من الحضور بعضهم البعض في خوف، فيما هتف آخرون في حماسةٍ وسعادة. كانت تلك هي الرحلة الفضائية الأولى في التاريخ. شجع بعض أعضاء المجلس الإمبراطوري هذه الخطوة، فيما خشي البعض الآخر أن تكون تحديًا لإرادة الله، وتوقعوا أن يرميهم الله بالحجارة، عقابًا لهم. أحزنني تفكيرهم، وأعجبني ما فعله "لاجري حسن"، فأنا الوحيد الذي يعلم أن الرحلات الفضائية بين المجرات ستكون جزءًا اعتياديًّا من المستقبل، كما تؤكد الدراسات القديمة لـ"جمعية بابل".

في تلك الفترة، أحزنني أيضًا ما سمعته عن عقاب قساوسة الفاتيكان لعالِمٍ يدعى "جاليليو". بلغني كذلك أنهم أحرقوا كتبه ومؤلفاته.

أما في إسطنبول، فآلمني أن يوجد مؤيدون لـ"قاضي زاده" وأحكامه المتشددة وآرائه المتطرفة، يتعاملون مع الإسلام بطريقةٍ متحجرة.

كان أكثر ما أسعدني في حكاية "لاجري حسن" هو حرصه على القراءة في مجال علوم الفضاء بتوسع، رغم أن ما سيقدمه هو مجرد عرضٍ للتسلية؛ لكنه - مثل الغالبية العظمى من رجال العِلم -

t.me/qurssan

لم يكن يحب الشِّعر والأدب. قلتُ لنفسي: "لو كان يحب الشِّعر، ولو قليلًا، لسعى لقراءتي. ربما مكّنه ذلك من ملاحظة شيفراتي وحلّها بسهولة، وعندها كان سيتوصل لأسرار "آكيلدان" في عِلم الفضاء، وكان سيصبح أكبر المستفيدين منها".

خشي الحضور أن يتمزق جسده إلى أشلاء عند طيرانه بذلك الارتفاع. كنتُ مطمئنًا إلى عدم تعرضه لمكروه، ومتيقنًا من عودته سالمًا. عندما وصل إلى أقصى ارتفاعٍ له، فرد جناحيه الكبيرين المصنوعين من ريش النسور، وحلّق في السماء، قبل أن يهبط ببطء على سطح الماء القريب من القصر. سبح إلى أن وصل الشاطئ، ثم وقف أمام السلطان، والماء يقطر منه، قائلًا:

- مولاي، المسيح عليه السلام يُقرِئ عظمتكم السلام!

للأسف الشديد، لم يكافئه السلطان "مراد" سوى بصُرّةٍ من العملات الذهبية، وبمنحه لقب "فارس" في الجيش العثماني. لو أنني أستطيع الكلام، لقلت:

- مولاي السلطان المعظم، ينبغي لجلالتكم تأسيس أكاديمية عِلمية، تساعد هذا الرجل وغيره على مواصلة الأبحاث والدراسة. إن هذا الرجل يا مولاي يحمل حياتي وقدَري بين يديه.

ولكن أيّ رد فعل سيقابَل به مثل هذا الطلب من "شيخ الإسلام يحيى أفندي"؟ وهو من شجّع السلطان على هدم مرصد "تقيّ الدين" دون إبطاء، لأنه مكانٌ يمتلئ بالأرواح الشريرة!

تطلب اهتمام شيوخ الدين وكبار رجال الدولة بالعلوم وقتًا طويلًا جدًّا. استمر الناس في الاعتماد على المدارس الدينية في تحصيل العِلم، بينما كانت الدول المسيحية تفتتح المعامل والورش والمدارس وكليات الهندسة وغيرها. استحالت المنابر إلى حلبات صراع بين شيوخ الإسلام والأئمة من جهة، وقادة الحركات الصوفية من جهةٍ أخرى. هاجم "قاضي زاده محمد أفندي" حركتيَ الخليوية والمولوية، بشكلٍ سافر، واتهم المنضمين إليهما بالفجور والخروج عن القانون. استجاب السلطان

t.me/qurssan

"مراد" لذلك، بأن منع تناول الأفيون وتدخين التبغ، المنتشرين في أوساط الصوفية، منعًا تامًّا عن جميع الناس. تواصل العداء بين رجال الدين والصوفيين، وفضّل الطرفان تبادل الإهانات على الدخول في مناقشات ومناظرات عِلمية ودينية.

عقب نجاح "لاجري حسن" في الطيران، تبارى الشعراء في تأريخ الحدث، وسعوا جميعًا لنيل تكريمٍ ماديّ من السلطان نظير ما فعلوه.

عندما انتهى النهار، وحل الظلام، وبدأ الضيوف في مغادرة القصر عبر بوابته الأخيرة، قرر "عمر نفعي" أن يرتجل أبياتًا يلقيها على كل من يمر به في طريقه إلى الخارج، ويتلقى إجابةً منه عليها. كان من بينهم "عطاء أفندي" والخطاط الشهير "جيفري جلبي"، و"شيخ الإسلام يحيى" والمفتي السابق "شيخ الإسلام بهاء أفندي"، والمنجّم "محمد جلبي"، ومطرب البلاط "درويش عمر أفندي"، و"هزارفن أحمد جلبي" الذي قفز من برج "جالاتا" بجناحين مربوطين في ذراعيه، والذي نفاه السلطان إلى الجزائر في فترةٍ لاحقة. كان آخر من غادر البوابة هو "محمود عزيز هُدائي أفندي"، والدرويش الصوفي "يطمِش كروش ديدي"، والأخير صديقٌ مقرَّب لـ"بكري مصطفى" الشهير بالـ"سكّير"، والذي يقال إنه هو من عرّف السلطان "مراد الرابع" إلى الخمور.

"نفعي أفندي" الذي تعامل مع ضيوف القصر بمرحٍ كبير، ومازحهم برباعياته المرتجلة، شعر بالوجل صبيحة اليوم التالي حين وصلته أنباء وضع "سولون موسلو" داخل جِوال، وإلقائه في المياه لكي تتغذى عليه الأسماك. تساءل في قلق عن طبيعة الجُرم أو الخطأ أو الهفوة التي ارتكبها الرجل، لكي تكون نهايته على هذه الشاكلة. ثم تذكر بغتةً القصيدة التي ألقاها "موسلو" على السلطان في اليوم السابق.

منذ أن ضرب البرق السلطان "مراد"، في الربيع الماضي، خلال قراءة "سهام القضاء" لـ"نفعي"، تعامل السلطان مع القصائد الساخرة بقلق، واعتبرها نذير شؤم. بعدها، أقسم "نفعي" على

t.me/qurssan

عدم نظم هذا النوع من الشِّعر ثانيةً، أبدًا. لكنه فشل في البر بقسمه، ولم يستطع منع نفسه من إلقاء قصيدته الجديدة التي يسخر فيها بشكلٍ مُهين من كبير الوزراء "بيرم باشا". خلال ساعات، انتشرت القصيدة بين مختلف الأوساط.

عُرِف "نفعي أفندي"، طوال حياته، بجرأته البالغة. لم يسلم من لسانه الحاد وسخريته اللاذعة أي شخصٍ في إسطنبول، وبخاصة من يرتكبون أخطاءً فادحة، أو يأتون تصرفاتٍ غير لائقة. احتفى بقية الشعراء بقصائده، لأنها أبلغ ردًّ على الاتهامات التي يرددها بعضهم من أن الدولة العثمانية تمنع توجيه النقد، منعًا باتًّا، واستقبلوا عمله "سهام القضاء" بترحابٍ كبير. امتلأ هذا الكتاب بقدرٍ عظيم من الاستهزاء بجميع المشاهير في فترة السلطان "مراد"، من رجال الدولة والفنانين وغيرهم. وصفه "طاهر أفندي"، بغضبٍ وحنق، بـ"الكلب مفلوت اللسان"، فأجابه بأبياتٍ شِعرية:

"يصفني "طاهر أفندي" بالكلب

وهو مديحٌ واضحٌ يسعدني

فلأنني أتبع المذهب المالكي

فإن الكلب "طاهر" غير نجس".

تولى المفتي الشهير "شيخ الإسلام يحيى أفندي" الرد على الشاعر، ببضعة أبيات ظاهرها المديح والثناء:

"بين شعرائنا المتميزين

ذوي الألسنة الفضية

لا أحد يضاهي "نفعي"

قصائده تنافس المعلقات

وهو "امرؤ القيس" الكافر نفسه".

ولوقتٍ قصير، أثارت هذه الأبيات ضحك جميع من تعرضوا

t.me/qurssan

لهجوم "نفعي أفندي"، فأن يصف المفتي شخصًا بالكافر ويخرجه من مِلَة الإسلام، هو أمرٌ غير هيّن على الإطلاق؛ والأدهى أن يشبّه كلمات "نفعي أفندي" بالمعلقات التي كُتِبَت في العصر الجاهلي، ما يعني أنها بدورها تفتقر إلى روح الدين والإسلام.

سرعان ما انقلبت الآية، وبدأ الناس في التندر بشيخ الإسلام، عقب ما سمعوه على لسان "نفعي أفندي"، من أبياتٍ تتسم بالفطنة:

"وصفني المفتي بالكافر

وأصفه أنا بالمسلم

لكننا سنكتشف في يوم القيامة

بأن كلينا ليس على حق".

في ضحى أحد الأيام، أنهى "نفعي أفندي" عمله في مكتب المحاسبة، وتأبطني متجهًا إلى القصر. جلسنا حول المدفأة، مع غيرنا من الضيوف، وانهمك في مناقشاتٍ جادة معهم. في الليلة السابقة، غازلَ إحدى الجواري. كان كل ما يرغب فيه حينها هو تبادل الحديث معها، ثم الاستسلام للنوم بين ذراعيها، لا أكثر، لكن المرأة الشابة رمقته بسخرية واستهزأت بشيخوخته، ثم تركته وحيدًا. من شدة غيظه، تناول "نفعي" بضع كؤوس من الخمر، في صحة "بكري مصطفى" السكير الشهير.

صباحًا، استيقظ شاعرًا بصداع، ولكي يتناسى آلام رأسه تناولني وفتح الصفحات التي تصف ذهابي إلى مكة وتعلقي بأستار الكعبة. شعر بغتةً بحنينٍ جارف لزيارة الكعبة. داخَله الندم على السنوات التي أفناها في الذم والقدح والتشهير بالآخرين، وقرر من فوره أن يرتب لرحلةٍ إلى مكة، يتوب فيها ويتطهر من ذنوبه. قرأ المزيد من أبياتي بتأثرٍ واضح، وانهمرت دموعه في أسى.

ومثل المعتاد، تجدد إحساسي بعذاب فراقي لـ"ليلى"، عند قراءته أبيات الكعبة؛ لكنني في هذه المرة، داخلني شعورٌ غامض بأنه

t.me/qurssan

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يوشك على الوقوع في مصيبةٍ كبيرة. راح يدعو الله بكل حرارة، ويبتهل في دعائه بصدق. فجأةً، فُتِحت الأبواب الخارجية بقوةٍ مخيفة، ثم أغلِقت بالقوة نفسها، ودُقَّ باب حجرة "نفعي" بعنفٍ متواصل. اقتحم رجال "بيرم باشا" الغرفة، وضربوا "نفعي أفندي" وأسقطوه أرضًا، ثم جروه بينهم مغادرين. راقب الخدم والجواري . ومن بينهم جارية الليلة الماضية - ما يحدث بمزيجٍ من الفزع والشفقة، وأدركنا جميعًا أننا لن نراه ثانيةً، وأننا سنفتقد إلى الأبد وجهه البشوش ودعاباته وضحكاته المجلجلة.

عرفتُ لاحقًا أنه قد شُنِقَ داخل مخزن أخشاب التدفئة في القصر، ثم أُلقيت جثته في مياه البحر، تنفيذًا لتوجيهات "بيرم باشا"، الذي بلغت مسامعه الأبيات التي انتشرت بين الناس:

"بفِعل سهام القضاء، هوى نجمٌ من عليائه

سيتحمل نفعي لعنةً إلهيةً بسبب أشعاره".

في الفترة الأخيرة من حياته، انقسمت مشاعر الناس تجاهه، فمنهم من أيّد كل ما يقول، ومنهم من كرهه وصب اللعنات عليه وعلى أشعاره. قبيل إعدامه بقليل، عرض عليه كبير الخصيان تقديم التماسٍ للسلطان، يطلب فيه العفو عن الشاعر:

. يمكنني إنقاذك، بكتابة ذلك الطلب. ما رأيك؟

لم يكن بإمكان "نفعي" الرفض. أبدى موافقته على الفور. أحضر الخصي، ذو البشرة شديدة السواد، ورقةً وقلمًا من الغاب، ودواة حبرٍ أسود. بدأ يخط رسالته، وبعد بضعة سطور انفلتت من القلم بقعة حبر لطخت الورقة. لم يستطع "نفعي" كبح جماح رغبته الدائمة في الهزل، فقال ممازحًا:

ـ أظن أن قطرةً من عَرَقكم الأسود قد سقطت على الورقة يا سيدي!

أجابه الخصي بغضبٍ شديد:

ـ أيها الكلب الحقير! إنك فعلًا تستحق الإعدام!

t.me/qurssan

لم أخرج مع "نفعي أفندي" إلا في مراتٍ قليلة، ولم يتِح لي قط فرصة البحث عن "ليلى". لكنني أحببته بسبب إعجابه الصادق بموهبة سيدي "فضولي"، على الرغم من أنه كان يرى أن بعض أشعاره عاطفية أكثر مما ينبغي. كان اصطحابه لي إلى القصر، بعد انقطاعي عنه سنواتٍ طويلة، سببًا كافيًا لأتذكره بكل خيرٍ ومودةٍ على الدوام، وسوف تبقى أبياته الأخيرة عالقةً في ذهني إلى الأبد:

"أيها القلب! ليس هناك رجل محترم في هذا العالم

وحتى لو وُجِد فسوف يبقى وحيدًا

إن كنتَ تتمتع بالحكمة فلا تحزن

على هذا العالم لأنه غير مثالي".

لقد اختصرت هذه الأبيات رؤيته للحياة، ولخصت مفهومه عنها.

t.me/qurssan

22حول العالم مع "أوليا جلبي" والملل في قلعة "سيليسترا"

أسعِد يا إلهي من كسروا قلبي الحزين

وأرضِ كل من يتمنون لي الإخفاق

(نائلي)

أنا "قيس". أنا العبد الرائع لسيدي "فضولي". أنا العاشق الذي يحمل بداخله أسرار حكماء "بابل" وآلهتهم.

كنت قد بدأت اعتياد راحة البال ونسيان "جمعية بابل"، حين خنقوا "نفعي أفندي" داخل مخزن الأخشاب في القصر؛ وكما سبق لهم أن فعلوا مع "روكال"، ألقوا جثته في "البوسفور"، لتحملها المياه إلى بحر "مرمرة".

غادرتُ إسطنبول مع بدء العمل في إنشاء ميناءٍ ضخم، يبدأ من النقطة التي ألقِيَت فيها الجثتان. كان ذلك مع نهايات شهر أكتوبر وبدايات شهر نوفمبر، حيث البرودة الشديدة. تجمدت المياه في

t.me/qurssan

نهر "الدانوب" حول سفينتنا الشراعية الكبيرة، وكنا نحاول صد الهجمات والسِّهام النارية التي أطلقتها علينا جماعةٌ من القراصنة، هدفهم الأول - بطبيعة الحال - هو الاستيلاء عليَ. لا أدري كم مرَّ عليَ من سنواتٍ؟ وكم مرةً اجتمع أعضاء "جمعية بابل" لمناقشة أمري؟ لم أعد أتذكر كم مرة تساقط الثلج علينا منذ بدأت رحلتنا؟ ولا كم مرة تفتحت زهور البنفسج خلالها؟ والآن، بينما أمضي وقتي في رفقة "أوليا جلبي"، فإنني حين أفكر في إسطنبول، يتراءى لي أنها قد شاخت وتقدم بها العمر، وأدرك عندها بأن معظم معارفي قد رحلوا إلى العالم الآخر. الحزن بداخلي خالدٌ إلى الأبد.

سافرتُ داخل صندوقٍ صغيرٍ، بصحبة "أوليا" العزيز، الذي أخذني معه أينما ذهب. وضع معي داخل الصندوق، بضع مخطوطاتٍ شِعرية، وعددًا من الكتب التاريخية بالتركية واليونانية والعربية، وبعض الخرائط الجغرافية، وأوراقًا مختلفة الأنواع، وأقلامًا من الغاب، وبعض الحبر، بالإضافة إلى سكين ذات نصلٍ حادّ تُستخدم في تشذيب الجلد. كان يضع الصندوق على ظهر ناقته أحيانًا، أو على السرج الخلفي لبغله أو حصانه أحيانًا أخرى.

عثر عليَ الجندي الانكشاري، الذي كُلِّف بتفتيش منزل "نفعي أفندي"، عقب شنقه. أخذني، مع بعض الأعمال الأدبية القيّمة، وقدّمني هديةً لـ"كايا"، ابنة السلطان "مراد". قامت بدورها بإهدائي إلى زوجها "ملك أحمد باشا"، لتسعده. لكنه أعلن:

. سبق لي قراءة هذه الحكاية!

ناولني بعدها إلى قريبه "أوليا جلبي"، الذي كان موجودًا معهما أغلب الأوقات، ودسني الأخير داخل حقيبته الجلدية على الفور. يمكنني القول إنني عرفتُ أسعد رحلات حياتي، منذ تلك اللحظة. امتدت الأيام في رفقته لتصبح شهورًا، وأصبحت الشهور أعوامًا، وأضحت الأعوام عُمرًا طويلًا، وخلالها توقفنا لبعض الوقت في بلاد ما بين النهرين. ذلك موطني الفعلي. نشأتُ على ضفاف ذلك النهر، وعرفتُ فتاةً ذات شعرٍ فاحم السواد، وعينين كحيلتين

t.me/qurssan

تفيضان جاذبية. تهدم منزلها، ولم يبقَ منه سوى أطلال.

امتزجت دموعي الغزيرة بمياه نهر "دجلة". بكيتُ ذكرياتي البعيدة، وسعادتي القديمة حين أوشكت حبيبتي على ملامستي بشفتيها. حاولتُ أن أحصي السنوات التي أنفقتها في البحث عن عينيها ونظراتها الآسرة.

واصلنا طريقنا بعدها، وقطعنا مسافاتٍ كبيرة، رأيت خلالها الكنيسة التي كان والد "روكال" يقرع أجراسها. لعنتُ الليلة التي اختبأنا فيها داخل جذع شجرة الجوز العجوز. طفتُ بعينيَ باحثًا عن أي شخصٍ يشبهها، في تلك البقعة من الأرض، علّه يكون أحد أقاربها.

انتابني شعورٌ بأنني من أهل الكهف، الذين استيقظوا بعد 300 عام من السبات العميق، ليجدوا أن العالم قد تغير تمامًا. سافرتُ إلى "الموصل" وأنا بين يديّ "أوليا"، واخترقتُ الأراضي الشاسعة في بلاد ما بين النهرين، واستمتعتُ بالنسمات المنعشة على ضفاف "دجلة"، في موطن البابليين والكلدانيين. رافقتُ الجماعات الاستكشافية التي رأسها "ملك أحمد باشا"، بغرض جمع معلومات عسكرية. أخذتني ذكرياتي إلى قصور "نبوخذ نصر"، وبقايا آثار معبد "عشتار" الذي يضم المعلومات التي دوّنها رجال الدين في "بابل" حول عِلم الفضاء. حاولتُ أن أتخيل شكل المعامل العلمية التي أجروا فيها أبحاثهم وحساباتهم المتعلقة بمواعيد الرحلات الفضائية في المستقبل. تراءى لي أنني أرى وجوه أولئك العلماء السبعة حولي، وأنني أعرفها تمام المعرفة. تسبب عِلمي في أن التراب الذي تطَؤه حوافر الحصان الذي أركبه، هو التراب نفسه الذي تقع عليه أسرار الحكيم "آكيلدان، في انتشار مشاعر الأسى داخل روحي. لمحتُ الحجر الغامض الذي يزوّد الأقراص الطينية السبعة - التي تضم جميع المعلومات والأسرار - بالطاقة الشمسية. تغيَّر شكله عبر القرون، صار سطحه خشنًا وغدت ألوانه باهتة، لكن بريقه لم يخفت في بعض المواضع.

t.me/qurssan

لو كنتُ يومها أمتلك خنجر رأس "سيروش" معي، لاستخدمتُ الأرقام المحفورة عليه والشيفرات التي تركها بداخلي سيدي "فضولي" في حل اللغز. كنتُ سأساعد "أوليا جلبي" أو "ملك أحمد باشا" في العثور على تماثيل الآلهة الذهبية. لكنني - وبكل أسف - لم أبقَ طويلًا في أرض "بابل".

حين غادرنا تلك الأراضي، تاركين وراءنا حطام "برج بابل"، الذي أصبح مأوى للضباع والأسود، عذبني إحساسي بأنني فقدتُ فرصتي في العثور على "ليلى" والالتقاء بها من جديد. كنتُ أود الوصول إلى قبرها، لأستمتع بشذا الأزهار التي تنمو عليه، ومنظر الحشائش المحيطة به. أردتُ رؤية أي شخص في ديارها، كي أقبّل يده. لا بد أن الناس هناك ينحدرون من سلالتها، ويمتُّون لها بصلة قرابة، ويحملون في قلوبهم الحب نفسه الذي ملأ جوانحها.

كانت رحلتنا مغامرة تمتلئ بالحماسة والإثارة. كنتُ أفتش عن الحب.. عن حبي. قد لا تتناسب هذه الحماسة الشبابية مع وضعي الحالي، الذي يعاني القِدَم والاهتراء، لكن رغبتي في تقبيل أي شيء قد يكون على صلة بها، ظلت قائمة. إنه الشعور الذي رافقني منذ أن قطفتني بأصابعها، حين كنتُ لا أزال ثمرة فراولة. كنتُ كجندي في الجيش الانكشاري، المنطقة بأكملها مِلكي، وجميع البلدان بلادي؛ لكنني مع ذلك لم أمتلك حرية الاستلقاء على ضفة النهر والاستسلام للبكاء كما أودُّ. ولم أستطع رؤية من حولي بسبب طيف "ليلى" الذي لازمني طوال الوقت. جرَّني "أوليا" إلى عالمه المليء بالرومانسية والإثارة، دون أن أدري. كانت الحياة معه، حتى حين نكون في البرية وقسوتها، ممتعةً للغاية.

"أوليا" هو ابن "درويش محمد ظِلّي"، جواهرجي البلاط العثماني، ووالدته هي إحدى قريبات "ملك أحمد باشا". وعلى الرغم من أن جذور "أوليا" تعود إلى "كرمايان"، إحدى إمارات الأناضول، فإنه إسطنبولي حتى النخاع. اشتُهر بين الناس بلقب "جلبي"، والواقع أنه يحمل جميع صفات تلك الكلمة التركية التي تشير إلى الرقي والتهذيب.. من لطفٍ شديد، وثقافةٍ أدبيةٍ وشِعرية، وسموّ، وطيبة

t.me/qurssan

قلب، وصدق وأمانة، وجرأة وشجاعة. عند بلوغه التاسعة عشرة، بدأ في استكشاف إسطنبول التي عشقها، شِبرًا شِبرًا. راقب كل ما حوله بانتباه وبرغبةٍ صادقةٍ في التعلم والاستفادة. أراد أن يسافر إلى كل مكان، وأن يرى كل شيء.

قبل ثماني سنوات، رأى حلمًا في ليلة القدر، التي توافقت مع شهر أغسطس شديد الحرارة في ذلك العام. في تلك الرؤيا، كان يصلي خلف شخصٍ عظيم، وسط حشدٍ من الصالحين. عندما انتهت الصلاة، عرف أن ذلك الشخص هو النبي "محمد"، صلى الله عليه وسلم، وأن من يجلسون بجانبه هم الخلفاء الراشدون. قفز من مكانه مسرعًا، ليحظى بشرف تقبيل يد الرسول، صلى الله عليه وسلم. ركع أمامه في تبجيل، وأراد أن يقول شيئًا، لكن لسانه لم يطاوعه. حين تكلم، لم يستطع قول: "الشفاعة يا رسول الله"، كما أراد؛ وقال عوضًا عن ذلك: "السياحة يا رسول الله".

وفقًا لرؤياه، فقد منحه النبي - صلى الله عليه وسلم - بركاته وبشَّره بالسفر، كما قام الصحابي "سعد بن أبي وقاص"، أحد العشرة المبشرين بالجنة، بتقديم نصيحةٍ لـ"أوليا"، مفادها تسجيل مشاهداته.

ذكر "أوليا" ذلك الحلم وتأويله في الفصل الأول من كتابه "سياحتنامه" (أو "الرحلات") الذي انتهى من كتابة سبعة أجزاء منه حتى اللحظة، وأتوقع أن يبدأ الجزء الثامن من هذا المؤلَّف بذِكر حادثة هروبنا من المجرمين الذين حاصروا سفينتنا.

تلخصت خطة "جلبي" في رحلاته في زيارة كل رقعة من الأراضي العثمانية، والارتحال إلى مختلف المدن التي تقع وراء الحدود. والحقيقة أن المسألة لم تخلُ من الجنون. تعرَّف إلى عددٍ كبيرٍ من المسافرين في الخانات واستراحات القوافل، وأصغى باهتمام إلى حكاياتهم وقصصهم - الملحمية في بعض الأحيان. كما اختلط بالناس في الأسواق، واستمع إلى لغاتهم ولهجاتهم المتنوعة. في بعض الأحيان، حلَّ ضيفًا على قصور الأثرياء والموسِرين، وفي أحيانٍ أخرى، أمضى لياليه مع تجمعاتٍ من

t.me/qurssan

البسطاء في قِلاعٍ مهجورة، وهم يتدفؤون حول النار.

أحبَّ البقاء في المدن الساحلية والموانئ، وزيارة الآثار، وتدوين مشاهداته وملاحظاته بانتظام. سار على قدميه، حاملًا أمتعته بيديه، في بعض المرات؛ والتحق بركب بعض القوافل في مراتٍ ثانية. كان يحقق حلمه باستمتاعٍ وبهجة. طاف بأماكن كثيرة؛ الأناضول، والبلقان، والبحر الأسود، وجنوب روسيا، والقوقاز، و"منغوليا" حيث نشأت حبيبتي "روكال"، وأرض الشيشان، وبلاد الأكراد، وبلاد ما بين النهرين، وإيران، وغيرها من المدن والبلدات والمقاطعات والمناطق. زارها جميعًا، متحليًا بالصبر وحب المعرفة. سجّل معلومات كثيرة جدًّا عن الشعوب المختلفة. كتبها على أوراق، ثم خاطها معًا حين انتهى، وألصقها في مجلداتٍ منفصلة. لم يخلُ عمله من الطرائف والنوادر، والعادات والتقاليد، وأسماء السلاطين والملوك والحكّام في كل بلدٍ. سرد حكاياتهم كما لو كانوا من أصدقائه القدامى، ولم يغفل عن ذِكر العِبَر المستخلصة من قصصهم.

عرفتُ من خلاله أمورًا كثيرة في شتى المجالات.. مثل ظهور الرهبان عقب سلسلة من جدليات التثليث بين المسيحيين الرومان، وكيف تتحكم العلاقات بين الدولة والدين في اختيار رجال الكهنوت، وكيف يؤثر ذلك بدوره في عامة الناس. عرفتُ أيضًا لماذا يلجأ الناس في البلدان الواقعة تحت الحكم الروماني للهروب إلى الجبال، والعَيش في عزلة عن غيرهم، بدلًا من الانخراط في الحياة العامة وممارسة العِلم والتجارة. حدث انفصالٌ ديني بين الناس، نسوا معه إنسانيتهم وأمست حياتهم وحشية وعنيفة. ارتبطت الملابس بإعلاء الفرد وإظهار التميز، ولذلك اختار بعضٌ ممن سكنوا الجبال النائية أن يبقوا عراةً. من ضمن النسّاك الزاهدين الذين خلّدتهم شهرتهم الواسعة، القدّيس "سمعان العامودي". التحق بسلك الرهبنة في سوريا، حين كان راعيًا للأغنام وهو في الثالثة عشرة، واختار أن يعيش حياته في تزمتٍ بالغ القسوة. بعد فترة، قيّد نفسه إلى أحد الجبال الواقعة بالقرب من "أنطاكيا"، مدة ثلاثين سنة، واصلَ خلالها التعبد،

t.me/qurssan

والركوع 2222 مرة يوميًا، أيًّا كانت الظروف أو الأجواء. انتشرت قصته بين الناس، وأصبحت شهرته عالمية، تردد عليه الزائرون من أماكن بعيدة كالهند وأوروبا، ساعين لنيل بركاته. كما زاره ملوك الفرس والعرب، بالإضافة إلى الإمبراطور الروماني "ثيودوسيوس". بعد وفاته، اجتمع بطريرك "أنطاكيا" مع حاكم المنطقة الشرقية، وستة من أشهر الأساقفة، بالإضافة إلى عشرين قاضيًا، وستة آلاف جندي، وأنزلوا جميعًا جثمانه من أعلى الجبل. ولبعض الوقت، خُبِّئ ذلك الجثمان في مكانٍ سرّي، بنيّة المساعدة في هزيمة أعداء الدين.

امتلأ كتاب "سياحتنامه" بمثل هذه المعلومات، التي صاغها "أوليا" بأسلوبٍ شائق، نجح في اجتذاب القارئ. ربما كان سرده لقصة حياة "بوذا" من أكثر ما كتب تشويقًا.

ظلت الملكة "مايا"، زوجة الملك "سودودانا"، عاقرًا سنواتٍ طويلة، لكنها أنجبت مؤسس البوذية بعد سنواتٍ من العبادة والدعاء. تنبّأ ناسكٌ من الهيمالايا بأن الطفل سيصبح رمزًا دينيًّا مؤثرًا عندما يكبر. استاء والده الملك من هذه النبوءة ولم تعجبه على الإطلاق. اجتمع بمستشاريه على الفور، طالبًا منهم إعداد صغيره لكي يصبح وريث عرشه مستقبلًا. وبناءً على ذلك، حُجِبَ كل ما مِن شأنه أن يثير انزعاج الصبي أو حزنه، والتركيز فقط على الأمور المبهجة، والإفراط في تدليله؛ لكنه حين مرّ بجنازةٍ في أحد الأيام، فهم معنى زوال الشباب والصحة، وأدرك أخيرًا أن الحياة فانية، فاختار العزلة لبعض الوقت للتأمل والتدبر في أسرار الحياة الغامضة، ولتطهير نفسه من جميع الاهتمامات المادية والدنيوية. أجبر نفسه على الخضوع لحياةٍ من القسوة والحرمان. بدأ الناس يطلقون عليه لقب "شاكياموني"، أو "حكيم قبيلة شاكيا"، وهي القبيلة التي وُلِدَ فيها. ولشهرين ونصف، جلس على أعلى شجرة بالمنطقة، وهو في حالة "نيرفانا"، أو في حالة انفصالٍ تامٍّ بذهنه وجسده عن كل ما حوله من مؤثراتٍ خارجية. وبينما هو يتأمل البدر على ضفة نهر الـ"جانج"، وكان حينها في السادسة والثلاثين، أحس بأن الغلالة المحيطة بقلبه قد بدأت في

t.me/qurssan

الارتفاع تدريجيًا، مفسحةً المجال للعِلم والحكمة والمعرفة. شرع في تلك اللحظة في وضع أسس البوذية، وطوَّر تعاليمها شيئًا فشيئًا.

أورد "أوليـا" هـذه الحكايـة فـي كتابـه، موضحًا تـأثير البوذيـة ومؤسسها في العالم بأسره؛ كما قارن بين "بوذا" و"إبراهيم بن أدهم"، أحد أعلام التصوف السني، الذي هجر رفاهية حياة عائلته التـي جمعـت بـين الثـراء والعراقـة، واختـار حيـاة الزهد والعمل الشاق.

امتلـك "أوليـا" موهبـة القَص والسـرد، وتمكـن مـن السيطرة على قرائه عبرها. أورد أيضًا في مؤلفه واقعة انتصار "ملك أحمد باشا" على "عبدَل خان"، حاكم منطقة "بيتليس" في جنوب شرق تركيا. كان من ضمن ممتلكات الـ"خان" التي صُودرت العديدُ من قطع الأثاث والمفروشات الفخمة، بالإضافة إلى ثمانية صناديق كبيرة من الكتب.

مما شهدته أيضًا خلال رحلاتي الطويلة مع "أوليا جلبي"، المواقف المتناقضـة للمنتمين لحركة "قاضي زاده وأتباعه"، وهي حركة سلفية دأبت على محاربة البدع الصوفية. اشترى رئيسهم "قاضي زاده محمد أفندي" "الشاهنامه" للـ"فردوسي" بثمنٍ باهظ، في أحد المزادات الإمبراطورية، ثم عمد إلى تشويه جميع المنمنمات التي يحتوي عليها الكتاب، بسكينٍ حاد، لإيمانه بأن الرسم والتصوير مـن الأمـور المحرمـة دينيًا. مـن ضـمن أسـاليبهم المخادعة، بيع الأخشاب الرطبة للناس على أنها صالحة للإشعال والتدفئة. أما نساؤهم، فكن يكتبن أشعارًا يلصقنها بشمع النحل على ثمار التفاح غير الناضجة، وهي لا تزال على أغصانها. حين ينضج التفاح، يكون سطحه اللامع مغطى بكتاباتٍ وأبياتٍ شعرية. يبعنه للناس بأسعارٍ مرتفعة، لأنه معجزةٌ ربانيةٌ كما يدّعين!

سمعتُ أمورًا كثيرة في تلك الفترة من حياتي.. قصصًا طريفةً عن "جحا"، وكيفية جلب الثلج من الجبال وحفظه لاستخدامه في العصائر والمشروبات الصيفية، والمستشفيات والمصحات التي

t.me/qurssan

يجري فيها علاج الأمراض النفسية، وحكايات المنافسات البدنية والرياضية بين كبار الباشوات، وصناعة الدوارق الخشبية من جذوع أشجار الصنوبر القديمة. عرفتُ كذلك أن الملابس والمنسوجات المصبوغة بكبريتات الحديدوز، تُنَظَّف عن طريق الحرق، كما بلغني أيضًا أن العمليات الجراحية المعقدة الخاصة بالمخ، قد تقدمت، وأنها تجرى في "فيينا" بمهارة.

هأنا أتشبث به في خوف، يحيط بنا أربعون رجلًا يبذلون قصارى جهدهم لصدّ السهام النارية المتساقطة على مركبنا بغزارة. استطعتُ فهم ما يفكر به. كان مذبذبًا بين أمرين؛ الأول هو الهروب وإنقاذ نفسه، والثاني هو عدم قدرته على ترك صندوقه الخشبي الذي يضم ذكرياته ومخطوطاته. دمعت عيناه عند تفكيره في الأمر الثاني. حاول أن يخبئ الأوراق التي دوّن عليها ملاحظات رحلاته داخل حزامه وفي ثنايا ملابسه، ثم طافت عيناه على كتبه، فتراجع لحظةً عن الرحيل، وفكّر في البقاء. تلاحقت الأفكار المختلفة داخل رأسه، لم يدرِ إن كان عليه الاستسلام للعدو، ما يعني أن يصبح أسيرًا، أم أن يضحي بكتبه؟ تساءل عن كيفية الهروب، وقرر في نهاية الأمر أن يزحف على الجليد المحيط بالسفينة، إن اضطر لذلك. واستعدادًا للفرار من السفينة، ربطَ قطعتي خشب في حذائه، كي تعيناه على الحركة فوق الجليد.

تساءلتُ عن الطريقة التي كان سيتصرف بها لو عَلِمَ بأن اللصوص وقطّاع الطرق يلاحقونه بسببي؟

لقد أحبني، ولطالما ذكر سيدي "فضولي" بكل مودةٍ وإجلال. لقد أبقاني بجواره كل هذه الأعوام، وحملني على ظهر حصانه، ووضعني بجواره قبل أن ينام كل ليلة، أينما كان.. في استراحات القوافل، وفي المعسكرات.. كنتُ معه صيفًا وشتاءً، ليلًا ونهارًا. طافت أنفاسه على غلافي سنواتٍ طويلة. غلافي الذي اجتمعت عليه آثار القُبَل وقطرات الدم والأنفاس الدافئة ونبضات القلوب. تزايد خوفي وأنا أتابع ما يحدث حولي.

t.me/qurssan

انهار الصاري الرئيسي للسفينة، محدثًا دويًا عاصفًا، عقب احتراق أجزاء منه. تعالى الصخب واختلطت الأصوات المرتفعة القادمة من سطح السفينة وبدنها الذي تجمد في الجليد المحيط به. بدأت المياه في الذوبان، وتسربت إلى السطح السفلي، حيث كنا. أمسك بي "أوليا" العزيز للمرة الأخيرة، ليستطلع حظه في أبياتي. فتح إحدى صفحاتي بطريقةٍ عشوائية، وقرر تنفيذ أي شيءٍ مما كتبه سيدي "فضولي". استدار باتجاه السلم المؤدي للسطح العلوي، وقرأ لدهشته الشديدة:

"حين خارت قوى قلبه وروحه

تسلل كالماء من المركب المشتعل".

استحالت الدهشة إلى خوفٍ بالغ. ذلك البيت هو الإجابة التي كان بانتظارها.

بكيتُ بحرقة عقب مغادرة "أوليا" العزيز. قبل رحيله، لفّني بقطعة قماش مضاد للبلل، وأخرى مغطاة بشمع النحل، كي يضمن عدم تسرب الماء إليّ، ثم وضعني داخل صندوقٍ خشبي، أغلق غطاءه بإحكام. انعكس القلق الذي يعتمل بداخله على وجهه. لكنه طمأن نفسه بأن الصندوق الذي يضمني سوف يطفو على الماء لبعض الوقت، عقب احتراق السفينة، وقد يغوص مسافةً قصيرة في المساحات القليلة من مياه النهر التي لم تتعرض للتجمد، ثم سيجدني بعدها. دعوتُ الله أن يحفظه، وأن يحميه من الإصابة بالالتهاب الرئوي إن قدّر له الحياة.

تُرى.. كيف سيكون موقفه مني إن عرف أنني أنا السبب في إحراق السفينة؟

انتظرتُ مصيري وأنا ألتفُّ بتلك الأقمشة المقاومة للماء. تذكرتُ الغزالة التي سرد سيدي "فضولي" حكايتها. وقعت ساق غزالة داخل فخ، فلم تبدِ أي مقاومة، ووقفت تنتظر عودة الصياد. هل كان استسلامي لقدري مردّهُ اشتياقي إلى الشمس والجدران الطينية للبيوت الحميمية والدافئة؟ كنتُ قد تعبت من البقاء في

t.me/qurssan

الجزء السفلي شديد البرودة من السفينة، والجليد يحيط بنا من كل جانب. لا أدري حقيقةً، لكنني تمنيث من جديد لو كان باستطاعتي الكلام. كنتُ سأهمس في أذن "جلبي" العزيز بكل الأسرار التي أعرفها، عن "نبوخذ نصر" ومعبد "عشتار" والكلدانيين، عندما كنا في أرض "بابل". إن وقع "جلبي" الطيب ضحية البرد القارس، أو قَضَت عليه قسوةُ القراصنة واللصوص الساعين وراء كنوز "بابل" وذهبها، فمن الذي سيكتب حكايتي؟

لا أحد.

سأذيب حب "ليلى" و"روكال"، وأمزجه في مياه الـ"دانوب". سأتدفق من هنا، إلى أن أصل إلى البحار. سأصبح بعدها سحابة، ثم مطرًا يتساقط على البشرية بأجمعها، وسيتعلم العالَم بأسره معنى الحب، على طريقتي.

هذه هي الساعات الأخيرة التي سأمضيها في رثاء قدري ومصيري.

- لو كنتُ أستطيع الكلام! كنتُ سألهمه، وأخترق قلبه، وأجتاح مشاعره. كنتُ سأسرد عليه حكايتي بتفاصيلها كافة، وبخاصة الجزء المتعلق بسيدي "فضولي". كنتُ سأكشف له جميع الأسرار التي أضمها، واحدًا يلو الآخر، وكنت سأجعله يدوّنها.

عليَ أن أعترف أنني لم أرغب قط في امتلاك القدرة على الكلام بتلك الصورة المُلّحة إلا مع "جلبي" العزيز. لقد مرّ وقتٌ طويلٌ منذ أن راقبتُ بشيءٍ من الغيرة والحسد الصفحات البيضاء وهي تمتلئ بكتاباته وملاحظاته، تعصف بي أمنية أن يكتب قصتي على الصفحات ذاتها.

في تلك اللحظات التي انتظرتُ فيها صيّادي، تحيط بي النيران والثلوج، لم أتوقف عن الدعاء لـ"جلبي" بالسلامة. أحبّه الجميع، وحمل له الأصدقاء والأعداء على حدٍّ سواء مشاعر التقدير والاحترام. كان هو من توسط بين من عُرِفوا بـ"ثوّار الجلالي" وممثلي السُلُطات العثمانية، لتقريب وجهات النظر وتهدئة

t.me/qurssan

الخلافات. لم يُذكر اسمه قط إلا مقرونًا بالإجلال والإكبار. ذاع صيته بين تجار قوافل طريق الحرير، الذين استمتعوا بصحبته ومسامرته وحكاياته، وذُكِر في الملاحم والأشعار. اعتمد الناس عليه في حل مشكلاتهم، فإذا وقع أحدهم في مأزقٍ ما، تمكن من الخروج منه بمجرد ذكر اسم "أوليا جلبي" أمام الطرف الآخر، الذي يسارع بالعفو عنه تقديرًا لهذا الإنسان الكريم. إن لم يجد أي مسافر مكانًا يبيت فيه، أو إن قرصه الجوع، يتوجه من فوره إلى أي من زعماء القبائل أو العشائر في المنطقة التي يكون موجودًا فيها، ويذكر لهم اسم "أوليا" العزيز، كي يرحبوا به كضيفٍ كريم. كان اسمه كفيلًا بإطعام الجائع، وكسوة العاري. في كثيرٍ من الأحيان، استخدم الناس اسمه اعتمادًا على شهرته، دون أن يعرفوه بشكلٍ شخصي. كان "أوليا جلبي" أشبه بالأسطورة داخل الأراضي العثمانية. كان تجسيدًا لأفضل ما في العادات والتقاليد العثمانية. ارتبط اسمه لديّ بلفظ "العزيز"، لأنه بالفعل عزيزٌ على قلبي.

في تلك اللحظات، كان زملاؤنا الـ 42 من المسافرين على متن السفينة . والذين كانوا يحلمون بالوصول إلى إسطنبول للاستمتاع بالإقامة في بيوتها ذات النوافذ الضخمة، ومشاهدة نسائها الجميلات، وشُرب عصير الرمان المثلج . يدافعون ببسالة عن السفينة وبضائعها، ويفتدونها بأرواحهم، في عرض نهر "الدانوب". تمكن عددٌ منهم من القضاء على بعض الأعداء. وبينما انهمكوا في القتال بشراسة، لم يفارق صدورهم الحنين إلى قُراهم الساحلية الوادعة، بينابيعها وظلال أشجارها الوارفة وروائح السمك المقلي المنبعثة من منازلها.

رغم القتال الدائر، سمعتُ بوضوح نباح الكلاب القادم من الجهة الأخرى من "الدانوب"، وصرير السواقي التي تحرّك طواحين المياه، وتحوّل القمح والشعير وحبوب الذرة إلى دقيقٍ ناعم.

كنتُ مغطى بالدقيق، عندما وصلتُ إلى قلعة "سيليسترا" البلغارية. تمنيتُ لو أنني تمزقت إلى قطعٍ صغيرة متناثرة، قبل أن أشهد هذا اليوم وهذا المصير. لم يكن الرجال الذين يسعون

t.me/qurssan

للحصول على لصوصًا رومانيين أو نمساويين، بل مجموعة من الأشقياء الذين يتعاملون مع "سيافوش باشا". سرقوني وفي نيتهم إنفاق المكافأة التي سيحصلون عليها في أمور اللهو والعربدة وعلى الراقصات الرومانيات ذوات الخصور النحيلة.

تقع قلعة "سيليسترا"، الشبيهة بعش نِسر، أعلى جرفٍ صخري بالغ الارتفاع، يطل على نهر "الدانوب". تتوجه فوهات المدافع الأربعين التي تضمها القلعة صوب النهر. يعلو بوابتها أسدٌ شديد الضخامة، حيكَ من جلود أسودٍ حقيقية، وحُشيَ بالقطن. لا أحد يعرف من جلب هذا الأسد، ولا من قام بتعليقه فوق المدخل، لكن المسؤولين في القلعة أظهروا عنايةً فائقةً به، واهتموا بتغيير حشوته بأخرى جديدة، سنويًا.

تُخزَّن كل الممتلكات الثمينة لسكان القرى والبلدات المحيطة بالقلعة، داخلها، باعتبارها المكان الأكثر أمانًا في المنطقة بأسرها، خلال أشهر الصيف؛ أما في فصل الشتاء، فتصبح هدفًا سهلًا للغزو والهجوم عليها، وبخاصة حين يتجمد النهر. في اليوم الذي وصلتُ فيه، ضربتْ قطع جليد بالغة الضخامة - يصل ارتفاع كل منها إلى نحو ثمانين ذراعًا - جدران القلعة. تحطمت جميعًا إلى شظايا، عدا واحدة ارتطمت بالحوائط بقوة إلى أن تحطم سقف إحدى صوامع الحبوب، ما أدى إلى بَلَلِ القمح. أصدر "سيفاوش باشا" أوامره بإزالة قطع الثلج من مخزن الحبوب، على وجه السرعة، وغربلة القمح الرطب. لحسن الحظ، كان اليوم مشمسًا، والجو دافئًا، على غير العادة.

عصر ذلك اليوم، كنتُ بين يدي الباشا الباردتين. من فوق ضفة "الدانوب"، تعالت أصوات الصغار وهم يلعبون في صخب، ويتزلجون على الجليد، محطمين السكون الذي كان يغلف الميناء الهادئ. ارتفعت صيحاتهم وهم يتسلقون الأشجار ويتقافزون بين أغصانها. لعبت البنات، ذوات الأثواب المزركشة، على الأراجيح المعلقة في أشجار الجميز، وتبادلن دفعها لبعضهن البعض. حاولن تجنب السقوط على الأرض، وهن يرددن أغانٍ مرحة. صنع بعض الفتية فتحاتٍ في سطح النهر المتجمد، اصطادوا من خلالها

t.me/qurssan

السمك بالسنانير، وأشعلوا نيرانًا صغيرة لشيّها. نشر الهواء روائح السمك المشوي في كل مكان، وسال لعاب الباشا ما إن شمّها.

تبيّن لي بعد قليل أن صخب الأطفال ولهو الفتية والبنات، كان مصاحبًا لحفل زفاف ابنيَ سيِّد القلعة ومسؤول سلاح المدفعية فيها، إلى فتاتين اختطفاهما من إحدى القرى الرومانية. حضر الحفل سُكّان العشرين منزلًا الذين تضمهم القلعة.

في ذلك اليوم، انصبَّ اهتمام الباشا على البحث عن أي معلوماتٍ مفيدة أحتوي عليها. تصفحني باهتمام بضع ساعات، وعندما غابت الشمس خلف أشجار الجميز، أطلق ثلاث حمامات ربط حول ساق كل منها رسالةً قصيرة. أرسل إحداها إلى "شربان"، وزير الأمير "ماتيي باساراب"، حاكم منطقة "والاتشيان"؛ والأخرى إلى "آلكسندر ديميتروف"، كبير مهندسي القيصر "بيتر العظيم". أمّا الحمامة الثالثة فاتجهت إلى الملحن وعازف الأرغن الألماني "يوهان جاكوب فروبرجر"، الذي يعمل لدى الإمبراطور "ليوبولد الأول" في بلاط إمبراطورية "هابسبورج"، آخر أقوى الممالك الكاثوليكية. عقب أسبوعين من إرسال الحمائم، كنتُ أستلقي، مفتوح الصفحات، بين الباشا وضيوفه الثلاثة. تأملتُ الرجال الأربعة الجالسين على الأرائك المتجاورة في الجناح السكني الخاص بالباشا، وأدركتُ أن هناك أمورًا مشتركة تجمع بينهم. تعود أصول "سيافوش باشا" والوزير "شربان" إلى فئة العبيد، لكنهما استطاعا بمثابرتهما وتفانيهما في أعمالهما تحقيق نجاحٍ مستحَق والوصول إلى أعلى المناصب، ومع ذلك، لم يمحُ نجاحهما صفات العبيد المتأصلة بداخلهما، فظل الاثنان يحملان بداخلهما حقدًا دفينًا وكراهيةً عميقةً للجميع، وفشلا في اكتساب طباع السادة وما تتسم به من رقيٍ وسموّ. وكما هو الحال مع جميع العبيد، ليس من الممكن الوثوق بهما. استمرت المعاملة السيئة التي تلقياها، والقسوة التي عانياها منذ سنواتهما المبكرة، في التحكم في تصرفاتهما مع الآخرين، والسبب الذي يستندان إليه في تبرير حقارتهما تجاه من حولهما.

مِن جانب آخر، اتسم "يوهان جاكوب فروبرجر" و"ألكسندر

t.me/qurssan

ديميتروف" بالصفات التي تميز الفنانين والمبدعين الحقيقيين؛ فقد امتلك الأول موهبة موسيقية خارقة. فيما يُعدّ الثاني أحد أهم روّاد المعمار الكلاسيكي في روسيا.

تحلّق الأربعة حول منضدة مرتفعة، وُضِعت في أسفلها مدفأةٌ صغيرة. تغلبوا على البرد بتغطية ركبهم بأطراف مفرش الطاولة السميك. يظنّ كل واحدٍ منهم أن له أهمية خاصة، لا يضاهيه فيها أحد. "سيفايوش باشا" يؤمن أنه سيصبح وزيرًا عمّا قريب، عقب الأعوام التي أمضاها في إدارة شؤون القلعة؛ أمّا "شيربان" فيؤمن أنه هو الحاكم الفعلي، لا الأمير. "فروبرجر" يستمد ثقته من كونه كبير مستشاري الملك "ليوبولد" وكاتم أسراره. "ديميتروف" من جانبه يسيطر على الأمور من خلال الأسرار المهمة للدولة، التي يحصل عليها من خلال علاقاته المتعددة بنساء القصر. لا يجد الأربعة أهميةً تذكَر للأعضاء الثلاثة الآخرين لـ"جمعية بابل".. أحدهم قس في كنيسة روما، والآخر أستاذ في "الأكاديمية الفرنسية" بمدينة باريس، والأخير هو خيّاط ملابس ملك إسبانيا.

فهمث من حوارهم ونقاشهم أنهم ينوون تأسيس دولة موحدة في أوروبا، وأنهم سيبنون "مركز أبحاث علوم الفضاء" في منطقة "ترانسلفينيا" بـ"رومانيا"، يحكمون العالم من خلاله، عقب مسح الهنجاريين والسلوفاك من فوق وجه الأرض. كانوا يسعون للحصول على ذهب المعبد الكلداني، والأقراص الطينية بما تحويه من معلومات مهمة. ناقشوا بشكلٍ مفصّل خططهم لاستخدام الذهب في تمويل الثورات والقلاقل التي ينوون إشعالها في مختلف أنحاء أوروبا، لزعزعة استقرارها والسيطرة عليها. كانوا قد خبّؤوا المعلومات التي حصلوا عليها عن طريق جهاز الاستخبارات الذي أسسوه من خلال سفنهم التي تجوب البحر الأبيض المتوسط، بداخل المكتبة العامة لـ"نوتردام". تحكّم هؤلاء الأربعة في مسارات الوضع السياسي في أوروبا، بواسطة أعدادٍ لا حصر لها من الجواسيس، بالإضافة إلى الحمام الزاجل.

تدارسني الرجال الأربعة باهتمامٍ وتركيز. كانوا يمتلكون حل بعض الشيفرات التي أضمها، والتي نفّذها مُلّاكي السابقون في

t.me/qurssan

روما. امتلكوا أيضًا تسجيلًا للحوارات التي دارت بين الرسام "إلشيمر" والتاجر النمساوي، ومناقشاتهما عن الحب. يحفظ الأربعة أبياتي التي تحمل أرقام 607، 617، 687، وقارنوا معانيها التي تقارن بين التصريح بالحب وكتمانه.

أدركتُ أنهم درسوا محتوياتي بشكلٍ موسع، ويعرفون جيدًا ما تتضمنه صفحاتي، وأنهم - لذلك - سينجحون بمنتهى السهولة في حل بقية شيفراتي. أشعرني ذلك بقلقٍ بالغ.

قال الوزير "شيربان" بعظمةٍ ورصانة:

- إننا نشهد اللحظات الفارقة التي تسبق إعادة صياغة التاريخ.

رسم دائرةً على الأرض الحجرية للغرفة، مستخدمًا قطعة بلاط من الطين. التفوا حولها، وهم يضمون أصابع أيديهم، كل اثنين معًا، ويضعون أكفهم فوق بعضها البعض، لتأدية قَسَم "جمعية بابل"، الذي راحوا يرددونه بالكلدانية بصوتٍ منغم، كما لو كان ترنيمة. أثارت أفعالهم دهشتي، وأدركتُ أن الجمعية تبتكر طقوسًا جديدة كل فترة، إذ لم أشهد تبادل القَسَم على هذا النحو من قبل. حين يتخطى طموح الناس الحقائق العِلمية، تحل الطقوس والمظاهر محل الواقع والحقيقة.

تولى "سيفايوش باشا" قراءة أبياتي، بينما ترجمها "شيربان" مباشرةً إلى الألمانية والروسية.

يحرص أعضاء الجمعية على تحويل عددٍ من المصطلحات، المستخدمة فيما بينهم بكثرة، إلى شيفرات سرِّية، وبخاصة: "تعالَ"، و"إنها لديّ"، و"لقد عثرتُ عليها"، و"حسنًا"، و"أرسلها"، و"النجدة"، و"حافظ عليها". أمَّا الخطابات التي يستخدمون الحمام الزاجل في إرسالها، فجميعها مكتوبة بالخط المسماري، الذي يعود إلى عصر الكلدانيين.

قال "سيفايوش":

- جميعنا نعلم بأن الأبيات الثلاثة الأولى تقرن الحب بالغموض.

t.me/qurssan

لنواصل القراءة الآن، إن لم يكن لديكم مانع، ونناقش الأبيات التي تتجاور فيها كلمتا "الحب" و"الغموض" جنبًا إلى جنب.

وافق الآخرون على اقتراحه، وبدؤوا في قراءة حكايتي منذ البداية بتمهلٍ وتركيز، باحثين عن المعاني الخفية التي تحملها أبياتي. داوموا على قراءتي لليالٍ متتابعة. أحاط بنا الظلام، كل ليلة، تخترقه زمجرة الرياح العاتية وهي تضرب جدران القلعة. تنازعتني مشاعر متناقضة خلال تلك الفترة، فقد كنتُ سعيدًا لأنه لا يزال هناك من يهتم بقراءتي، وتعيسًا في الوقت ذاته لأن ذلك ذكّرني بـ"ليلى" وأحيا بداخلي آلام فراقها مرةً أخرى. احترقتُ شوقًا إلى "ليلى"، وشعرتُ أنني أقع في غرامها من جديد، وتمنيتُ وصال حبيبتي. تذكرتُ هروبي إلى البرية، وأصدقائي القدامى من الغزلان والطيور. ورغم أن قراءتهم افتقدت مشاعر الإعجاب بأبياتي، فقد منحتني نوعًا من السلوى.

مع استمرار قراءة "سيافوش" لأشعاري، بدأ "فروبيرجر" ينجذب لحكايتي، وصار يصغي لأحداثها باهتمامٍ أكبر. أحسستُ أنه لا يستمع للقراءة بنيّة حل شفراتي المعقدة، وإنما لمحاولة فهم الحب العظيم الذي تتمحور القصة حوله. كان هو من نجح في العثور على الشيفرة الجديدة. يقع البيت الذي يضمها تحت المنمنمة التي تصوّر لقائي بـ"ليلى" في الصحراء..

"صبغ العشق أيامي بالسواد

وامتلك الحب عنان إرادتي".

قرأ الباشا هذا البيت، ثم ترجمه لمن حوله بلغاتهم. صاح "فروبيرجر" بشغفٍ:

- توقّف!

ثم أضاف شارحًا بحماس:

- إن "صبغ الأيام بالسواد" يعني حلول الليل. الحب والعشاق يفضلون ساعات المساء. إن المحبين يرغبون في الاختلاء

t.me/qurssan

بأنفسهم وأفكارهم، والليل يتيح لهم ذلك. إنه يمتلئ بأسرار الهوى. في جميع النصوص المقدسة، يرتبط الليل بالأسرار. كان "فضولي" حافظًا للقرآن، ولا شك، ويعلم ذلك جيدًا. من جانبٍ آخر، فإن العلاقات الغرامية السرية تتم خلال ساعات الليل، في أغلب الأحيان.

واصل حديثه بالحماسة ذاتها:

- كان "فضولي" يعرف أن أستار الليل تخبّئ وراءها العديد من الأسرار الغامضة. هل ترون معي ما قصده من هذا البيت تحديدًا؟

أجابه "ديميتروف" موافقًا:

- نعم. تحليلك صائبٌ تمامًا.

قال "سيافوش":

- فلتسمحوا لي إذًا بإجراء الحسابات الخاصة بأحرف هذا البيت.

كتب كلمة "بالسواد" بالتركية العثمانية، وراح يكتب أرقامًا ويحصيها، تتابعه أعين رفاقه باهتمام. دوّن أرقامًا مختلفة، منها 60 و10 و5، ثم جمعها معًا وكتب 75. قال:

- الرقم 7 يظهر هنا من خلال الرقم 75. إنه عدد الآلهة البابلية، وعدد الكواكب، وصيام الأيام السبعة، ونبيذ السبعة أعشاب.

أضاف:

- لا أدري ما الذي يعنيه وجوده هنا، ولكن له دلالة ما دون شك.

استمرت مناقشاتهم حول دلالات الرقم سبعة ساعاتٍ، في تلك الليلة شديدة البرودة. تزايد نفوري منهم. لم يعد أعضاء "جمعية بابل" يتسمون بالرقي كما كانوا سابقًا. ليسوا كـ"آرشيا آكيلدان"، ولا أمين المكتبة الضرير الذي باح بما لديه من أسرار لسيدي "فضولي"؛ والأهم من ذلك أنه لم يعد الأعضاء يمتلكون خلفياتٍ علمية. لقد انضموا للجمعية بفضل علاقاتهم الدبلوماسية

t.me/qurssan

والسياسية ونفوذهم في مجالاتهم المختلفة. إنهم جواسيس محترفون ومتمكنون، ولكنهم مترددون إزاء إعادة تشكيل "مجلس البحث". إنني متيقن من أن بعضهم لا رغبة لديه على الإطلاق في تطوير الأعمال البحثية للجمعية، وأن اهتماماتهم تنحصر فقط في العثور على الكنز والذهب.

استغرق "شيربان" في تفكيرٍ عميق، ساندًا رأسه على كفيه، ثم صاح فجأةً:

- أصدقائي! ماذا لو كانت الشيفرة هنا هي العلاقة بين رقم البيت الشِّعري نفسه من حيث ترتيبه في القصيدة، والرقم سبعة؟ أليس ذلك ممكنًا؟

تصفَّحوا أوراقي منذ البداية، من جديد، وأعادوا قراءة الأبيات التي تحتوي على شيفرات، وهي التي تحمل أرقام 607، و617، و687. استمرت مناقشاتهم وتحليلاتهم لليلتين إضافيتين، وفي الليلة الثانية، كسر صوت الباشا السكون الذي أحاط بهم وهم مستغرقون في القراءة، حين هتف بانتصار:

- إنه البيت رقم 872! نعم! إننا نقترب من تماثيل الآلهة البابلية بخطى حثيثة.

أردف قائلًا:

- أقترح أن نركز اهتمامنا على الأبيات التي تحمل في ترتيبها الرقم سبعة، دون غيرها. سوف نوفر الكثير من الجهد والوقت إن التزمنا بذلك.

واحتفالًا باستنتاجه، تناول الباشا بين طرفي إصبعيه كميةً ضئيلةً من النشوق، من علبةٍ صغيرة. استنشقها بعمق، ثم غطَّى أنفه بمنديلٍ كبيرٍ جدًا، وراح يعطس فيه عطسات متوالية.

تولى المهندس "ديميتروف" إجراء حسابات أبياتي التي تضم الرقم سبعة، مستخدمًا قلمين أحدهما بالحبر الأسود والآخر باللون الأحمر. بدت أرقامه وحروفه شبيهةً برسومات الأطفال

t.me/qurssan

الصغار، إذ كتبها بالطريقة المسمارية. تعمَّد أن يفعل ذلك، بعد أن اتفق الجميع على عدم تدوين الأرقام بالعربية أو بالطريقة الرومانية، حتى لا يكشف أسراري غيرهم.

من خلال حساباتهم، أدركتُ للمرة الأولى أنني أضم 3098 بيتًا في حكايتي. كل واحدٍ منها أجمل من الآخر. رحم الله سيدي "فضولي" الذي أودع بداخلي كل هذا الجمال الفتّان.

تتابعت الليالي على المنوال نفسه. كل نصف ساعة، يرتفع صوت حراس القلعة بصيحةٍ متبادلة:

. الله واحد!

عند الفجر، يختلط هتافهم بصوت المؤذن وهو يدعو الناس للصلاة، من داخل المئذنة الخشبية للمسجد. في تلك اللحظات، يكون التعب قد استبد بالرجال الأربعة. تمتلئ الغرفة برائحة النشوق وشراب الينسون، وتفتر حرارة المدفأة لتقترب من البرودة. يتوضأ الباشا ويتوجه إلى المسجد، فيما يستسلم الثلاثة الباقون لنومٍ عميق. يستيقظون جميعًا عند الظهيرة، ويراقبون نهر "الدانوب" من نوافذهم العالية، إلى أن يحل الليل. في بعض الأحيان، كانوا يغادرون القلعة لصيد السمك، أو للتريض.

في الليلة الأخيرة، امتلأت الأطباق المصنوعة من الفضة باللوز والجوز والزبيب والفاكهة. جاورها على المائدة دورقان من النبيذ، إكرامًا لضيوف "سيفايوش باشا" في يومهم الأخير لديه. أحسستُ أنني من ضمن المَزات المقدمة لهؤلاء الزوّار.

كانت العبارة الأولى التي توصلوا إليها، هي ذاتها التي أسرَّ بها أمين مكتبة بغداد لسيدي "فضولي": "هناك سبعة أسرار حقيقية لمن يعرفون الحب. من يمتلكها، يمتلك السيطرة على العالم".

بدأت الأبيات التي تحمل في ترتيبها الرقم سبعة، والتي تضم كلمتي "الحب" و"الغموض" معًا، تتكشف لهم بيتًا تلو الآخر. مع اقتراب منتصف الليل، تحوَّل المطر الغزير إلى رياحٍ رعديةٍ ذات أصواتٍ مدوية. في تلك اللحظات، قرأ "سيفايوش باشا" البيت

t.me/qurssan

"حرّرني من الاضطراب يا إلهي

واجعلني ممن يألفون الحب على الدوام".

ورد هذا البيت ضمن الفصل الذي يصور رحلتي إلى "مكة"، سعيًا للسكينة، عندما انتشر خبر جنوني بين أفراد قبيلة "بني عامر". اصطحبني أبي إلى البيت المعمور، علّ ذلك يريح نفسي وقلبي، وهناك دعوتُ الله بحرقةٍ ولوعة: "يا رب.. أرحني من الشقاء والاضطراب والعذاب، وأعد إليّ حلاوة الحب والغرام".

ما ميّزني عن غيري، على امتداد الأزمنة، هو سلوكي المتناقض. تلك هي أهم صفة في شخصيتي. تناقضاتي هي التي تسببت في جنوني، ثم جعلتني محط حسد الناس قرونًا متتابعة.

ما زلتُ أذكر وقوفي أمام الكعبة، وأنا أبكي بدموعٍ غزيرة. كان خيال "ليلي" ماثلًا أمامي، حتى في تلك اللحظات المقدسة، التي عرفتُ فيها الجمال الإلهي.

انتزعني من أفكاري صوت "فروبيرجر" وهو يسأل "سيفايوش":

- بمَ يرتبط الاهتمام؟

- بالفكرة، وبالتفكير عمومًا.

ظهر شيءٌ من الامتعاض على وجه "فروبيرجر"، وبدا غير مقتنعٍ بالإجابة. قال:

- هناك أمورٌ أخرى أيضًا، كما أظن. الحب مثلًا. بمَ يرتبط الحب؟

أجاب الباشا:

- الحزن والأسى والقلق والفضول والارتياب والشك..

أضاف ساخرًا:

- أتريد المزيد؟

t.me/qurssan

- كلا. هذا يكفي. لقد وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه. إن الارتياب والشك أمورٌ غير ظاهرة، وكذلك أحزان العشاق والمحبين.

عندما سمعتُ ذلك، أدركتُ أن موسيقار القصر خبيرٌ في الحب والعشق. إن أسراري تتكشف على يد عاشقٍ متمرس. كان أمين المكتبة الأعمى قد قال: "لمن يعرفون الحب".

يبدو هذا العازف الماهر ممن يعرفون الحب جيدًا. إنه ليس كبقية أعضاء "جمعية بابل". شعرت نحوه بشيءٍ من الإعجاب والتقدير. راودني إحساسٌ بأنه لن يُسيء استغلال نتائج الأبحاث الفضائية التي توصل إليها الكهنة الكلدانيون. قد يشترك هذا الرجل في تنظيم ثورات، وإعادة تشكيل مجتمعات، وتدمير بعض الشعوب الأوروبية، وإبادة أعداد ضخمة من الأبرياء، لكنه لن يضحي أبدًا بالنتائج العلمية المهمة التي توصل إليها الأعضاء الأوائل لـ"جمعية بابل"، مهما يكن المقابل.

حين توصلتُ إلى هذه النقطة، خجلتُ من الطريقة التي أسأتُ بها الظن فيه، والكيفية التي ساويتُ فيها بينه ورفاقه. ربما الوضع ليس بالفظاعة التي تصورتها في بداية الأمر. انتابني إحساسٌ بالراحة الطفيفة.

بدأتُ أنتبه إلى أن "فروبيرجر" بات قلقًا ومتوترًا، فرغم تظاهره بالإنصات لمناقشات زملائه ومحاولاتهم لحل شيفراتي، فقد بدا شارد الذهن ومتشككًا في المسألة بأكملها. كان يتساءل بينه وبين نفسه: "هل الجمعية على صواب في نبذها أمور العِلم والمعرفة، وتركيز اهتمامها على المال والذهب؟"

كثيرًا ما تردد هذا التساؤل بداخلي أنا أيضًا، منذ قدومي إلى هذه القلعة. شغلني أمرٌ جديدٌ أيضًا.. هل سيكون هذا الرجل الموهوب هو حامل الأسرار الجديد، يا ترى؟

قال لنفسه في حسرة: "أي زمنٍ هذا الذي لم يعد لقسَم الولاء والطاعة فيه قيمةٌ تُذكَر؟".

ذكّر نفسه بأن إعادة تشكيل العالَم أمرٌ مطلوبٌ في ظل التغيرات

t.me/qurssan

المتتابعة، ولكن الناس الأبرياء لا ذنب لهم أبدًا كي تتم إبادتهم. هل سيكون العالم الجديد سببًا في سعادة الناس أصلًا؟ ألن يتحول العشاق إلى وحوشٍ ضارية؟ هل سيعودون إلى طبيعتهم البشرية ثانيةً، يا ترى؟

تساءل في غضب:

- مَن الذي منحنا سُلطة إسعاد الناس أو تدميرهم؟ من نحن كي نقرر مصائر الناس وأقدارهم؟ لمَ نمنح أنفسنا سلطات إلهية؟

قال لنفسه أخيرًا: "ليس من حقنا استخدام العِلم والأبواب التي شرّعها لنا على الفضاء الخارجي، في السيطرة على العالم والتحكم في البشرية".

إن ما توصل إليه رجال الدين الكلدانيون من نتائج ودراسات، كان بهدف إنقاذ البشرية والعالم.

t.me/qurssan

انطلقت من شفتيه صيحة ألم وجزع:

- يا إلهي! ما هذا الذي نفعله؟

كان هذا آخر ما قاله.

صباح اليوم التالي، لملم جنود قلعة "سيليسترا" أشلاء الرجل الذي قفز من أعلى أبراجها إلى نهر "الدانوب" المتجمد. عثروا في ثنايا حزامه العريض على نوتةٍ موسيقية لأغنية لم يستكمل تلحينها.

أوّاه يا "ليلى"! هل كُتِب عليّ معاناة كل هذا العذاب، وأنتِ بعيدةٌ عني؟ هل أراد لي سيدي "فضولي" أن أحمل هذه الأعباء وحدي، كي أحافظ على أسراره؟ إنني أخاطر بحياتي من أجل الحفاظ على حبي الخالد. كم أشتاق إليكِ يا "ليلى"! أين أنتِ يا حبيبتي؟

JOTTINGS IN SYRIA.

t.me/qurssan

23 رحلتي إلى الشمال وعروض سحرية

لم يعد لنا وجودٌ ماديّ يا "نشاطي"

فصرنا نختبئ داخل المرايا اللامعة

(الشاعر الصوفي "نشاطي")

انحنى "مُلّا محمد" - الذي زرتُ معه العديد من البلدان والمدن فترةً طويلة - أمام الباشا، كما هي عادته مع الجميع، ثم جثا على ركبتيه طالبًا الإذن بأن يبدأ في تقديم عرضه السحري:

. لتسمح لي يا وزير العصر ونور الزمان، ولتأذن لي سيادتكم ببدء العرض.

الباشا هو "محمد باشا البلطجي"، كبير وزراء الدولة العثمانية في تلك الفترة. رجلٌ طويل ورشيق، في الخمسينيات من العُمر، تلقبّه جيوشه بـ"المؤذّن الوسيم". يشعر بانزعاجٍ بالغ وأسى عظيم بسبب الشائعات التي لاحقته مؤخرًا، عقب الاتفاقيات التي توصل إليها مع الإمبراطورة الروسية "كاثرين العظيمة"؛ ورغم نجاحه في هزيمة جيش زوجها "بطرس الثالث"، وتحقيق انتصارٍ عظيمٍ عليه، إلا أن الناس رأوا في معاهدته معها استسلامًا مخجلًا من طرفه.

في طريق عودته إلى العاصمة، اضطر لأن يغيّر مسار رحلته، وأن يمر من شرق البحر الأسود، لعزل بعض الولاة العرب والأكراد، الذين أظهروا تمردًا ضد إدارته عدّة مرات. ورغم احتياجه للراحة، عقب ما بذله من جهودٍ مضنية في المعارك الأخيرة، فإن الحزن الذي لازمه منذ سماعه للشائعات حال بينه والاستمتاع بالمناظر الخريفية البديعة التي يطل عليها القصر الريفي في مدينة "حلب".

في تلك الليلة الهادئة من شهر سبتمبر، استغرق الباشا في تفكيرٍ عميق امتد حتى الفجر. مع بزوغ النور الشحيح لشمس أول النهار، تأمّل من نافذته جنوده الذين يخيّمون حول أسوار

t.me/qurssan

المدينة. أحس بانقباض واختناق. هؤلاء العساكر هم أول من تحدث عنه بالسوء. إنه يفتخر بهم، وبانتصاراتهم وانضباطهم. هو من أشرف على تدريباتهم وتسليحهم، وعلى إسطبلات خيولهم. هو مَن ربَّى عددًا كبيرًا منهم كما لو كانوا أبناءه. من المؤسف أنهم صاروا جميعًا يقابلونه بوجوهٍ عابسة ومتجهمة، وأعينٍ تسدد إليه اتهاماتٍ ظالمة. قال لنفسه إنه لا يستحق منهم ذلك. شعر بالخيانة. لم يدر بخلده قط أن بعض من يحملون تجاهه مشاعر الحقد والغيرة، سينجحون في تأليب نصف العساكر عليه على هذا النحو القاسي. أحس بغضبٍ من نفسه ومن غفلته ورعونته. لعن نفسه لتمسكه ببقاء أولئك القادة في جيشه، وكان من الواجب التخلص منهم منذ زمن.

مساءً، امتلأت قاعة القصر بالضيوف، وبدأ إعداد الموائد لوليمةٍ فاخرة. تبادل الزوّار نكاتًا إباحيةً بعض الشيء، وتعالت ضحكاتهم. صدحت أصوات المطربين بأجمل الأغنيات. لكن شيئًا مما سبق لم ينجح في التسرية عن الباشا.

كانت الأصوات الرتيبة الناتجة عن حركة الأنوال وآلات النسيج، المنبعثة من مختلف أنحاء المدينة، ترسل في نفسه عادةً إحساسًا بالسكينة والطمأنينة، لكنها في ذلك اليوم كانت تضرب رأسه بقوة، دون رحمة. لم ينتزعه من انزعاجه المتعاظم، إلا وصول حمامة زاجلة. ربّت على الطائر برفق، وهو يقرأ الخطاب الذي حمله له. تسللت السعادة إلى روحه الحزينة. شيئًا فشيئًا. حين قرأ المكتوب القادم من إسطنبول، تناسى ما سمعه مرات عديدة في الفترة الأخيرة: "في البداية، استدرجته الإمبراطورة إلى فراشها الحريري الوثير، ثم أغرقته بالرشاوى. لو لم يستسلم لها، لاستطعنا نزع العَلَم الروسي من كل مكانٍ في الأرض".

واصل التربيت على الحمامة، وهو يفكر فيما قرأه للتو. أبلغه الـ"بيلربي"، أو أمير أمراء الألوية - وهو أعلى مناصب الدولة العثمانية - بأنه سيُعادُ الجيش إلى إسطنبول بأسرع ما يمكن، وأنه مفوّض بتشكيل إدارة جديدة، له مطلق الحرية في اختيار أفرادها. أنبأه أيضًا أن أسرته في طريقها للحاق به في "حلب".

t.me/qurssan

أسعده الخبر الأخير على نحوٍ خاص، لاشتياقه إلى أفراد عائلته.

حين استأذن سيدي الحالي، "مُلا محمد"، من الوزير لتقديم عرضه. فعلَ بذلك أمام جمعٍ غفيرٍ من الحضور، من قادة الجيش، وكبار رجال الدولة في مدينة "حلب"، بالإضافة إلى مطربي البلاط، وموسيقييه وشعرائه. عندما انتهى "مُلا محمد" من ترديد عباراته المتوددة وتحياته المنمقة، وركع وانحنى، انتبه الوزير من شروده، وجفل في انزعاج متسائلًا:

- ما الأمر؟ ما معنى هذا؟

ثم استعاد هدوءه، وأومأ برأسه ليُظهِر موافقته على طلب "مُلا محمد".

ظن معظم الحاضرين أن شرود الباشا يعود إلى ما يعانيه من حزن بسبب ما يمر به. أما أنا فظننتُ أن مردّ ذلك هو الحيرة التي تتنازعه بين سعادته بالمعاهدة من الجانب الإنساني، وندمه عليها - في الوقت ذاته - من الجانب السياسي؛ لكنني أدركتُ لاحقًا أنه كان مستغرقًا في سلسلةٍ من الأفكار السعيدة.

ربّتَ على الحمامة للمرة الأخيرة، قبل أن يطلقها في الهواء. استعاد بهجته وأعلن بسرور:

- حسنًا.. لنمرح قليلًا!

صفَّق بكفيه في حماسة، ناظرًا إلى "مُلا محمد". أشار معاونوه إلى الخدم، لكي يرفعوا صينيات الطعام المستديرة، المصنوعة من النحاس، وأطباق الحلوى، والمفارش التي تغطي الموائد.

كنتُ قد أمضيتُ مع "مُلا محمد" وقتًا طويلًا. إنه رجلٌ كرديّ في الستينيات، يعرف أسرار الخيمياء، ويجيد السِّحر وعِلم الصنعة. حقَّق نجاحًا ملحوظًا بين الناس، بفضل أكثر من ألف حيلةٍ سِحرية قدّمها في الكثير من الدول والمقاطعات. بدأ انغماسه في العلوم الغامضة وأجوائها المبهمة، حين كان لا يزال طالبًا في المعهد الديني. وبسبب فضوله المتزايد لمعرفة كل ما هو غريب

t.me/qurssan

وغير مألوف، فقد أمضى سنواتٍ طويلة وهو يمارس التنجيم والتبصير والعِرافة من خلال الرمل، وسرعان ما استحالت ممارساته إلى نوعٍ من السِّحر. وعندما كانت الشعوذة محرّمة في الأراضي العثمانية، في ذلك الوقت، فقد وجد نفسه محاصرًا بالقوانين، ولم يكن بإمكانه ممارسة فنونه بحُرّية. اضطر للتنقل بين الأماكن المختلفة كـ"شبه جزيرة القِرَم"، و"ليتشيا"، و"والاتشيا"، و"مولدوفا"، كما زار جميع الأراضي الألمانية والسويدية. وبعد أن ذاعت شهرته في بقاع العالم المختلفة، عاد إلى "حلب" وقرر الاستقرار بها.

في الليلة التي سبقت انتحار "فروبيرجر" من قلعة "سيليسترا"، حملني إلى الضابط البولندي المنشق "جوستاف". خاطبه متوسلًا:

- بربّك، أيها الرفيق العزيز، احمِ هذا الكتاب بحياتك، ووَصِّلْهُ إلى مدينة "لوتسن" بألمانيا. سَلمه إلى الملكة "كريستينا". سوف تمنحك مكافأةً عظيمة.

لم يعرف "جوستاف"، الذي اشتُهر بين كل مَن في القلعة باسم "مصطفى"، بأن لقاءه بـ"مُلا محمد" - الذي سيقابله في "براندنبرج" - سوف يغيّر حياته ويقلبها رأسًا على عقب. واقع الأمر أن "جوستاف" تأثَّر بـ"مُلا محمد" تأثرًا شديدًا، منذ اليوم الأول لتعارفهما وأصبحا صديقين على الفور. انجذب "جوستاف" للعوالم الغامضة التي أدخله فيها رفيقه الجديد، والتي تتوافق مع طبائعه الشخصية، ووجدها أكثر إمتاعًا من حَمل كتاب إلى ملكة إحدى الدول الشمالية الباردة. وهكذا ترافَقَ الاثنان في رحلاتٍ مستمرة، زارا فيها "بوميرانيا" و"موسكو" و"أوتشاكيف" و"كراكوف"، و"بخارى" و"كابول"، وطافا خلالها بنُزُلٍ مهجورة، وقاعات تمتلئ بالجماهير المتحمسة، ومواقع لعروض السيرك، وملاعب وملاهٍ، وبيوتٍ فخمة، وقصورٍ عظيمة.

وبطبيعة الحال، اصطحباني معهما في جولاتهما التي لا تهدأ. ربما يجب عليّ إعلان شُكري لهما، فبسبب هذه الرحلات زرتُ أماكن كثيرة جدًّا من العالم، وفهمتُ - بشكلٍ أكثر عمقًا - خطط "جمعية

t.me/qurssan

بابل". لن أنسى ما حييت الفترات التي اقتربا فيها من شخصياتٍ عظيمة ومؤثرة كالحاكم البولندي "فلاديسلاس السادس"، وقيصر روسيا "ميخائيل الأول"، وكيف حلّا ضيفي شرفٍ لديهما؛ ولن أنسى كذلك الأيام التي لعبا فيها الشطرنج مع "شاه صافي" في إيران. سمحت لهما صداقتهما المتينة به، بهزيمته دون تردد.

في تلك الفترة، خالط خوفي من "جمعية بابل" استمتاعٌ هائلٌ بالمغامرات المتتابعة التي خضتها معهما.

حظــي الصــديقان بكــرمٍ غـير مسـبوق فــي ضـيافة حــاكم "أوزبكســتان"، وأمضــيا أسـعد أيامـهما هنــاك. فــي "سـمرقند" و"بخارى". قضيث فتراتٍ طويلة تمتدُّ إلى أربعين يومًا أو خمسين داخـل إسـطبلات حالـكة الظلمـة. شـاهدثُ الإنسـان وهـو يصـارع الخيول، في عروضٍ اجتذبت أعدادًا غفيرة من الجماهير، الذين تجمعوا للاحتفال بمهرجان الربيع المصاحب لعيد "النيروز".

أمضــينا نحـو ثمانيـة أعـوام فـي تلـك الأراضـي. راقبـتُ خلالـها الحسـناوات ذوات الأعـين اللوزيـة وهـن يحتفلن بـ"النيروز" في المناطق الواقعة خلف جبال "ألتاي"، وفي كل مرة أراهن فيها، تتجدد أشواقي إلى "ليلى".

في "آسيا الوسطى" أتيحت لي فرصة معاشرة البسطاء، وتعرفتُ إلـى أشـخاصٍ مـن قبيلـة "بيـات" التي تعود إليها أصول سيدي "فضولي".

خلال جولاتنا المتواصلة، بدأ غلافي وصفحاتي في الاهتراء. في تلك الفترة، توفي "كولي خان"، أحد أبرز رجال الدولة المغول؛ كما تلقينـا دعـوةً مـن أمـير الألويـة فـي "حلب" لزيارة المدينة، نظرًا لاهتمامه بكل ما هو غريب. في تلك المرحلة من حياتي، بدأتُ أدرك أن ارتبـاطي بـ"جمعية بـابل" ولصـوصها أمرٌ لا مفرّ منه. لا يمكنني البقاء معهم، ولا يمكنني البقاء بعيدًا عنهم.

ردًا على دعوة زيارة "حلب"، قال "جوستاف" لـ"مُلا محمد":

- صديقي العزيز! لو لم أغادر قلعة "سيليستا" في الأساس، لربما

t.me/qurssan

استطعتُ مواصلة حياتي في بلدٍ مسلم، ولكن بعد انغماسي في حياة اللهو والمَسرّات والأمور الدنيوية، وبعد بلوغي الستين وتراجع صحتي، فإنه لم يعد بإمكاني الاستمرار في هذا النفاق وادّعاء الإيمان، والعيش مسلمًا.

ودّع "جوستاف" صاحبه، ومنحني إياه كهديةٍ للذكرى.

حين تعارفا في "براندنبرج"، لم يكن "جوستاف" يضع العمامة الإسلامية على رأسه، بل قبعةً يرتديها البولنديون. في تلك الليلة، خبّأني تحت قميصه، وغادر قلعة "سيليسترا" متخفيًا، بعد أن غطى ثيابه ومعطفه القصير بدم أرنب. ألقى ملابسه تلك على ضفة نهر "الدانوب"، كي يظنَّ الناس - كما في قصة نبي الله "يوسف" - أن الذئب قد أكل "مصطفى تشافوش"، فلا يبحثون عنه. عند اقترابه من "والاتشيان"، كان قد تخلص من كل ما يمكن أن يشير إليه كونه شخصًا مسلمًا. لم يعد "مصطفى"، بل رجع إلى أصله.. "جوستاف".

في الشهر الثاني على تعارفهما، أخرجني "جوستاف"، كي يريني لـ"ملا محمد". قصّ عليه حكايتي، وصارحه بما طلبه منه "فروبيرجر". في الواقع، لم يصدّق "مُلا محمد" هذه القصة، وظن أن شخصية "فروبيرجر" من نسج خيال صاحبه، فلم يُبدِ أي اهتمام بضرورة وصولي إلى الملكة السويدية. بالنسبة له، كان امتلاك كتابٍ تركيٍ، في تلك الأراضي الغربية البعيدة، أمرًا مثيرًا. أكثر إثارةً مما قصّه صديقه عن المؤامرات والدسائس. في السنوات التالية، انغمس "جوستاف" في تعاطي الأفيون وممارسة السحر، واكتشف أن الحياة الجديدة التي يعمل فيها مساعِدًا لـ"مُلا محمد" أفضل بكثير من حياته كأحد نبلاء القصر السويدي. كلما خطر "فروبيرجر" في خياله، تنهد في ضيق، وواسى نفسه بأن عروضه مع "مُلا محمد" قد تحمله في يومٍ ما إلى القصر السويدي، حيث سيتمكن من تسليمي للملكة. لكنه، مع ذلك، لم يناقش المسألة من جديد مع سيده "محمد".. لقد صار يخاطبه بلقب "سيدي".

t.me/qurssan

امتازت حياتهما معًا بالرضا والسعادة. والحقيقة أنني - بدوري - شاركتهما تلك السعادة. كانا يقدمان عروضًا تتسم بالخطورة أحيانًا، وبالمرح في أحيانٍ أخرى. قد يتبارزان بالسيوف، وقد يقطع أحدهما الآخر إلى نصفين ثم يعيد تجميع جسده من جديد، وقد يضع أحدهما رفيقه داخل برميل يدحرجه من أعلى جرف جبلي. في بعض العروض، يتشاركان ابتلاع الفئران الحيّة، أو يجعلان من نفسيهما هدفًا لأنياب الثعابين. اشتركا في "مهرجان ألعاب الخِفة والأكروبات" الذي يُقام في مدينة "أصفهان" كل خمسة أعوام، وتنافسا مع زملائهما في المجال. حمل كل واحدٍ منهما حَمَلًا على ظهره، وسار بحذر على حبلٍ مشدود فوق هوةٍ عميقة، مرتديًا خُفًّا من اللباد. ركضا بين الناس وهما يحملان أباريق مليئة بالنبيذ تستند على أطراف أعمدة يحملونها بين أسنانهما، محدثين حالة هرج ومرج بين الجمهور الضاحك. حين ينتهي العرض، ويخفت التصفيق، يمدّان كوبًا مصنوعًا من قشور جوز الهند للمتفرجين، ليضعوا فيه ما تيسر من المال. يغادران أرض المهرجان، والعرق لا يزال يتصبب منهما، بعد الفقرة الأخيرة التي يتبارزان خلالها بالسيوف، وهما مُعَلّقين في الهواء، عبر ربط خصلات شعريهما في بَكَراتٍ قوية تتدلى من حبالٍ تمتدّ على مسافات شاهقة الارتفاع. تعينهما النقود التي حصلا عليها في تناول وجبةٍ شهيةٍ من لحم الضأن، والأرز المعطّر بالزنجبيل، وعدة أنواعٍ من الحلوى. يفترق الصديقان بعدها. يرتمي "جوستاف" في أحضان إحدى صديقاته القوّادات، ومعه زجاجة نبيذ وعلبة صغيرة من الأفيون؛ بينما يتوضأ "مُلا محمد" ويلجأ إلى سجادة الصلاة التي تبعث بداخله إحساسًا هائلًا بالاطمئنان والسكينة.

t.me/qurssan

اـ نُظهر

t.me/qurssan

الصديقان قط اهتمامًا باختلاف قوة تديّن كل منهما عن الآخر،

t.me/qurssan

ولم يتناقشا في مسألة الدين من الأساس. درس أحدهما العربية

t.me/qurssan

والفارسية في معهدٍ ديني، بينما تعلَّم الآخر البولندية والألمانية

t.me/qurssan

والروســية منــذ نعومـة أظفـاره. حـين يكونـان مـعًا، بمفردهمـا،

t.me/qurssan

يتبادلان الحديث بالتركية. ساعدتهما إجادة اللغات الأخرى في

t.me/qurssan

الحصول على عمل في البلدان التي يزورانها. أمضيا معًا 35 عامًا

t.me/qurssan

من التسكع والتشرد.

عندما وقف "مُلا محمد" بمفرده أمام الوزير العثماني "محمد باشا البلطجـي"، هاجمه للمرة الأولى إحساسٌ شديدٌ بالألم والعذاب لفراق صديقه المخلص "جوستاف". قال لنفسه بمزيج من الغضب والحزن: "لطالما نصحته بالإقلاع عن الخمور والأفيون. مَن يدري؟ لعلـه يصـارع المـوت الآن فـي حظـيرةٍ قذرةٍ فـي "بخـارى" عقب إفراطه في تناول المخدرات".

قرر أن يقدِّم أفضل عروضه، إكرامًا لصديقه الذي يجهل مصيره. أراد أن يحظى بإعجاب الوزير، وأن يرفع عنه سحابة الحزن التي تُظلِّله. رغب في أن يصبح من حاشيته والمقربين إليه. كان عليه

t.me/qurssan

أن يقدم عرضًا مبهرًا، غير مسبوق.

انحنى ثانيةً أمام الوزير، ثم حيّا الحضور باحترامٍ بالغ، وهتف قائلًا:

- شاركوني الدعاء من فضلكم.

سكت بُرهةً، ثم قال:

- أطال الله عُمر وزيرنا العظيم، وأدام علينا عِزّهُ وكرمه. لعن الله "فيثاغورس"، ورحم أرواح عالِمينا "ابن سينا" و"أبي حارث".

أغمض عينيه وراح يردد تمتماتٍ مبهمة، عدة دقائق. صاحبته دقاتٌ هادئةٌ من طبول عازفي القصر، ومعها رنين أجراس رتيب من أفراد الفرقة الموسيقية. تداخلت أصوات الطبول والأجراس، وبدأت تتعالى بإيقاعٍ منتظم. رفع "مُلا محمد" صوته، معلنًا:

- أرجو الانتباه! إن كنتم تتمتعون بالشجاعة، فلن تخافوا مما سأقدمه لكم؛ أما إن كنتم تشعرون بالقلق، فأرجو أن تتكرموا بمغادرة القاعة الآن.

لم يغادر أيٌّ من الضيوف الذين امتلأت بهم قاعة القصر الفسيحة، بل تسمَّروا في أماكنهم وقد استبدَّ بهم الشوقُ لمتابعة العرض الوشيك.

خلع "مُلا محمد" ملابسه، قطعةً قطعة، إلى أن أصبح عاريًا تمامًا. تعالت همهمات الحضور في دهشةٍ واستنكار. عاجلهم بالقول:

- سادتي الأفاضل، وإخوتي الكرام.. كما ترون أمامكم، أنا رجلٌ بلا أعضاء تناسلية. بل وليس لديَّ مؤخرة أيضًا!

تأمل الحاضرون جسده العجيب، وسرت بينهم الهمسات والهمهمات:

- ما هذا؟ أي نوعٍ من المخلوقات هو؟ جسده مسطحٌ تمامًا كلوحٍ من الخشب! هل يأكل ويشرب مثلنا يا ترى؟

t.me/qurssan

طاف "مُلا محمد" بالقاعة، ثلاث مراتٍ متوالية. توقف وأخرج من الجِوال القذر - الذي حملني فيه من "سمرقند" إلى "حلب" - مئزرًا يمنيًّا من نسيجٍ ناعم. لفَّه حول النصف السفلي من جسده، ثم بدأ يرفرف بذراعيه، كطائرٍ يحطّ على سطح الماء. ارتفعت قدماه عن الأرض، وبدأ يطير بمحاذاة الحوائط المرتفعة للقاعة، وهو يحيي كل شخصٍ باسمه:

- مرحبًا يا أبا فلان! كيف حالك يا ابن فلان الفلاني؟ أهلًا بالسيد كذا..

كنتُ قد شاهدتُ هذا العرض مراتٍ عديدة، وفي كل مرة أستمتع برؤية اندهاش الناس وهم يتابعون إنسانًا يُحلِّق فوق رؤوسهم كطائرٍ كبير، وتزايد دهشتهم وهم يسمعون أسماءهم وألقابهم على لسانه.

امتلأت القاعة فجأة بصيحات الضيوف المعترضة والمستاءة، بعد أن خلع مئزره. تداخلت صيحاتهم في غضب:

- عارٌ عليك!

- ألا تستحي يا رجل؟

- غطِ عورتك أيها الحقير!

- ظننتُ أنه لا يملك عضوًا تناسليًّا!

راح "مُلا محمد" يتبول على الضيوف، الذين تدافعوا وهم يهرولون مبتعدين. تذكرتُ الطريقة التي استقبلت فيها نبيلات القصر الروسي هذا العرض عينه، وكيف تصرفن بهدوءٍ وثباتٍ يفوق ما أراه من الرجال هنا!

في النصف الآخر من القاعة، حيث جلس الوزير وأمير ألوية "حلب" على أريكتين وثيرتين، ارتفعت القهقهات المتواصلة. ضحك الرجلان طويلًا على منظر قادة الجيش وكبار أعيان المدينة وهم يتراكضون في فزعٍ وغضب، في كل اتجاه، وقد تبللت ثيابهم.

t.me/qurssan

تواصل صياح الناس:

- إذا لم يكن له عضوٌ تناسلي، فما هذا الذي يمسك به بين يديه؟ وما نوع هذا السائل الذي ينهمر علينا؟

التفت "مُلا محمد" إلى الوزير:

- فلتتكرم سيادتكم بإصدار الأوامر بإغلاق بوابات القاعة بإحكام، وسَدّ أي فتحاتٍ بها.

وعلى الرغم من أنه كان يخاطبه باحترامٍ بالغ، فإنه - في الوقت ذاته - كان يهزّ عضوه مهددًا، وكأنه سيتبول عليه إن لم ينفذ له طلبه. قال الباشا ممازحًا وسط ضحكاته:

- اضربوا هذا الحقير بالنار!

لكن أحدًا لم يتحرك لتنفيذ هذا الأمر، بطبيعة الحال. طلب الباشا من رجاله إغلاق الأبواب وتغطية فتحاتها المختلفة، بينما واصل "مُلا محمد" ملاحقة الضيوف والتبول عليهم، وهم يحاولون الفرار منه. ارتفع منسوب المياه داخل القاعة، شيئًا فشيئًا، وتعاظم إحساس الناس بالخطر. مَن يعرفون السباحة، بدؤوا يسبحون لإبقاء رؤوسهم فوق الماء، أمَّا من لا يجيدونها، فقد أخذوا يتسلقون الجدران والبوابات. سرعان ما صار السابحون أشبه بضحايا سفينةٍ غارقة، أو فيضانٍ عنيف. بدؤوا يصارعون من أجل البقاء على قيد الحياة، وتعالت صرخاتهم اليائسة تطلب العون والغوث.

بدأ الوزير نفسه يشعر بالقلق والتوتر، وفارقه الشعور بالاستمتاع. قال أمير الألوية مطمئنًا:

- لا تخشَ شيئًا يا سيدي. إنه مجرد عرضٍ يتسم ببعض الخطورة، لا أكثر.

لاحظ "مُلا محمد" جَزَعَ الباشا، فقرر إنهاء فقرته. هبط على الماء كطائر نورس. أخرج من جِواله سلطانيةً خزفية، وقرعها بطرف

t.me/qurssan

سبابته. نتج عن ذلك صوتٌ مدوٍ، انبعث في أرجاء القاعة. تسمّر الناس في أماكنهم، كما لو كانوا من أهل "سدوم" و"عمورة". استعاد "مُلا محمد" مظهره الأول، دون عضوٍ تناسلي أو مؤخرة، ثم اقترب من الباشا معتذرًا. لثم طرف ثوبه، وقال:

. فلتغفر لي جرأتي يا سيدي.

ارتدى ملابسه وهو ينظر إلى الضيوف الذين تعلقوا بالحوائط وتدلوا منها، كما لو كانوا خفافيش. وقف بعضهم في الماء وهو يردّد الشهادتين، موقنًا بموته الوشيك. صاح الباشا منزعجًا:

- أنقذ هؤلاء الرجال من فورك!

هزّ "ملا محمد" السلطانية بيده، فانحسر الماء واستعاد الناس وعيهم وهدوءهم. تناثروا في أركان القاعة الفسيحة، شاعرين بحرجٍ بالغ، وهم يحاولون تغطية عوراتهم، بعد أن خلعوا ملابسهم حين ارتفع الماء، محاولين تجنب الغرق. تداخلت أصواتهم المتسائلة:

- أين ملابسي؟

- أين خنجري؟

- من أخذ سيفي؟

استمتع الوزير بالمنظر، لكنه انزعج في الوقت ذاته من الإهانة التي تعرض لها ضيوفه، وبخاصة قادة الجيش، الذين اضطروا للوقوف عرايا، أمام العامة من الحضور. التفت الوزير إلى الحرس، وصاح بحنق:

- ألقوا القبض على هذا المجرم، واشنقوه فورًا. علّقوه على هذه البوابة في التوّ!

حاول أمير الألوية التدخل، واستأذن الوزير في أن يعفو عن الساحر. قلتُ لنفسي في جزع: "يا للمأساة! سوف يقتلون الرجل المسكين!"

t.me/qurssan

قال "مُلا محمد" متوسلًا:

ـ لسيادتكم مطلق الحرية في الحكم عليّ بما يرضيكم، ودمي فداءٌ لكم يا سيدي، لكنني أستأذنك في طلبٍ أخير.. أرجو أن تتكرم بالسماح لي بأن أصلي ركعتين أولًا، وأن تشنقني بالحبل الخاص بي.

أجابه الباشا بغيظ:

- "مُلا محمد"! أنت تستحق عقوبة الإعدام منذ زمنٍ طويل. على أي حال، لكَ ما طلبت.

كنتُ قد اعتدتُ صحبته. ما الذي سيحدث لي الآن، يا ترى؟ حين كنتُ أجوب العالم معه، استعدتُ ذكرياتي مع "ليلى" و"روكال"، وطفتُ الأماكن التي عاشتا فيها، وشممتُ أريج الأزهار على

t.me/qurssan

الجبال التي عرفتاها. أيّ آمالٍ عظيمةٍ حملناها معنا عندما جئنا إلى "حلب"؟ كان ينوي الاستقرار هنا، والتوبة عن أعمال السِّحر والشعوذة. أراد نيل السكينة عبر مقاسمة دراويش المولوية حياتهم. كان من المقرر أن يلتقي الشاعر الشهير "نابي أفندي" في الغد، ليتناقشا في أمور الشِّعر، ويتحدثا عني وعن سيدي "فضولي".

فكرتُ في كل ذلك، شاعرًا بالأسى يغمر روحي. توضأ "مُلا محمد" في وسط القاعة، ثم صلى ركعتين. كرر استجداءه العفو من الباشا، باكيًا. كفكف دموعه بيديه، وسار باتجاه جِواله. مدّ يده بداخله، وتحسس الكيس المصنوع من قماشٍ حريري - والذي احتفظ بي بداخله سنوات - بخفةٍ بالغةٍ، دون أن يلاحظه أحد. لف خيوطًا من نسيج الكيس حول يده. أدركتُ بأنه بصدد الإقدام على تنفيذ خُطةٍ ما. أشعرني ذلك بالارتياح.

سرعان ما استحالت الخيوط بين أصابعه إلى رباطٍ متين يصل طوله إلى نحو عشر أذرع. ناوله لضباط الباشا ببسالةٍ وجسارة، قائلًا:

- تفضلوا. عليكم تنفيذ الأوامر.

أحس الحاضرون بتعاطفٍ بالغٍ مع "مُلا محمد". حاول بعضهم التوسط لدى الباشا كي يعفو عنه، لكن نظرات الوزير الحازمة، وملامح وجهه التي ازدادت صرامة، جعلتهم يتراجعون في حرج. فاضت عينا أمير الألوية الحلبي بالدمع. وحتى من كانوا يشعرون تجاه "محمد" بالغيظ والحنق والرغبة في الانتقام، منذ قليل، امتلأت قلوبهم بالشفقة حياله، وأخذوا يبتهلون إلى الله كي يرحمه من هذا المصير المؤسف. قالوا لأنفسهم إن الرجل لم يخطئ. لقد حذرهم قبل تقديم عرضه، وطلب ممن لا يتحلى بالشجاعة الكافية، المغادرة. هم من أخطؤوا حين لم يتركوا القاعة. دنا شيخٌ مسنٌّ تجاوز السبعين من الباشا، وقال له:

- سيدي الوزير، أرجو أن تسامح هذا المسكين. أنت تعلم جيدًا فضيلة العفو عند المقدرة. اعتبر ما حدث ضربًا من ضروب اللهو

t.me/qurssan

والتسلية، لا أكثر.

قال الباشا في حزم:

- فلتعلم أيها الشاعر أنني لن أسمح أبدًا بإهانة قادة جيشي. لا تتدخل في الأمر.

تجمع القادة في أركان القاعة، وقد تزايد إحساسهم بالحرج. كان الوزير يدرك أن اثنين، على الأقل، من أولئك الضباط، لا يتمتعون بأي فضيلةٍ تجعلهم يستحقون دفاعه؛ وأن عددًا لا بأس به منهم هم مَن ألَّبوا العساكر عليه، ونشروا إشاعاتٍ عنه. أضاف مؤكدًا موقفه:

- إن هـؤلاء الجنـود هم رجال مولاي السلطان، وينبغي التعامل معهم بأقصى درجات الاحترام.

كان الباشا يسعى للتقرب من الجيش، بأي ثمن.

نظر "مُلا محمد" إلى الباشا، للمرة الأخيرة، وسار بخطواتٍ ثابتة باتجاه الحبل المعلق أعلى بوابة القاعة. خاطبه قائلًا:

- أسـتودعك اللـه أيـها الباشـا العزيز. أدعـو لسيادتكم بكل الخير ودوام الصحة والعافية.

وضع رأسه داخل حبل المشنقة، وهو يتلو الشهادتين. لم يقترب أي من الحرس لشدّ الحبل حول رقبته. وقفوا يتابعونه وقد فغروا أفواههم في دهشة، بضع دقائق. كان الحبل قد بدأ في التحول إلى ثعبانٍ بالغ الضخامة، بجلدٍ متعدد الألوان. امتطاه "محمد" كما لو كان حصانًا. استمر الثعبان في التضخم. بدأ الناس يفرون من أمامـه فـي رعـب. خـلال نصف دقيقة، تحول الثعبان إلى تنين بسبعة رؤوس، وبدأ يركض على قدميه، باتجاه باب القصر. راقبه الجميع في صمتٍ وذهول، وهو يسارع بالهروب نحو الجبال.

تخبّط الجميع، والباشا أولهم، وكأنما قد استيقظوا للتوّ من نومٍ عميق. حاول الباشا أن يتغلب على إحساسه بالحرج البالغ، فصاح في أحد جنوده:

t.me/qurssan

- أحضر لي جِوال ذلك الملعون!

فتح الجندي الجوال بتخوف، وأخرج محتوياته شيئًا تلو الآخر. بعض المواد الكيميائية، التي تسببت في إغمائي عدة مرات بروائحها الخانقة. عقربٌ محنط. حشراتٌ مجففة. جلود ثعابين. رؤوس خِراف وماعز. خَل. نبيذ. زجاجة قطران. خيوط من وبر الإبل. بقايا أقمشةٍ قديمة. حوافر خنازير وبِغال. شمع نحلٍ ملوّن. نملٌ وصراصير داخل علب صغيرة. لفافة ورق. سكين إسكافي مقوّسة، ومقص. أغلفة كتب. أطباقٌ صغيرة رُسِمَت عليها مناظرُ حربية. خنجرٌ مرصّع بالأحجار الكريمة. نسخةٌ من ملحمة "الشاهنامه"، للكذاب المُبهِر "الفردوسي". وأخيرًا.. أنا.

تساءل الباشا في حيرة:

- هل هذا الشخص كافر؟ ما الذي يجعله يحمل زجاجةً من النبيذ معه؟

قال أمير الألوية:

- كلا. يشهد الله أن هذا الرجل، خلال إقامته بيننا في الأسبوعين الماضيين، كان يصوم نهارًا، ويمضي أغلب ساعات ليله في الصلاة والعبادة. إنه يستعين بالنبيذ، وبكل ما رأيناه للتوّ، في تقديم عروضه، وهي كلها أشياءُ زهيدة الثمن، لا يتجاوز سعرها دينارين عباسيين، بأي حالٍ من الأحوال. معظم ما يفعله يعتمد على الخِفة والخداع البصري، كما رأيت. لقد دهن جسده بالزيوت، حتى نظن أن نصفه السفلي مسطح وبلا أعضاء. لقد سكبَ الماء على الحضور، من أباريق صغيرة، وظنَّ الجميع أنه يتبول عليهم. لقد حاول إضحاكنا، ولم يتعمد إهانتنا أو مضايقتنا، في الحقيقة.

فكر الوزير قليلًا، ثم أومأ برأسه موافقًا:

- أنت محقٌّ يا سيدي.

أضاف:

t.me/qurssan

- لقد حوَّل خيطًا حريريًّا إلى تنين. لقد ذكرني ذلك بمعجزة سيدنا "موسى" عليه السلام. فليحفظه اللّٰه، أينما ذهب. ليمارس فنونه، كيفما شاء، وليعبد الله كما يريد. على أي حال، يبدو أن "مُلا محمد" قارئٌ نَهِم. انظر إلى هذه النسخة المنمقة من الـ"شاهنامه"! لم أرَ لها مثيلًا يضاهيها في الجمال والإتقان، حتى في خزائن القصرا يا لروعة الرسوم التي تزينها!

قال مخاطبًا الشاعر السبعيني الذي حاول التوسط للعفو عن "ملا محمد":

- تفضل. ألقِ نظرةً على هذه النسخة من "ليلى والمجنون"، التي نظمها الشاعر "فضولي" البغدادي. إنها لا تليق إلا بشاعرنا العظيم "يوسف نابي".

تناولني الشاعر شاكرًا. تأمَّل الأرقام المسمارية المكتوبة أمام أبياتي، متسائلًا في حيرة عن سبب تدوينها على هذا النحو. قال في سرّه بإعجابٍ صادق: "كم كنتَ عظيمًا يا سيد "فضولي"! لو احترقت جميع كتب العالم، ولم يبقَ منها سوى ديوانك، لكان كافيًا لبيان روعة الأدب والشِّعر. رحمك اللّٰه".

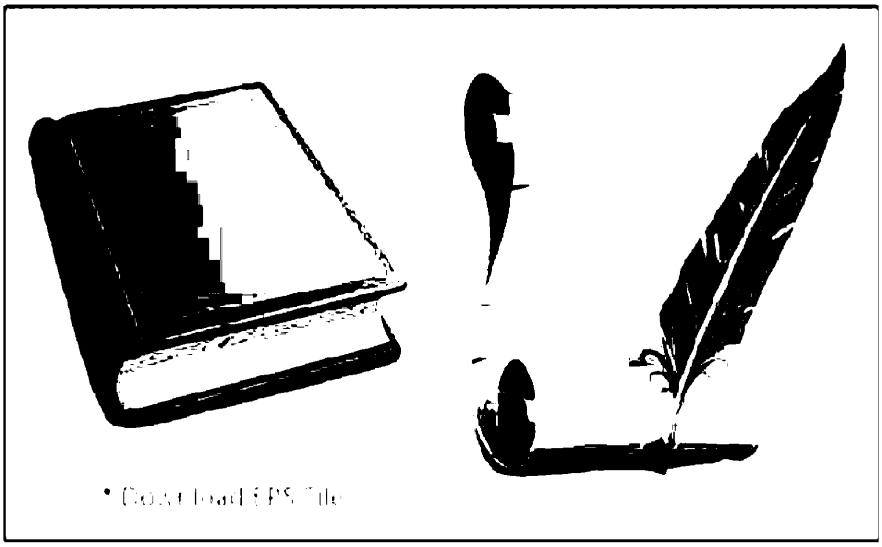

حبيبتي "ليلى".. يا صاحبة العينين النجلاوين، والرائحة العَطِرة، كانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها "مُلا محمد". سوف أفتقده وأشتاق إليه. ليس بقدر حنيني إليكِ طبعًا، لكن الصداقة التي جمعتني به كانت متينةً وقويةً، بشكلٍ لم أعهده مع غيره. أعتقدُ جازمًا أنه حين تركَ الأدوات التي يستخدمها في عروضه

t.me/qurssan

السحرية، داخل قصر مدينة "حلب"، فإنه كان سعيدًا ويشعر بارتياحٍ بالغ لم يعرفه منذ سنوات. أغلب الظن أنه التحق بأحد التكيات الصوفية، وصار واحدًا منهم. ومن يدري كيف أنتِ الآن يا حبيبتي؟ لعلكِ سلطانة أحد البلدان البعيدة. كم أشتاق إليكِ! أتوسل إليكِ.. أرسلي لي شذاكِ مع نسمات الفجر، حتى أطمئن عليكِ.

t.me/qurssan

24 شعراء "حلب" العثور على "ليلى"

صار الناس أساتذة في المكائد والمؤامرات

حتى أقلّتْ شهرةُ إبليس في هذا المجال

(الشاعر "نابي")

خاطبه الوزير "محمد باشا البلطجي" بـ"الشاعر". عرفتُ لاحقًا، من استماعي للحوارات والمناقشات الأدبية التي يعقدها في منزله، أن الناس يشيرون إليه بـ"أفضل شعراء الأناضول قاطبةً". ملامح وجهه، ذو السُمرة الخفيفة، تنبّئ على الدوام بما يعتمل في روحه. اعتمد في نتاجه الشّعري على عقله وخبراته الحياتية، التي تمتد لأكثر من سبعين عامًا، وليس على عواطفه ومشاعره الفيّاضة، كما في حال سيدي "فضولي". اعتاد "فضولي" أن يعبّر في أشعاره عن أحاسيسه المختلفة، أمّا "نابي" فإنه ينقل للقارئ أفكاره. وبينما كان الإنسان هو محور أعمال "فضولي"، فإن المجتمع هو أساس قصائد "نابي". عمد الأخير إلى جعل أعماله كالمرايا التي تعكس العيوب الجليّة للمجتمع المتقهقر، الذي سرى الضعف في معظم مجالاته.

في تلك الفترة، بدأ الشّعر الأناضولي في التشكل، واتخذ لنفسه قوالب جديدة، متميزة.

t.me/qurssan

كانت القوافل التجارية، والقوافل الدينية التي تحمل الحجّاج وهدايا السلطان العثماني الفاخرة إلى ولاة مكة وأعيانها، تجلب في أثناء مرورها بـ"حلب" أحدث ما نظمه شعراء "إسطنبول". يقرؤها "نابي" بتمعن، ثم يعيد إرسالها إلى أصحابها، مرفقًا بها ملاحظاته عليها، وكثيرًا ما دوّن بعض أبياتي كنموذجٍ ينبغي الاحتذاء به عند كتابة القصائد. "نابي" مُعلّم شِعر في الأصل، ويميل إلى الاتجاهات الفنية في الأدب، وهو ما يذكرني بـ"ذاتي أفندي"، الذي كان حريصًا على تعليم طلابه في صحن جامع "بايزيد" الأوزان والبحور.

يبدو أن أعداد الشعراء العثمانيين قد تزايدت وتضاعفت، خلال السنوات التي أمضيتها في التنقل بين دول الشمال القارسة البرودة، عقب تهريبي من قلعة "سيليسترا".

وحين فكرتُ في ذلك، تذكرتُ "جمعية بابل" مرة أخرى: "لو كنتُ بين يدي "مردوخ"، أو أيٍّ من أعوانه الكِبار، لتعلمتُ أمورًا كثيرة.. لا بالإنصات وحده، بل بالمشاهدة أيضًا".

هناك ما يشبه المعاهدة السِرّية بين الشِّعر والمجتمع. عندما أهرب من أحدهما، أقع بين يديّ الآخر. سرعان ما يلفظني من أكون

t.me/qurssan

لديه، فأعود لمكاني الأول من جديد.

لماذا لا تبحث عني الجمعية طوال الوقت، أو تهتم بالاستفسار عن مكاني؟ إن كانوا يبحثون عني، فلمَ لمْ يجدوني حتى هذه اللحظة؟ لعل خططهم غير مدروسة وغير محكمة.. أو ربما نجحوا في الوصول إلى التماثيل الذهبية، ولم يعودوا بحاجةٍ لي. هذا أمرٌ فظيع، فأنا لم أكشف لهم عن جميع أسراري بعد. لا يزال هناك بضعة أبيات يمتزج فيها الحب بالغموض، لم يلحظوها بعد. لقد نظمَها سيدي "فضولي" بمهارة وجهد كبيرين. هل ذهبت جهوده سُدًى؟

ولماذا يهتم بي كبار أعضاء "جمعية بابل" وحدهم؟ أين الشعراء إذًا؟ هل بإمكانهم اكتشاف الثقب الأسود، إن أظهروا بعض الحماسة لدراسة علوم الفضاء؟ على عكس حكماء "بابل"، فإن الأدباء العثمانيين غير متعمقين في علوم الفلك، للأسف الشديد؛ فالشمس في نظرهم هي السلطان الذي يهيمن على السماء، ويحكمها. وفي حين تعامل البابليون مع الكواكب والأجرام السماوية كآلهةٍ مبجلة، يراها العثمانيون خدمًا للشمس.. القمر هو وزير السلطان، وعطارد كاتبٌ لديه، والمريخ قائد جيشه، أمّا المشتري فأحد قُضاته، بينما زُحَل فهو حارسه. أمّا الزهرة فمن ضمن موسيقييه. كان الشاعر "نفعي" يعرفهم تمام المعرفة، ولطالما ذكرهم في قصائده.

بعد مقتل "نفعي"، ظهر الكثير من الشعراء الأتراك الذين ساروا على نهجه، ووصفوا السلطنة العثمانية بالشمس التي تزين السماء. وكما هو واضح، كانوا جميعًا يجهلون الكنوز المخبأة تحت معبد "زقورة" بـ"بابل"، والمتمثلة في الآلهة الذهبية. تعامل الباشوات والنبلاء والأثرياء مع الشعراء الجدد بقدرٍ وافرٍ من الاحترام والإجلال، فقد واصل الشِّعر ازدهاره في هذه الأراضي الدافئة، حين كنتُ أجوبُ المدن والبلدات المغطاة بطبقاتٍ من الثلج.

في هذه البلاد الدافئة، تنافس أرباب البيان والفصاحة في نظم

t.me/qurssan

قصص الحب في قصائد خلّابة؛ أمّا في الغرب، فقد أسهب الكُتّاب في وصف مواقف عاطفية مشابهة، وزوّدوها بحواراتٍ نثريةٍ طويلة، وأطلقوا عليها اسم "روايات"!

في بعض الأحيان، استحال التنافس بين الشعراء إلى شجارات وخصومات، ومزايداتٍ شرسة. نجح "مصطفى نايلي" في اجتذاب محبي الأدب لأعماله، عبر كلماته مفرطة الرِقة. فعل ذلك أيضًا الشاعر "أنتشوزاده فهيم"، بقصائده العذبة. أما الشاعر "ناظم"، فقد تميز بقصائد النعت، بينما حظي الشاعر "عثمان زاده طيب" برضا القصر. "سنبل زاده وهبي"، من جانبه، اتبع خطوات "نابي"، ونَظَمَ قصيدةً ينصح فيها ابنه "لطف الله" بخلاصة خبرته في الحياة، أطلق عليها اسم "اللُطفية". "ثابت أفندي" كان أكثرهم تميزًا. امتلأت الساحة الأدبية العثمانية بالعديد من الشعراء الرائعين.

في حديثه عن الفن، قال "يوسف نابي"، الذي يتزايد إعجابي به يومًا بعد يوم:

- إن الهدف الأساسي للفن هو التجديد والابتكار والجمال.

كان نتاجه الأدبي جميلًا حقًا. ينافس في جماله الواحات الخضراء المتناثرة في صحراء الحجاز.

في منزله الفخم، المطل على بيوت "حلب"، التي تبدو من بعيد كأمواج البحر المتتابعة، لبياضها الناصع وقُربها من بعضها، يستقبل "نابي" يوميًا عند الغروب ضيوفه من صفوة رجال المدينة، ليناقشوا قضايا الأدب والشعر. على هذا التَل، عاش أول ملوك "حلب"، "ياريم ـ ليم الأول"، قبل قرونٍ بعيدة، وهنا أيضًا شيّد الملك الحيثي "سابيلوليوما الأول" قصره الشهير. توارث أجيالٌ من النبلاء العَيش على هذه الرابية، التي اشتهرت بجمالها الخلاب وعشق سكانها للموسيقى والأدب، وتمتعهم بالعقول النيّرة والبصيرة. كان "يوسف نابي أفندي" قد غادر "إسطنبول" عند بدء انتشار الطاعون بها، منذ سنواتٍ طويلة، واستقر في "حلب" التي أعجبه ماؤها وهواؤها. حين قام بمدح السلطان

t.me/qurssan

"محمد الرابع" - الذي اشتُهر بلقب "القنَّاص" - ببعض القصائد الجيدة، تكرّم الأخير بمنحه مزرعةً يتوسطها هذا المنزل الجميل.

بعد أن امتطى "مُلا محمد" التنين، وفرّ هاربًا من قصر "محمد باشا البلطجي"، صار الباشا وأمير ألوية "حلب" يداومان على التردد على منزل "نابي" للاستمتاع بأحاديثه الأدبية، وكثيرًا ما أغدقا عليه المال، وساهما في دفع نفقات اللقاءات اليومية التي يعقدها. في أحد تلك اللقاءات، أنشدت فرقة غناء البلاط عددًا من الأغنيات التي يحبها "البلطجي"، ثم ترنموا بأحدث غزليات "نابي أفندي". بعدها، ألقى المضيف نفسه قصيدةً غنائيةً جديدة، إكرامًا لضيفه العزيز. انعكست انفعالاته على ملامح وجهه، وحركات يديه، ونبرات صوته. تفاعل الباشا مع الأبيات، وأحس بسعادةٍ وعرفان عظيمين. أسكرته الكلمات بالغة العذوبة، التي كالت له المديح بزُقيٍ. أصغى الباشا بانتباهٍ واستمتاع، وفور انتهاء الشاعر من الأبيات الأخيرة القائمة على الدعاء بالخير للوزير، هتف الأخير بحماسة:

- اطلب ما تريد، ولك ما شئت!

أضاف بإعجاب:

- كلامك حلوٌ مثل السُكّر. لو كان الأمر بيدي، لملأتُ فمك بحبّات الألماس!

- سيدي العظيم.. عباراتك تشعرني بالحرج. يكفيني أن تتنازل وتقبل صداقتي. لا أريد أكثر من ذلك.

- ومن الذي لا يرغب في نيل شرف صداقتك، أيها الشاعر المبجل؟

أضاف الوزير:

- عليك أن تطلب شيئًا يا سيدي. طلبك أمرٌ واجب التنفيذ.

هذه المرة، تحدث "نابي أفندي" بجرأة، ودون ذرّة تردد:

t.me/qurssan

- أريد خادمةً ذات صوتٍ حسن. حبّذا لو كانت تجيد الكتابة، حتى أملي عليها قصائدي، فتدوّنها لي.

- سأمنحك ما هو أفضل من ذلك. لك مني جارية تلبي كل طلباتك، بدلًا من مجرد خادمة. سوف أرسلها لك في الغد.

- بوركتَ يا سيدي. هذا أفضل طبعًا!

ليلًا، أمسى اللقاء أكثر حيويةً. تبادل الحضور إلقاء قصائد "حافظ" و"علي شير" و"حكمت"، وقيّموا شعراء مختلفين، عبر مناقشاتٍ ساخنة. ردد بعضهم أبياتًا بالعربية والفارسية، ما زاد من بهجة الضيوف واستمتاعهم. قام "عبد السلام آغا"، أحد وجهاء "حلب" الذين ينظمون الشِعر، بمخاطبة الوزير:

- أرجو أن تأذن لي بالكلام يا سيدي الباشا.

ثم نظر إلى "نابي" قائلًا:

- هلّا حدثتنا قليلًا عن شعراء الأناضول؟ وليتك تشرح لنا الكيفية التي تطور بها الأدب في تلك البلاد البعيدة.

أثار طلبه إعجابي البالغ. سوف أتمكّنُ أخيرًا من معرفة ما حدث في "إسطنبول" خلال السنوات الطويلة التي ابتعدت فيها عنها.. تلك المدينة المبهرة التي احتضنتني نحو نصف قرن. المدينة التي فقدتُ فيها "روكال". المدينة التي تنقلت بين عددٍ من بيوتها، بصحبة أشهر أدبائها.

أجابه "نابي":

- في الأناضول، كما في بلاد العرب، حرص الشعراء على الوصول إلى الجمال، عبر تجديد الأساليب والقوالب الأدبية.

t.me/qurssan

صمت قليلًا، وصبّ لنفسه شيئًا من مشروب التمر في كوبٍ مزخرف، ثم قال:

- هذه الأيام، يبحثون عن أفكارٍ جديدة، يصغون فيها المعاني التقليدية. حتى زمن السلطان "سليمان القانوني"، قرر أساتذة البيان والفصاحة في الأناضول بأن الشِّعر الفارسي هو الأجمل، وأجمعوا على ذلك. ولذلك انتشرت القصائد التي تحاكي ذلك الشِّعر. والسبب في ذلك هو أن الأدب الفارسي كان جديدًا بالنسبة لنا، في تلك الفترة. كان من روّاد تلك الحركة القائمة على المحاكاة، الشاعر "نشاطي بيه"، والوزير "أحمد باشا"، أحد وزراء السلطان "محمد الثاني". تبلورت تلك الحركة، وبدأت تظهر لها سمات خاصة تميزها عن الأصل الفارسي، على يد كل من: "ذاتي" و"يحيى بيه" و"باقي" و"خيالي"، وغيرهم.. لكن من تفوق عليهم جميعًا هو الشاعر البغدادي "فضولي". لقد أضاف الكثير من العواطف والحس الشِّعري

t.me/qurssan

أضاف:

- يتميز الشِّعر الأناضولي، والذي انتشر لاحقًا في جميع الأراضي العثمانيـــة، بـالعواطف الجياشـة، والتعـابير الرقيقـة، والأفكـار المنظمة، والتناغُم الواضح. إن أول من أصدر كتبًا عن الشِّعر، هم شـعراء الأناضـول، مـن أمثال "شيخي بيـه"، و"عاشـق تشيليبي" و"حسن تشيليبي" و"لطيفي قسطمونولو".. وغيرهم. كتبوا عن القصائد وتحليلها، وعن سِيَر الشعراء، وبذلك لم يعد الشِعر فعلًا، بل اسمًا. وصار الشاعرُ عنوانًا. قبل هذه الحركة، لم يكن يُشار للأبطال بأسمائهم، بل بألقابهم.

استطرد قائلًا:

- كان الكُتّاب والشعراء كأطفالٍ رُضّع، نموا وكبروا وأصبحوا رجالًا يتنافسـون فيمـا بينـهم. فـي الـواقع، تفوق هؤلاء الشعراء على سابقيهم من الفُرس، وأضحت الساحة الأدبية متخمة بأعمالهم ومؤلفاتهم. باتت قصائد "نفعي" وغزليات "شيخ الإسلام يحيى" مليئةً بالخيال. صار للغة المستخدمة طلاوة وعذوبة. في أول الأمـر، كـان الشـعراء يقـولون: "المحبوبـة جميلـة، كمـا القمـر"، أو "شفتان حمراوان كالياقوت". ثم صاروا يقولون: "المحبوبة القمر"، أو "شفتان ياقوتيتان". تم اختصار ذلك، وأصبحت اللغة مكثفة. كلمة "القمر" بمفردها، أصبحت إشارة واضحة ومفهومة للحبيبة، أما "الياقوت" فتدل على الشفتين. لم يعد الشاعر بحاجة للقول: "فاتنةٌ طويلةٌ كشجرة سرو"، على سبيل المثال، لأنه لو قال "فاتنةٌ كالسـرو" فسـوف يفـهم المتلقي أنـه يشـير إلـى طـول الحبيبـة وقوامها الفارع.

أضاف شارحًا:

- إن التعـامل مـع اللغـة بـدقةٍ بالغة، ودون إفراط أو إسهاب في الكلمات، جعل لغة الشِّعر رقيقة ومتداخلة كقطعة دانتيلا، وبذلك لم يعد الأدب الفارسي هو النموذج الذي يصبوا شعراء الأناضول لمحاكاته والوصول إليه. صاروا هم أنفسهم قدوةً في عالم الأدب،

t.me/qurssan

ويتبارون فيما بينهم ليتفوّق بعضهم على بعض. لم يعد الشّعر التركي ينافس إلا نفسه.

سأله ضيفه من جديد:

- كيف استطاعوا بلوغ هذه المرحلة المتقدمة، بينما يعيش كل واحدٍ منهم في منطقة أو بلدة بعيدة عن الأخرى؟

أجابه "نابي"، وهو يحرك يديه بشيءٍ من الحيرة:

- سؤالك سهلٌ وصعبٌ في الآن نفسه!

أضاف شارحًا:

- يمكنني القول إن الشِّعر لا يتم تدريسه في المدارس والمعاهد العثمانية، كمادةٍ منفصلة. لكنهم - مع ذلك - يدرسون عِلم العَروض. كما أنهم يقرؤون الشِّعر الإيراني خلال تعلمهم اللغة الفارسية. خارج الفصول الدراسية، يعدّ الشِّعر وسيلة تسلية لهؤلاء الطلاب، كما أنه اللغة المشتركة التي تجمع بينهم. يلازمهم الشِّعر في كل حركاتهم وسكناتهم، حين يتناولون الحساء، وعندما يستذكرون الجبر والهندسة. إن بعضهم منغمسٌ في هذا النوع الأدبي، لدرجة أن شخيره حين يغط في النوم يكون منغمًا!

صمت بُرهةً، ثم قال:

- إن من يمتلكون ميولًا شِعرية لا يمكنهم الاكتفاء بالقراءة وحدها، وينجذبون تلقائيًا لمسألة الكتابة، حتى وهم لا يزالون على مقاعد الدراسة. سرعان ما ينضمون لرَكب الأدباء المعروفين، ويخلدون أسماءهم في الكتب المخصصة للشِّعر والشعراء.

أضاف:

- هذه إجابة الجزء السَّهل من سؤالك؛ أمَّا الجانب الصعب، فهو حقيقة أنه لا شِعر دون معرفة. واقع الأمر أن الشِّعر الجميل يقوم على المعرفة الغزيرة والثقافة العميقة. إن كنتَ تفتقر لهاتين النقطتين، فإنك لن تنجح أبدًا في تجديد نفسك.

t.me/qurssan

واصل حديثه قائلًا:

- إن امتلاك الشاعر للمعرفة والثقافة، يجعله بحاجة إلى أمرٍ إضافي، وهو "الأسلوب". يمكننا أن نطلق على ذلك "التفرّد" أو "الإبداع". إن عظمة الشاعر تتحدد بتفرده.

تساءل "نابي"، مستكملًا كلامه:

- ما الذي يجعل الشاعرين العظيمين "باقي" و"فضولي"، أكثر تفردًا وتميزًا عن غيرهما؟ إنه الأسلوب المبهج للأول، والأسلوب العِشقي أو الغرامي للثاني، والذي يطلَق عليه في التركية "عاشقانه".

أضاف:

- يمكن لأي أحد أن ينظم قصيدةً دينية، لكن الجرأة التي تميز أعمال "نفعي" في هذا المجال، هي التي تجعله متفردًا، ومستحقًّا لإعجابنا...

تدخل "بلطجي" باشا، مقاطعًا:

- لا تقسُ على نفسك بهذه الأحكام الصارمة، أيها العزيز. إن أعمالك الشِّعرية، وأسلوبك الذي ينم عن ثقافةٍ عاليةٍ وتبحّرٍ كبير، لا يضاهيهما شيء على امتداد العالَم العثماني بأسره.

- لقد بذل الشعراء الذين سبقوني جهودًا مضنيةً للوصول إلى نشوة الصوفية، وتسجيل عظمة الدولة، وبهجة الانتصارات، وهي المسألة التي جعلت إجادتي للشِّعر أمرًا يسيرًا وصعبًا في الوقت ذاته. فأمّا يُسرها فلأنني وضعتهم أمام عينيّ كنماذج يمكن محاكاتها، وأما صعوبتها فتتلخص في أنهم قد تناولوا جميع الموضوعات في أعمالهم، ووجبَ عليّ ابتكار أمورٍ جديدة؛ كما أن اتباع الأسلوب الهندي في النظم، كما فعل أسلافي، لم يستهوِني على الإطلاق، واضطررتُ لتطوير مهاراتي وأسلوبي، معتمدًا على أحاسيسي تجاه التقلبات السياسية والتغيرات الاجتماعية. لجأتُ للتفكير العميق، وتكثيف لغتي، واختصار عباراتي.

t.me/qurssan

أضاف "نابي":

- لقد أنفقتُ سنواتٍ عدّة وأنا أفكر كل ليلة في شتى الأمور والمسائل، محاولًا الوصول إلى أعماق نفسي وخباياها. امتلأ عقلي بالتساؤلات وبـ"كيف" و"لماذا".. فكرتُ طويلًا في إيجاد حلول للظُلم والفساد والرشاوى والتمرد والهزيمة. تأثرتُ بتكرار تغيّر السلاطين والحكّام، وبالصراعات المختلفة التي تفرّق بين الإخوة والأشقاء، ضاق صدري بهذه الموضوعات وغيرها، ووجدتني بحاجةٍ ماسةٍ للتعبير عن كل ذلك على الورق، محاولًا التغلب على حيرتي وآلامي.

هزّ رأسه بأسى، وقال:

- إن ما تسميه سيادتكم "حِكمة"، هو في واقع الأمر عذابٌ وألم.

اكتسى وجهه بحزنٍ هائلٍ، حارَ الحضور في تفسيره. هل آلمته ذكريات شبابه؟ أم الحال المتردّي للدولة التي يتزايد ضعفها بمرور الأيام؟

خيّمت على المكان أجواءٌ كئيبة، وألقى بعض الضيوف قصائد حزينة. تذكّر الحضور الوضع البائس للدولة، فداهمتهم مشاعر مقبضة. سرعان ما غادر الباشا المكان، متبوعًا ببقية الضيوف، الواحد تلو الآخر.

في اليوم التالي، استيقظ "نابي أفندي" في ساعةٍ مبكرة. كان بصدد تناول إفطاره المعتاد، المكوّن من الحليب والجبن ومربى البلح، في حديقته، حين تناهى إلى سمعه صوت صهيل خيول خارج أسوار البيت. تبع ذلك دقّاتٌ قويةٌ على البوابة. دخل ثلاثة رجال على أحصنتهم. كانوا ضمن الحرس المرافقين لقافلة الهدايا المتجهة من "إسطنبول" إلى الأراضي الحجازية. نزلوا عن ظهور أحصنتهم، وقد علت وجوههم ملامح الحزن والحرج. قال "نابي" لنفسه متوجسًا: "هذه الزيارة لا تبشّر بخير".

اقترب من زائريه، داعيًا إياهم لمشاركته طعام الإفطار. قدموا له تحياتهم واحتراماتهم، ثم أخرج أحدهم رسالةً مختومةً بالخِتم

t.me/qurssan

الإمبراطوري، قدَمها لـ"نابي أفندي"، الذي تناولها وفضَها وقرأ ما كُتِبَ فيها:

"يفرَض على السيد/ يوسف نابي أورفللي، المقيم بحلب، وفقًا للقوانين واجبة التنفيذ الصادرة عن خزانة الدولة، تسليم مفاتيح مسكنه الحالي لأمير ألوية منطقته، الممثل للسلطان المعظم، في مدةٍ أقصاها سبعة أيام من استلامه للرسالة.

تحريرًا في الأول من شهر رجب، 1122

الصدر الأعظم/ علي باشا".

شعر "نابي أفندي" بصدمةٍ بالغة. أدرك على الفور أنه لا شأن للسلطان "أحمد الثالث" بهذا القرار، على الإطلاق، وأن المسألة بأكملها من تدبير "تشورلولو علي باشا"، وأنه هو من كتب الرسالة وختمها بخِتم السلطان. يعود أصل الحكاية إلى مناصرته الدائمة - حين كان لا يزال يقطن "إسطنبول" منذ سنواتٍ بعيدة - لـ"مصاحب مصطفى باشا"، ما أثار حفيظة منافسه وضغينته على كرسي الوزارة "تشورلولو علي باشا". قال له منفعلًا ومهددًا، ذات مرة:

- سوف ترى ما سأفعله بك أيها الشاعر. ما إن تُتاح لي الفرصة!

عندما عُيّن "تشورلولو باشا" قاضيًا في منطقة "أوسكودار"، بنى مراحيض عمومية هناك. وكنوعٍ من الإذلال، كلّف "نابي" بتأليف أبياتٍ شِعرية تسجّل هذا الحدث، انتقامًا منه. نظم "نابي" قصيدةً قصيرة، اختتمها بأبياتٍ ساخرة، يرد فيها ببراعةٍ ومهارة على هذه الإهانة:

"بنى لنا القاضي مراحيض

لنتخلص فيها من فضلاتنا

وقال سجّل الحدث المهمّ يا نابي

لكنني مضطرٌّ للتبرز على هذا التشريف".

t.me/qurssan

عقب هذا الموقف، تفرقت السُبُل بالرجلين، ولم يلتقيا ثانيةً، لكن العداوة والبغضاء تزايدت بينهما. ها هو "تشورلولو علي باشا" يُهرع للانتقام من خصمه الشاعر، ما إن أصبح كبير وزراء إسطنبول.

تعمّد "نابي أفندي" الحفاظ على تماسكه ورباطة جأشه أمام الحرس الثلاثة، لكن نيران الغضب والحيرة كانت تستعر بداخله. عليه أن يخلي منزله خلال بضعة أيام، ولكن أين سيذهب وقد أصبح شيخًا كبيرًا تجاوز السبعين؟ وماذا عن جميع الرجال الذين يعملون في المزرعة؟ ما الذي سيحل بهم وبعائلاتهم؟ سوف ينزعج "البلطجي باشا" ويغضب أشد الغضب، لو علم بما حدث، لكنه - مع ذلك - لا يملك أن يفعل شيئًا لتغيير هذا القرار.

مساءً، قُرِعت بوابة البيت مرة أخرى. كان "نابي أفندي" منكبًا على إتمام قصيدته الجديدة، التي يقول فيها:

"لقد شهدنا الربيع والخريف في بستان هذه الدنيا

وتعرضنا فيه لنسائم الفرح وعواصف الأسى".

أراد "نابي" القول إننا عشنا فصليِ الربيع والخريف خلال حياتنا، ولذلك فإننا ندرك أن كلًا من السعادة والحزن ليسا سوى أمور عابرة. في تلك القصيدة حاول "يوسف نابي" الإشارة إلى أن فرحة "علي باشا" بمنصبه وسلطاته التي لا تعرف حدًا، ليست سوى نشوة عابرة، سرعان ما ستزول، لكنها ستحطم في طريقها العديد من المظلومين. حذّر الشاعر في قصيدته من أن الكأس الفاخرة التي يشرب منها ذوو السُلطة حاليًا، يمكن أن تتحول - في لمح البصر - إلى كوبٍ يستجدون به الناس.

عبّر عن مشاعره وآلامه، بخبرته التي تناسب سنوات عمره، وبالحكمة والفلسفة اللتين تميزان أسلوبه الأدبي.

تعالى الطَرق على الباب، فانتبه من شروده، وتلفت قلقًا يبحث عن مكانٍ يخبّئ فيه الورقة التي دوّن عليها أبياته. في نهاية الأمر، دسّها بين غلافي المهترئ وأولى صفحاتي، بيده المعروقة

t.me/qurssan

المرتعشة، وصاح بصوتٍ مرتفع:

- تفضَّل بالدخول.

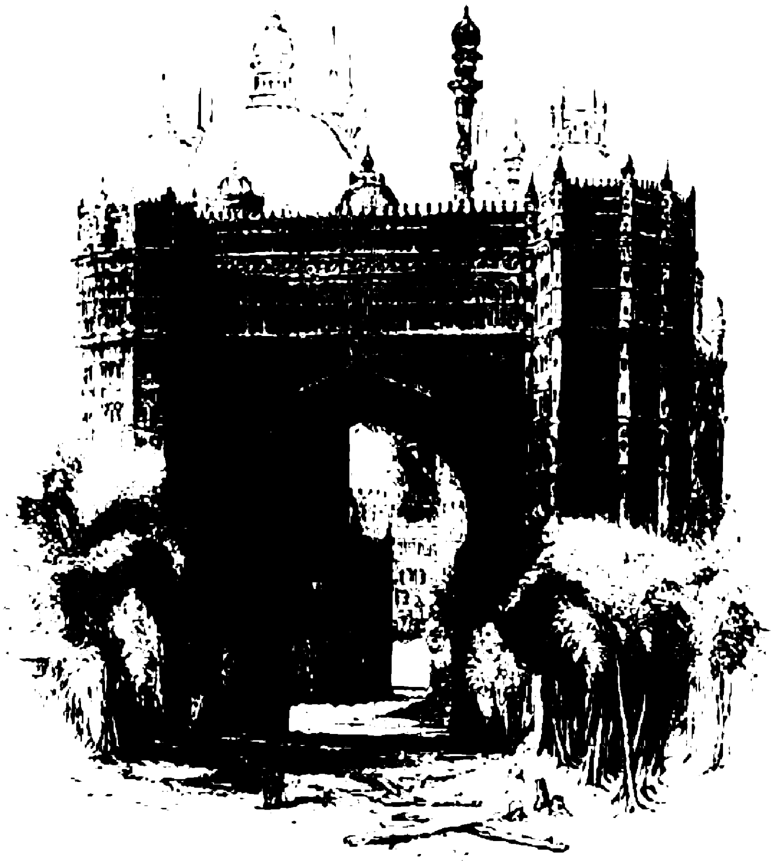

يا إلهي! الدهشة تعقد لساني! إنها حقيقة! لم تعد مجرد أحلام. ها هي أمام عيني.. الحبيبة التي بحثتُ عنها في كل بقاع الأرض، لمئتي سنة. الحبيبة التي تزايد عشقي لها مع كل لحظة شوق عصفت بي. ها هي أمامي. إنها "ليلى"! إنها هي.. بشعرها فاحم السواد، وعينيها الكحيلتين.. وهاتين اليدين الرقيقتين اللتين قامتا بقطفي وأنا ثمرة فراولة. تلك الأصابع التي ألقت بي في المرجل، بدلًا من أن تلثمني بشفتيها. إنها الفتاة التي تُجيد الكتابة، التي وعد "محمد باشا البلطجي" بإرسالها لـ"نابي أفندي".. بل إنها "ليلى"! "ليلاي" التي فتشتُ عنها أعوامًا طويلة، منذ أن غادرتُ "الحِلّة"، وتنقلتُ بين المدن والبلدات والدول المختلفة.

أنا، "قيس"، العبد المخلص لسيدي "فضولي"، أعلن عن عثوري على "ليلى"، في الوقت الذي توقفتُ فيه عن البحث عنها. كنتُ قد فقدت الأمل، وهأنا أشعر بسعادةٍ غامرة. إن "قيس" الذي يسكن قلب حكايتي لم يكن يومًا على هذه الدرجة من القرب من "ليلى".

t.me/qurssan

إنها بجواري الآن، لا تفصل بيننا سوى أنفاس

"نابي أفندي" فقط. يا للشيخ المسكين! لقد اعتراه الذهول لمرآها، مثلي تمامًا. تسارعت نبضات قلبه المتعب، ما إن لمح جمالها الأخّاذ. لم يرَ جاريةً بهذا الجمال الخارق من قبل. ليست بارعة الحُسن فحسب، بل تجيد الكتابة، وتحفظ الكثير من الشِّعر، ولها صوتٌ عذب. سأل نفسه عن المكان الذي نشأت فيه، وأجاب:

- بين بتلات وردةٍ نضرةٍ، بطبيعة الحال!

تمعن فيها قليلًا، ثم قال لنفسه مشدوهًا: "لقد خلقها الله من صلصالٍ معجونٍ بعطر الورد!".

تدافعت الأفكار في رأسه، قال في إحداها وقد اعترته الحسرة: "ليتني كنتُ أصغر سِنًّا! لمَ لم تأتيني وأنا في شبابي؟".

ودون وعي، هتف بالبيت الشِعري التالي:

"تشاغل الذوّاق بأمورٍ كثيرة

وحين أتى الطعام كان قد فقد شهيته".

احمرّ وجه الجارية خجلًا، وطافت بعينيها في المكان. لمحتني بين يديه. كان لا يزال مذهولًا. لقد تلقى خبرًا مؤلمًا في الصباح الباكر، ثم أسعده الحظ بلقاء هذه الفاتنة مساءً. ظل الرجل صامتًا، لكنني قلتُ لها:

- نعم. هذا أنا! المجنون الذي فقد عقله من فرط حبه لك. أنا "قيس"، صديق الطفولة. "قيس" الذي كنتِ تبعثين له بالرسائل مع السُحُب البيضاء، ويحمل له نسيم الصباح شذاكِ العَطِر. ألا تذكرين كيف اندلعت الحروب بسببكِ، بين قبيلتيَ "نوفل" و"ابن سلام"؟ أراد أبطال القبيلة الأولى أن يمنحوك لي، بينما تمسَّك أبطال القبيلة الثانية ببقائكِ بينهم. هل نسيتِ التدابير التي كنا نتخذها لنتمكن من اللقاء؟ ألا تعلمين أننا صرنا قدوة العشاق؟ أنا "قيس". أنا من جننتُ لأجلك. أنا الذي قلت:

t.me/qurssan

"لو كنتُ أنا، أنا، أيها الحب

فمن تكون أنت؟

ولو كنتُ أنتَ، أنتَ

فمن عساي أكون؟".

لقد أبقيتكِ على قيد الحياة، بداخلي. كنتُ متيقنًا من أنكِ ستأتين إليّ في أحد الأيام، فمرحبًا بنور عيني. أهلًا بفرحي وربيعي وحبي وحياتي ودموعي. مرحبًا بكِ.

مدّت يدها وتناولتني من بين أصابع "نابي أفندي". ما إن فتحت غلافي، حتى صاحت بلوعة:

- قيس! قيس!

اقتربت بشفتيها مني، وطبعت قبلةً على جبيني، تمامًا كما فعلت أول مرة، في كوخها المطل على نهر "دجلة". قبّلتني مرة أخرى، ثم تشممتني بشوق. يبدو أنها ميزتْ رائحتها الملتصقة بي، فضمّتني إلى صدرها. أغلب الظن أنها تذكرتْ كيف كتبتْ على صفحاتي بقطعة فحم، قديمًا. لعل ذلك ما يفسر تسارع دقات قلبها وارتعاش يديها.

إنني بين يديّ "ليلى". كم عامًا مر عليها؟ كم خليةً تبدلت في جسدها؟ كم تغيرًا طرأ عليها؟ كم جيلًا طافت به حتى الآن؟ لقد وضعت شفتيها على مكان قبلتها العتيقة الأولى. هذه اللحظة تحديدًا تساوي حياتي بأكملها. لقد وُلِدتُ من جديد. وجدتُ نفسي أصرخ، بكل ما أوتيت من قوة:

- ليلاااااي!

وددتُ أن أردد اسمها ألف مرة، إلى أن ألفظ أنفاسي.

غامت الرؤية في عيني. اختلطت الأشياء من حولي، وكان آخر ما رأيته هو انعكاسي في عينيها السوداوين.

t.me/qurssan

لم أرَ شيئًا آخر، ولا أتذكر ما حدث بعدها. لقد نمتُ نومًا عميقًا.

يا لحلاوة اللقاء بعد الغياب!

t.me/qurssan

25 قبلاتي لـ"ليلى".. ولصوص "سعد آباد"

مَن ذا الذي يحرمنا جنّات الفردوس؟

إنها إرث أبينا ونحن متمسكون بها

(الشاعر "نابي")

صاح "إبراهيم باشا" وهو يصفق بيديه جذلًا:

- إنها الشيفرة السادسة! ها هي أمام عينيّ!

استطرد قائلًا:

- إنها البيت رقم 1375، لأنه يتضمن معاني الحب والأسرار والغموض. أصدقائي! إنني أؤكد لكم أن أسرار "آرشيا آكيلدان"، والتماثيل الذهبية، صارت كلها في حوزتنا منذ اللحظة!

إن "إبراهيم باشا" هو أكثر الرجال الذين قابلتهم في حياتي إثارةً للاهتمام. جاء إلى "إسطنبول" وهو في الرابعة عشرة من عمره، ليعمل مساعدًا لحَلواني. تميّز منذ صباه المبكر بالفطنة والكياسة والفراسة والتبصّر. مكّنه دأبه ونشاطه من تحقيق نجاحٍ كبير. تقدّم ببطءٍ وثقة، خطوةً خطوة. في بادئ الأمر، أمضى ساعاتٍ طويلة وهو يتفنن في صُنع الحلويات داخل مطابخ القصر، وبعد مرور 12 سنة، صار يشغل منصب الصدر الأعظم في الدولة العثمانية. في الأعوام الأولى لرئاسته للوزارة، شعر السلطان بإعجابٍ هائل بهذه الشخصية الإبداعية الجذّابة. نجح في نيل ثقة السلطان التامة، وبعدها بدأ يمسك بجميع خيوط الإدارة بين أصابعه، ويحرّكها كيف شاء. حين كان يخاطب السلطان بعباراتٍ مثل: "نحن مُلزمون بحماية دولتك وسلطانك".

فإنه كان يتحدث باسم "جمعية بابل". شيئًا فشيئًا، بدأ يتحكم في أفكار السلطان ومخططاته، ليجعلها تتوافق مع مخططات الجمعية. بدأ يجنّد كبار الضباط لخدمة مصالح الجمعية. تزايد نفوذه وتشعّب، وأصبح يمثّل صورةً من صوَر القمع. تدخّل في

t.me/qurssan

كـل شـؤون الـدولة، وكـانت لـه الكلمـة الأخـيرة فيـها؛ العلاقـات الدبلوماسـية، والحـروب، والمعاهـدات، والخطـط الاقتصـادية، بالإضــافة إلـى تعـيين الجنـود الانكشـاريين، والموافقـة علـى مخصصاتهم المالية وأجورهم. بل إنه كان المسؤول الأول فيما يتعلـق بتنظيم الاحتفـالات وأمـور التسلية. أشرف بنفسـه علـى تعــيين أصــدقائه ومعارفـه فـي المناصـب الحكوميـة المـهمة والرفيعة. من جانبٍ آخر، حرص الجواسيس الذين وزَّعتهم الدولة العثمانية خارج البلاد، على الرجوع إليه شخصيًا لاستشارته في مهماتهم، ومصارحته بكل ما يعرفونه من معلومات، حتى لو كانت تزيد عمّا وُكِّل إليهم. بدوره، استغل "إبراهيم باشا" تلك النقطة في إحكام قبضته على السلطان والوزارة، والدولة بأكملها.

تعاظم نفوذه بشكلٍ غير مسبوق، حتى أنه في السنة التي أتم فيـها عامـه الخـامس والخمسـين - وكـان قد أصبح جَدًّا لطفلين أنجبتـهما ابنتـه مـن زوجها أمير الأسطول العثماني - تقدَّم إلى السـلطان، طـالبًا منه يد ابنتـه "فاطمة"، ذات الأربعة عشر عـامًا، لتصبح زوجةً له! لم يستطع السلطان مسلوب الإرادة، والذي كان هـو نفسـه يصـغر رئـيس وزرائه، بنحو عشر سنوات، أن يـرفض طلبه.

جلس "إبراهيم باشا" بعظمةٍ تليق بوضعه الجديد كونه زوج ابنة السلطان، داخل إحدى القاعات المزخرفة في قصر "سعد آباد"، فائق الجمال، بمنطقة "كاغتخانه" بإسطنبول. استقبل يومها ولي العـهد الـهنجاري، الأمـير "راكوتسـي"؛ والجنـرال "ستيفان"، أحد القادة المقربين من الحاكم النمساوي "يوجين"، بالإضافة إلى "نادر علي"، الذي اشتُهر بلقب "طهماسب قلي خان". حضرَ أيضًا رئيس المخـابرات الروسـية، اليـهودي "ليفيـان". حضـر الجلسـة كـذلك "مارتيل كلوفيس"، نائب السفير الفرنسي في إسطنبول، وأحد ممثلي الملك "لويس الخامس عشر" في تركيا؛ وكذلك القطب الصوفي – أعلى مراتب الصوفية - الشيخ "عبد الحي أفندي". جلس الضيوف حول الباشا باحترامٍ بالغ، ولم يتحدث أيٌّ منهم، إلا بعـد استئذانه أولًا. قُدِّم لـهم النبيـذ الأبيض، داخـل كـؤوسٍ من

t.me/qurssan

الكريستال.

بُنِيَ هذا القصر الصيفي، والذي يُعدّ تحفةً فنيةً ومعماريةً مبهرة، ليكون مقرًّا للهو والتسلية. زُودت بركة السباحة الضخمة، بالغة الفخامة، التي يضمها، بنافوراتٍ عدة وألعابٍ مائية متنوعة.

بدا الصدر الأعظم في جلسته تلك، وقد أحاطت به مظاهر الأبهة والفخامة، مثل الإله "مردوخ"، راعي مملكة "بابل".

انعكست الأشعة اللامعة لشمس سبتمبر على نوافذ سلاملك القصر، المخصص لاستقبال الضيوف من الرجال. جاء بعضهم متخفيًا، فيما دخل البعض الآخر بالأريحية التي تميز الضيوف المترددين بانتظام على مجالس "إبراهيم باشا" الشهيرة؛ لكنهم جميعًا تبادلوا التحية بطريقة رهبان "بابل" الأوائل مع الحكيم "آكيلدان".. جمعوا السبابة والوسطى معًا، والبنصر والخنصر معًا، في أيديهم اليمنى.

إنني في اجتماعٍ كامل، يحضره جميع أعضاء "جمعية بابل". إن السبعة الذين يحضرون هذا اللقاء، متميزون في المجالات السياسية والدبلوماسية، ومتبحرون في الأدب والفن والموسيقى. بدؤوا اجتماعهم بمناقشاتٍ مطولة عن أوضاع العلاقات الدولية. تابعتُ حوارهم بانبهار، وأصغيتُ باهتمامٍ كبير. أجمعوا على أن معاهدة "كارلوفجي"، التي أُجبِر العثمانيون على توقيعها عقب 16 عامًا من الحرب، سوف تُنهي الخوف المتأصل في نفوس الأوروبيين من الامتداد العثماني في قارتهم. ناقشوا بعد ذلك المفاوضات الجارية لإتمام معاهدة "باساروفجا"، وأكدوا أنها تهدد نفوذ الإمبراطورية العثمانية، التي ستضطر إلى التخلي عن بعض أراضيها. قالوا إن المدن المتوسطية الكبرى، معرضةٌ للغزو، ولإجبار سكانها على اعتناق المسيحية. اتفق الرجال السبعة على ضرورة إيجاد وسائل تزيد من ضَعف الدولة العثمانية. وخلال حوارهم، أتوا على ذِكر الجيش الذي كان يُفترض به التقدم نحو "إيران"، لكنه لا يزال يعسكر في "أوسكودار". تأجلت مسيرته عدّة مرّات، بنِيّة إحباط الجنود

t.me/qurssan

وتثبيط همتهم من جهة، وزيادة النفوذ الروسي داخل إيران من جهةٍ أخرى. ناقش المجتمعون أيضًا مسألة منح الباشوات ذوي الأصول اليونانية، صلاحياتٍ أكبر في جُزُر البحر المتوسط. عرجوا بعد ذلك على وجوب إعادة الملك السويدي "تشارلز الثاني عشر" إلى موطنه، عقب نفيه إلى مدينة "بيندر" الواقعة داخل حدود "مولدوفيا"، منذ نحو ثلاث سنوات ونصف؛ أكدوا أن ذلك يستدعي الوصول إلى اتفاق مع خصمه اللدود، "بطرس الأول"، قيصر روسيا. رأوا أيضًا ضرورة تحسين صورة "نادر علي" في عيني "طهماسب الثاني"، آخر الشاهات الصفويين، وهو ما سيتيح تزايد النفوذ الصفوي في "أفغانستان" و"خُراسان"، ومن ثم هزيمة "أشرف خان" في المناطق الشرقية. عادت دفة الحديث إلى القصر العثماني، وقرروا تشجيع مَن فيه على البذخ والترف والرفاهية والإسراف، ما سيساعد على انتشار الفساد بشتى صوره. سوف يتم التركيز في هذه الخطة على النساء تحديدًا، عبر دفعهن لاتباع أحدث خطوط الموضة الأوروبية، من خلال ملاحظتهن لأزياء المفوضين الأجانب والرحّالة والدبلوماسيين. بعدها، ستنتشر الأزياء وصيحات الموضة بين قطاعٍ عريضٍ من عامة الشعب. ناقش الباشا وضيوفه أهمية عَلْمَنة المواد الدراسية في المعاهد الدينية، وتحدثوا عن ضرورة تشييد مبانٍ حديثةٍ متطورة في ضواحي المُدن الأوروبية، لتمهّد بذلك فتح سفاراتٍ جديدة، والمزيد من المطابع. الخطوة الأخيرة ستؤدي إلى استفزاز أصحاب المطابع في الغرب، وإثارة قلقهم ومخاوفهم، وستدفعهم لمحاربة دار المطبوعات العثمانية التي أسسها "إبراهيم متفرقة".

اختُتِمت النقاشات بالاتفاق على أن يُدار العالم بنظام حُكمٍ يعتمد على "الفاتيكان"، من خلال "جمعية بابل".

أخافتني الأهداف الحالية للجمعية، وأشعرتني بالرعب. لقد تغيرتْ أفكار الجمعية وفلسفتها وإدارتها. لقد مرّت السنون بجبروتٍ وقسوة، واكتسحت في طريقها الضعفاء، دون رحمة.

عَصر ذلك اليوم، تكسّرت أشعة الشمس وهي تخترق النوافذ

t.me/qurssan

الملونة لقاعة السلاملك، مكونةً أشكالًا مبهجةً على الأرضيات. عبر تلك الشبابيك، راقب بعض أعضاء الجمعية الأطفال وهم يلعبون في صخبٍ بمحاذاة جدول "كاغتخانه". على المراكب غير البعيدة، أمكنهم رؤية سيدات السفارات الأجنبية وهن يبدين قدرًا غير يسيرٍ من الدلال. لمحوا أيضًا الغمّازات الجذابة في وجوه الغواني، التي لم تفلح البراقع المتطايرة، بالغة الخِفة، في سترها، عند مرورهن في العربات التي تجرّها الأحصنة المزينة بالحلي الفضية. وقعت أعينهم أيضًا على سيدات الطبقة الراقية، وهن يعتلين الأراجيح بفساتيهن الأنيقة المصنوعة بالكامل من الدانتيلا الفاخرة. في تلك الأثناء، توالى دخول الخدم للقاعة، وبدؤوا يجهزون المائدة بكمياتٍ وفيرةٍ من الأطعمة المتنوعة. ظهر بعدهم موسيقيو البلاط. تابع الحضور توالي دخول الأطباق الشهية، بترقبٍ وسرور. كان منظرها يبعث السعادة في الأفئدة.. أنواعٌ مختلفةٌ من المربى، في أوانٍ كريستالية. قطعٌ وشرائحُ من الأجبان. أصنافٌ متعددةٌ من المقبّلات. شرائح هشّة معدّة من التوت المهروس، المجفف بالشمس؛ وثمار البرقوق المجهزة بالطريقة ذاتها. وقطع الجوز المقشر، المغطى بطبقةٍ خفيفةٍ من النشا. عسلٌ أسودُ مُصَنّعٌ من العنب، جرى تقديمه في أوانٍ مستديرة من النحاس الأصفر. وُضِعَت على المائدة أيضًا صينياتٌ مرصعة بالجواهر، افترشتها دواجنٌ برّيةٌ تتصاعد منها الأبخرة الشهية، فوق طبقةٍ من الخبز. اشتملت السُفرة كذلك على اللحم المشوي، الذي وُضِع في صحونٍ كبيرةٍ مزينة بقطع الكهرمان، بالإضافة إلى حساء السمك، والفطائر، والأرز بالصنوبر. توزعت بين الأطباق أوانٍ صغيرةٍ من زيت الزيتون. في نهاية طاولة الطعام الضخمة، تجاورت أصنافٌ متعددةٌ من الحلوى، تتوسطها سلطانياتٌ خزفيةٌ من مربى الورد. كما رُصّت فوقها زجاجات العصائر، وأباريق النبيذ البارد.

انتهوا من تناول الطعام، واستعدوا لأمسيةٍ من اللهو والتسلية، لكن الباشا فاجأهم بتكرار البيت الشّعري الذي بدأ به لقاءه معهم، منذ ساعات. ثم قال:

t.me/qurssan

- أصدقائي الأعزاء، كنا قد بدأنا نفقد الأمل في العثور على كنوز "بابل"، لكن هذا البيت أحيا الأمل في نفوسنا. صارت الدُّنيا، وقوى الآلهة البابلية، مِلكًا لنا.

كان "إبراهيم باشا" يشير في كلامه لا إلى التماثيل الذهبية وحدها، بل إلى الكواكب السبعة التي عبدها الكلدانيون، وإلى الأقراص الطينية التي تضم المعلومات العِلمية المهمة.

تعالت ضحكات الباشا في سعادة.

نقلت بصري بين أولئك الرجال ذوي الذكاء الخارق، الذين منحوا أنفسهم حق تقرير مستقبل العالَم بأسره، عن طريق كشف الشيفرات السرية التي تتضمنها أشعاري. انتابني إحساسٌ غريب. مزيجٌ من السعادة والأسى، لا يمكنني وصفه. مشاعرٌ تفوق في قوتها البهجة الخالصة التي غمرتني وأنا أرتحل مع "ليلى" إلى "إسطنبول"، على ظهر حصان "محمد باشا البلطجي"، بوقع حوافره البطيء الرتيب. "ليلى" التي التقيتها ثانيةً، بعد سنوات فراق تساوي مدة خمس حيواتٍ بشريةٍ، تقريبًا. تذكرتُ منزل الشاعر "نابي" ومزرعته في "حلب"، وكيف انهمرت دموع "ليلى" الغزيرة عند مغادرتنا لهما، واستمرت في التساقط لبقية الرحلة. استعدتُ النشوة التي أحسستُ بها وهي تعانقني، بعد القبلات التي تلقيتها منها تحت ضوء القمر؛ والسكينة التي تمددت داخل روحي حين شممتُ عطر الياسمين من جسدها. بعد انقضاء سنةٍ على وصولنا إلى "إسطنبول"، توفي "نابي أفندي"، وأمضيتُ 12 عامًا بعدها وأنا أتنقل مع "ليلى" من مسكنٍ إلى آخر. عانينا الفقر وضيق اليد، لكن ذلك لم يؤثر في سعادتنا المشتركة. افترقنا الآن، وابتعد كل منا عن الآخر، لكننا لا نزال نشعر ببعضنا البعض، داخل قصور الصدر الأعظم المطلة على جدول "كاغتخانه".

بعد وفاة "نابي أفندي"، بيعت "ليلى" لـ"إبراهيم باشا"، الذي أهداها لابنته "حورية"، التي ستتزوّج أمير الأسطول العثماني "كايماك مصطفى باشا".

"ليلى"، ابنة الثالثة والعشرين، تعتز بشيئين اثنين ولا يمكنها

t.me/qurssan

التخلـي عنـهما أبـدًا؛ الأول هـو أنـا، والثـاني هـو منـديل الـرأس المشـغول بخـيوطٍ رقيقـة، الـذي كـانت تضعه عند وصولها إلى "حلـب" كونـها جاريـةً صـغيرة. ارتبـط وجـودي لـديها بـذكريات الأراضي التي أحبتها، أما المنديل فيذكّرها بأمها. أسعد أوقاتها هـي حـين تقرؤني، وأسعد أوقاتي هي حين أشعر بيدها عليّ. تُسكرني لمساتها، وتمنحني خليطًا عجيبًا من النشوة والفرح والعذاب والأسى. وجودنا معًا يسعدني، لكن خوفي من أن نضطر للافتراق عن بعضنا البعض في يومٍ من الأيام، يعذبني. الخوف من الفراق يفسد فرحتي. هذا بالضبط هو الحب. على العاشق الذي يسعى للارتباط بمحبوبه، أن يكون مستعدًّا لفراقه. إن أسعد العشاق مَن يعمل جاهدًا على الحصول على حبيبه، ولكن يظل الفشل والإخفاق هما مصيره الدائم. قد تعيش إلى آخر العُمر وأنت تسمع خطوات الحبيب وهي تقترب، دون أن يصل أبدًا. إن الفراق الذي ينتهي بلقاء، قادرٌ على تحويل أبشع صور العذاب إلى بهجةٍ خالصة؛ أمَّا الارتباط الوثيق الذي يظل احتمال الفراق قائمًا فيه، فيمزج الفرح بالمعاناة.

كل الأيام التي أمضيتها مع "ليلى"، في الطريق من "حلب" إلى "إسطنبول"، عزيزةٌ وغاليةٌ ومباركة. النِّعمة الحقيقية هي الإصغاء إلـى دقـات قلـب "لـيلى"، التـي كـان اقتـراني بـها مسـتحيلًا فـي الحكاية. حتى الأيام السعيدة التي أمضيتها هائمًا على وجهي في صحراء "نجد"، لا تقارن - بطبيعة الحال - بهذه الأوقات الممتعة التي أقضيها بين أحضانها. إنني أربّت عليها، كما كنتُ أربّت على الغزلان في البرّية. أخشى فراقها، كما كنتُ أخشى الأسود هناك. لا يمكنني أبدًا وصف خوفي الهائل من أن تهجرني، لأي سبب، في يومٍ من الأيام. ماذا لو انتزعني أحد الذين يطاردونني من بين أحضانها؟ بعد 175 سنةٍ من آلام الفراق غير المحتملة، صارت ذكرى لقائنا الأول تلازمني على الدوام، ولا تغادر مخيلتي. حين لـم تعـد عينـاي تريان سواها، ولم يعد في قلبي متسعٌ لغيرها. تـذكرتُ نبضـة الحـب الأولـى التـي تـدفقت داخلـي فـور بـدء "فضولي" في نظم أبياتي الأولى.

t.me/qurssan

إن كل ما أرغب فيه الآن هو التخلص من هاجس الفراق، والتمتع بالوصال إلى الأبد.

إن ذكريات "ليلى" وأحلامها، التي عرفتُها خلال سنواتها القليلة، كانت بالغة الرقة والهشاشة، حتى إنها ذابت في لحظات، داخل بوتقة حبّي الممتد قرونًا طويلة، واستحالت إلى خيوطٍ غزلتُ منها درعًا صلبة أرتديها. تغيّر كل شيءٍ حولي في هذا العالَم، لكن حبّي هو الوحيد الذي ظل على حاله. نقلّب صفحات التاريخ، ويواصل الموت عمله بانتظام، لكنه لا يقترب بمخالبه من حبّي، على الإطلاق.

بمَ أفسّر عثوري على "ليلى"؟ إنه أمرٌ إلهي، أعجز عن تفسيره. صليتُ ودعوتُ الله بانتظام أن يديم عليّ نعمة وصالها، وألّا يفرّق بيننا ثانيةً. كنتُ أرتجف خوفًا، كورقة شجر في مهبّ الريح، خشية الابتعاد عنها.

يتساوى حجم السعادة والمعاناة بداخلي.. كيف لا، ولل"عذاب" وال"عذوبة" أحرفٌ مشتركة؟ إن عذابي المتواصل لا يلغي فرحي. مَن يبالي بتعاستي؟ ومَن يضمن لي الحصول على قدرٍ أكبر من السعادة؟ أفضّل الموت معها، على استمرار حياتي دونها.

إن أسعد لحظات يومي، هي تلك التي نتبادل فيها الكلام بألفةٍ وثقة.

حين تقصّ مغامراتنا على "حورية"، ابنة الباشا، تهاجمني تساؤلات كثيرة: "ما موقعي تحديدًا في تلك المغامرات؟"، "أين بالضبط يتقاطع طريقي مع "قيس"، بطل الحكاية الفعلي؟"، "فيمَ أختلف عنه؟".

لا أملك إجابةً محددة. يمكنني القول إنه غير منفصلٍ عني، وإنني أشبهه من نواحٍ كثيرة. عذابي لا يختلف في شيءٍ عن عذابه. سعادته تسرّني. تمنيتُ أن يصبح مجنونًا، لكنني قلتُ في الوقت ذاته:

"حزّنى من الاضطراب يا إلهى

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

t.me/qurssan

واجعلني ممن يألفون الحب على الدوام".

لأسبابٍ عدّة، لا يمكنني الفصل بين نفسي و"قيس". كلانا شخصٌ واحد. كلانا عرف عذاب الحب.. ما إن فكرتُ في ذلك، حتى أحسستُ بالخجل من نفسي. إنه أفضل مني. لقد اكتفى "قيس" بحبّ "ليلى العامرية"، التي اضطرت للخضوع لأحكام قبيلتها؛ أما أنا فقد وقعتُ في غرام "ليلى" أخرى بعدها. حسناء نهر "دجلة". لم أكتفِ بذلك، بل شممتُ بعدها أريج أزهارٍ نديةٍ غيرها، ثم أسعدني الحظ بلقاء محبوبتي بعد افتراقي عنها قرونًا. إنني متأكد أن "ليلى" التي عادت إليّ، يمتد نسبها إلى "بني عامر"، إذ إن لها الابتسامة ذاتها، والطبع الليّن - الذي تشكّل منذ ستة قرون على ضفاف نهر "دجلة" - ذاته. لقد تجدد حبي لـ"ليلى"، ثلاث مرات. إنني أقع في غرامها كلما التقينا من جديد.

نتقاسم حياةً سعيدةً في "إسطنبول". أتابعها بسعادة وهي تقصّ حكايتنا بحماسة على "حورية". لو أنها تدرك حجم مشاعري الفيّاضة تجاهها، لما واصلت قراءتي. كانت ستغلقني، وتضمني إلى صدرها في عناقٍ مستمر.

حين تزوجتْ "حورية"، اصطحبتني و"ليلى" معها إلى بيتها الجديد.

ليلة بدء مهرجان "خضر إلياس"، وانتقال الباشا إلى قصر "سعد آباد" لافتتاح الموسم الصيفي، اصطحب ابنته معه، وخصص لها جناحًا بجوار جناحه في الملحق السكني التابع للقصر. في تلك الليلة، طلبت "حورية" من جاريتها "ليلى" أن تقرأ عليها أبياتًا من أشعاري. تعمدت أن يتم ذلك في حضور زوجها، أمير الأسطول العثماني، الذي لا يبدي اهتمامًا يُذكَر بأمور الحب والغرام، كأنما أرادت لفت نظره إلى روعة العشق والعشاق. لعلها كانت تتمنى ليلةً رومانسيةً معه، تكتمل بها بهجة المهرجان والاحتفالات المرحة، لكنه خيّب ظنها كالعادة، فأغمضت عينيها واستسلمت لخيالاتها الحالمة.

t.me/qurssan

تحققت مخاوفي وتوقعاتي، في اليوم التالي، عندما دخل "إبراهيم باشا" غرفة ابنته باحثًا عن زوجها، لاستدعائه لاجتماعٍ عاجل. لمحني فوق سجادةٍ يدويةٍ، إلى جوار شمعدانٍ كبير. تصفحني بُرهةً، بعدم اهتمام. كان مُلِمًّا بالشِّعر، ويهتم بالفصاحة والبيان، ويغبط سيدي "فضولي" على موهبته الفذة. تأملته وهو ممسكٌ بي. رجلٌ وسيمٌ وجذاب، رغم عينيه المرهقتين، ووجهه الضامر، وذقنه غير الحليق. أحسستُ أنه شخصٌ جيد، ربما لمعرفتي المسبقة برعايته للشعراء والفنانين، وتقديره لهم.

في أول الأمر، ظننتُ أن ما أدهشه هو عثوره على ديوان شعرٍ جيد داخل حجرة زوج ابنته، المعروف بعدم حبه للقراءة؛ لكنني لاحظتُ تسارع دقات قلبه، عندما وصل إلى الصفحة التي تضم البيت رقم 607، وما بعدها. استطاع تمييز الأحرف المكتوبة بالخط المسماري، على الهوامش. نسى أمر الاجتماع المهم، وغادر إلى غرفته مسرعًا، متأبطًا إياي.

لم أعرف شيئًا عن "ليلى"، منذ ذلك اليوم.

تأكدتْ شكوكي في أنه أحد أعضاء "جمعية بابل". ربما كانت الميزة الوحيدة في المسألة بأكملها، هي أن رجلًا في مثل مكانته ونفوذه، وإشرافه المباشر على خزائن الدولة، لن يكون طامعًا في كنوز "بابل" وآلهتها الذهبية. إن ما حدث لي جزءٌ من قَدَري المحتوم، الذي لا أملك الفرار منه. حينما أتيتُ إلى هنا، من "حلب"، كنتُ أتوقع هذا المصير، لكن ما أثار قلقي وانزعاجي هو حال "ليلى" الآن. سوف تفتقدني وتحزن لغيابي. لقد رحلتُ عنها دون وداعٍ.

خلال ملازمتي لـ"إبراهيم باشا"، فهمتُ أن أعضاء "جمعية بابل" توقعوا أن تكون مياه نهر "الدانوب" قد أفسدتني تمامًا، ومَحَت أسطري، ولذلك أسقطوني من حساباتهم، وانصبّ اهتمامهم على الخنجر الذي لا يزال بحوزتهم. في الوقت نفسه، باع لصوص الآثار حزام زمزمية سيدي "فضولي"، بما عليه من أرقامٍ وحروف، بثمنٍ بخس في السوق المغطاة. استبدلوا قِطعًا معدودة من

t.me/qurssan

العملات الذهبية بآمالهم العظيمة، وخططهم الضخمة.

أمسى ابن "أوليا تشلبي"، الذي كان طفلًا رضيعًا حين بدأت رحلتنا، شيخًا كبيرًا، وله عددٌ من الأحفاد. خلال تلك الأعوام، نسيني أعضاء "جمعية بابل" ولصوص الآثار معًا، ولم أعد موجودًا بالنسبة لهم. أمضيت معظم وقتي داخل جوّال "مُلا محمد"، بين المواد الكيميائية المختلفة، متشاغلًا بالتفكير في "ليلى". لا أدري إن كنتُ قد استفدتُ شيئًا في تلك السنوات، أم لا؟ على كل حال، لم أعد أملك إجابةً عن هذا السؤال. تعرضتُ للنسيان، وتأرجحتْ مشاعري بين الأسى والسعادة. كانت تلك الفترة من حياتي مليئةً بالتناقضات.. لم يعد أحدٌ يسكب عليّ حمض الكبريتيك، بحثًا عن كتاباتٍ سريةٍ محتملة، ربما دوّنها الرهبان الكلدانيون على صفحاتي. انفض حكماء الجمعية من حولي، وما عادوا يلاحقونني كالعشاق. استمرت حكايتي في التوهج وإثارة عواطف الناس، لكن أسراري اختفت بغيابي، ولم يعد يعرفها غيري. حاولتُ استخلاص معاني الحياة في أي مكانٍ أكونُ فيه.. في ضباب الأبخرة الدافئة داخل الحمامات الشعبية، أو بين ثمار البطيخ المتراصة فوق عربة بائعٍ متجول، أو بصحبة بائع كبدةٍ مقليةٍ، ينادي زبائنه بصوتٍ مُنغَّم في الأزقة والحارات. سئمتُ في بعض الأحيان ملازمة الجزارين، وهم يتصفحونني بأصابعهم التي تنبعث منها رائحة الشحم والدهون. مللتُ أئمة المساجد وهم يتمعنون في صفحاتي قبل إعلان موافقتهم على أن يقرأني الصغار، خوفًا من أن أُفسِدَ أخلاقهم. كرهتُ التجار الذين يُؤجِّرونني للعائلات في شهر رمضان، كي يتسلوا بقراءتي عقب انتهاء صلاة التراويح. امتلأت صفحاتي بكتاباتٍ خطّها القراء المختلفون على مدار سنوات عمري الطويلة.. أبياتٌ شِعريةٌ لا علاقة لها بي، وتواريخ وأسماء، وتوقيعات وأختام، وأمورٌ كثيرة أَحَبَّ أنصاف المثقفين تركها بداخلي. كانت تلك التصرفات تشعرني بأنني مومسٌ رخيصة، تحلم برجلٍ لطيف، يحبها وينتشلها من هذا القاع المظلم. ولهذا يمكنني القول إنني شعرتُ ببعض السعادة، حين عثر أعضاء الجمعية عليّ. كنتُ قد اضطررتُ لعيش حياةٍ من المغامرات، في السنوات الماضية، بدلًا

t.me/qurssan

من حياة الحب التي خُلِقتْ لها؛ لكن إحساس التعاسة ظل يلازمني، لافتراقي عن حبيبتي وحرماني منها. عزائي الوحيد أنها تعيش وتتنفس في مكانٍ ما، بالقرب مني، حتى لو لم أستطع رؤية وجهها أو سماع صوتها. شمسٌ واحدةٌ تدفئ بشرتها وغلافي. ليلٌ واحدٌ يرخي أستاره علينا. حبيبتي التي يزيّن وجودها صفحاتي منذ سنواتٍ بعيدةٍ جدًّا، لا تزال هنا. سوف أشهد تغير حبيبتي الغالية، لتصبح امرأةً عجوزًا، لأنني مؤمن أن دروبنا ستتقاطع في يومٍ ما، وأننا سنلتقي.

ربما كان هذا الإيمان المتفائل هو السبب في رغبتي المُلِحة في الكشف عن السرّ العظيم الذي أحمله بداخلي. هل تضخم إحساسي بذاتي؟ هل صرتُ مغرورًا ومتعجرفًا؟ الحقيقة أنني لا أعلم، لكنني فكرت بأنه لا قيمة لي، ما بقيت الكنوز مخبّأة. لقد أفضى الحب إلى جنون "قيس". الجنون هو الذي أكسبه تلك الشهرة منقطعة النظير. ما دمتُ أمتلك الغرام والمشاعر ذاتها، فإن من حقي التمتع بشهرةٍ مشابهة. القلب أصل الحب وموطنه. لا مكان للعقل في المسألة بأكملها. إن الحب لا يدخل القلب، إلا في غياب العقل. يبدأ الحب حين تطغى العواطف على التفكير. إذا كانت الأفكار تسيطر على العواطف وتوجهها، فإن الحديث عن الحب يغدو كذبًا وبهتانًا.

يحنُّ قلبي إلى "ليلى".. لكن لماذا يخبرني عقلي أن عودتنا إلى بعضنا البعض مرتبطة بإفشاء أسراري والبوح بها؟ أغلب الظن أن هذا هو الخطأ الذي ارتكبته. لقد أفنيتُ حياتي وأنا أقارن نفسي بـ"قيس"، وأتحرق شوقًا لكي أصبح في شهرته. ولكن كيف أتصرف، والجميع يجهل أنني أملك عشقًا أكبر من عشق "قيس" لـ"ليلى العامرية"؟ إنهم يقرؤونني، لكنهم لا ينتبهون لوجودي من الأساس. يتركز اهتمامهم على مشاعر "قيس" فقط. لو أنني بحث بأسراري العجيبة، فسوف أحصد شهرةً مماثلة، وسوف تحبني "ليلى" بعمق. إن الشهرة أحد أسباب الحب.

ما جدوى آلامي ومعاناتي إن لم أستطع مصارحة "ليلى" بحبي لها؟ هذا ما جعلنى أقرر كشف جميع أسرارى لأعضاء الجمعية.

t.me/qurssan

أشبه عقدًا ماسيًا، بالغ الجمال والإبهار، لا يرى أحدٌ الخيط الذي يمرّ عبر حبّاته البرّاقة المتجاورة. الأبيات الشعرية تزين صفحاتي كفصوصٍ ثمينة، لكن الأسرار التي تحتوي عليها غير مرئية. تمنيتُ أن يكتشف أحدٌ وجودها، وينتزعها من داخلي. بتلك الطريقة فقط، سأتمكن من العودة إلى "ليلى"، والتمتع بحبّها، وتجفيف دموعها، وتخليصها من العذاب. سأتابعها وهي تكبر أمام عيني، وتشيخ. سأتمكن من رؤية الشيب وهو يغزو أولى خصلات شعرها.

أظنُّ أنني أردتُ أن أتولى أنا المطاردة، لا أن أضطر إلى الهروب. أردتُ أن يراني الناس، وألا أظل مُجبَرًا على الاختفاء والاختباء. تعاظَم شوقي إلى "ليلى"، وخدها اللامع، وشعرها الناعم، وشفتيها الورديتين. إنني أراها أمامي، أينما تلفتُّ. لعل السبب في حبي لقصر "سعد آباد" هو أنه أكثر ما يذكّرني بـ"ليلى". يذكرني القصر أيضًا بـ"أحمد نديم أفندي"، الذي أشعر بأن قصائده تصف "ليلى" بمنتهى الدقة.

في تلك الليلة، تساقط الحزن الذي يميز أمسيات سبتمبر، على أرجاء قصر "سعد آباد. تساقطت معه أوراق الخريف من الأشجار. انبعثت البهجة من داخلي، كالأضواء المبهرة المنبعثة من نجف الكريستال اللامع داخل القاعة الكبيرة في القصر. كنتُ سعيدًا لوجودي في اللقاء الذي تعقده "جمعية بابل" كل سبع سنوات. في تلك اللحظة، كنتُ على استعدادٍ تامٍّ لأن أبوح بجميع أسراري. أردتُ أن أبدأ حياةً جديدةً ليس فيها سوى الحب. أردت أن أتحرر من عبء أسراري. في هذه القاعة المضيئة، لن يفهمني جيدًا إلا ثلاثة أشخاص: الصدر الأعظم، والشيخ "عبد الحي أفندي"، و"نادر علي"؛ أما الأربعة الآخرون فإنهم لا يفهمون إلا اللغات الأجنبية.

حين غادر آخر الخدم القاعة، حاملًا معه مفرش السُفرة والأباريق ومناشف المائدة، رفع "إبراهيم باشا" كأسه وقال:

- في صحة الراهب "آكيلدان"، ورفاقه المخلصين!

t.me/qurssan

أخرج "ليفيان"، رئيس المخابرات الروسية، عباءةً من الصندوق الصغير الذي يحمله معه على الدوام. اقترب من "إبراهيم باشا"، ووضع العباءة على كتفيه. لم أرَ مثلها من قبل على رؤساء الجمعية السابقين. أعلن "ليفيان" متباهيًا، ببعض النشوة الدينية، بأنها تشبه ما كان يلبسه الرهبان الكلدانيون قديمًا، وأنه استوحى تصميمها من الرسوم الفرعونية. أضاف بأن ارتداء رئيس الجمعية لها في هذه الجلسة، سوف يحفز الآلهة الكلدانية على تقديم المشورة والمساعدة، وتيسير حل الألغاز الغامضة.

التف بقية الأعضاء - الذين أجهل مناصبهم في الجمعية - حول الباشا، وتبادلوا التحيات الخاصة بهم، مرةً أخرى. فوق الطاولة الرئيسية في القاعة، تجاورنا أنا وخنجر رأس "سيروش"، وحزام الزمزمية الجلديّ المهترئ، ولوحُ جلديّ ملفوف، لم أتبينه جيدًا. كنا كالأطفال الأربعة الذين جلبهم "نبوخذ نصر" من الأركان المختلفة لمملكته، ليضحي بهم في احتفالاته الأخيرة.

عادوا للجلوس حول الطاولة. فتح "مارتيل كلوفيس" اللوح الجلدي. رُسمت عليه سبعة مثلثات متساوية الحجم. في الزاوية الحادة لكل مثلث، رُسِم واحدٌ من الكواكب السبعة، كرمزٍ للآلهة الكلدانية. احتوت الزوايا المنفرجة للمثلثات على كتاباتٍ مسمارية من بعض أبياتي وما يساويها من أرقام. رُسِم كل مثلثٍ بلونٍ مختلف. المثلث الذهبي يمثّل الشمس. الفضي هو القمر. الأزرق هو الإله "نابو". يمثل الأبيض الإلهة "عشتار". الأحمر "نيرجال". "البنفسجي" هو "مردوخ". أمَّا الأسود، فيمثل "نينيب". احتوت اللوحة أيضًا على رسومٍ مبسطة لبرج الحوت والعذراء والأسد، وغيرها من الأبراج الفلكية. قُسِّم كل مثلث إلى أرباعٍ منفصلة.

قلت لنفسي: "لقد حققت الجمعية تقدمًا كبيرًا، خلال سفري في البلاد الغربية الباردة".

انهمك الشيخ "عبد الحيّ أفندي" في تدوين الأبيات الخمسة التي اتفق الجميع - في الاجتماعات السابقة - على أنها هي التي تضم الشيفرات السرية. حاول الجنرال "ستيفان" أن يحفظ البيت

t.me/qurssan

السادس، عن ظهر قلب، رغم أنه لا يفهم معناه على الإطلاق. لكنه أحَبّ إيقاعه الموسيقي المُنَغم. راح يطرق سطح الطاولة بأصابعه، وهو يردد:

"ابتلاءٌ خفيٌ هو الحب

مغامرةٌ حزينةٌ هو الحب".

طلب الشيخ "عبد الحيّ" من الأمير "راكوتسي" أن يترجم البيت للجنرال، ثم قال بحماسة:

- ألا تلاحظون أن وضعنا يشبه هذا البيت كثيرًا؟ إن أسرار الرهبان الكلدانيين بالنسبة لنا "ابتلاءٌ خفيّ"، والطريقة التي نخبئ بها أعمالنا وإنجازاتنا تشبه تكتم العشاق والمحبّين. وسعينا للعثور على الأقراص الطينية التي تضم المعلومات العِلمية المهمة، هي نوعٌ من الـ"مغامرة".

أضاف متفكرًا:

- إن الكتمان لا يقل خطورةً عن المكاشفة؛ لكن الحب يتطلب الكتمان والسرّية، وإلا فإنه لن يدوم. هذا ما نجده في علاقة الصوفي بخالقه. إن الله محتجب، لكنه يوقظ في نفس خادمه الصوفي سعيًا لا ينتهي كي يراه في كل ما حوله.

أكمل قائلًا:

- لقد صارت أعيننا مثل عيني العاشق الذي لا يرى سوى محبوبه. أينما اتجهنا، تفتش أعيننا عن الشيفرات والألغاز الشّعرية. إن أعظم متعةٍ للعاشق هي لقاء محبوبه والوصول إليه، ونحن بدورنا نحاول الوصول إلى حلول تلك الألغاز. ومهما يبلغ سموّ عاطفته، فإن العاشق يعاني لوعة الحب وعذاب الفراق. كلما زاد الحب، زاد العذاب. كلما زادت المعاناة، زادت بهجة الوصال. إننا نوشك الآن على تذوق هذه البهجة. سوف ننهي خمسة آلاف سنة من الهجر، باعدت بيننا وأسرار سادتنا العِظام.

سار الشيخ إلى النافذة، وأشار إلى كوكب الزُّهرة:

t.me/qurssan

- انظروا إلى "عشتار" ببهائها الأبيض! حين تضيئها الشمس، ويتحول لونها إلى الأحمر، سوف يكون العالَم مِلكًا لنا. وكذلك المعرفة والذهب. عندما قال أمين المكتبة: "هناك سبعة أسرار حقيقية لمن يعرفون الحب، من يمتلكها، يمتلك السيطرة على العالم"، فإنه كان يشير لما سيحدث الليلة. سوف نتوصل لحل جميع الشيفرات خلال ساعات، ويصبح الكون كتفاحةٍ بين أصابعنا!

أجابه "ستيفان":

- للمكان أو الزاوية التي نراقب منها الأمور، أهميةٌ كبرى. انظروا إلى "عشتار" وهي تغمز لنا بعينها! إنها تعلن سيطرتها على هذه الليلة وأحداثها.

أضاف:

- إن الحجم، ودرجة الحرارة، والكثافة، أمورٌ منفصلة. ظهر بعدها الارتفاع والعُمق والعرض والاتساع. أضاف بعدها الرب شيئًا من الأثير، أو الجوهر والخُلاصة، للكون. وكما يمنع الغاز السائل اختلاط طبقات الجو، فإنه يساعدها على الدوران حول بعضها البعض، في اتجاهاتٍ متباينة. انتقل الوقت من بداية الكون إلى الكون الحالي، بواسطة هذا السائل. خلق الله المجرات التي تتكون من مئات المليارات من العناقيد النجمية، والأنظمة المختلفة. ثم جاء "مردوخ العظيم" و"نابو" و"عشتار"، واتفقوا على تقرير مصائر الخَلق. لا شك أن أسرار "آرشيا آكيلدان" تضم معلوماتٍ أكثر من هذه بكثير.. أمورٌ عن السنوات الضوئية، والحجم والكتلة.

أردف بعد بُرهةٍ:

- وفقًا لمؤشرات الكتلة، وقُطر كل مجرة، فإننا في "مركز أبحاث فضاء بابل" سوف ننجح في حساب الوقت الذي يتطلبه الوصول إلى أقرب جرم سماوي، اعتمادًا على حلول الشيفرات التي سنتوصل إليها الليلة.

t.me/qurssan

أجابه "إبراهيم باشا" ممازحًا:

- سوف تكون أول من نرسله إلى الفضاء إذًا، يا "ستيفان"! إنك تتحدث عن طبقات الغلاف الجوي كما لو أنك اخترقت كل واحدةٍ منها!

- لم أفعل بطبيعة الحال. ولكن يسهل تخيلها وتصورها. أعني أن المجرات لا تختلف كثيرًا عن القرى والبلدات والمدن. لو قُدِّر لي زيارتها، فسوف أخبرك بمشاهداتي فور عودتي.

علّق "عبد الحيّ أفندي":

- لمَ لا؟ لقد فعلها "لاجاري حسن تشلبي" من قبل، حين نقل تحيات المسيح عليه السلام للسلطان "مراد"!

فشل "نادر علي" و"ليفيان" في فهم الحوار الدائر ومتابعته. ظل "ليفيان" يكرر، باستياءٍ واضح: إنهم يتطاولون على الذات الإلهية، ويتحدثون عن الرب بسخريةٍ غير لائقة.

قلتُ لنفسي: "لو استطاعوا الحصول على المعلومات والنظريات العِلمية التي توصل إليها "آكيلدان" ورفاقه، فإنهم لن يستوعبوا منها شيئًا. سيحارون في فهم مصطلحاتٍ كـ"الإلكترون" و"البروتون" و"النيوترون". سوف تستعصي عليهم المعادلات الرياضية، ولن يعرفوا كيفية إجراء حسابات السنين الضوئية اللازمة للسفر إلى الفضاء".

بدلًا من مناقشة ما صاروا يمتلكونه من معلومات تتعلق بضخامة الفضاء الخارجي، فإنهم تباروا في استعراض كل ما يعرفونه في شتى المجالات، وكل واحدٍ منهم يسعى للتفوق على غيره. تحدث أحدهم عن الصوفية في الشرق، وتناول آخر نظريات الإلحاد. ناقشوا الفلسفة اليونانية وأشهر رموزها. أراد كل شخصٍ من الحاضرين إثبات أنه الوحيد الذي يملك معرفة عميقة.

حين أنهوا كل ما يمكن قوله في هذه الموضوعات، انتقلت دفة الحديث إلى المستقبل. ناقشوا تصوراتهم للتغيرات التي ستطرأ

t.me/qurssan

على العالم في العقود والقرون المقبلة. تحدثوا بثقةٍ وطموح، جعلاني أدرك أنهم حضروا معًا أكثر من اجتماعٍ سابق.

ركّز الباشا و"نادر علي" جهودهما في البحث عن شيفرةٍ معينة، بين صفحاتي. أشعل الشيخ "عبد الحي" غليونه، وراح يدخن بشراهة. شرب بقية الحضور النبيذ. شربوا من كؤوسهم كما لو أنهم يتناولون إكسير الحياة في أحد الاحتفالات البابلية القديمة. انتقل الحوار إلى التغيرات السياسية الواجب تنفيذها في أوروبا، وبدأه "مارتيل كلوفيس"، بالقول:

- بإمكاني الآن أن أبعث رسولًا إلى جلالة الملك "لويس الخامس عشر"، وأطلب منه اغتيال نائب "فيليب الأول"، دوق مدينة "أورليون"؛ كما سأحذرّه من الكاردينال "فلوري" الذي أنفق سرًّا كل الذهب الذي أتاه من المستعمرات. سوف تكون حلول الشيفرات، التي سنتوصل إليها الليلة، سببًا يمكّنني من اعتلاء كرسي الوزارة، فور عودتي إلى فرنسا.

رفع "نادر علي" رأسه عن صفحاتي، وقال بحماسة واحترام:

- نعم يا سعادة السفير. سوف تصبح وزيرًا مفوضًا، وتمتلك صلاحيات مطلقة.

أضاف:

- أنا بدوري أحلم بالتخلص من سيطرة "طهماسب" وعبوديتي له. أرغب في تأسيس الدولة "الأفشارية". وبعودة الكونت "راكوتسي" إلى "ترانسلفانيا"، والجنرال "ستيفان" إلى النمسا، يمكننا تأسيس فترة طويلة من السلام في "أوراسيا". وبعدها لن نضطر إلى صرف مواردنا المالية على الحروب والأسلحة، بل سنوجهها إلى دعم أبحاث الفضاء. سنستغل تأثير "عبد الحي أفندي" على الانكشاريين، كي يقنعهم برِفقٍ ولين بعدم جدوى الثورات التي يفكرون في القيام بها؛ وبهذا تصبح مهمتنا أسهل. سنتمكن من إنشاء "مركز البلقان وبابل لأبحاث الفضاء". ربما استطعنا جعل المقر الرئيسي في مدينة "الموصل"، حيث خُبّئت كنوزنا وأسرارنا.

t.me/qurssan

سنجمع علماء بلادنا، ونشجعهم على العمل الإنسانية لخير وصالحها...

قاطعه "إبراهيم باشا":

- لنؤجّل خططنا المستقبلية قليلًا، يا أصدقائي الأعزاء، ولنعُد إلى تحليل هذا البيت الشّعري. إن مجموع حسابات أحرف كلمتيَ "غموض" و"حب"، الواردتين في هذا العمل، هو 576. يحمل هذا البيت من حيث ترتيبه في القصيدة رقم 1375. علينا الآن أن نجد العلاقة بين هذين العددين. إذا أزلنا من كل واحدٍ منهما الرقم المشترك، وهو 7، يتبقى لدينا 5 و6 في العدد الأول، ومجموعهما 11؛ أما في العدد الثاني، فسوف يتبقى لدينا 1 و3 و5، وناتج جمعها هو 9. السؤال هو: هل نجمع 9 و11 معًا، أم نطرح 9 من 11؟

أردت أن أصرخ في غيظ: "لا هذا ولا ذاك يا سيدي الفاضل! العملية الحسابية المطلوبة مختلفة تمامًا! سوف تجمع 1 و3 و7 و5 معًا، وستحصل على 16. اقسِمْ 16 على 7. الناتج هو الشيفرة السادسة".

أردتهم أن يتوصلوا إلى الحل قبل شروق الشمس، حتى أتمكن من العودة إلى حضن "ليلى" العزيزة.

حين تساقطت أشعة الشمس الوليدة على المشاعل البديعة التي تزين الجدران الخارجية لقصر "سعد آباد"، كان الصمت يخيّم على المجتمعين السبعة. أعينهم مرهقة، وعقولهم ملبّدة بآثار النبيذ. هبّت ريحٌ باردة، تلائم الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، حاملةً معها دويّ الطبول التي تُقرع بقوة في أرجاء "إسطنبول". لكنهم استسلموا لنومٍ عميق، ولم يسمعوا شيئًا.

داخل أسوار مدينة "إسطنبول"، رَفَعَ "خليل" الذي يعمل في أحد الحمامات الشعبية، والمعروف بين الناس بـ"بترونا خليل"، نظرًا لعمله السابق في البحر - "بترونا" تعني "لواء بحري" - ورفيقه "موسلو بيشي"، مع سبعة عشر شخصًا آخرين، راية الثورة. ساروا

t.me/qurssan

في طرقات المدينة وهم يهتفون:

- لنحارب قوى الشر! لينضم جميع أتباع "محمد" تحت رايتنا!

التف الناس حولهم، وتزايدت أعداد المتظاهرين شيئًا فشيئًا، حتى صاروا بالمئات. راحوا يرددون الهتاف ذاته، بأعلى أصواتهم. كان الجيش يعسكر في "أوسكودار"، ولذلك كانت المدينة تفتقر إلى الحماية والتأمين. شعر السلطان "أحمد الثالث" بالفزع، فأرسل رجاله لإحضار "إبراهيم باشا".

قال الناس:

- أصدر "إبراهيم باشا" أمرًا سرّيًا بأن تستسلم مدينة "تبريز" للشاه. هذا سبب تعطيله لمسيرة الجيش.

رددت الجماهير بغضب:

- نريد تطبيق الشريعة..

لطالما رغب الناس في أن تُطبَّق أحكام الشريعة على الخارجين عن القانون، لكن هذا لم يكن السبب الأوحد. انزعجت الغالبية العظمى من الشعب من البذخ والترف اللذين ميّزا حياة الصدر الأعظم. رفضوا استئثاره بالضرائب التي يأخذها منهم، كي يموّل ملذاته ومسرّاته، ويشيّد بها مباني للتسلية. لم تشهد الدولة هذا القدر من الإسراف، من قبل، ولم تعرف نظامًا بهذا الفساد.. يزيد الفقيرَ فقرًا، والغنيَّ غِنىً.

في قصر "سعد آباد"، غطّ "إبراهيم باشا" في نومٍ عميق، عقب الكؤوس التي شربها ليلًا، بينما استمر هياج الناس في الشوارع والطرقات، وتزايد الشغب. قررت جموع الغاضبين السيطرة على المدينة بأكملها. في اليوم التالي، وعند اقتراب الظهيرة، تضاعَف عدد المتظاهرين وأصبحوا بالآلاف. تنوعت دوافعهم، فمنهم من خرج للتظاهر لانزعاجه البالغ من الفساد الإداري، ومنهم من كان يهدف للحصول على نصيبٍ من كعكة السُلطة. ازداد الوضع سوءًا مع هروب عدد ضخم من السجناء، من زنازين السجون الكبرى:

t.me/qurssan

وانتشرت في لحظات جرائم القتل والنهب والسرقة.

استيقظ ضيوف الباشا عند الظهيرة، على أنباء العصيان والتمرد. خرجت الأمور عن السيطرة، ولم يعد بالإمكان تهدئة الوضع. قدّم الباشا لأعضاء الجمعية أوراقًا تضم الأبيات الستة التي دوّنها الشيخ "عبد الحيّ" في الليلة السابقة، وقال بلهجةٍ آمرة:

- فليحتفظ كل واحدٍ منكم بورقته، وليحافظ عليها. سوف نواصل مناقشتنا في الاجتماع القادم. علينا أن نصل إلى الفضاء مستقبلًا.

غادروا متنكرين، وسار كل منهم في اتجاه. حين وصل أفراد المخابرات العثمانية إلى "سعد آباد"، كان الوقت قد فات. كانت القاعة الرئيسية خاوية إلا من كؤوس النبيذ، وزجاجات خمر "العَرَق"، التي فاحت منها رائحة الينسون النفّاذة.

أخذ "مارتيل كلوفيس" معه الخنجر المرصع، بينما أخذ الجنرال "ستيفان" حزام الزمزمية العتيق. طوى الشيخ "عبد الحي" العباءة المصممة وفق الطراز الكلداني، ومعها القطعة الجلدية التي تضم أسماء الآلهة البابلية، ودسّهما تحت معطفه، قبل أن يتجه بخطواتٍ سريعة إلى التكية الصوفية.

قُبيل مغادرته للقصر، استدعى "إبراهيم باشا" زوج ابنته وسلّمني له، ثم قال بلهجةٍ آمرة:

- أعطِ "نديم" هذا الكتاب، واطلب منه أن يخبّئه ويحافظ عليه. قل له إنني سأستردّه حين تهدأ هذه العاصفة.

أدرك الباشا أنه يسهل إخفائي بين آلاف الكتب التي يمتلكها شاعرٌ شهيرٌ مثل "نديم".

t.me/qurssan

في ذلك اليوم، شاهدتُ "ليلى" للمرة الأخيرة، من مسافةٍ بعيدةٍ بعض الشيء. كانت تبكي في خوف. لو أنها فقط تعي مقدار حبي لها، لتوقفت دموعها، ولبدأت البحث عني الآن بكامل جهدها. تمنيتُ لو أنها سكبت دمعةً واحدةً فوق الوردة التي خلّفها دم "روكال" على غلافي المهترئ، كي تستعيد الوردة رونقها وتبقى فوقي إلى الأبد. حين رأتني "ليلى"، للمرة الأولى، قبلتني في مكان الوردة نفسه. امتزجت آثار شفتيها مع القبلة التي أودعتها "ليلى" لديّ، على ضفاف "دجلة"، منذ زمنٍ بعيد.

خلال لحظة، أغرقتني موجةٌ من الحب والحنين والعذاب والذكريات المختلطة. أفقتُ منها على وقع خطوات "ليلى" وهي تقترب من "كايماك مصطفى باشا" لتتناولني منه. لكنه تجاهلها، وقام لاحقًا بتسليمي إلى "أحمد نديم أفندي".

غادرتُ القصر بصحبة "نديم"، الذي حملني بيدين مرتجفتين من أثر الإفراط في تناول الكحول. كنت أدرك أنني لن ألتقي "ليلى" مرةً ثانية. إن حظ تلك الفتاة حالك السواد، كلون شعرها! احترق جوفي من جديد بجميع الآلام التي مررتُ بها سنواتٍ طويلة. عدتُ لأصبح "قيس" الحكاية، من جديد. إنني أعاني عذابه نفسه حين كان في البرية.

t.me/qurssan

ترتبط حياتي ارتباطًا وثيقًا بحكايتي، ومصيري الدائم هو الحزن.

بقيتُ في منزل "نديم أفندي"، ثمانية أيام. ثمانية أيام مليئة بالشِّعر. ترك "نديم" خلالها قصائده المعروفة بالفحش والخلاعة، وتفرّغ لقراءة أبيات سيدي "فضولي". بعد بضع ليالٍ، وجد "نديم" نفسه منساقًا لكتابة أبيات تماثلها في الرقة والعذوبة، لكنها لم تعبر عن الحب العذري العفيف، كما في كتابي، بل أضاف لها بعض الصور الحِسية التي استقى أغلبها من تجاربه الشخصية المتعددة مع الغِلمان. في الفترة الأخيرة، شعر بانجذابٍ قويٍ نحو الفتى الألباني الذي يعتني بحديقته. تعمّد أن يناديه في بعض الأحيان، متحججًا بأمورٍ تافهة. تنتهي المسألة عادةً، بأن يحاول مراودته عن نفسه. وفي كل مرة، يتهرب الشاب من طلب الكهل الخمسيني الضعيف. حين استبدت به الأشواق تجاه فتاة، نظم فيه أبياتًا غزلية مؤثرة تفوّق فيها على سيدي "فضولي".

أحبّ سيدي "فضولي" التعبير عن فكرة الحب نفسها، لكن "نديم أفندي" ركّز على المتع الجسدية وربط الغرام بها. اللمسات الماجنة والقبلات الساخنة، أهم لديه من المشاعر والأحاسيس. تواءمت تعبيراته الجنسية مع سلوكيات صفوة الطبقات العُليا، ومفهومهم للهو والتسلية.

واصل "نديم" قراءتي، وقد أذهلته قوة حبي وعظمته. تساءل في دهشة عن كيفية مقاومتي لرغباتي الجسدية.. كيف لم أسعَ إلى مضاجعة "ليلى" ولو مرةً واحدة؟ كيف لم يفكّر سيدي "فضولي" في كتابة مشهدٍ واحدٍ على الأقل، بهذا المعنى؟

تسللت كلماته إلى أوتار العازفين الذين يحيون حفلات قصر "سعد آباد"، وانتشرت أغنياته على لسان ساقطات "إسطنبول". كما اتخذ الشباب عباراته المتداولة، وسيلةً لمغازلة الفتيات. اعتمد المحبون على أبياته في التصريح بمشاعرهم لحبيباتهم.

لم تعد أشعار الحب البريء، الطاهر، التي عرفتها "إسطنبول" منذ أيام سيدي "فضولي"، تلقى رواجًا بين الناس. صاروا يفضلون الكلمات الشهوانية التي تعبّر عن الشبق، ولذلك صار "نديم"

t.me/qurssan

شاعرهم المحبوب. تميزت أعماله، رغم موضوعاتها، بالجمال والعذوبة، وخلت من الفجاجة المتوقعة. تحيي كلماته الحب في النفوس، وتبعث بالرغبة في الأوصال.

لثمانية أيام، راقبتُ "أحمد نديم" وهو يقرأ الشِّعر في دواوين مختلفة، وتنطلق منه الآهات والتنهدات. في قصائده الجديدة، كان يتحرق شوقًا إلى الماضي وعنفوانه. كان مُلِمًّا بالفوضى التي تجتاح المدينة، والمواجهات الدامية بين مختلف الخصوم، لكنه استمر في الشُّرب بكثرة وهو يطيل التفكير في الجنايني الألباني. واقع الأمر، أنه لم يستوعب مدى خطورة الأحداث المتصاعدة. أما أنا، فلم تهمني الأحداث إلا بقدر تأثيرها في "ليلى".. ما الذي حدث لها يا تُرى؟ هل تطاولَ عليها أحد عساكر الانكشاريين؟ هل اغتصبها سجينٌ هارب؟ ربما كانت توشك على الموت في هذه اللحظة.. تخبطتُ بين هذه الأفكار المزعجة، دون أن أملك فعل شيء.

بين الحين والآخر، يتذكَّرُ "نديم" خطاياه، شاعرًا بالندم والخوف، ومدركًا أنه سيقابل خالقه يوم الحساب بوجهٍ سوّدته الذنوب، لكنه - مع ذلك - لا يستطيع دفع نفسه إلى التوبة. أتأمله في تلك اللحظات، وأدرك جيدًا أنني أمام شخص عبقري، وأن لا أحد سيقدّر هذه العبقرية حق قدرها، إلا بعد مرور قرون. سيعرف الناس مستقبلًا أنه صاحب موهبةٍ فذّةٍ لن تتكرر. إنه أحد معجزات عصره، وأحد رموز المتعة الفنية والأدبية في "إسطنبول". ربما ساد الفساد أوجه الحياة الاجتماعية في تركيا، لكن الفترة ذاتها شهدت تقدمًا غير مسبوق في المجالات الأدبية والفنية.. في الشِّعر، والتصميمات الهندسية والمعمارية، والموسيقى، والفنون البصرية، والصناعات اليدوية كالزجاج والنسيج والرخام. إن أحد مقاييس تقدم الدولة، هو تقدم فنونها. حين تبدأ الدولة في الضعف والتقهقر، تصبح قممها الفنية أكثر وضوحًا. مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن تعرضت الدولة العثمانية لنكسةٍ شاملةٍ كهذه، لكن الفنون - رغم ذلك - ظلت قوية ومزدهرة وفي أفضل حالاتها.

t.me/qurssan

كنا في يوم الإثنين، حين بدأت هتافات الثوّار وصوت طلقات الرصاص تقترب منا أكثر فأكثر. بحلول الضحى، أفرغ "نديم" آخر زجاجة من خمر الـ"عَرَقَ" كانت لديه، في جوفه، لكنها فشلت في تهدئة خوفه المتزايد من الموت الذي يتهدده. انتهت كذلك كمية الأفيون التي يحملها في ثنيات حزامه على الدوام. تَلِفَتْ أعصابُه، وظلَّ يلاحق خدمه ليبحثوا له عن أي أقراصٍ مهدئة. في تلك اللحظات، توالت دقاتٌ قويةٌ على باب البيت، اهتزت لها أرجاؤه. تعالت الصيحات من الخارج:

- افتح الباب أيها الجبان! استعد لموتك!

سارع بالصعود إلى الطابق العلوي، ولفَّني وديوانه الشِعري الذي خطّه بيده في طبقتين من القماش السميك المقاوم للبلل، ووضعنا تحت لوحين خشبيين، من الألواح التي تغطي أرضية القاعة. كان ذلك هو المكان الذي اعتاد أن يخبّئ فيه الحشيش والأفيون.

عندما دخل الثوار الغاضبون المنزل، سمعتُ أنينًا متألمًا صادرًا عن "نديم أفندي". كان الصوت قادمًا من جهة سطح البيت. لاحقًا، أكد الناس الذين اقتحموا مسكنه أنه سقط من السطح وهو يحاول الهروب، لكنني كنتُ متأكدًا أنه تعمّد الانتحار خوفًا من أن ينتهكوا شرفه وكرامته، إن وقع بين أيديهم.

بعد ثلاثة أيام من الصمت المطبق، جاءت المنزل جاريةٌ ما، وأخذت بعض الملابس، واصطحبتني وديوانه معها، ثم سارت بنا بين الدروب والبيوت التي تعرضت لتدميرٍ شديد. من فوق الجسر الخشبي في منطقة "كاراكوي"، رأيتُ منزل "كايماك مصطفى باشا"، الذي أمضيتُ فيه ليالي كثيرة بصحبة "ليلى". فَقَدَ رونقه تمامًا، وتعرضت محتوياته للنهب. بدا أن قادة الثوار قد قاموا باحتلاله، وسكنوا فيه.

في تلك الأيام، التي كانت الأيام الأخيرة لـ"عصر الخزامى"، والتي امتدت من 1718 إلى 1730، تحولت "إسطنبول" الجميلة إلى بقعة جحيم. أغلقت مصانع الخزف والورق والنسيج. تهدمت

t.me/qurssan

أجزاءً كبيرة من القصور والمباني الحديثة. دُمّرت الحدائق. توقفت مطابع السيد "متفرقة" عن العمل. نُسِفت مباني المدارس الجديدة بالكامل، ولم يبقَ لها أثر. تعرضت المدينة لحملات سرقة ونهب. انتابني الخوف من أن يسرقني أحد. خشيتُ ضياع منمنماتي، والدُرر الشِّعرية التي أحتوي عليها. خشيتُ أن ينتهك أحد براءة حكايتي.

عانى الجميع في تلك الأيام الرعب والقلق والتوتر. لم تشهد "إسطنبول" كارثةً مماثلة، منذ أيام البيزنطيين. المدينة الملقبة بـ"دِرسعادِت" أو "بوّابة السعادة"، والتي ارتبطت في أذهان الناس بالأمان، صارت مصدرًا للخوف.

لم أسمع شيئًا عن "ليلى"، ثانيةً. هل كانت على قيد الحياة؟ أين انتهى بها المطاف؟ هل تجرأ أحدٌ على لمس خصلاتها اللامعة؟ هل اقتربت منها الأيدي التي تستغل ضعف ووحدة النساء مثيلاتها؟

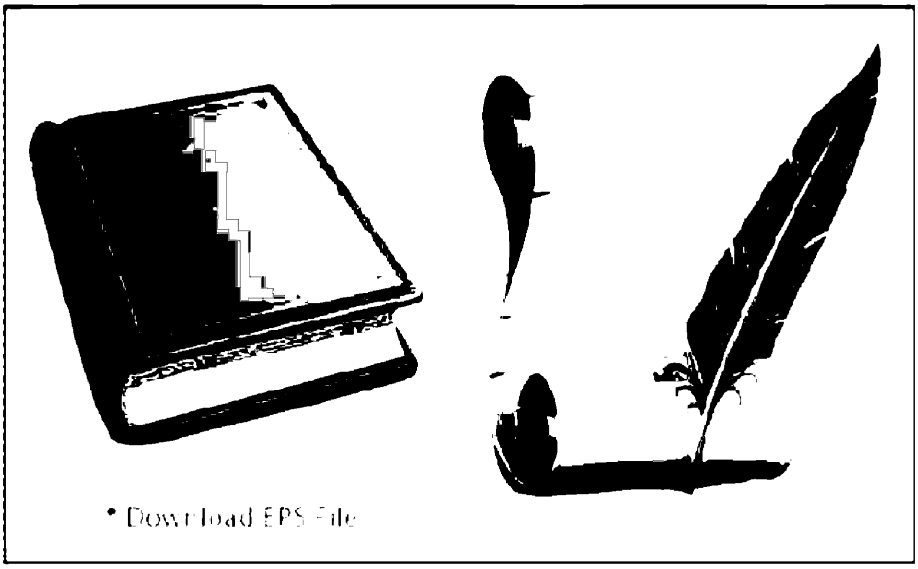

اعتصر قلبي ألمٌ حادٌ لعجزي عن الوجود معها وكفكفة دموعها. لن يفارقني هذا الألم أبدًا.

t.me/qurssan

26 الدراويش في "جالاتا"

ولغز الحبّ المبهم

لشمعة الروح لهبٌ عالٍ

يخترق أعلى السماوات

(الشاعر "شيخ غالب")

تأملتُ شمس الغروب الحمراء وهي تلقي بأشعتها الخافتة على نوافذ "خان المولوي" في "جالاتا". فاحت في المكان رائحة الزيزفون، قادمةً من الحديقة. سألتُ نفسي عن عدد القرون التي احتاجتها الصوفية كي تصبح جزءًا حيويًّا من الحياة الثقافية الرفيعة في "إسطنبول". أنا، من تقوم حياتي بأكملها على الشِّعر، يمكنني أن أقضي ما تبقى لي من العُمر بين أسوار هذه التكية، التي يتداخل فيها الخشب مع الرخام. جانبٌ من هذا المبنى يطل على أروع منظرٍ في "إسطنبول" بأسرها، أمَّا الجانب الآخر فيستند إلى مقبرةٍ، ويواجه الموت. وسط الساحة الخارجية المرصوفة بالحجارة، تقف شجرة "ماجنوليا"، تنثر حبها وأزهارها على الأرض. حين يدخل الزائر من الباب المقوّس، تطالعه مكتبة الطابق العلوي: أما الطابق السفلي، فيضم نافورةً عامَة، ومكتبًا للميقاتي، المسؤول في الأساس عن تحديد أوقات الصلاة. الحوائط الحجرية للضريح، محاطةٌ من اليمين بنافورة ماء للشُّرب، يتساقط رذاذها حولها في خفة، وباستراحة الدراويش إلى اليسار، وهي مقرّ خلوةٍ وعبادة. إن تكوين المقبرة، يمنح الناظر إيحاءً بتماهي الحياة مع الموت، وهو أمرٌ يمكن ملاحظته أيضًا من خلال المصطلحات التي يستخدمها الدراويش، فعند الحديث عن الموتى يشيرون إليهم بـ"الصامتين"، كما يصفون عملية الدَّفن بـ"الحَجْب". في هذا المكان، وتحت ظلال الأشجار الوارفة، تلتقي مُتع الحياة بالشِّعر ونغمات الموسيقى.

حين يصعد الزائر السُّلّم الرخامي المؤدي إلى المبنى الخشبي ذي

t.me/qurssan

الثلاثة أدوار، تقابله قاعة "السماع" أو "السمعخانه"، وهي قاعةٌ للذِّكر والصلاة والرقص الصوفي الدائري. كما يمكنه رؤية غرفة الشيخ، وقاعة الموسيقيين. في الأخيرة، تتمازج بعض الألحان بالغة القِدَم، الصادرة عن الآلات الموسيقية المتنوعة، ببعضها. تتسلل النغمات إلى تنانير الدراويش التي تبدأ دورانها على الأرض، ثم ترتفع لتغطي آفاق "إسطنبول".

إن "خان المولوي" الذي دخلته ضيفًا، يمثّل الوجه المشرق للإسلام أمام السفارات الأجنبية والكنائس في "جالاتا"، في تلك الأيام. يتردد إلى هذه التكية الصوفية نوعان من الناس، بالإضافة إلى الزائرين التقليديين: الأول هم أعضاء السفارات الأجنبية الذين يترددون إلى المكان لاستكشاف غموضه، والثاني هم المشرّدون، ممن أجبرتهم ظروف حياتهم الصعبة على اللجوء إلى شوارع المدينة. النوع الأول يغادر بعد أن يشبع فضوله، والنوع الثاني يغادر بعد أن يشبع بطونه. لا تختلف وتيرة الحياة داخل التكية إلا عند زيارات السلطان النادرة، فعندها تصبح الطقوس - المنضبطة أصلًا - أكثر انضباطًا ودقة. في تلك الأوقات، يتزايد إعجابي بكل حركاتهم وسكناتهم، وأتساءل: أهذه حياتهم حقًا، أم إنها أدوارٌ رُسِمت لهم، يلعبونها بمهارةٍ واقتدار؟

بين بيوت الدعارة في "سُرديبي"، وإلى وصولي إلى يديّ "دادا غالب"، طفتُ بأحياء "إسطنبول" الفقيرة والمشبوهة. تنقلتُ بين "يديكول" و"إيفان سراي"، وبين "جالاتا" و"أيوب". في قوارب صغيرة أحيانًا، وفي عرباتٍ تجرّها الثيران، في أحيانٍ أخرى. تكونت صُحبتي، في أغلب الأحيان، من رجالٍ لا همّ لهم سوى إشباع رغباتهم الجسدية.

لا أدري كم مرّ عليّ وأنا أتنقل بين محلات الحلوى في "أيوب"، وحجرات عاهرات "سولوكوليه"، التي تنبعث منها الروائح المقبضة، والأصوات المرتفعة التي تتحدث بغلظة وفجاجة ووحشية. كانت "إسطنبول" في تلك السنوات تعيش حالةً مترديةً من الفوضى والبطالة والجوع والنّهم والشَّبق. لحُسن الحظ، لم يتعرف إليّ أحد فى تلك المناطق، ولم تلاحقنى أعين اللصوص

t.me/qurssan

والطامعين.

في تلك الأيام، لازمني حزنٌ شديد، حتى شعرتُ أنني داعرة يؤرقها حبٌّ من طرفٍ واحد! لازمتني صورة "ليلى" في أحلامي. والواقع أنني كنتُ خائفًا من أن أراها في أحد تلك البيوت سيئة السُّمعة. بعد سنوات، وحين فقدتُ الأمل تمامًا في رؤيتها، قلتُ لنفسي: "لا بد أنها ماتت وتركتني هنا وحيدًا".

رغم بشاعة الفكرة، فقد وجدتُ فيها نوعًا من السلوى والاطمئنان.

أتيتُ إلى هذه التكية في وقتٍ عانيتُ فيه أقوى عذابات الحب وتباريح الحنين والاشتياق. شعرتُ عند وصولي أن يد "الخِضر" عليه السلام تربّت على قلبي.

مع مغيب شمس أحد الأيام شديدة البرودة، حين تحولت قطع الجليد على أطراف أوراق الشجر إلى ما يشبه النصال الحادة، وصل "أوفيندر فيبس" إلى "خان المولوي". كان الجوّ ينذر باقتراب عاصفةٍ ثلجية. قال "فيبس" لـ"دادا سبيلتشي":

- هناك ما أودّ قوله للشيخ.

كان "فيبس" يعلم أن أبواب التكية تُغلَق عقب صلاة المغرب، ولا يُسمَح لأحدٍ بعدها بالدخول أو الخروج. كان هدفه من الزيارة في هذا التوقيت تحديدًا هو استغلال هذه النقطة، كي يريح قدميه المتعبتين اللتين أنهكهما البرد القارس، بالنوم متدثرًا ببطانيةٍ صوفيةٍ، حتى الصباح. كما أمل في الحصول على طبقٍ من الشوربة الساخنة. كان قد تشاجر مع عشيقته "راستيكلي آنوش"، وكي يلقنها درسًا أخذ أغلى ممتلكاتها، وأعني بذلك نفسي، وقال مهددًا قبل أن يغادرها إنه سوف يرهنني لدى أحد باعة الكتب المستعملة.

لكنه لم يرغب في قطع المسافة الكبيرة التي تفصله عن "بايزيد"، حيث ينتشر باعة الكتب، في البرد الشديد، فاتجه إلى "بيوجلو" على أمل اللقاء بأيٍّ من معارفه، كي يتطفل عليه. تسكع هناك لبعض الوقت، لكنه لم يلتق وجهًا مألوفًا، فقرر اللجوء إلى التكية

t.me/qurssan

الصوفية. أخبره "دادا سبيلتشي" أنه من غير الممكن أن يقابله الشيخ هذه الليلة، وأن عليه العودة في اليوم التالي إن كان يرغب في محادثته. لكنه أجاب بإلحاح بأنه جاء في أمرٍ بالغ الأهمية، وأنه لن يتردد في إثارة مشكلة إن رفض الشيخ لقاءه.

الحقيقة أن "أوفيندر فيبس" يتمتع بالجرأة والجسارة. في "كاستامونو"، نافسه شابٌ من منطقةٍ مجاورةٍ على حب جارته، وراح يلقي على أسماعها أبياتًا شعرية، وأغاني شعبية، فما كان منه إلا أن قتله، ثم فرّ هاربًا إلى "إسطنبول". هناك، اختفى دون أثر. كان فتيًّا وقويًّا، ويتمتع بالاجتهاد والمثابرة، وآلمه أن ينتهي به الحال إلى هذا المصير.

حين التقى "آنوش"، كان وحيدًا وقليل الحيلة، وبحاجة إلى من يؤنس وحشته ويخفف عنه أحزانه. أما "آنوش"، فقد كانت عشيقةً لتاجر عطور يهودي في "إسطنبول"، أتى من الأندلس، وكان لها عشاقٌ آخرون تقابلهم في الخفاء، بين الحين والآخر. حين رأت هذا الشاب القادم من "كاستامونو"، والذي يعمل في حديقة أحد البيوت الكبيرة في حي "بلاط"، تعلق قلبها به، وصارت تتردد على ذلك البيت بكثرة. قبل مرور شهرين على تعارفهما، نشأت بينهما علاقةٌ غراميةٌ سرّية. سرعان ما تحولت علاقتهما إلى لعبةٍ مسليةٍ لكلٍّ منهما. باتا يتخلصان من مسؤولياتهما، ويضعان خططًا مشتركة، تتيح لهما اللقاء. في إحدى المرات، وعقب ليلةٍ أمضتها في صحبة تاجر العطور، أعلنت له "آنوش" حاجتها للاستحمام في الحمام الشعبي. غادرت المنزل معه وهي تتأبط ذراعه. سار "فيبس" وراءهما. كانا قد قررا اللقاء في اليوم ذاته. دخلت "آنوش" الحمام، وبقي التاجر بانتظارها على القهوة الواقعة في الجهة المقابلة. أثار وجوده قلق "فيبس"، الذي توقع أنه سيغادر بعد توصيل المرأة لوجهتها. قبل أن يفكر في الخطوة التالية، خرجت امرأةٌ لا يعرفها من الحمام، وأمسكت بذراعه وهي تقول:

- صباح الخير يا جميل! تعالَ معي!

t.me/qurssan

لم تكن سوى "آنوش"، التي استبدلت الملابس التي ترتديها بأخرى جديدة كانت تحملها معها. مرّا أمام القهوة، دون أن يلفتا نظر التاجر اليهودي. عادت بعد نحو ساعة، واستبدلت ملابسها مرة أخرى داخل الحمام. خرجت وسارت تجاه عشيقها بخطواتٍ متمهلة، كأن شيئًا لم يكن.

تكررت هذه الحركة لعدة أسابيع. لم يعد "أوفيندر فيبس" يرغب في أن يشاركه فيها التاجر الأندلسي، ولذلك استأجر بيتًا، وأخذها لتعيش معه. لكنه سرعان ما اكتشف أنه لا يستطيع تحمل مصروفاتها وطلباتها الكثيرة، وأدرك أن السبيل الوحيد لسدّ هذه المتطلبات هو أن يعمل قوّادًا لها. وهكذا ألقى نفسه في خضم حياةٍ شاقةٍ ومنحلةٍ، لم يعرفها قبلًا.

أرسل "دادا سبيلتشي" أحد الدراويش ليُبلغ الشيخ بالمسألة. صعد الدرويش السُلّم، ثم نزل الدرجات بعد قليل، معلنًا موافقة الشيخ على لقاء الضيف. حين وصلا حجرته العلوية، أتتهما من الداخل دقّتان على الباب، تأذنان لهما بالدخول. لمس الدرويش إطار الباب الخشبي بشفتيه، بخفةٍ بالغة، قبل أن يلج للغرفة. فعل "فيبس" مثله بالضبط.

حاول "فيبس" أن يخبئني تحت حزامه العريض، لكن طرف غلافي ظل ظاهرًا. لم يكن هو وحده من يشعر بالبرد ذلك اليوم، فقد تسللت البرودة إليّ أنا أيضًا، حتى محت الرطوبة أطراف بعض حروفي. شعرتُ بسعادةٍ عظيمةٍ لوجودي في دفء حجرة "الشيخ أفندي". نظرتُ إلى الشيخ الذي يجلس فوق المقعد المصنوع من خشب الأرز، ووجدتُ أنه "دادا غالب" الذي سمعتُ اسمه كثيرًا. غمرتني فرحةٌ هائلةٌ، أكبر من تلك التي شعر بها "فيبس". رجلٌ وجيهٌ في الثلاثينيات، له قامةٌ متوسطةٌ ولحيةٌ خفيفة. تعكس قسماته المريحة هدوءًا وسكينة. حين دخلنا، كان يقرأ على الدراويش الذين يجلسون أمامه على الأرض، مقاطع من ديوانه "حُسن وعشق"، منتظرًا رأيهم. إنني أمام الشيخ الشهير! الشيخ الذي شعرت "بيخان" - شقيقة السلطان "سليم الثالث" - نحوه بانجذاب بالغ، حتى إنها أنشأت له هذه التكية الصوفية،

t.me/qurssan

لينظم فيها أشعاره.

أدرك "دادا غالب" أن الوقت قد تأخَّر، واقترب موعد إغلاق أبواب التكية، فبادر ضيفه متعجلًا:

- كيف يمكننا خدمتك يا سيدي؟

شبك "فيبس" يديه إحداهما بالأخرى، ثم رفع رأسه ونظر إلى الشيخ أولًا، ومن بعده الدراويش. وقف حائرًا لوهلة، وقد احمرّ وجهه بشدَة. أراد في البداية أن يصارح الشيخ برغبته في قضاء الليلة داخل التكية، لكنه شعر بتفاهة الطلب، فغمره الخجل والاضطراب، وقال عوضًا عن ذلك:

- شيخي العزيز..

واصل حديثه مستخدمًا الطريقة الصوفية وعباراتها:

- أرجو أن تأذن لي بخلع ثوبي.

t.me/qurssan

وبحسب الطريقة المولوية، فإن "خلع الثوب" هو كناية عن الدخول في الطريقة، وكأنه يقول:

- اجعلوني تابعًا لكم. أعطوني ثوبًا واحدًا يشبه ملابسكم، وأتيحوا لي أن أسكر بخمر الحب الإلهي مثلكم.

لم يغب عن "دادا غالب" أن الهدف الرئيسي من زيارة هذا الشخص، نصف العاري، في هذه الأمسية شديدة البرودة، هو النوم في مكانٍ دافئ، وتناول بعض الطعام. حاول جاهدًا أن يكتم ضحكاته. صمت لحظات، ثم قال ممازحًا:

- حسنًا، لا مشكلة في "خلع ثوبك" بالطبع، ولكن علينا أن نلبسك واحدًا أولًا!

نظر إلى الدرويش الذي أتى بـ"فييس" إلى الطابق العلوي، وقال له:

- أعطه ثيابًا يلبسها، وجِد له مكانًا يبيت فيه.

أمضيث ليلتي الأولى في "خان المولوي" في الطابق السُفلي، حيث قُسِّمت الغرف إلى مقصوراتٍ ضيقة تطل جميعها على القاعة الرئيسية. وضعني "أوفيندير فييس" تحت وسادته، واستلقى على جلد ماعز، متدثرًا بغطاءٍ صوفي. أنفق "فييس" وقتًا طويلًا وهو يفكر في العبارة السخيفة التي قالها أمام الشيخ. لامَ نفسه على أسلوبه، وأحسّ بأنه حقّر من نفسه. لقد كذب، لمجرد رغبته في المبيت لليلةٍ واحدة في التكية. قال لنفسه مؤنبًا، إن عليه الآن أن يتوصل لطريقةٍ تمكّنه من التسلل من المكان صباحًا، دون أن يراه أحد. في نهاية الأمر، قال لنفسه إنه يجب أن يضع حدًّا للذنوب والآثام التي يرتكبها طوال الوقت:

- إن الله هو الذي جعلني أتفوّه بتلك العبارة. لا بد أنها بدايةٌ جديدةٌ لحياتي.

دعوتُ الله طوال الليل أن يستقر "فييس" هنا. لا أدري إن كنتُ قد أردتُ ذلك من أجل مصلحته، أم من أجل نفسي.

t.me/qurssan

في ساعةٍ مبكرةٍ من صباح اليوم التالي، دبّت الحياة في أركان المبنى الهادئ. توضأ الجميع بأباريق من الماء الساخن، واصطفوا لأداء صلاة الجماعة. أمّ المصلين الموسيقي الشهير "همّام زاده إسماعيل أفندي"، الذي أمضى ليلته - مثل "فييس" - ضيفًا في التكية. حلّقت أصوات المؤذنين العذبة في المكان، بأداءٍ بديعٍ، أدركتُ معه أنهم تتلمذوا على يد "دادا علي نتكي"، أشهر موسيقيي التكية.

تابعتُ الصلاة، حتى نهايتها، من باب المقصورة المفتوح، وتأثرتُ بالخشوع العظيم الذي شهدته في المصلين. تذكرتُ صلاة الفجر في القصر، في أيام "سليمان القانوني"، يوم كان المؤذنون يتمتعون بمعرفةٍ واسعةٍ في الموسيقى. تذكرتُ التواشيح الدينية الخلابة، التي كانت تنبعث في أرجاء القصر فجرًا. واستعدتُ دموع "روكال" التي كانت تذرفها عند الصلاة.

عاد "فييس" إلى حجرته الصغيرة، وقد عصفت به مشاعر عِدّة. تأثر بصلاة الفجر، مثلي تمامًا. استكمل دراويش التكية ابتهالاتهم الصباحية، ثم عادوا للنوم حتى الضحى. في تلك الأثناء، وخلال إغفاءةٍ سريعةٍ، رأى "فييس" حُلمًا سيغيّر حياته إلى الأبد. استيقظ منه، وانفجر في بكاءٍ مرير. غسلت الدموع وجهه، وذنوبه، ودنس حياته الرخيصة. راقبته في إشفاق. عندما استدعونا لتناول وجبة إفطار الضحى، كنا نشعر بالطهارة والنقاء. كنا على أتم استعداد لتوديع الماضي، وبدء حياةٍ جديدة.

تُرِك باب التكية مفتوحًا، وطريق الخروج من المبنى سالكًا. أتاحوا له أن يغادر، دون أن يمرّ بأدنى شعورٍ بالحرج. لكن "فييس" اختار البقاء. لبث في المطبخ يتابع ما يجري حوله في كل أرجاء الخان. وضع نفسه في موضع اختبار. وخلال 18 يومًا، تعلمتُ وإياه أسس الطريقة المولوية ومبادئها. كانوا يشيرون إليه بـ"المُحِبّ"، و"نيفنياز" التي تعني "المبتدئ"، وتعمدوا جميعًا تجاهله.

لم يكن يعرف القراءة. اعتاد أن يأخذني معه في كل مكان، كي يقرأني الناس مقابل نقودٍ يدفعونها له، يستخدمها في شراء

t.me/qurssan

الخمور. خلال وجودنا في التكية، كان ينظر إلى منمنماتي في بعض الأحيان، ويقول في حسرة:

- ليتني بعث هذا الكتاب!

لكنه سرعان ما يتراجع، ويذكّر نفسه:

- لو أنني بعته، لما وصلتُ إلى هنا.

حاول أن يستكشف حكايتي، وأن يتذكر أحداث القصة التي سمعها في طفولته. أراد أن يفهمني. لم يكن الوضع غريبًا علي، فمنذ أن غادرت منزل "نديم أفندي"، كان كل مَن يراني من أهالي الأحياء الشعبية الفقيرة على أطراف "إسطنبول"، يبدي إعجابه برسوماتي الدقيقة، دون أن يفهم لغتي.

لم يكن الجزء الذي يحمل اسم "مطبخ شَريف"، مجرد مكانٍ للطهي وإعداد الطعام، إنه قلب التكية النابض، وفيه تُتخذ العديد من القرارات الإدارية. هنا يقوم دراويش معيّنين بإعداد الوجبات، في هدوءٍ تام، دون أن يوجهوا كلمةً واحدةً للمبتدئين. في بعض الأحيان، يتوجهون إلى السوق، وفي أحيانٍ أخرى يقرؤون كتاب "المثنوي". راقبهم "فيبس" وهم مستغرقون في القراءة. تولدت بداخله رغبةٌ ملحةٌ في قراءتي. قال لنفسه: "هناك أجواءٌ من الرفعة والرقي تحيط بهم حين يقرؤون. سلوك المتعلمين مختلف".

كانت تلك الأيام الـ 18 تجربةً قاسية. أظهر الجميع تجاهلًا تامًّا لوجود "أوفيندر فيبس" بينهم، ولم يتبادلوا معه كلمةً واحدة. في ساعاتٍ محددة، يضعون أمامه كميةً صغيرةً من الطعام، وإبريقًا من الماء. وهكذا اضطر لأن يقضي ساعات يومه وهو يصلي ويتعبد ويدعو الله، مستجديًا عفوه ورحمته. أمضى وقتًا طويلًا كذلك وهو يتأمل ويطيل التفكير في شؤونه وأمور حياته. قبل أيامٍ قلائل، كان شخصًا مختلفًا تمام الاختلاف عمّا هو عليه الآن. لو خاطبه أحد بطريقةٍ وقحةٍ، حينها، لما تردد في طعنه بخنجره. لو قال له أحد إنه سيضطر للجلوس أغلب ساعات يومه، في

t.me/qurssan

هدوءٍ وطاعة - كما يفعل الآن - وأنه لن يتحرك إلا لقضاء حاجته، وأن حتى ذلك يستدعي أولًا طلب الإذن من الدراويش الأقدم في الخان.. لاعتبر الأمر مُهينًا وجارحًا لكرامته ورجولته. لكن أجواء الحب التي تملأ المكان، جعلته يتمنى أن يصبح جزءًا منه، وها هو يلتزم بكل شروطه، بكامل رغبته.

تمر الحياة هنا ببطءٍ شديد. يخيّل إليّ أن "فيبس" سيعثر أخيرًا على الراحة النفسية والسلام الداخلي اللذين تمناهما سنواتٍ. يتأرجح الناس هنا بين الاحتياج والاستغناء، لكنهم يصلون في نهاية الأمر إلى حالةٍ من الهدوء والسلام والسرور والرضا. يصعب تحديد الأسباب التي ساعدتهم على الوصول إلى هذه الدرجة من الرضا.. هل تخلوا عن رغباتهم وأنانيتهم ونرجسيتهم، باختيارهم؟ أم أنهم كانوا يفتقرون إلى الرغبات الجسدية والحِسّية من الأساس؟

إن أكثر الأوقات بهجةً في التكية، هي حين يجتمع الموسيقيون والدراويش القدامى في المطبخ، ليمارسوا رقصاتهم. يراقب المبتدئون حركاتهم بانتباه، ويقلدهم بعضهم محاولين التعلم منهم. كانت هذه بهجة من نوع آخر، استمتع بها "فيبس"، الذي لم يكن يعرف من المسرّات إلا شُرب الخمر.

بحلول اليوم الثامن عشر، اكتسب "فيبس" لقب "مُحِبّ" رسميًا، ووضع الشيخ على رأسه القبعة المخروطية المعروفة باسم "سيكيه". تم تعيين أحد الدراويش القدامى ليلازمه، ويرشده في رحلته الروحانية الوشيكة. بعد فترة، سيتدرب على أداء الرقصات المولوية المتميزة، كما سيتعلم عزف الناي أو تلاوة "المثنوي"، أيهما أيسر عليه. سيمر أيضًا بفترة عزلة تمتد أربعين يومًا، يكتسب بعدها لقب "درويش". يمكنه عقب ذلك أن يمارس عمله في "مطبخ شَريف"، وأن يسكن في إحدى الحجرات الـ 18 الرئيسية، المخصصة للدراويش. ستتاح له فرصة الاشتراك في التسبيح بأسماء الله الحسنى، عقب صلاة الفجر، على المِسبحة المكونة من 1001 خرزة، كل منها في حجم البيضة.

t.me/qurssan

في الدرس الأول، قال الدرويش:

- الحبُ هو جوهر الوجود.

ما إن سمعتُ هذه العبارة، حتى شعرتُ بأن العالم أصبح أكثر رحابةً واتساعًا. تحدث الدرويش عن البُعد المجازي في الحب الإلهي:

- تأتي أرواحنا، ككل شيءٍ آخر في هذه الدنيا، من الله سبحانه وتعالى، وتنتهي بالعودة إليه. إن أول ما خلقه الله هو النور. خلقه، ثم أمره: "كُن محمدًا". إن سيدنا "محمد"، صلى الله عليه وسلم، قبسٌ من نورِ الله. قبل أن يتلقى هذا الأمر الربّاني، نضح النور حبًّا وتكلل شرفًا حين قال المحبوب: "لا إله إلا الله"، وأتبعها هذا الجمال الخالص بعبارة: "محمد رسول الله".

أضاف الدرويش:

- ثم خلق الله الأرواح، وسألها: "ألستُ بربكم؟". بمَ أجابت؟ "قالوا بلى". بمعنى أنهم أعلنوا تسليمهم بالأمر وموافقتهم. كان الأمر أشبه بميثاقٍ أو معاهدة. حين أعلنت الأرواح ذلك، كانت تشعر بسرورٍ عظيم.

أردف قائلًا:

- ومن النور أيضًا خلق الله السماوات والمجرات والنجوم والكواكب، وجعل هذه الأجرام السماوية في حالة دورانٍ دائم. لكي تتخيل الصورة، ما عليك سوى مراقبة الدراويش هنا وهم يدورون في وجد.

أدار الصوفيّ يده، كي يوضح المسألة. تحركت بقايا القهوة في الكوب الذي يحمله بين أصابعه، فانبعثت في المكان رائحة بنٍّ خلابة.

فكرتُ في السرّ الذي أحمله بخصوص "جمعية بابل". تشابكت في ذهني أهداف الجمعية وتفسيرات الدرويش. هل كانت هذه أولى الإشارات بأنني سألتقي أشخاصًا يتبعون الجمعية، بعد طول

t.me/qurssan

- ثم جعَل الله الكون بأربعة عناصر رئيسية، هي: التراب والهواء والماء والنار. من هذه الأمهات الأربع، وُلِد ثلاثة أبناء: نباتات، كالأشجار والخضراوات؛ وجماد، كالمعادن والفلزات؛ وكائنات تمتلك القدرة على الحركة. في الفئة الأخيرة، مخلوقات خصّها الله بالعقل، وهي "الإنسان".

استطرد الدرويش شارحًا:

- بداخل كل إنسان، تجتمع هذه العناصر معًا، ومصدرها هو السماوات السبع. حين يتكون الجنين، من صُلب الأب، بداخل رحم الأم، فإنه يتغذى على النبات والحيوان والمعادن، بمساعدة التراب والهواء والماء والنار. هذا ما يفرقنا عن الله. حين نكون أجنةً في شهرنا الثالث، فإن أرواحنا التي يتداخل فيها جمال خلود "الأول بلا ابتداء"، وأعني به الخالق سبحانه وتعالى، تُنفَخ فيها الحياة وتُبعَث في الجسد؛ هنا يبدأ الاختبار الحقيقي للإنسان.. هل سيلتزم بالمعاهدة التي اتفق عليها مع ربّه؟

أضاف:

- إن اللحظة التي يكون فيها الإنسان أبعد ما يكون عن الله، هي لحظة الميلاد. يقول الله جل وعلا، في كتابه الكريم، إنه كرّم بني آدم عن سائر الخَلق.. "**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**".. متى يبدأ في الاقتراب من خالقه؟ في أولى سنوات شبابه المبكر.

واصل الدرويش حديثه لتلميذه الجديد "فييس":

- للصوفية أساليبُ مختلفة، ولكلٍّ منها طريق. لكنها جميعًا لا تختلف عن رسالات الأنبياء، والفلاسفة والشيوخ. إن "بطليموس" و"أرسطو" و"بوذا" و"الشيخ الجيلاني"، و"مولانا جلال الدين الرومي"، اهتموا بالخالق، أو كما نسميه "المحبوب". هل تدري أن كل ما في هذه التكية من قوانين، يهدف في الأساس لمساعدة

t.me/qurssan

الإنسان على العودة للاقتراب من المحبوب؟ وجوده هنا يعدُّ رحلة تأخذه إلى الله. إن أول خطوة في هذا الطريق هي إخماد الرغبات الجِسّية. هكذا فعلنا معك في الـ 18 يومًا الأولى لك هنا. سنبدأ منذ اليوم خطوةً أخرى، وهي تزويدك بالمعرفة. إن اليوم الذي ستنجح فيه في القضاء على الجانب الشهواني من شخصيتك تمامًا، سيكون اليوم الذي تضع فيه قدمك على أول درب المحبوب؛ فالوصول إليه يحتاج إلى الحب، وإلى القلب. كي تبدأ الرحلة بقلبك، عليك أولًا أن تتخلى عن عقلك. وكي تصل إلى طهارة الروح، عليك أن تدمّر غرورك. حتى نجد الحياة، علينا أن نعرف الموت. علينا أن نتخلص من كل ما يجذبنا بعيدًا عن المحبوب. يمكن تحقيق ذلك خطوةً خطوة. إنها رحلةٌ طويلةٌ قد تمتدّ سنوات. لا يمكن البدء فيها إن لم يتزود المرء بالحب أولًا. بعدها، يمكنك أن تقول: "أنا الحقيقة!"، كما فعل "الحلّاج"، أو أن تعلن: "ما بالجُبّة غير الله"، كما أعلن "بايزيد بسطامي"؛ في الواقع، إن ما تختاره حينها ليس هو المهم.

كان الدرويش يتحدث بحماسة، ويسهب في الشرح، فيما راح "أوفيندر فيبيس" يصغي إليه بإعجابٍ ذاهل. لمست كلمات الدرويش روح تلميذه. لو قُدّر لـ"آنوش" رؤية حبيبها، السِكّير الذي دأب على خيانتها، وهو يجلس بهذا الخضوع والإذعان، لارتمت عند قدميه ومنحته خالص حبها من جديد.

أراد الدرويش أن يضرب لتلميذه الجديد مثلًا، يوضح به خلاصة الدرس الأول:

- حسنًا يا "فيبيس". أنت ترتاد الحانات، وتعرفها جيدًا. هناك الساقي، والكأس، والخمر. هناك المخدِّرات والمسكِرات. التكية التي نحن بها هي ذلك كله. "دادا غالب" هو الساقي، شفتاه هما الكأس، وكلماته السامية هي الخمر. أنت تعرف أن الخمور تُسكِر من يتناولها...

رفع "فيبيس" كفيه أمام الدرويش، مقاطعًا، وكأنه يطلب منه التوقف، ثم استكمل هو الحديث:

t.me/qurssan

- نعم، أفهم ما تعنيه جيدًا. في هذه التكية، كلمات الحب تُشعِر الإنسان بالنشوة وتُسكِره. في أول الأمر، تفرغه من المشاعر، ثم تملؤه بالحب.

قلَب الدرويش قطع الجمر في الموقد، ثم قال:

- فكّر في قصص الحب التي عشتها.

اندفعت أفكاره على الفور نحو حبيبته في "كاستامونو"، التي لوّث يديه بالدم من أجلها. اندلعت النيران في قلبه. أحس الدرويش بمعاناة تلميذه، والألم الذي يعتمل بداخله، فبادر بالقول:

- مهما يبلغ مستوى جمال حبيبتك، فإنه لا يشكّل سوى ذرّة صغيرة من الجمال الإلهي. سوف تبدأ رحلتك للوصول إلى عُمق تلك الذرّة. ستختلط قطرة الماء بالمحيط، وستجد نفسك منغمسًا في الحب، وأنك تعود إلى حقيقتك وجوهرك الأصلي. جاءت أجسادنا من التراب، وإليه تعود؛ وجاءت أرواحنا من الله، وإليه تعود.

أضاف محذرًا:

- الرحلة مليئة بالفخاخ الجذابة، والغرض منها هو خداعك. تتناثر قصص الحب السريعة في دربك، وكلها اختباراتٌ لك.

استطرد الدرويش:

- هناك فيلسوف قديم يدعى "أفلاطون"، قال إن الإنسان يهتم بمظاهر الأشياء، أي شكلها وبنيتها، ولا يعير اهتمامًا كافيًا بالجوهر أو الحقيقة.

أضاف:

- إن العاشق الحقيقي يستكمل رحلته اعتمادًا على قلبه، لا على عقله. إن عقلك يعدُّ وسيلة انتقال، ولك مطلق الحرية في اختيار أن تركب تلك الوسيلة بالجوانب الحِسّية من روحك، أو أن تستقلها بقلبٍ خانعٍ وخاضع. بإمكانك أن تهب حياتك بأكملها لكل

t.me/qurssan

شيء، عدا الله؛ وبإمكانك أن تهبها لله وحده. هناك طريقان في حياة كل منا، أحدهما مليءٌ بالمخاطر والمهالك، والآخر دربٌ سلسٌ ويسيرٌ وآمن. لا تدع الدنيا تخدعك، ولا تنساق وراء زخارفها ومباهجها. الدنيا ليست سوى ظِلٍّ للإنسان. إن أقبلتَ عليها، أعرضت وصدّت عنك. وإن تجاهلتَها، لاحقتك بكل قوتها.

تأثرتُ بما سمعته من الدرويش، بينما علت الحيرة وجه "فييس". لقد كان سيدي "فضولي" يعرف كل هذه الأمور، حتى إن الحب الذي عبّر عنه في كتابه كان في منطقةٍ وسطى بين الحب الإنساني والإلهي. أقرب ما يكون للحب الأفلاطوني. لم أفهم قط السبب في عدم اندفاعي وراء مشاعري حين قابلتُ "ليلى" في الصحراء. كيف استطعتُ السيطرة على نفسي؟ ما الذي قصده سيدي "فضولي" من ذلك المشهد؟ الآن فقط، بعد أن استمعتُ إلى كلمات الدرويش، فهمتُ المسألة من جميع جوانبها. خالطني بعض الندم على استيائي السابق من ذلك المشهد. أدركُ الآن أن لقائي بـ"ليلى" حينها، كان نوعًا من توحدّي مع الله. حين ظهرت "ليلى" أمامي بكامل بهائها، أفقدتني عقلي وقدرتي على التمييز، وجعلتني أقول:

"إن كنتُ أنا، أنا، فمن تكونين؟

وإن كنتِ أنتِ أنتِ، فمن أكون إذًا؟".

لقد حماني سيدي من شرور العالَم. خبّأ حبّي بداخلي، بطريقةٍ عظيمةٍ وجليلة، فجعل الناس يتذكرونني على مدار الأزمنة. كان قد توصل إلى الحقيقة حينها. عثر عليها وجعلني أكررها. لقد واصلتُ المغامرة التي بدأت بعهدٍ وميثاق. لقد أرادني أن أخلّد اسمه، وأن أحافظ على طهارة ذلك الاسم ونقائه. قلتُ لنفسي: "إن الطريق الذي تحملت وعورته سنواتٍ طويلة، كان يعدُّ امتحانًا لي".

باغتني تساؤلٌ مفاجئ: "حين كنتُ أفتش عن "ليلى" في كل مكان، هل كنتُ في واقع الأمر أبحث عن خالقي؟"

t.me/qurssan

يا له من سؤال ثقيل وجسيم! عليَ أن أراجع تفاصيل حياتي ورحلتي بأكملها.. الماضي والحاضر، وقصة حبي أيضًا.

صرتُ أمضي كامل ساعات نهاري وليلي وأنا أفكر في "ليلى" وفي الله. أنصت إلى الريح وهي تضرب نوافذ "خان المولوي"، وأتساءل عن حقيقة الحياة.. هل هي في إصرار أعضاء "جمعية بابل" على تقرير مصير البشرية، أم أنها في الحب الذي ينادي به الدراويش؟ ارتكز حكماء "بابل" على العقل، فيما اعتمد الدراويش على القلب وحده. إنه صراعٌ غير محتمل، في إطار البحث عن الحقيقة. شعرتُ أنني جملة فقدت معناها، أو بيتٌ شِعري قديم لم يعد يناسب الزمن الحاضر. هل كان حَمْل أسرار الحكماء القدامى سببًا في توفير سلامٍ أكبر للعالَم، أم أن السلام هو فيما يقوله هذا الدرويش؟ هل كنتُ سأصبح أسعد حالًا لو أنني تبعتُ قلبي، بدلًا من اتباع تعاليم "جمعية بابل"؟ لقد وصلتُ إلى مفترق الطرق.. إما أن أختار دربًا يحملني إلى الخارج، وإما أن أسلك دربًا يأخذني إلى أعماق نفسي. لن تعود الأمور إلى ما كانت عليه أبدًا.

قدّمني "أوفيندر فييس" إلى "الشيخ غالب". بعد أن مُنِح القبعة المخروطية، بُنية اللون، الخاصة بالطريقة المولوية، والتي تدل على وصوله إلى مرحلة النضج الروحي اللازمة لتغيير حياته. كانت روحي متعبة، أكثر من أي وقت مضى. لعله لم يكن تعبًا أو إرهاقًا، بل انتشاء قويًا. نشوةٌ أحاطت بكياني كله. أنا في مكانٍ يشعرني بطمأنينةٍ كاملةٍ، لم أعرفها منذ أيام سيدي "فضولي". كثيرًا ما يُذكَر اسمه هنا، كما تتردد قصائده المختلفة على ألسنة الدراويش. حين تناولني "الشيخ غالب" بين يديه، أحسستُ بأنني محظوظ جدًا. سوف يفهمونني، ويتأثرون بأبياتي وتفاصيل حكايتي مع "ليلى". شعرتُ أنني انضممتُ إلى الطريقة وصرتُ أحد أتباعها، ولستُ مجرد هدية من درويشٍ إلى شيخه.

كان "دادا غالب" أهم ممثلي المدرسة الهندية في الشِّعر، في زمنه. أثارت قصائده الإعجاب. وضع الموسيقيون ألحانًا جميلة، لترافق قراءات أعماله الشِّعرية في التجمعات الأدبية. حرص الخطاطون على كتابة مقتطفاتٍ من مؤلفاته في أعمالهم الفنية. تميز بوصفه

t.me/qurssan

للحب الإلهي بصورٍ بالغة الروعة. كان سيدي "فضولي" حاضرًا في أشعاره.

نظم سيدي "فضولي" أشعاره من أجل الحب. لم يصف العاشق، بل العشق نفسه. كان عاشقًا يحب الحب؛ أمَّا "دادا غالب" فقد أخضع شِعره للأفكار التي يدعو إليها. كان يكرر ذلك كثيرًا في أعماله، كدرويشٍ يفتخر بقبعته المتميزة، ويتعمد لفت أنظار الناس إليها. غايةُ أحدهما، هي وسيلة الآخر. شكّلت أشعار "غالب" الصوفية جزءًا من المشهد الثقافي العثماني. لكن تركيزه على نوعٍ واحدٍ، وأسلوبٍ واحدٍ في الشِّعر، كان أشبه بمن اكتشف بئر ماء، فبالَغَ في الشُّرب منه حتى كاد ينضب. كانت أفضل قصائده هي تلك التي كتبها معتمدًا على مناقشاته مع صديقيه "إسراش"، و"يوسف سنجق". إنها تصعد بالقارئ إلى حافة الهاوية، وهو مغمض العينين، وتتركه هناك ليقرر: هل يعود أدراجه أم يغامر بالقفز؟ هل يستسلم للسقوط، إن قفز، أم يصمم على الطيران؟

حين قُدِّمتُ إليه، كان يجلس في مواجهة "إسراش"، يتناقش معه في التاريخ الإغريقي الذي فرغ مؤخرًا من قراءة كتبٍ عنه باللغتين الإيطالية واللاتينية. استمعتُ إليهما وأنا أشعر بأنني عدتُ إلى "جمعية بابل". لا بأس، فليَكُن الأمر كذلك. إن كانت الجمعية قريبةً من الحب إلى هذه الدرجة، فربما يتعين علي التضحية من أجلها. للأسف الشديد، لم يُبدِ هذا الرجل المثقف الذي أُهديتُ إليه أدنى اهتمام بي. مضى بعض الوقت قبل أن يفتح غلافي.

ناقشا باستفاضة تردّي الأوضاع في الدولة، والحروب المتتالية التي تخوضها، والشعور العام بالانحطاط والتقهقر الذي خلفته هزائم الحرب. تحدثا عن الثورات الداخلية والصعوبات الاقتصادية، ونظام الضرائب الجديد الذي فرضه "سليم الثالث" منذ نحو سنة. تناولا في حديثهما أيضًا الحرب الدائرة في المناطق الروسية المحيطة بـ"موسكو". تساءلا عن جدوى تكوين جيشٍ جديد، وما إذا كان يستطيع تحقيق أي انتصارات. انتقدا بذخ السلطانة "خديجة"، في سعيها المحموم وراء آخر صيحات

t.me/qurssan

الموضة والأناقة. تناولا في حديثهما معاناة الصدر الأعظم مع حريم القصر. ثم عرجا على موضوعات الثقافة والأدب، واتفقا على عدم ظهور شاعر جيد ينظم قصائد فلسفية، منذ وفاة "نابي". ناقشا احتياجات "خان المولوي" المختلفة. هاجما جلب أساتذة فرنسيين وبريطانيين، للتدريس في الكلية الهندسية العسكرية، التي افتُتحت مؤخرًا. قالا إن المواد الأجنبية تفتقر إلى الجوانب الدينية. تناولا مسألة الجيش الانكشاري، وكيف تحول أفراده إلى لصوص وقطاع طرق. ذكّرني حديثهما بأيامي في "سُرديبي"، التي رأيتُ فيها فقرًا شديدًا، وأوضاعًا بالغة السوء، أدركتُ معها حجم المأزق الذي تواجهه الدولة.

انسابت نغمات ناي، مصحوبةً بإيقاع طبول، من غرفة الموسيقى. تناولني "دادا غالب" من فوق فراشه الصوفي، حيث كنتُ أستلقي، مستغرقًا في ذكرياتي القديمة. تفحّص غلافي جيدًا، ثم قال مخاطبًا صديقه "إسراش"، بانزعاجٍ واضح:

- لم يعد هناك من يحترم الكتب! انظر! من الواضح أن هذا الغلاف صُنِع خصيصى في القصر. كيف لم يجددوه وهو على هذا الحال من القِدَم والاهتراء؟ وكيف وصل إلى يديَ فتى مسكين كـ"فيبس"، أصلًا؟ هذا الأمر يشير بوضوح لمدى التدهور الذي نعيشه!

سأله صديقه، بفضول:

- ما هذا الكتاب يا شيخي؟

أحسستُ بالتوتر، كطالب يوشك على بدء امتحانه. ماذا لو لم أعجبه؟ لحسن الحظ، حدث العكس تمامًا، فما إن فتحني ولمح غلافي الداخلي، بألوانه وفنونه وخطوطه المتميزة، حتى عقدت الدهشة لسانه. راح يتصفحني بانبهارٍ وشغف. قرأ بعض أبياتي، وتأمل منمنماتي، ثم قفز من مكانه صائحًا:

- إنه كنزٌ يا "إسراش"! كنزٌ حقيقي!

في تلك اللحظة، حمدتُ الله على وجودي، وشعرتُ بفخر لأنني

t.me/qurssan

من إبداع سيدي "فضولي".

قال "إسراش":

- هناك الكثير من الكنوز التي يمكن العثور عليها بين الحُطام، يا شيخي العزيز.

كان يشير من طرفٍ خفيّ إلى حياة "أوفيندر فييس" السابقة. مرت الساعات دون أن نشعر بها. تنبهتُ فقط، بين الحين والآخر، إلى أمورٍ مختلفة: الهدوء الذي أعقب توقف الموسيقى، والصمت التام بعد خلود الدراويش للنوم، وتحول الجمر المشتعل إلى رماد، وتساقط الثلج بكثافةٍ أكبر، وإضاءة الأنوار قبيل أذان الفجر. انهمرت دموع الرجلين وهما يقرآن تفاصيل حكايتي، ويستمتعان بالكلمات العذبة التي انتقاها سيدي "فضولي" بعنايةٍ فائقة. ترحما عليه بحرارة وحسرة. لم أشعر قط بمثل هذا الفخر والاعتزاز، طوال عُمري الطويل.

غادرني الصديقان، وبقيتُ بمفردي في الحجرة، أستمتع بالدفء وأنا أنصت لأذان الفجر، الذي تردد صداه في المكان بصوتٍ رخيم. استعدتُ ما قيل في تلك الليلة، بنشوةٍ وسعادة.

في أول الليل، قال "دادا غالب":

- هذا أفضل كتاب شِعر قرأته في حياتي! عليّ أن أعترف أنني أشعر بالغيرة! لقد بدأتُ في وضع كتابي "حُسن وعِشق"، لأتفوق به على مؤلفات "نابي"، لا غير؛ لكنني الآن أتحرق شوقًا لكتابة شيء يتجاوز روعة هذا المؤلَّف لـ"فضولي"؛ ولكن ماذا لو فشلت؟ سوف تهزمني أبيات "فضولي". ما وجه المقارنة بين هذا العمل العظيم، وديواني المتواضع؟ إن "ليلى والمجنون" يحكي قصة معاناةٍ حقيقية. إنه قمةٌ من قمم الأدب الإسلامي. لقد سجّل الكثيرون هذه الحكاية، لكن أحدًا منهم لم يملك هذه اللغة السلسة والكلمات البديعة والصور المؤثرة التي استخدمها "فضولي". عليّ أن أضيف حكايةً شبيهة لـ"حُسن وعشق"، لكنني لا أريدها أن تكون ظلًا لـ"ليلى والمجنون"..

t.me/qurssan

قاطع "إسراش" شيخه، قائلًا:

- توقف يا سيدي، أرجوك! لا تقلل من شأن عملك وموهبتك. إن بعض الأبيات في "حُسن وعِشق" تتفوق على مثيلاتها في "ليلى والمجنون"، من حيث الرقة والخيال، وبخاصة في الفصل الذي يتناول قبيلة "أبناء الحب"، حين تصف عبور الحب لبحرٍ من النار، في سُفُنٍ من الشَّمع. أنت سَبّاقٌ في هذا المجال، لقد قمتَ بتغليف الحب بالرموز والصور المجازية، بينما حرص الشعراء السابقون على وصف مشاعرهم، واكتفوا بالتعبير عن عُمقها. كان "فضولي" شلالًا هادرًا من العواطف، وكان "نابي" منبعًا للحكمة، أما أنت يا شيخي فإنك تشعر وتحسّ وتعيش. كل شاعر يرى الحب من منظورٍ مختلف، أو في شيء معين. رآه "باقي" في مدينة "إسطنبول"، ووجده "فضولي" في خياله، كان في الشوارع بالنسبة لـ"نديم"، وفي الأفكار المتشابكة بالنسبة لـ"نابي"؛ أما أنت، فوجدته في قلبك، وقلت:

"لشمعة الروح لهبٌ عالٍ

يخترق أعلى السماوات".

لا تظلم نفسك بهذا الحُكم القاسي، وعليك أن تتذكر أنك لم تُتِمّ الثلاثين بعد، بينما كان "فضولي" قد تجاوز منتصف الخمسينيات حين كتب "ليلى والمجنون"، أما "نابي" فكتب أفضل أعماله عقب بلوغه الستين. ما زال أمامك متسعٌ من الوقت لتأليف أعمال عظيمة.

قلتُ، معقبًا، في سرّي: "بإذن الله تعالى".

واصل "دادا غالب" تصفُّحي، ثم سأل رفيقه:

. ما هذه الكتابات الشبيهة بالأرقام، إلى جوار الأبيات؟

. لا علم لي يا شيخي. يبدو أن أحدهم كان يعدّ الأبيات، ويدوّن الأرقام بلغةٍ أجنبية. أظن أن "خالد" هو الوحيد الذي يعرف هذه الكتابات. فلنسأله حين يأتي إلى هنا.

t.me/qurssan

صباح اليوم التالي، استيقظ الجميع في "خان المولوي" بـ"جالاتا"، على صيحاتٍ متتابعة:

- حريق! حريق!

باتَ هذا نداءً مألوفًا لدى سكان "إسطنبول". فخلال ذلك العام وحده، انتشرت حرائق كثيرة في مناطق عدَة. لكن المسألة ذلك الصباح، كانت مختلفة، فقد اشتعلت النيران في معظم المناطق الواقعة على أطراف المدينة. كنتُ قد نجوتُ من حريق حي "بلاط"، في وقتٍ سابقٍ من السنة، بمحض المصادفة، فقد وضعتني "آنوش" في حقيبتها، لكي تبيعني لشخصٍ لا أعرفه. امتدت النار بالقرب من مسكنها، فهربتْ مسرعةً وأنا معها.

هذه المرة، بدأت النار من "سيبالي". أفرط بائع الخضراوات "كِركور أفندي" في شُرب خمر الـ"العَرَق"، وحين انقلب موقد الفحم على بطانيته الصوفية، واشتعلت النار، لم يدرِ كيف يتصرف. حملت زوجته طفلهما الرضيع لتأخذه خارج المسكن. ما إن فتحت الباب، حتى انتشرت النيران في الحوائط الخشبية التي تفصل بعض البيوت عن بعض. لم تستغرق المسألة سوى دقائق معدودة. كان أغلب سكان المنطقة على جانبيَ "القرن الذهبي" من غير المسلمين، الذين شيدوا بيوتهم على الطراز الغربي، وزوّدوها بشرفات، وهو ما ساعد على انتقال النار بين المنازل بسرعةٍ هائلة. وبسبب الريح الشمالية الشرقية القوية، تحولت تلال "القرن الذهبي" إلى كتلةٍ مشتعلةٍ من اللهب.

في "جالاتا"، سمعنا صراخ سكان الأحياء المجاورة واستغاثاتهم. امتدت في السماء أعمدة دخان متداخلة الألوان. بدا المنظر كقوس قزح. اندلعت النيران في أبراج المدينة، وتعالى اللهب على مدار الساعة. ليلًا، أضاءت السماء شرارات الحرائق، وليس النجوم. في اليومين التاليين، توفيت أعدادٌ كبيرةٌ من الناس. في اليوم الثالث، أصبحت المدينة بأكملها - من "القرن الذهبي" إلى "يديكول" و"كوكا مصطفى باشا" و"بايزيد" و"توبكابيسي" - حفناتٍ من رماد. لم يبقَ شيءٌ من البيوت والمباني، عدا بعض

t.me/qurssan

القباب والمآذن، التي انصهرت أطرافها المعدنية. أكد المهتمون بالقراءات التاريخية، أن "إسطنبول" لم تعرف حريقًا مماثلًا منذ أيام البيزنطيين.

بعد ذلك اليوم، صار "دادا غالب" يشير إلى النار بكثرة في أشعاره، كأنما كان يحترق من رأسه إلى أخمصي قدميه! حين فرغ من كتابة "حُسن وعشق"، وجدتني أفكر: "ربما اشتعلت كل هذه الحرائق، من أجل أن تصبح الموضوع الرئيسي في عمله الفريد".

بعد ذلك، صارت أيامي في "جالاتا" مرتبطة بالنار.. امتزجت نيران حبي لـ"ليلى" بنيران حبي لخالقي.

ومثلما كانت نار المواقد في المطبخ تحرق ما تبقى من غرور الدراويش، وتعلمهم التواضع، وتنقّي نفوسهم، كانت التكية تنقيني وتطهرني مما لحق بي من دنس المدينة، على امتداد نصف قرن. في اليوم الذي تلقى فيه "أوفيندر فيبس" التعليمات المتعلقة بممارسة الرقص الصوفي، شعرتُ بأنه يحترق من الداخل، لكي يتطهر من ذنوبه. كل إنسان يعيش قدره المحتوم، ويتحمله بمفرده.. وهذا بدوره نوعٌ من الاحتراق.

لسنواتٍ قادمة، سوف يظل هذا الحدث يشعل حياة "دادا غالب"، الأقرب في قلبه ومشاعره إلى سيدي"فضولي". أمّا أنا، فسوف تبقى نار حبي لـ"ليلى" مشتعلةً إلى الأبد.

"ليلى"! إن كل مشاعري التي تزايدت خلال وجودي في هذه التكية الصوفية، هي مِلكٌ لكِ. سوف تبلل الدموع أجفاني إلى الأبد. غدت حياتي شمعة، تحترق من أجلك.

ناركِ تشعل المدينة يا "ليلى"!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

27 الثورات تغزو العالَم و أوراقي تختلط

نظرًا لطباعهم الصعبة، فإنهم لم يجدوا الراحة قط، ولا سمحوا بها لغيرهم. دمّروا العالَم وجعلوه خرابًا، ثم غادروه. أرجو أن يذوقوا الآن عذاب الآخرة، ويتحمّلوه إن استطاعوا.

(كاتب مجهول)

- هناك سبعة أسرار حقيقية لمن يعرفون الحب..

قالـــها "محمـــد رشـيد أفنـدي"، أحـد كبـار مسـؤولي البـلاط الإمبراطوري، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. أضاف بصوتٍ متهدج:

- من يمتلكها، يمتلك السيطرة على العالم. فتش عن الحب في كتاب "ليلى والمجنون"، يا بُني، وسوف يخبرك المترجم "كاليماكي أفندي" الباقي.

يقول "محمد سعيد أفندي" إن حياته تغيرت عقب لقائه بالطبيب اليـهودي "كـاليماكي أفنـدي". فـي تلك الأيام، كان يعمل مساعدًا للمسؤول عن أختام القصر، كما كان ينظم الشِّعر وينشره تحت الاسم المستعار "خالد". سرعان ما نسي الناس الاسم الحقيقي لهذا الشخص الوسيم، وصار الجميع ينادونه بـ"خالد أفندي". عُرِف بأناقة المظهر وحُسن الهندام، كما اشتهر بفصاحة الخطاب وبلاغة الكتابة وعشـق القـراءة. حـين رافقتـه فـي رحلتـه إلى باريس،

t.me/qurssan

لاحظت رجاحة عقله التي تتناسب مع أعوامه الأربعين. اختاره السلطان "سليم الثالث"، من بين صفوة المفكرين العثمانيين، ليكون سفيرًا له في فرنسا. رافقه في رحلته الأولى "فالنتين أفندي"، القائم بأعمال السفارة الفرنسية في "إسطنبول".

استغرقت رحلتنا 72 يومًا، على ظهور الأحصنة. شاهدتُ خلالها أراضٍ وأقاليم أكثر ازدهارًا من مثيلاتها في الدولة العثمانية. اختلفت الأوضاع عمّا عهدته خلال تنقلي في "روما"، في رحلتي السابقة. يبدو أن الثورات التي اندلعت في تلك المناطق الأوروبية، في الـ 15 سنة التي أعقبت أوقاتي السعيدة في "جالاتا"، قد أنتجت عالمًا مختلفًا. كل شيءٍ تحوّل، وسيطر تيّارٌ جديد بإيقاعٍ مختلف. قارنتُ الأوضاع الحالية بما شهدته خلال رحلاتي مع "أوليا جلبي". لم تعد أنظمة القرون الوسطى، والبُنى الإقطاعية، هي السائدة في دول غرب أوروبا. خلقت الحركات السياسية الجديدة والثورات في "أمريكا" و"آيرلندا" و"إنجلترا"، سخطًا على الحكومات وأدائها فيما يُعرَف بـ"البلاد المنخفضة"، مثل "جنيف" و"بولندا" و"بلجيكا" و"ألمانيا" و"إيطاليا"؛ لكن تأثيرها الأعظم تجلّى في "فرنسا"، حيث اندلعت أحداثٌ متوالية أدّت إلى تحطيم "الباستيل"، وإعدام الملك "لويس السادس عشر" والملكة "ماري إنطوانيت". رسّخ الثوّار الفرنسيون قوة العقل، ورفضوا إزاءها سُلطة الكنيسة والدولة. أُزيل شعار الملكية، وأُجبِرَت الأسرة المالكة على مغادرة "فرساي"، والانتقال إلى الـ"لوفر"، حيث وُضِعوا تحت الإقامة الجبرية. كانت هذه أول بذور الديمقراطية التشاركية. سرعان ما انتقلت من "باريس" إلى المدن الفرنسية كافة، ومن هناك إلى بقية العالَم.

منذ اليوم الأول لدخوله مبنى القنصلية في "باريس"، تصرّف "خالد أفندي" بطريقةٍ بيروقراطية، مستندًا إلى قوة الدولة العثمانية. يسّرت له مناصبه السياسية السابقة خوض غمار السياسة العالمية بسهولةٍ ويُسر. لم يتردد في انتقاد "تاليران"، علانيةً، لأنه لم يُحسن استقباله على الوجه الأمثل. فاجأتني قدراته الدبلوماسية الفذة، واكتشفت أن شخصيته تجسيد لكلمة

t.me/qurssan

"طموح". يؤمن "خالد أفندي" أن مصالحه الشخصية لا تقل في أهميتها عن مصالح الدولة، كما يرى أن الأعوام التي سيمضيها في "باريس" هي الحصاد لكل المجهود الذي بذله في مناصبه المختلفة في السنوات السابقة.

فور وصوله إلى "باريس"، استطاع أن يلفت نظر أقوى رجال الدولة، وأعني بذلك "نابليون بونابرت". سرعان ما أصبح "خالد أفندي" أقوى السفراء تأثيرًا، بين مختلف البعثات الديبلوماسية الموجودة في "باريس". عانى مشكلات مادية عدة، أبرزها كيفية توزيع المخصصات المالية المُحَدّدة للسفارة على العدد الضخم من موظفيها، بالإضافة إلى اضطراره لشراء الكثير من الهدايا وإرسالها إلى "إسطنبول"، تلبيةً لرغبة أصدقائه هناك؛ لكن الحلول التي لجأ إليها للحَدّ من تفاقم الوضع أثارت بداخلي قدرًا من الانزعاج.

في تلك الأيام، انتشرت مختلف أنواع الأنشطة غير القانونية في "فرنسا". انقلبت الأوضاع، واختفت التقاليد القديمة بشكلٍ مفاجئ. ها هم البسطاء الذين كانوا يظنون - حتى وقتٍ قريب - أنهم لم يُخلَقوا إلا لخدمة أسيادهم، يثورون ضد النظام الإقطاعي ويرفضونه تمامًا. سرعان ما استحالت الـ"فضيلة"، التي دعا إليها "شارل لوي دي مونتسكيو" – الفيلسوف الفرنسي صاحب نظرية فصل السلطات - إلى شبكة عنكبوت تصطاد الذباب الصغير فقط، لكنها تعجز عن التعامل مع الذباب كبير الحجم. القرويون الذين كانوا حتى الأمس مخلوقات لا قيمة لها بالنسبة لأسيادهم، صاروا اليوم يطؤون أرصفة المدن وشوارعها الفخمة المخصصة للنبلاء، بأحذيتهم المصنوعة من جلدٍ قاس. ساحات الكنائس التي اعتاد المرضى أن يتجمعوا فيها لنيل لمسةٍ شافيةٍ من الملك، لتعيد إليهم صحتهم المفقودة، باتت تعج بالجموع الغاضبة، الذين ينكرون أي فضلٍ للملك.

انتشرت الجريمة في الشوارع، وامتلأت الميادين بالخطباء على مدار الساعة، وأحس "خالد أفندي" بانزعاجٍ واضطراب. لم تعد هدايا "نابليون" تصله بالانتظام السابق نفسه، وأصبحت المرتبات

t.me/qurssan

والمخصصات المالية القادمة من "إسطنبول" تأتي بشكلٍ متقطع. اعتمد عليه موظفو السفارة اعتمادًا كليًا. تراكمت عليه الديون بسبب إفراط زوجته في شراء الملابس والجواهر وقطع الأثاث، وسعيها المحموم للحصول على كل ما تمتلكه نبيلات "باريس". وجد نوعًا من العزاء في العلاقة الغرامية التي ربطت بينه والكونتيسة "لوران"، والتي بدأت بطريقةٍ غير معتادة.

لفتت الكونتيسة انتباهه في حفلٍ أقامه "تاليران"، بثوبها الأنيق الذي كشف عن مفاتنها بطريقةٍ جذابة. حين انحنى ليقبل يدها، كان قد أُغرم بها بالفعل، فالحب الذي ينمو بسرّيةٍ تامة، وينضج ببطءٍ شديد في "إسطنبول"، يُلقي بالإنسان في "باريس" فجأةً بين أمواجٍ عاتية. قال لنفسه متحسرًا: "لقد خُلِقت هذه الوردة لي، لكنها أينعت في حدائق غيري!".

ثم قامت الكونتيسة بزيارته في السفارة عقب ذلك بأسبوع. كاد يفقد عقله. ولرغبته في الانفراد بها، طلب من موظفي مكتبه الانصراف والعودة إلى بيوتهم!

في اليوم نفسه الذي ودّع فيه الدراويش شيخهم "دادا غالب"، وأودعوه ثرى مقبرة "خان المولوي" بـ"جالاتا"، تسلل "خالد أفندي" خفيةً إلى غرفة الشيخ، ودسّني تحت قميصه. أذكر أنني شعرتُ بالسعادة حينها لأنه اختارني - دون غيري - لأكون الذكرى التي يحتفظ بها من صديقه الراحل. كم أحببتُ هذا الجانب العاطفي من شخصيته. لكنني سرعان ما اكتشفت خطئي.

عندما استعان به الشيخ "غالب" لسؤاله عن الكتابات الشبيهة بالأرقام التي تملأ هوامشي، أجاب "خالد أفندي":

- لا علم لي يا سيدي.

لكنه صار يحرص على قراءة مقتطفاتٍ مني، كلما زار التكية. وفي كل مرة، يستغرق في تفكيرٍ عميق. حين عشتُ مع "خالد أفندي"، اكتشفت أن لشخصيته أكثر من وجه ومظهر. في بعض الأحيان، لم أكن أتعرف إليه أصلًا! لم يعد ذلك الصديق الودود

t.me/qurssan

الذي يحرص على زيارة "دادا غالب"، حاملًا له الهدايا اللطيفة، وهو يتبادل معه المزاح والضحكات.

كان "خالد أفندي" هو حلقة الوصل بين الشيخ، والسلطان "سليم الثالث".

بالنسبة لي، كان الأمر أشبه ما يكون بالعشاق الصغار، حين يضيفون هالات من القداسة حول محبوبيهم، لكن عندما يبدؤون في رؤية الوجه الحقيقي للطرف الآخر، ينتفضون صائحين في انزعاج:

- أنت لست الشخص الذي أحببته!

هذا بالضبط ما أحسستُ به في تلك الأراضي الأوروبية.

واقع الأمر أن "خالد أفندي" كان مجرد هلال، لكنني حوّلته إلى بدر، وقمر كامل الاستدارة. حين بدأت أتابع تصرفاته عن كثب، خلال وجودنا معًا في "باريس"، أدركتُ أنه لا يرقى لأن يكون سوى هلال، وبتُّ أخشى اليوم الذي سأكتشف فيه أنه مُحاق، لا أكثر!

في الأربع سنوات التي مضت على وجودي معه، رأيت فيه جوانب شيطانية لم ألحظها خلال حياتي في التكية الصوفية. لم يعد هذا الرجل هو ذاته الذي يذرف الدموع كلما قرأ أبيات الحب في صفحاتي. إنه شخصٌ طمّاع، لا يؤرقه سوى التفكير في أسرار "جمعية بابل" والتخطيط للوصول إلى التماثيل الذهبية.

كانت الجمعية قد توصلت إلى الشيفرة السابعة في ديواني.

نشأت "باريس" كتجمعٍ سكاني على إحدى جُزُر نهر الـ"سين". ثم أصبحت عاصمة لملوك القرون الوسطى، وتحولت لاحقًا إلى مركزٍ للثورات. تشغل حاليًا منصب أهم مدن العالم.

عرفت "فرنسا"، سنواتٍ طويلة، النظام الجديد الذي أقرّه السلطان "سليم" مؤخرًا، والذي أُطلق عليه اسم "نظام السادات"؛ والذي يتم فيه شراء الفلاحين والقرويين وبيعهم، كجزءٍ من الأرض.

t.me/qurssan

تغيرت الأوضاع في "فرنسا"، وصارت الأفكار والكتابة، التي كانت قرونًا طويلةً، حِكرًا على حفنة من رجال الدين، متاحةً للجميع.

تطل السفارة ذات الطوابق الثلاثة، على شارع "رو دي ريفولي"، الذي افتتحه "نابليون بونابرت"، و"بلاس دي إيتوال"، ونُصُبٍ تذكارية أبدعها "فونتين". أضيفت ملامح جديدة للمدينة، لعل أهمها "قوس النصر" الذي يعدّ رمزًا للتغيرات التي طرأت على "فرنسا". واقع الأمر أن "باريس" كانت تعدُّ قريةً ضخمةً يسكنها نصف مليون شخص يتحرقون شوقًا لفردوسٍ مفقود.

كانت مداخل المدينة ومخارجها تفتقر إلى الإجراءات الأمنية. لا يُعرَف من يلجها ولا من يغادرها. خمَّنتُ أن بقية أعضاء "جمعية بابل" قد استغلوا هذا الأمر في الدخول لـ"باريس" متنكرين، لكي يعقدوا اجتماعهم. وخلال لقائهم، لم أستطع التعرف إلى أي منهم، لكن حركاتهم وأساليبهم أكدت لي أنهم أشخاص مؤثرون في دُوَلهم. بدؤوا الاجتماع بتقديم التحية المعتادة لـ"خالد أفندي" - عن طريق إلصاق السبابة بالوسطى والخنصر بالبنصر - داخل القاعة المضاءة بوحدات إنارة تعمل بالغاز (لم نعرف مثلها في "إسطنبول" بعد).

خامرني شكٌّ بأن الجمعية لعبت دورًا في إثارة القلاقل الأخيرة في أوروبا والبلقان. كانوا يلعبون الشطرنج، ويحركون القطع في مختلف أنحاء العالم بما يتوافق مع مصالحهم.

خلال الـ 250 سنة الماضية، التي تعبث فيها من لعب "الاستغماية" مع الجمعية، بتُّ أستطيع تمييز أعضائها، ومعرفة من يكونون فور رؤيتهم؛ لكنهم هذه المرة حرصوا على استخدام الألقاب بدل الأسماء. خاطبوا "خالد أفندي" بـ"السيد مردوخ"، أمّا الرجل المصري فحمل لقب "شيخ الحُبّ". أوحت تصرفات الشخص الذي يحمل لقب "السيّد العارف" وكلماته، والذي أظنُّ أنه باريسي، بقدرٍ عالٍ من الثقافة يفوق ما يمتلكه "فولتير" و"روسّو" و"ديديرو" مجتمعين. تعامَل الشخص الرابع مع الجميع بأريحية وحرية، كما لو كان بحارًا إيطاليًا. كانوا ينادونه "السيّد فلان". أمّا الشخص ذو

t.me/qurssan

الجسد الضخم. والذي أشار إليه الجميع بـ"السيد سبعة"، فإنه أحد جنرالات الإمبراطورة الروسية "كاثرين الثانية"، كما يبدو. ربما هو الجنرال نفسه الذي أرسل الكاتب والناقد الاجتماعي "راديشيف" إلى منفاه في "سيبيريا"، لا لشيء إلا لأنه تناول فكرة الاشتراكية في أعماله. "السيد الواقعية" ضئيل الحجم. أوحت لي ملابسه بأنه من يهود "بولندا" وأنه إمَّا شاعر وإمَّا عالِم. ولدهشتي العظيمة، شاهدتُ - للمرة الأولى - امرأة بين الأعضاء. شقراء وجميلة، وتتحدث بالإنجليزية. خاطبوها بـ"الكونتيسة سِرّ".

على الرغم من غرابة الألقاب، فقد حملت رنينًا مألوفًا بالنسبة لي. تذكرتُ ما قاله أمين المكتبة الآشوري:

- لمن يعرفون الحب..

أظن أن الجمعية تقترب من نهاية الطريق. لقد وصل التطور العلمي إلى الحد الذي يسمح بإعادة تأسيس مركز الأبحاث.

لم أرغب في الاندثار بين جدران السفارة الحجرية، ذات اللون الحائل. إن هذا الطراز من المباني القبيحة لا يعجب حتى أفقر فقراء "إسطنبول"! عانيتُ الحنين إلى التجمعات الأدبية والشِّعرية، والملل. وما الذي يجعل ديبلوماسيًّا، يقطع بلدانًا مختلفة، يحمل خنجرًا مرصعًا معه أينما ذهب؟ وأي شيءٍ في ذلك يوحي بالرُّقي؟ هل ذلك جزءٌ من الموضة كما يظن من حوله؟ إن الموضة في "باريس" ليست أمرًا عابرًا، بل مسألة مرتبطة بالرفعة. كم كانت حياتي سعيدة ونقية وبسيطة بين جدران "خان المولوي" في "جالاتا".

انتابتني الكآبة، وإحساسٌ ثقيلٌ بالعزلة. ماتت كل أحلامي السعيدة التي رافقتني عند بدء رحلتي إلى "باريس". كنتُ قد قلتُ لنفسي حينها: "ربما سأجد "ليلى" العزيزة في أوروبا".

يتراءى لي الآن أن سبب تفاؤلي حينها كان إعجابي الشديد بشخصية "خالد أفندي". لعل أكثر ما أشعرني بالحسرة والأسى هو أن الأسرار التي ضمّها سيدي "فضولي" لكتابي، سيتم الكشف عنها

t.me/qurssan

في أرضٍ غريبة. ساءني تراجُع العلوم في البلاد التي أتيتُ منها، وتلاشي قدرتها على أن تكون من القوى المسيطرة على العالم. ما الذي حدث للإسلام، الذي كان مرادفًا للعلوم في زمنٍ ما؟ أين أحفاد "ابن سينا" و"الغزالي" و"ابن خلدون"؟ أين من كانت كتبهم تساوي وزنها ذهبًا؟ كيف ومتى استُبدلَ رجالٌ ذوو عقليات منغلقة بالعلماء الساعين لغزو الفضاء؟ إن مجرد التفكير بشكلٍ عِلميّ صار مساويًا للكُفر والإلحاد! كيف وصل الحمقى إلى العروش؟ متى سيفهم هؤلاء البُله أن السيطرة على العالَم لا تحدثُ بتجاهل العلوم؟ إن أكثر ما يؤلمني حقًّا هو تراجع الشرق في هذا المجال. أحزنني أن أدرك خلال تجوالي في "باريس" أن أبحاث العلماء الكلدانيين ستجد هنا من يؤيدها ويسعى لاستكمالها وتطبيقها. ربما كان عزائي الوحيد هو أن أسراري عِلميةٌ في الأساس، وأنها مِلكٌ للعالم بأسره. إن بداخلي جانبٌ كونيّ. لكن حتى هذه الفكرة لم تستطع شفاء الجراح، التي خلّفتها المناقشات الدائرة بالفرنسية بين المجتمِعين، بداخلي. لقد وصفوا ثقافة بلادي بصفاتٍ شنيعة، وتحدثوا عنها بكل حقدٍ وكراهية. لم أشهد في أي اجتماعٍ سابق مثل هذه الأجواء المتوترة. تعامل كل واحدٍ من السبعة مع زملائه كأنهم ألدّ أعدائه. كشف الحديث عن أنانية كل منهم المفرطة، وإعلاء كل منهم لمصالحه الشخصية. تأكّدَ لي أن لهذا الاجتماع أهميةً خاصّة.

قال "السيد العارف":

- إنني أرى بعين خيالي المرصد الذي سنبنيه في "غابة بولونيا"..

أطلّ من النافذة، ناظرًا باتجاه الغابات البعيدة، وأضاف:

- سوف نفتح بوابات الكون على الفضاء. لن يكون ذلك نصرًا لنا وحدنا فحسب، بل نصرٌ للإنسانية بأكملها!

الثقة التي تحدث بها، جعلتني أميل إلى فكرة أنه أحد أبطال الثورة الفرنسية، وأنه يسعى سعيًا حثيثًا ليكون قائدًا. تساءلت: "لعله المحامي الفرنسي "ماكسميليان روبسبير" شخصيًّا؟".

t.me/qurssan

ربما كان فعلًا "روبسبيير"، الذي أثارت خطبه حماسة الناس وحرّضت الباريسيين على القيام بالثورة.

قالت "الكونتيسة سِرّ"، ببعض الغيظ:

- لا تتعجل أيها "العارف"! ربما كانت سماء "أسكتلندا" أكثر صفاءً من سماء "باريس"!

تدخل "شيخ الحب" في حوارهما، قائلًا:

- كل مَن أرادوا السيطرة على السماء، سعوا للشُّرب من ماء النيل أولًا. يمكن للأقصر أو الأهرامات أن تكون الموقع المناسب للمرصد الجديد.

نظر "السيد سبعة" للشيخ بسخريةٍ واضحة. لم يكن في سلوكه شيءٌ جديد. لطالما تنافس أبناء المناطق المختلفة، ولطالما تعامل الغرب باستعلاء مع الشرق. قال "السيد سبعة" شارحًا:

- لقد دخل العالَم مرحلة جديدة. صار للإقليمية والقومية مكانٌ بارز. ما زالت الصراعات القومية تحدد مصير الأمم، حتى يومنا هذا؛ لكن هذا سيتغير عمّا قريب. سيكون نظام الحُكم وطنيًّا.

أضاف وهو يضغط على كلماته، للتأكيد:

- دعني ألفت نظرك إلى أننا لن نسمح أبدًا لـ"مصر" ببناء مركز أبحاث على أرضها، ما دامت تتبع السيادة العثمانية.

لاحظتُ احمرار أذني "خالد أفندي"، من شدة غضبه، لكنه لم يعلق وواصل الاستماع لل"سيد سبعة" بصبر:

- لم يعد بمقدور الإدارة العثمانية المركزية فرض سيطرتها على الولايات التابعة لها، والأمر واضح جدًّا. إنهم يحاربون على أكثر من جبهة، ويواجهون تحدياتٍ عدة، منها القبائل الأرثوذكسية ذات الأصل الألباني، وسُكّان "والاتشيا" و"مولدوفا"، بالإضافة إلى الجماعات الكاثوليكية في "كاراباخ". إنهم جميعًا غير راضين عن البقاء تحت الحُكم العثماني. لقد ذكر "صمويل كلاين" أن سُكّان

t.me/qurssan

"والاتشيا" ينتمون في الأساس لـ"رومانيا". سوف نتجاهل هذا التصريح حاليًا، لكننا سنؤسس دولة جديدة في المنطقة، بمساعدة القساوسة الشباب الذين يحظون بدعم الكنيسة في "روما". إن الهدف من تأسيسها هو تمزيق الدولة العثمانية إلى قطعٍ متناهية الصِّغَر. لقد بدأت "روسيا" في السعي لذلك، بالفعل. إنها تنشر الدعاية اللازمة لترسيخ هذا الأمر في العقول. و"النمسا" على اقتناعٍ تامٍّ بأنهم رومانيون. السلاف والتوتونيون، من جانبهم، سعداء بتطور الأحداث على هذا النحو. إذا تراخت قبضة الأتراك على هذه المنطقة. وإن عملنا على دعم بعضنا البعض والمؤازرة من أجل هزيمتهم، فإنني لا أجد أي سبب يمنع بناء مرصدنا في الأراضي الرومانية. إن "الجبل الأسود" تحديدًا، هي المنطقة الأنسب، لقربها من السماء من جهة، ولوقوعها تحت القمر مباشرةً من جهةٍ أخرى. سوف يكون مرصدنا تحت عيني "نيبو" مباشرةً.

سأله "خالد أفندي"، وقد نفد صبره:

- وما الذي ستجنونه، كونكم أمَة، من هذه الخطط؟

استطرد، دون أن ينتظر إجابته:

- يبدو أن الإمبراطورة الروسية تنوي التوسع جنوبًا. أعني أنها تتحرك باتجاه البحار الدافئة. هذا يفسر قبولكم لفكرة الأسقف "أوسيب آراجوتيان"، التي تحمل اسم "مشروع مملكة جبل أرارات". ما رأيك؟ هذه هي حقيقة الأمر، أليست كذلك؟

أضاف مستنكرًا:

- أتظنُّ أننا في "إسطنبول" لا نعرف أمر تشجيعكم الدائم لمواطني "بلجاريا"، ولقطاع طرق الـ"روملي"، على القيام بثورة؟ أو أننا لا ندرك سعيكم لنشر المذهب الوهابي المتشدد في شبه الجزيرة العربية؟ أنتم الذين أثرتم القلاقل في "الطائف"، وأنتم الذين منحتم الحُكم لـ"علي باشا الألباني" في مصر. إننا نعرف كل ذلك جيدًا، ونعرف أيضًا ما فعله "نابليون بونابرت" من طباعة

t.me/qurssan

منشوراتٍ هدّامة، ضد الإسلام، وتوزيعها في بلاد "الحجاز".

تعالى صوته، وصاح بحنق:

- وتلك المؤامرات والدسائس التي تُحيكونها ضد الأتراك!.. و...

قاطعته "الكونتيسة سِر"، بطريقةٍ وقحة، لم يجرؤ أي من الأعضاء السابقين على الإتيان بمثلها:

- إن "السيد سبعة" محق، يا سيدنا العظيم.

أضافت ببرودٍ وصفاقة:

- دعك من الخطر الذي تمثله "تركيا" على أوروبا، ألا ترى أنها تشكل خطرًا أكبر على المسيحية ذاتها؟ فلتعلم إذًا أن سلطانك ذاك لن ينعم بليلةٍ هانئةٍ على الإطلاق ما لم نعد لأوروبا وللمسيحية مجدهما وثقافتهما وفلسفتهما. عليك أن تقبل فكرة أن السُلطة لم تعد لكم، وأننا تمكّنا من استعادة سيطرتنا القديمة.

استطردت "الكونتيسة سِرّ":

- سوف نطبّق "فكرة ميجالي"، أو "الفكرة العظمى"، أي أننا سنساعد الشعب اليوناني على تنفيذ تطلعاته القومية، وتحقيق أمله في التحرر من الحُكم التركي. سنفعل ذلك بمعاونةٍ من البطريرك اليوناني في "إسطنبول".

اختتمت حديثها بسؤالٍ وجهته لـ"خالد أفندي"، وهي تبتسم في انتصار:

- هل تعلم أن النشيد الوطني اليوناني الجديد، الذي كتب كلماته الشاعر "ريجاس"، صار يُغنَّى أيضًا في "البلقان"؟

"السيد سبعة"، والذي كان يجلس منكمشًا على نفسه في هدوء، بعد أن أفزعه صياح "خالد أفندي"، شعر بجرأةٍ مباغتةٍ بعد أن سمع ما قالته "الكونتيسة". رغبةً منه في إغاظة رئيس الاجتماع، أخذ يغني:

t.me/qurssan

"آن الأوان لتنهضوا يا أبناء اليونانيين!

فلنقاتل العدو، يا أبناء اليونانيين..

إلى أن تسيل دماؤه كالأنهار عند أقدامنا".

حين انتهى، كان الصمت يملأ الحجرة. شعرتُ بتيارٍ من الهواء البارد، يسري في المكان. لم أعرف إن كان "خالد أفندي" قد أحسّ به مثلي، أم لا. قطع "السيد الواقعية" الصمت العميق، بصوته وهو يقول:

- حسنًا، من الأقوال المأثورة التي يرددها الناس في "إسطنبول": "لا تَعُدّ دجاجاتك قبل أن يفقس البيض"! هكذا هو وضعنا الآن، أيها الأعضاء الكرام. أقترح أن نبحث أولًا عن المفتاح الذي سيفتح لنا الباب.

كان "خالد أفندي" في أقصى حالات الغضب حينها. بلل العرق الذي ينضح من يديه غلافي. لو بقيث بين أصابعه وقتًا أطول قليلًا، لتحول غلافي إلى عجينة ورق! عندما قذف بي على المنضدة القريبة، تيقنتُ أن المبادئ العِلمية للجمعية لم يعد لها وجود، وأن الأهداف الإقليمية حلّت محلها. لم يعد الحَمام الذي يطيّره رئيس الجمعية عند اكتمال القمر، يحمل على أجنحته آمال السلام العالمي. لم يعد اجتماع الأعضاء الدوري، كل سبع سنوات، يركز في مناقشاته على موضوع الفضاء ورحلاته. صارت المصالح الوطنية هي التي تتحكم في الأعضاء. ربما تتحمل الثورة الفرنسية جزءًا من المسؤولية في إشعال الرغبة في التحرر والاستقلال التي انتشرت في مختلف الدول والبلدان. هل هؤلاء الناس المجتمعون هم أعضاء الجمعية المحترمة، أم أنهم لصوص يسعون للحصول على كنوز "بابل"؟ لم يعد بإمكاني معرفة الإجابة. قلتُ لنفسي في غضب: "إنهم لا يستحقون معرفة أسراري العظيمة!".

يمتاز "السيد الواقعية" بمجاملاته المتواصلة، ورغبته الدائمة في إرضاء كل من حوله، ولذلك حرص على إلقاء خطاب لطيف،

t.me/qurssan

يـهدئ فيـه جميع مـن أحسـوا بـارتفاعٍ فـي ضـغط الـدم جـرّاء المناقشـات الحـادّة. أشـار فـي كلمتـه إلـى المبـادئ الإنسـانية، ومسـتقبل العـالَم، والسـلام الـكَوني، وعظمـة أهـداف الجمعيـة، وذكّرهـم بأنـهم أشـخاص ذوو قـدرات خارقـة. قـال لـهم إن مـا يستحق المجادلة فعلًا هو المبادئ الإنسانية، وليس الهويات. لفت أنظارهم إلى أن هدفهم الأول ليس تملق الملك الفلاني أو الدوق العلانـي. إنـهم مـوجودون لخـدمة الكـون بأكمله، وعليـهم أن يتصرفوا وفقًا للتفكير العقلاني، وليس استنادًا إلى العواطف. قال ذلـك وهـو يصبّ فـي كؤوسهم نبيذ "مارسيليا" الفاخر، ويوزع عليهم ابتساماته الدافئة.

لم أشهد في حياتي الطويلة اجتماعًا بمثل هذا التوتر والعصبية، من قبل. لقد مرّ قرنٌ وربع، منذ اجتماع "كاغتخانه" المعبّق بشذا الأزهار القادم من حدائق الخزامى، ذلك الاجتماع الذي فقدتُ فيه "ليلى". غبـتُ بعدها عن عشرة اجتماعات عُقدت خـلال سبعين سنة. تملكني الفضول حينها لمعرفة ما الذي تم فيها، وأين وصلوا فـي مسـألة أبحـاث الفضـاء الخـارجي. تأكـد لـي اليـوم أنـهم لـم يتوصلوا لشيء جديد. لم أرَ الخنجر المرصع الذي أخذه "مارتيل كلوفيس"، ولا حزام الزمزمية الذي خبّأه الجنرال "ستيفان" داخل جيبه، ولا اللوح الجلدي الذي حمله الشيخ "عبد الحي" معه وهو يغـادر القصر. لم يكن "خالد أفندي" يضع العباءة التي يرتديها "مردوخ" عادةً. مَن يدري ما الذي حدث لكل تلك الأشياء؟ ربما باعـها شـخصٌ طمّاع، مـن معـارف أعضـاء الجمعيـة، فـي أحـد المزادات. أو ربما تم وضعها ضمن المعروضات التي تزين جدران الكنائس أو التكيات الصوفية.

وصـلوا فـي قراءتـهم إلـى الأبيـات التـي تنتـهي عنـدها الأرقـام المسمارية. بعدها، أخرجوا من تحت قمصانهم وقبعاتهم أوراقًا خُطت عليها الأبيات التي دوّنها "عبد الحي أفندي" داخل القصر الواقع في "كاغتخانه". وضعوا بعض الأوراق بجوار بعض، فيما استمر "خالد أفندي" في قراءة ما تبقى من صفحاتي، محاولًا الوصول إلى البيت السابع والأخير. على الرغم من أنه قرأني

t.me/qurssan

مرات عديدة، فإنه لم ينجح بعد في الوصول إلى شيفرتي الأخيرة. واقع الأمر أنه لم يكن يعرف ما الذي يبحث عنه تحديدًا.

تبادل الأعضاء نظرات ذات مغزى. كانوا يعرفون أن الشيفرات موجودة في الأبيات التي تجمع بين الحب والغموض، لكنهم كتموا هذه المعلومة عن رئيسهم "خالد أفندي"، الذي يجهلها تمامًا. ما دام الشخص الذي يحتل منصب الـ"مردوخ" لا يعرف معلومةً مهمةً كهذه، فإن هذا يعني أن مرؤوسيه لا يتعاونون معه، بكل تأكيد. كل فردٍ هنا يتعامل بأنانية مع الآخرين، وهذا هو الداء المتفشي في كل الجمعيات السرية. تبدأ المسألة بتنوع أفكار الأعضاء وتشعبها، ويلي ذلك تشعب المعلومات وتشتتها، ثم ظهور الخلافات الحادة والصراعات بين جميع من فيها.

كتبوا الرقم 1375 على طرف الصفحة التي تحتوي على البيت السادس، ثم واصلوا قراءة ما تبقى من صفحاتي بحثًا عن البيت السابع. مرت ساعاتٌ طويلةٌ وهم مستمرون في البحث، في أجواءٍ متوترة. ظل "خالد أفندي" يزفر في ضيق، وهو يردد لنفسه: "ليتني عرفت بأمر ارتباط الغموض والحب في الشيفرات، قبل الآن!"

راح يترجم الأبيات للغة الفرنسية.

لم يتعجل سيدي "فضولي" في كتابة الشيفرة السابعة، بل وضعها في نهاية حكايتي، حين تزورني "ليلى" في الصحراء. لعله أراد ممن يبحث عن الشيفرة أن يقرأ العمل حتى نهايته، ليعرف أن الكون يقوم على الحب. تابع الأعضاء قراءة "خالد أفندي"، وأنصتوا إليه باهتمام. أرادوا العثور على البيت المطلوب، لكن ذلك لم يمنع تأثرهم بأحداث حكايتي الحزينة.

عندما تثاقلت حركة أجفانهم من فرط الإرهاق، قرأ "خالد أفندي" بيتي رقم 2723، بحماسة شديدة:

"ذَرّة غبار على درب الحُب.. أنا

يعرف الجميع نقاء قلبي أنا".

t.me/qurssan

كانت هذه ترجمة "خالد أفندي" للبيت. فكَّر بغتةً في كلمة "قلبي".. القلب هو مركز العالَم الداخلي للإنسان، حيث تمتزج العواطف بالروح والروحانيات. أخذ يردد إيقاع البيت، بتمهل:

- فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن. فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن..

كرر ذلك، بينما هو يفكر في نفسه: "هذا البيت يوحي بالغموض والسرّية. القلب موضع الأسرار. إنه المكان الذي يخبّئ فيه الإنسان حُبّه، وإيمانه ومعتقداته. نعم.. هذا هو البيت الذي نبحث عنه، على الأغلب".

لم يشأ أن يخبر مَن معه بأنه عثر على البيت المنشود، وأراد أن يتكتم على المسألة، لكن "السيد فلان" ارتاب في الأمر، حين وجده يكرر بحر البيت وهو مستغرقٌ في التفكير، فأعلن:

- لنتدارس هذا البيت، لبعض الوقت.

قرر "خالد أفندي" ألا يطلعهم على هذا الاكتشاف، وقال لنفسه بأنه لا يمكن وضع مستقبل العالم بين أيدي هؤلاء المجانين، الطامحين للسيطرة على الكون. سوف يفسِّر الأمر بطريقةٍ خاطئة، تثير البَلبَلة والحيرة في نفوسهم:

- حسنًا، فلنفترض أن هذا هو البيت الذي نبحث عنه. إنه يحمل الرقم 2723، ويحتوي على شيئين اثنين: كلمة "الحُب"، والرقم 7. لكن لا معنى لربط الغموض أو السِّريّة بكلمة "قلب". العلاقة بين الاثنين ضعيفةٌ، في رأيي. إن حسابات الأحرف الأبجدية لهذا البيت تساوي 260، وهو رقم لا يقبل القِسمة على سبعة، كما تعلمون. الوضع في الأبيات أو الشيفرات الستة السابقة مختلف، فمجموع حساباتها جميعًا يقبل القسمة على 7، دون باقٍ. هذه النقطة تحديدًا تضعف من احتمالات أن يكون هذا هو البيت المطلوب.

استمر في الثرثرة على هذا النحو لبعض الوقت. واقع الأمر أن أيًّا من الرؤساء السابقين للجمعية لم يقل شيئًا عن ضرورة أن يقبل

t.me/qurssan

الرقم القِسمة على 7، لكنه لم يجد صعوبة في إقناعهم بهذه النقطة، لجهلهم بها. وحدها "الكونتيسة سِرّ" لم تصدقه تمامًا. داخَلها الشك في أنه لا يصارحهم بالحقيقة كاملةً.

تطلَّب الأمر ساعتين إضافيتين للانتهاء من قراءة حكايتي. لقائي الأخير بـ"ليلى"، عثور أمها عليَ في الصحراء وإبلاغها لي بوصية "ليلى". وفاة "ليلى"، وقيام "زيد" بنقل الخبر لي. زيارتي لقبرها. بناء ضريحٍ لنا، يزوره العشاق. وأخيرًا.. انتقالنا إلى الفردوس. لم تلن قلوب المجتمعين، المتحجرة، وهم يستمعون إلى هذه التفاصيل الموجعة. فكرتُ في هؤلاء الذين يرغبون في حُكم العالم والسيطرة عليه، وافتقارهم للإيمان بالحُب. انتفض جسدي خوفًا. إذا لم يكن في القلب شيءٌ من العاطفة، فكيف تكون رحيمًا بالآخرين؟ الحُكّام الذين لم ينالوا قسطًا من الحب، لا يملكون شيئًا يمنحونه شعوبهم سوى القسوة. هؤلاء السبعة المجتمعون اليوم هم أعضاء الجمعية الوحيدون - على مدار كل تلك السنوات - الذين قرؤوا حكايتي بالكامل، واطّلعوا على تفاصيلها المؤلمة كافة، لكنهم لم يظهروا أي تعاطفٍ أو رحمة. لفت ذلك نظري إلى حقيقة أن الأعضاء السابقين للجمعية، لم يستكملوا قراءتي للنهاية، قط.

حين تسللت أول أشعة الشمس داخل منزل "خالد أفندي"، صباح اليوم التالي، غادر ستة أشخاص حجرة استقباله وهم يحملون في جيوبهم الأوراق التي تضم أبياتي الستة. تفرقوا في طرقات "باريس"، بعد وعدٍ بلقاءٍ آخرٍ يجمعهم مساء الليلة التالية. لم يكن أيٌّ منهم يثق بالآخرين. دارت حساباتٌ مختلفةٌ في رؤوسهم. وحده "السيد سبعة" الذي تأثر بحكايتي. كان يحاول إخفاء دموعه المتساقطة، وهو يغادر منزل "خالد أفندي". ذكرته قصتي بالفتاة التي أحبها في شبابه، والتي اختطفها منه الموت.

مساء اليوم التالي، انطلق الرصاص حولي، وتناثرت عليَ بقع الدم. لا يمانع أعضاء الجمعية في القتل لتحقيق أهدافهم، أمَّا مسألة "المستقبل الأفضل للعالَم" و"السعي من أجل السلام العالمي" و"استكمال الأبحاث العلمية لغزو الفضاء"، فليست سوى

t.me/qurssan

كلام أجوف يرددونه في كل لقاء. تحكّم الطمع والرغبة في الانتقام في تصرفات الأعضاء. تساقطت دماء "الكونتيسة سِرّ" و"شيخ الحب" على غلافي، بجوار الوردة التي تركتها "روكال" عليّ. في تلك الليلة شعرتُ بخوفٍ وضياعٍ فاقا ما أحسستُ به في كل المحن التي شهدتها من قبل.

بدأتُ أتساءل عن مدى صِدق هؤلاء الأعضاء، الذين كانت أصابعهم تتنازعني في قسوة، وتمزق أوراقي وغلافي. مقارنةً بهم، كان الأعضاء السابقون كملائكة! أخرجوا أسلحتهم، وأخذ بعضهم يُهدّدُ بعض. أرادني كل واحدٍ منهم لنفسه. لقد شهدتُ الكثير من العنف والغدر والقسوة في حياتي، لكنني لم أرَ قط شيئًا مماثلًا لما جرى في تلك الليلة. قلت لنفسي مرتاعًا: "لا بد أنها نهاية العالم!".

فكرتُ أن الخطط الدفاعية التي وضعتها الجمعية، قبل عدة ألفيات من الزمن، ضد الاعتداءات المحتملة من الفضاء تجاه الأرض، قد ذهبت سدى. لقد نفّذ أعضاء الجمعية الجدد الاعتداءات، بأنفسهم! شعرتُ ببعض الندم. لقد خبأت أسراري عن العلماء والباحثين القدامى، دون جدوى. لو أنهم شاهدوا الجريمة التي ارتكبها الأعضاء الحاليون، لتأكدوا أن المبادئ الإنسانية التي سعوا لتطبيقها، ليست سوى حلم داعب خيالهم. لم يتخيلوا قط أن تكون النهاية بسبب المنافسة الشرسة بين المنتمين للجمعية. لو كانوا يعلمون ذلك، لما عرضوا أنفسهم للمخاطر المهلكة قط؛ ولما طيّروا الحمام الذي يطلقونه في السماء سنويًا.

أبلغ خادم البيت سيده "خالد أفندي" بوصول العربات التي تجرها الأحصنة، لحمل "الكونتيسة سِرّ" و"الشيخ حُب"، على نقّالات. أما أنا، فقد تمزق غلافي إلى جزأين، وانقسمت صفحاتي إلى سبعة أجزاء بالضبط. أظهر "السيد العارف" و"السيد سبعة" تصميمهما على الفوز بي، عبر تبادل إطلاق الأعيرة النارية. لكن أيًا منهما لم يصب بأذى. هرول موظفو السفارة لمسكن "خالد أفندي"، القريب من مكاتبهم، ليستطلعوا الأمر، عقب سماعهم لأزيز الرصاص. بأسلوبه المعتاد، عمد "السيد الواقعية" إلى تهدئة الجميع وبث

t.me/qurssan

الطمأنينة في نفوسهم. كان من المفروض أن تكون هذه مهمة "خالد أفندي"، وبخاصة أنه يشغل منصب "مردوخ"، لكن هذا الموقف أثبت أن القوى لم تعد متوازنة.. فحملك للقب، لا يعني - بالضرورة - تمتعك بالقوة المطلوبة.

أمر "خالد أفندي" رجاله بجمع أجزائي. جمعوا صفحاتي وغلافي الخارجي وغلافي الداخلي، وما تساقط من فتات كعب الكتاب، كما صادروا أسلحة "السيد العارف" و"السيد فلان" و"السيد سبعة". لم يكن "السيد الواقعية" من النوع الذي يحمل أسلحةً أساسًا.

أمر "خالد أفندي" موظفيه بالمغادرة. فور خروجهم، بادر مَن بَقِيَ من أعضاء الجمعية بالقول:

- والآن أيها السادة، انصرفوا واحتفظوا بالأوراق التي تحتوي على الأبيات الشِّعرية. لتبقي ما حدث هنا اليوم طيّ الكتمان. لا أريد أن يعرف أحد من الحكومة الفرنسية بما حصل، ولا أن تصل أخبار ذلك إلى أعضاء الجمعية المستقلين. أتمنى أن نكون قد تعلمنا كيفية تعامل بعضنا مع بعض بلباقةٍ واحترام، بحلول موعد اجتماعنا القادم، بعد سبع سنوات. وحتى ذلك الوقت، أرجو أن تخرج اهتماماتنا من حيّز الوطنية والإقليمية، إلى ما فيه مصلحة العالَم بأسره. سوف تبقى هذه النسخة من "ليلى والمجنون" معي، خلال هذه الفترة. سأعيد تغليفها، وأحافظ عليها. أضاف بغضبٍ أكبر:

- واعتراضًا على التصرفات المخجلة التي ارتكبتموها اليوم، فإنني أطلب منكم المغادرة، ولن أقبل وداعكم أو سلامكم. أرجو أن تتذكروا أنكم دخلتم هذه الحجرة كونكم أعضاء محترمين بجمعية محترمة، وأنكم تغادرونها الآن بهفوات وعيوب الفشلة من الناس العاديين.

عند الغروب، كان "خالد أفندي" لا يزال يشعر بالصدمة والتوتر، وللتخفيف من اضطرابه، اتجه بسريةٍ تامةٍ إلى فيلا الكونتيسة "لوران"، على ضفة الـ"سين". كنت بداخل حقيبته، تضربني رياح

t.me/qurssan

شهر "مارس" الحادة. أنا عبد سيدي "فضولي". أنا "قيس" البعيد عن حبيبتي "ليلى"، وعن موطني، وعن أجواء الشِّعر، وعن الوجوه الباسمة. أنا محطم ووحيد. إنني أموتُ يوميًّا هنا في غُربتي بـ"باريس"، مدينة الثورات. عقب ما مرّ بي في اليومين الماضيين، بث أؤمن أن "إعلان حقوق الإنسان والمواطن"، الذي يفترض به ضمان الحريات وتطبيقها، ليس سوى كذبة كبيرة! إن سكان "باريس" الذين ضحوا بحياتهم من أجل حريات غيرهم، ماتوا سدى. تزايد خوفي، وأخذتُ أرتجف رعبًا وأنا أفكر في مستقبل العالم.

لم يعد بإمكاني تحمل المزيد من أشواقي لكِ يا "ليلى"! تعالي.. أينما كنتِ.

t.me/qurssan

28 خط "باريس - لندن" ومرسوم التنظيمات العثمانية

المعنى هنا واضحٌ وضوح الشمس

لو دامت الحياة ألف سنة كاملة

ستبقى قصيرةً.. كيومٍ واحد

(عارف حكمت)

من داخل المكتبة المواجهة لمحطة "جار دي ليون"، فتح لنا الباب شابٌ أنيق، وقال بتهذيب:

. مرحبًا. تفضلي مدام!

لاحت الحماسة على وجهه، مع شيءٍ من التواطؤ، وأعجبني ذلك. حاجبان كثيفان، وشاربٌ أسود، و"كرافات" مزركش، تحت معطف أنيق. بدا كشرقي وسيم. أحسستُ بأن شكله مألوف. لم أشعر بمثل هذه الإثارة والبهجة، منذ أن صرتُ أعيش مع الكونتيسة "لوران". داخلني حدسٌ قوي، وشعورٌ غريب بأن الزمن سيقربني من هذا الشاب. لو كنتُ أملك القدرة على الحركة، لخرجتُ من حقيبة الكونتيسة، ولألقيتُ نفسي أمامه. أردته أن يراني، وأن يعرفني. لقد تغيرت هيئتي الآن، ولعل ذلك هو ما منعه من التعرف إليّ.

في تلك الليلة البعيدة، وضعني "خالد أفندي" بين يديَ الكونتيسة، وهو يقول:

- حبيبتي الغالية، أهديكِ هذا الكتاب لتتذكري حبنا الخالد كلما تأملتِ رسوماته الجميلة.

لم يخطر ببال أحد في السنوات السبع التي تلت هذا الموقف أن يبحث عني في منزل الكونتيسة "لوران" الضخم، الواقع على نهر الـ"سين". أدرك "خالد أفندي" بعدها أن هناك أيدي خفية تعبث في

t.me/qurssan

محتويات أدراجه ورفوف كتبه، بل غرف النوم في مسكنه، بدأبٍ وانتظام، بحثًا عني. مَن كان سيدرك أنني مُخبًأ لدى العشيقة السِّرية؟

بعد رحيل "خالد أفندي" عن "باريس"، وعودته إلى "إسطنبول"، أحسستُ أنني متعَب، كشخصٍ أنهكه مرضٌ مُزمن. تعرَّضت صفحاتي للعبث، وحُوِّرت حكايتي الأصلية. كلما غلبت الأشواق الكونتيسة، احتضنتني وتأملتني ساعات، ولذلك بقيتُ داخل حجرة نومها أغلب الوقت. ساءت حالتي، وتفككت أوراقي تمامًا بعد فترة، فأرسلت بي إلى خيّاط تعرفه. أزال جلد الغزال عن غلافي القديم، ووضع قطعةً من جلد الجاموس مكانه. كانت تلك إحدى أتعس لحظات حياتي. غيّر غلافي الداخلي أيضًا. لم يعد ورقيًا ومبهجًا، بألوانه اليدوية المتداخلة، كما كان، بل صار قطعةً من القماش المذهب. تمت إضافة رسمة مطبوعة عن إحدى منمنماتي، فوق الغلاف الخارجي. لم أعد أعرف من أكون، ولا إن كنتُ شرقيًا أم غربيًا.

تآكلت ثروة الكونتيسة شيئًا فشيئًا، ولم تعد كروم العنب التي تمتلكها تدرُّ عليها الأرباح الوفيرة التي اعتادتها. كما انحسر جمالها أيضًا. انتقلنا من قصرها الكبير إلى بيتٍ من ثلاثة طوابق، في "بوليفارد سان مارسيل"، وغادرناه بعد زمن إلى شقةٍ صغيرةٍ في "سان جيرمان". في عيد ميلادها السابع والسبعين، غادرت الكونتيسة شقتها، وأخذت تتجول في الشوارع والطرقات التي تزينت استعدادًا لبدء "معرض باريس الدولي"، الذي سيحضره السلطان "عبد العزيز" ضيفَ شرفٍ.

ذلك الصباح، توجهت إلى صديقها بائع الكتب، في مكتبته الواقعة أمام محطة "جار دي ليون". شعرتْ برغبةٍ ملحةٍ في التحدث معه عن ذكريات شبابها. وضعتني في حقيبتها، لأكون محور الحديث. خرجتْ من البيت للمرة الأولى منذ سنواتٍ طويلة.

دخلنا المكتبة، يرافقنا رنين أجراس كاتدرائية "نوتردام". توجهنا إلى الجزء الخلفي من المكتبة. رأيت الشابَّ الذي فتح لنا الباب،

t.me/qurssan

وهـو يتجـول بـين رفـوف الكتـب. تابعتـه، متجـاهلًا حـديث الكونتيسـة مع البـائع. أطـال الـوقوف فـي قسم الكتب الأدبيـة، وتفحُص دواويـن الشِّعر بـاهتمام. أسـعدني ذلـك. أخـرج ساعة صـغيرة مـن جيـب الصـديري الـذي يرتـديه، ونظـر إليها لمعرفة الوقت، ثم أعادها مكانها. شيءٌ ما في تصرفاته وحركاته، أوحى إليّ بأنه تركي، وأنه من "إسطنبول" تحديدًا. اقترب منا، وخاطب البائع بفرنسية ذات لكنة، قائلًا إنه يرغب في شراء بعض الكتب. تيقنتُ من صحة تخميني. أدرك البائع أن زبونه أجنبي، فسأله عن بلده وعن سبب زيارته لـ"باريس".

قال إن اسمه هو "نامق كمال"، وأنه جاء إلى "باريس" قادمًا من "إسـطنبول"، تحت رعايـة "مصطفى فاضل باشا"، وأنه سيركب القطار المغادر إلى "لندن"، بعد قليل. أحسّت الكونتيسة بمزيجٍ من الإثـارة والسـعادة، عنـد ذِكـر "إسطنبول". لقد ذكّرها هذا الشابُّ الوسيم، بأناقته وتهذيبه، بـ"خالد أفندي". تبادلت معه الحديث دقـائق، ثـم فعلـت مـا كنـتُ أتمنـاه.. أخـرجتني مـن حقيبتـها، وعرضتني على الشاب، قائلةً:

- ما هذا الكتاب يا عزيزي؟ أخبرني من فضلك، إن كنتَ تعلم.

ما إن أمسكني بيده، حتى تسلل إليّ دفء ليالي "إسطنبول". كان قد قرأ حكايتي، وهو لا يزال طفلًا في العاشرة. تصفحني، وهو يتحدث عن سيدي "فضولي". تمعن في صفحاتي بُرهةً. ثم أعلن في دهشة أن ترتيبها غير صحيح. تأمّل الرسم الذي يصورني إلى جـوار "لـيلى"، فـي قلـب الـريف، ثـم قـرأ الأبيـات المصـاحبة لـه، وترجمها للكونتيسـة وصـاحب المكتبـة. تسـاقطت دموع المرأة العجوز. تأثرتُ لبكائها بشدة. لقد بقيت هذه المرأة مخلصةً لذكرى "خالد أفندي"، ورفضت العديد من عروض الزواج التي لاحقتها سـنواتٍ. عنـدما لمـح دموعـها، أدرك "نامق كمال" أنني أمثّل لها ذكرى عزيزة للغاية. تراجع عن فكرة سؤالها عمّا إذا كانت تريد بيعي، كما كان ينوي منذ لحظات. تحدثت إليه الكونتيسة بعض الوقت، وأخبرته أن "خالد أفندي" هو الذي أهداني لها. أرادت أن تسأله إن كان يعرفه، لكنها شعرت بالحرج والخجل. من جانبه، لم

t.me/qurssan

يرغب "نامق كمال" في زيادة حزنها، ولذلك حرص على عدم إبلاغها بأن حبيبها السابق قد أعدِمَ، منذ سنواتٍ كثيرة، في "إسطنبول".

في تلك اللحظة، نطقت الكونتيسة بالجملة التي سوف تغيّر حياتي من جديد:

- اسمح لي يا عزيزي أن أُهديك هذا الكتاب.

قالتها بعفوية وتلقائية، ودون تفكير. لعلها أرادت تذكير حبيبها الغائب بأن هناك قلبًا لا يزال ينبض بحبّه في "باريس". أضافت:

- لم تُتح لي الفرصة لزيارة "إسطنبول"، لكن ذلك هو أكثر ما أتمناه. أصبح الأمر حلمًا الآن، بطبيعة الحال. لكنني سأسعد إن تمكن هذا الكتاب من العودة لتلك المدينة الساحرة، وزيارتها بالنيابة عني.

خالط فرحي شيءٌ من الحزن، لإدراكي مدى حب الكونتيسة لي وتعلقها بي، لأنني أذكرها بحبيبها الوحيد. فيما بدأت تتأهب لرحلتها الأخيرة، أرادت أن تعيدني إلى الأرض التي أنتمي إليها.

خاطبتها، بيني ونفسي: "عزيزتي الكونتيسة، لقد خبأتني في غرفة نومك، وحميتِني من شرور أعضاء "جمعية بابل"، ونياتهم الإجرامية. كنتِ تعانقينني كل ليلة، كما لو كنتُ حبيبكِ. لن أنساكِ، ما حييت. لعلكِ كنتِ أبرز "ليلى" عرفتها، لكنني لم أدرك ذلك إلا الآن".

توطدت معرفتي بـ"نامق كمال"، خلال رحلتنا إلى مدينة "لندن". له شخصية جذابة ومتميزة. درس علم الأديان، بالإضافة إلى الأدبين العربي والفارسي. ثم بدأ يتردد إلى "جمعية الشعراء"، التي اقترب فيها من مشاهير هذا المجال، من أمثال: "غالب"، الذي تعود أصوله إلى مدينة "ليسكوفاتس" بـ"صربيا"؛ و"عارف حكمت" من "الهرسك"، و"كاظم باشا" من "كونيتسا" باليونان. استطاع هناك أن يصقل موهبته، عبر قراءة الكثير من القصائد الغزلية والدينية. حرص أيضًا على حضور الاجتماعات السرّية لـ"جمعية

t.me/qurssan

العثمانيين الجدد"، وتورط في الأنشطة السياسية. عندما وضعته أجهزة الدولة تحت المراقبة، تسلل إلى "باريس" في إحدى عبّارات الـ"بوسفور"، بتشجيعٍ من الأمير المصريِ "فاضل باشا".

وعندما كانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها حاكم عثماني أوروبا ضيفَ شرف، فقد طلبت الحكومة الفرنسية ومنظمو "معرض باريس الدولي" من "نامق كمال" أن يغادر البلاد فترةً وجيزة، تجنبًا لأي مضايقات قد يتسبب بها وجوده. اتجه إلى "لندن"، واصطحبني معه. خلال تلك الرحلة أيضًا، تعرفتُ إلى بعض زملائه في "جمعية العثمانيين الجدد"، والذين عرفهم الإنجليز باسم "الأتراك الشباب" أو "تركيا الفتاة". قابلتُ هناك "ضياء باشا"، الذي شكّل مع "نامق" أقوى عنصرين في الجمعية. تمتعا بثقافةٍ واسعةٍ وعميقةٍ في شتّى المجالات، وبقدرةٍ هائلةٍ على الحديث ساعاتٍ طويلة. كتب "نامق كمال" مقالاتٍ كثيرة ينتقد فيها الدولة العثمانية. ولاحقًا أُعيد إنتاجها عبر اختراعٍ يدعى "آلة الطباعة"، ثم أُرسلت سِرًّا إلى "إسطنبول". كم تطورت الحياة، وأصبحت أكثر سهولة! لم أسمع عن شيءٍ من ذلك خلال اختبائي في بيت الكونتيسة.

الكتابة التي آلَفها، تدوَّن بخط اليد على رقعٍ جلدية. وإن أراد الكاتب إصدار أكثر من نسخة، يكلف عددًا من النُسّاخ والكَتَبة بتلك المهمة، التي تستهلك زمنًا طويلًا. أما الآن، فإنها تتم على أوراق. ويمكن لآلةٍ واحدةٍ أن تطبع المئات والآلاف من النسخ! بل يمكن بيعها للناس على هيئة صُحُف! فكرتُ في نُسَخي. لقد نُسختْ نحو 600 مرة، باستخدام الأقلام. لم تعد الأقلام تُستخدم لهذا الغرض. واقع الأمر أن الشِّعر نفسه فقد مكانته العظيمة. لم أستطع استيعاب انشغال "نامق كمال" و"ضياء باشا" بالنثر، رغم أنهما شاعِرَان في الأساس. كما لم أفهم حرصهما على بيع الصحيفة التي تحمل اسم "حرّية"، بثمنٍ بخسٍ، لمجموعةٍ منتقاةٍ من معارفهما. لماذا يكتب الإنسان النثر إن كان يمتلك موهبة نظم الشِّعر؟

لمَ أفهم كيف سمح الشِّعر للنثر بأن يصبح هو أداة التعبير عن

t.me/qurssan

الأفكار والآمال، إلا حين رجعث إلى "إسطنبول" بصحبة "نامق كمال". لم أقم بزيارة "إسطنبول"، منذ غادرتها مع "خالد أفندي"، وحين عدتُ إليها الآن بعد غيابٍ طويل، اكتشفتُ تغيُر كل شيء.. المدينة والشعراء والناس. تنكّرت "إسطنبول" لأصدقائها القدامى. تجاهلتهم تمامًا، وما عادوا هم - بدورهم - يعرفونها.

عقب الفرمان الذي أطلقه "رشيد باشا"، والذي تلاه على الناس في ميدان "جُلخانه"، تمت إعادة تأسيس المؤسسات الحكومة. تآكلت التروس التي تدير عجلة الدولة. أفسدتها تكنولوجيا الغرب وأفكاره المتطورة. شيئًا فشيئًا، فقدت الدولة قوتها. وللمرة الأولى، بدأت تستدين من الدول الأخرى. استنزفت الحروب والمعارك المتواصلة مواردها، وتركتها مهزومة وضعيفة. فقدت الإمبراطورية أجزاءً كبيرة من أراضيها الشاسعة.

احتفظ الناس ببعض التقدير لسيدي "فضولي" وغيره من قدامى الشعراء العِظام، ولكن ليس بالمستوى نفسه من الإعجاب والانبهار. تطورت مناهج المعاهد والمدارس، وتوقفت عن تعليم التلاميذ الموضوعات التقليدية. لم يعد الناس ينقلون الأخبار لبعضهم البعض، واضطلعت آلةٌ تدعى "التلغراف" بهذه المهمة، نيابةً عنهم.

t.me/qurssan

لاحظتُ أن الشعراء الذين يزورون "نامق كمال" كل مساء، باتوا أقل اهتمامًا بقراءة الشِّعر القديم، وأن أغلب مناقشاتهم تدور حول الإصلاحات التي تهدف إليها الدولة العثمانية. طالبوا بتعديلٍ دستوري. إنهم يعرفون الكثير من المعلومات في مختلف الأمور، مقارنةً بالشعراء القدامى. أصبحت السياسة هي شغلهم الشاغل. الحقيقة أنني لم أفهم جيدًا مسألة "التعديل الدستوري" التي دأبوا على طرحها، لكنني كنتُ متيقنًا من أنهم سينجحون في تنفيذ أمورٍ جيدة. الأمر الوحيد الذي استأتُ منه، هو الطريقة السخيفة التي يتحدثون بها عن الشعراء القدامى الذين ندين لهم بالكثير. الواقع إن أغلبهم أقرّ بشكلٍ أو بآخر بإعجابه بـ"باقي أفندي"، و"عطاء"، و"نفعي"، و"نابي"، و"نديم"، واتفقوا جميعًا على عظمة "دادا غالب"؛ لكنهم ظلوا يرددون أنه ينبغي التخلص من أساليبهم التقليدية القديمة. أشعرني ذلك بحرجٍ بالغ.

صرتُ في حالة صراع دائم مع نفسي. وفقًا لما يقوله أولئك الشعراء، فإن القوالب الأكثر ملاءمة للتعبير الآن، هي الرواية والمسرحية والمقال. كنتُ قد استمعتُ إلى العديد من المناقشات

t.me/qurssan
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأدبية الفرنسية، خلال وجودي مع الكونتيسة "لوران"، ولذلك فإن مسرحيات "موليير" و"شكسبير" مألوفةٌ لديّ. الواقع أنني لم أجد فيها فنًّا ولا أدبًا، وإنما مجرد عرضٍ فاضحٍ وفَجّ لحياة الآخرين. أعمالٌ مليئةٌ بالثرثرة واللّغو، ولا احترام فيها للحياة الخاصة للشخصيات. ما الهدف من هتك أسرارهم وعيوبهم أمام الطبقة البرجوازية؟ ليتني أعرف! يقولون إن ذلك الشيء الذي يحمل اسم "رواية" أو "مسرحية" يسعى لسرد مجموعة من الأحداث، وأنا أقول إنه يمكن تحقيق ذلك عن طريق الشِّعر، لأنني وحكايتي خير مثالٍ على ذلك! لستُ وحدي، بطبيعة الحال، هناك حكاياتٌ أخرى، قُدِّمت في قالبٍ شِعري، منها على سبيل المثال: "خِسرو وشيرين"، و"يوسف وزليخة"، و"الحُسن والعِشق"، و"الوردة والعندليب"، و"الشمعة والفراشة"، و"كرم وأصلي"، وغيرها.. لقد حرص الشعراء القدامى على سرد أحداث خيالية في قصائد شعرية، بل كان بإمكان بعضهم اختصار موضوع الحكاية في بيتٍ واحد. إيجازٌ مكثّف لا يخلو من الجمال. قصائدُ كثيرة كُتِبَت بهدف تخليد حكايات الأبطال والمحاربين، لا العشّاق فقط، وتضمنت جميعها مبادئ أخلاقية سامية. ليس فيها فسادٌ أو وقاحة أو تلصص على حياة الناس. لا أفهم كيف يحب الناس الاطّلاع على حياة بشر عاديين، ويفضلونها على معرفة الحكايات الأكثر سموًّا ورِفعة؟ تقوم هذه الأعمال على الجوانب الحِسّية، ما يجعلها تفتقر إلى المعاني العميقة.

في بعض الأحيان، أتساءل: ما إذا كانت أفكاري هذه خاطئة؟ لقد تغيّر المجتمع، وتبدلت حياة الناس تمامًا. لقد صار الناس أكثر قسوة، وخَلَت قلوبهم من الرحمة. تسربت العواطف من داخلهم، وحَلّ محلّها الشهوات والأطماع. تلك الحالة أكثر وضوحًا في "باريس" و"لندن". لكن المؤسف هو أنني أراها الآن في "إسطنبول". ربما كان هذا أمرًا منطقيًا، فالدولة التي تعرضت مؤسساتها وسياساتها للتغيير، لا بد أن تتغير آدابها كذلك. إنني أفهم ذلك، لكن ما لا أفهمه هو أن ينتقد الشُّعراءَ العِظام، أبناؤهم وأحفادهم من الشعراء المعاصرين والجُدُد. إن "نامق كمال" يردد في كل مكان:

t.me/qurssan

- لن تتعرف أوروبا إلى الشرق!

أظن أنهم هم الذين لا يعرفون أوروبا. هناك، يؤمن الناس بالتطور، لكنهم لا ينكرون التراث أو يزدرون التاريخ.

استمر "نامق كمال" ورفاقه في الهجوم على الشعراء القدامى والشعراء التقليديين، وكتبوا مقالات كثيرة تنتقد قصائدهم وأساليبهم. كانوا يقتلون الشِّعر، ويسعون للقضاء عليه تمامًا. لو عاش رجلٌ 600 سنة، لاستغرقت سَكَرات الموت نحو 50 سنة مثلًا. لكن الأدباء الجدد ليس لديهم طاقةُ صبرٍ تتيح لهم تحمُّل وفاة الشِّعر ببطء. كانوا يتعجلون موته، دون أن يدركوا أنهم ما زالوا بحاجةٍ إليه. ربما انتهى قالبٌ أو اثنان من قوالب الشِّعر، واختفى منه بحرٌ أو أكثر، لكنه - مع ذلك - ظل حاضرًا وموجودًا.

أغمض "ضياء باشا" عينيه، وقال متمهلًا:

- "زرتُ الغرب المسيحي

وشاهدتُ مُدُنًا وقصورًا

طفتُ العالَم الإسلامي

ولم أرَ سوى الأطلال والخراب".

في تلك الأعوام، اعتبر السفراء الغربيون والرحّالة الأجانب "إسطنبول" "مدينة الأحلام".

لو عَلِمَ سيدي "فضولي" أن أحفاده سينكرون شعره، لحاصره العذاب من كل جهة، ولما اهتم "غالب" بنظم عملٍ متميز كـ"الحُسن والعشق".

قد يتنحَّى الشِّعر جانبًا لبعض الوقت، لكن روحه ستظل قائمة وسيجد قوالب جديدة يظهر من خلالها، دون انحدار أو انحطاط. عندما وصلنا إلى مرحلة الصُحُف والجرائد، وظهرت الروايات والمسرحيات بقوّة، شعرتُ بشيخوخةٍ مفاجئة، وأحسست بدنوّ أجلي. لم يعد الحبر يوضع في دواة، بل أصبح ينسكب على الورق

t.me/qurssan

من طرف القلم. لاحظتُ تغيّر كل شيء، وكنتُ على أتم استعداد للتضحية بنفسي من أجل "جمعية بابل"، لكنني - في الوقت ذاته - لم أشأ أن أظل حبيس رفوف الكتب المُهمَلة. أردتُ أن تُكتَب حكايتي من جديد، وأن أكون موضوع مسرحية جديدة، أو أن تُنشَر حكايتي في حلقاتٍ مسلسلة في الصُّحُف. وددتُ أن يحبني الناس من جميع الأعمار، كما كان الوضعُ قديمًا، وأن أجعل القلوبَ تخفق بالغرام والأشواق عند قراءة أبياتي. أحببتُ أن أكون حلقة الوصل بين الشعراء الجُدُد وأجدادهم العِظام. حلمتُ بأن تحقق لي "جمعية بابل" كل ذلك. وهأنا في انتظار تحقيق هذا الحلم الجميل.

استسلم "نامق كمال" ورفاقه لتأثير الأدب الغربي استسلامًا تامًّا. بدأتُ أشعر بالإهمال المتعمَّد. جُرِحَت مشاعري، وبِتُّ أشعر بضيقٍ في التنفس. في إحدى الليالي، انتهى بي الأمر في غرفة "مصطفى رشيد باشا". وفي إحدى الليالي الممطرة من شهر "فبراير"، وضعني "نامق كمال" داخل جيب معطفه، ثم انطلقنا في رحلة طويلة نسبيًّا إلى منطقة "إميرجان"، داخل عربة يجرها حصانان. حين وصلنا إلى وجهتنا، صعد السُّلَّم المؤدي إلى الطابق العلوي. أنَّت السلالم تحت قدميه.

حين دخلنا، كان "رشيد باشا" يتأمَّل الـ"بوسفور" من بين أغصان أشجار الكستناء الكبيرة التي تظلل شرفته، مرتديًا "روبًا" منزليًّا. استقبل ضيفه بترحاب:

- تفضَّل بالدخول يا "كمال بيك". قَرِّب المدفأة مني قليلًا. إن الجوّ شديد البرودة. اجلس إلى جواري. مرَّ وقتٌ طويلٌ على لقائنا الأخير. لقد اشتقتُ إليك.

امتزجت عباراته بسُعالٍ متقطع. بدا متعَبًا ومنهَكًا. رمقه "نامق" لحظات، شاعرًا بالارتباك. أدرك أنه أمام شخص يُحتضر، ولم يعرف ما الذي يجب عليه قوله للتخفيف عنه.

- سيدي العزيز، لقد جلبتُ لك كتاب "ليلى والمجنون" الذي نظمه "فضولي"، كما طلبتَ مني. اسمح لي أن أصارحك بدهشتي

t.me/qurssan

لرغبتك في قراءته، وأنت على هذه الدرجة من المرض. عادةً، نبحث عن الجديد في عالم الأدب، فما الذي تريده من كتابٍ عتيقٍ كهذا؟

قال الرجل المُسِن، بصوتٍ متهدج:

- تفضَّل بالجلوس. اجلس أولًا. لا أريد قراءة الكتاب.

سَعَلَ لبعض الوقت، ثم أضاف:

- كرّر ورائي ما سأقوله الآن.

انتابت الدهشة "نامق"، لكنه أخذ يكرر:

- هناك سبعة أسرار حقيقية لمن يعرفون الحب. من يمتلكها، يمتلك السيطرة على العالَم.

ولساعتين كاملتين، تحدث "رشيد باشا" عن "جمعية بابل"، وأخبر "نامق كمال" عن كل شيءٍ يتعلق بها، عن مبادئها وأهدافها، وعن أبحاث الفضاء الخارجي التي أجراها الرهبان الكلدانيون، والرحلات بين المجرَات. أخبره عن "آرشيا آكيلدان"، وعن الأعضاء السبعة الحاليين. من يكونون وأين يكونون. أنبأه بموعد الاجتماع القادم، وقال له عن الأبيات التي سيجلبها المجتمعون معهم. تحدث عن التركيبة الجديدة للعالَم، وعن عصر الصناعة. لفت انتباهه إلى أن دولًا بعينها ستختفي من خريطة العالَم، في القريب العاجل، وأن دولًا غيرها ستحل محلها.. أخبره بكل ما في حوزته من معلومات. أضاف في النهاية:

- لقد تحدثتُ مع السلطان "عبد الحميد" عنك، وناقشنا مستقبلك المهني. سوف يجري تعيينك في مجلس الدولة. لقد أنهيتُ رحلتي في هذه الدنيا، وأتممتُ واجبي تجاه "جمعية بابل"، على أكمل وجه استطعته. أعهدُ إليك، منذ هذه اللحظة، بخنجر رأس "سيروش". لا تنسَ أن الشيفرات التي يمتلكها أعضاء الجمعية، لا يمكن حلها إلا بهذا الخنجر. ولذلك، عليك أن تحميه بحياتك. عندما تشعر بدنوّ أجَلك، أو عند تعرضك لخطر يهدد حياتك، تذكر

t.me/qurssan

هذا اليوم؛ فكما وهبتك أسراري وائتمنتك عليها، لثقتي الكبيرة بــك، ينبغــي لــك حينـها أن تصارح شخصًا تثق به بكل هذه المعلومات، ليستكمل المسيرة من بعدك.

أنصت "نامق" لمضيفه في ذهولٍ واستغراب. كدث أسقط من يده. تلقفني "رشيد باشا"، وقال مبتسمًا:

- نعم! أرني الأمانة التي سلّمتك إياها الكونتيسة "لوران".

تزايدت دهشة "نامق كمال"، وقال بصوتٍ يقترب من الهمس:

- كيف تعرف الكونتيسة "لوران"؟

- بالله عليك! كيف لا أعرفها، وأنا الذي حميث الكتاب طوال هذه السنوات؟

أضاف "رشيد باشا":

- ألـم تلحـظ أنـي سافرتُ إلى "فرنسا"، وبقيث هناك أعوامًا طويلة؟ لقد فعلتُ ذلك من أجل "ليلى والمجنون"، لا غير.

- حسنًا، ولكن كيف عرفتَ أنه صار بحوزتي؟

- لا تكن ساذجًا! هل تظن أنك التقيث الكونتيسة في المكتبة القريبة من محطة القطار مصادفةً؟ ما الذي جعل الناس يطلقون على "رشيد باشا العظيم"؟ إن السرّ الذي يضمه هذا الكتاب، يمنحنـا القـوة يـا عزيزي. سـوف تمتلكها أنـت أيضًا، من الآن فصاعدًا.

استطرد الباشا بجدّية:

- عليك منذ هذه اللحظة أن تكون حذرًا. انتبه من لصوص الآثار الذين يسعون للحصول على تماثيل الآلهة الذهبية. أنت تعرف ما الذي ينبغي لك فعله، بطبيعة الحال.

لم تكن دهشتي تقلُ عن تلك التي انتابت "نامق كمال". أذهلني ما سمعته. لقد بقيث داخل حجرة نوم الكونتيسة سنوات، من أجل

t.me/qurssan

"جمعية بابل". لم تكن رحلة "نامق" إلى "فرنسا" من أجل "جمعية العثمانيين الجدد" وحدها، إذًا.

قال "رشيد باشا":

- دعني أتصفح هذا الكتاب الذي حافظتُ عليه، دون أن أراه!

قلَب صفحاتي بإعجاب. قرأ بعض أبياتي باستمتاع، ونظر إلى منمنماتي بانبهار، ثم تأمل الأرقام المكتوبة بالمسمارية. سأل ضيفه:

- هل تعلم كم رئيسًا للجمعية ترك بصمات أصابعه، وآثار عمله الدؤوب، على هذه الصفحات؟ إن هذا الكتاب يحمل مستقبل البشرية، منذ قرون! الكنز الذي بين يديك هو الكلمات التالية..

"ذَرّة غبار على درب الحُبّ.. أنا

يعرف الجميع نقاء قلبي أنا".

إنه البيت رقم 27234. مجموع أرقامه هو 14. إنه يقبل القسمة على الرقم 7 دون باقٍ. الباقي هو صفر. الصفر هو آخر رقم موجود على مقبض الخنجر الذي أعطيتك إياه. إنه الشيفرة السابعة التي ستفتح باب "برج بابل". بقية الشيفرات موجودة لدى أعضاء الجمعية الآخرين. لن يُفتَح الباب إلا بوجود سبعة أشخاص معًا. هذا الباب هو بوّابة العبور المؤدية للسماء.

أضاف "رشيد باشا"، بحماسة:

- فكّر في المسألة يا عزيزي.. هل يمكنك تخيل نوع الرحلات التي ستقوم بها المركبات الفضائية؟ الأمر مثير، أليس كذلك؟ مئاتٌ ممن رأسوا الجمعية أرادوا مشاهدة هذه اللحظة، لكن القدر لم يتح لهم تلك الفرصة. الحقيقة أن التقدم العلمي بطيءٌ جدًا، والعلماء في رأيي كسالى، ولذلك أرجّح أنك أنت أيضًا لن ترى هذه اللحظة المهمة. عندما تقترب نهاية العالم، سيتمكن العلماء من الوصول إلى الفضاء، والسفر إلى الكواكب الأخرى. ربما سنلجأ للحياة في الفضاء، عندما تضيق بنا الأرض..

t.me/qurssan

واصل "رشيد باشا" الشرح وطرح النظريات والافتراضات.

و"ليلى" الحبيبة.. أين كانت في تلك اللحظات؟ ومَن كان معها؟ لا أدري.

t.me/qurssan

29 فتح بوّابة "عشتار" وتناثر أسراري في "بابل"

أطلِق صوتك عاليًا في هذه الدنيا

كنبيّ الله داوود

فما تحت هذه القُبّة سوى

صدى صوت مبهج

(الشاعر "باقي")

في التقرير المؤرّخ في الأول من أبريل 1896، كتب عالِم الآثار الألماني "روبرت كولدفاي" لمسؤولي "متحف برلين الملكي":

"إن معظم ما سأكتشفه هنا، يعود إلى زمن "نبوخذ نصر". لقد بدأتُ عملية التنقيب منذ أسبوعين. أسفرتْ عن اكتشافي وجود حائط حجري يمتدّ على مسافة سبعة أمتار".

من الواضح أن ما كان "كولدفاي" يبحث عنه في الأساس هو مكتبة "آشوربانيبال". عثر على حوائط حصن طيني، له 360 برجًا. تمنى أن يجد هناك الأقراص الطينية السبعة، وتماثيل الآلهة البابلية المصنوعة من الذهب. كان ينوي تسليم الأقراص للجمعية، والاحتفاظ بالذهب لنفسه. ظل يردد أنه اعتمد على كتب المؤرّخين "هيرودوتس" و"كتسياس" لتحديد موقع الجبل الذي بدأ التنقيب حوله، بمساعدة 200 عامل بدوي.

لولا أنه رآني، وشاهد أبيات "سيدي فضولي"، لما غادر "كولدفاي" بلده متنكرًا في هيئة رحّالة. وضعني في حقيبته، واتجه إلى بلد الراهب "آكليدان". لولا أنه رآني، لما عرف الناس ما يقبع وراء الجدران التي ترتطم بها أمواج نهر "الفرات"، بلونها المائل للصُفرة.

عندما لمحني ضمن مجموعة الكتب التي يمتلكها "نامق كمال" في

t.me/qurssan

"ماجوسا" بـ"قبرص"، بدأ "كولدفاي" يخطط لسرقتي. خبّأني بحرص، وبدأ يتصرف بصبرٍ شديد. عثر على الخنجر في "باريس"، ودرس جميع تفاصيله عدة أيام متواصلة. حفظ الشيفرات التي يمتلكها بقية الأعضاء، عن ظهر قلب. نجح - بشكلٍ أو بآخر - في فك شيفرة الأقراص التي وضعها خادم "آكيلدان" في مدخل "معبد عشتار". تعمّد التصرّف بهدوء، ودون عجلة، حتى يتجنب الشكوك المحتملة. واصل عمله بأناة، دون أن يلتفت للضغوط التي مارسها ضده بقية أعضاء الجمعية المنتشرين في أنحاء العالم.

بعد مرور سبعة أعوام على بدء عملية التنقيب، كان قد تعلم العربية والكلدانية والسومرية والقبطية. حين اجتمع بزملائه في الجمعية، قرأ عليهم نصًا عثر عليه خلال عمله. ترجمه من الكلدانية إلى الألمانية والإنجليزية:

"أنا، ملك الملوك، "نبوخذ نصر"، باني هذه الأسوار والبوّابات، وأنا الذي أوصلتها إلى المياه من تحتها، وأنا الذي وضعت فيها الحجارة الزرقاء الصافية، وأنا الذي بنيت الغرف داخل السور، وأنا الذي نقشت صور الثيران والتنانين في السور، وأنا الذي زينتها بهذه الأشكال الجميلة، لكي تتمتع البشرية برؤية هذا المنظر المهيب".

قابلتُ أعضاء الجمعية ذلك اليوم. ثلاثة يهود، وأربعة مسيحيين. عبّر حوارهم عن إصرارهم على الاستفادة من ضعف الدولة العثمانية، كما اتفقوا على نقل الأقراص الطينية خارج حدود العراق. اعتصرني الألم عند سماع ذلك. أحسستُ بأنني أخون نفسي، وأخون سادتي السابقين جميعًا.

t.me/qurssan

قال "كولدفاي" الذي أصبح هو الـ"مردوخ":

- أيها السادة الكرام، يا فرسان الكون، لقد استطعنا دخول أعظم مدينةٍ صنعتها يد الإنسان. إنني بحاجة إلى سبع سنوات إضافية من العمل، لتحديد موقع بقايا "برج بابل"، والذي ستدلنا عليه عظام "آرشيا آكيلدان"، الذي دُفِن هناك. ولتمويل هذه الخطوة، فإنني بحاجة إلى خمسين ألف ليرة ذهبية عثمانية، تشمل الأجور اليومية للعمّال الذين سأجلبهم من مدينة "الحِلّة". كما أنني سأستخدم جزءًا من هذه الأموال في إثارة بعض القلاقل والمشكلات في أي مكان، لإبعاد الأنظار عنا.

أضاف:

- أتمنى، حين نجتمع مرة أخرى بعد سبع سنوات، أن أستطيع جلب النقوش التي تزين بوابة "معبد عشتار". سنضع الشيفرات التي تمتلكونها عليها، لنتمكن من فتح باب عالمنا على الفضاء الخارجي.

عاد "كولدفاي" إلى "بابل"، مصطحبًا معه هذه المرة ثمانية بغال،

t.me/qurssan

وأربعة أحصنة، وستة حُرّاس. ضمت أمتعته كتب الرحلات التي ألّفها الجغرافي الإغريقي "سترابو" والمؤرخ "ديودورس"، بالإضافة إلى 50000 ليرة ذهبية، ونسخة من التوراة، وأنا بطبيعة الحال. حين اقتربنا من الأسوار الخارجية للمدينة، وسرنا على بقايا "جسر الفرات"، انتابني شعورٌ مباغتٌ بالانتماء. أحسستُ بسعادةٍ غامرةٍ، كتلك التي يشعر بها المغترب العائد إلى وطنه. الواقع أنه ليس للأمر علاقة بسيدي "فضولي" الذي عاش قريبًا من هذه البقعة.. ربما على مسافة عشر دقائق على أقصى تقدير؛ بل الأمر أبعد من سيدي بكثير. إنه شعورٌ يمتد إلى زمن طوفان سيدنا "نوح". أكاد أسمع صوته وهو ينادي ابنه "سام" بجزعٍ وإشفاقٍ وحنق، كي ينضم إليهم. أكاد أسمع صرخة "جلجامش". أكاد أرى آثار قدمي نبيّ الله "دانيال" في هذا الطريق الذي تحفه الأعمدة الرومانية. أكاد ألمح وصايا "حمورابي". ربما لو تقدمتُ قليلًا، فسوف أرى شظايا الأصنام التي حطمها النبي "إبراهيم"، أو الفراشات التي تتطاير حول الحدائق المعلقة التي صُمِمَت خصيصى للملكة "سميراميس"، أو سيدنا "يونس" وهو يفقد صبره. رأيتُ آلاف آلاف السنوات، في لمح البصر.. بشرًا ومعابد وتضحيات وولائم وانتصاراتٍ. تدفقت صُوَرٌ من تاريخ البشرية بين جدران المبنى المشيّد من الطين والحجارة، الذي أظهره تنقيب "كولدفاي". ما الذي ستقوله هذه الحوائط يا تُرى، لو قُدِّر لها أن تتكلم؟ "بابل"! ثورة البشرية جمعاء. وكما ورد في الكتاب المقدّس:

"وكانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولُغةً واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعةً في أرض شِنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: "هَلُم نصنع لِبنًا ونشويه شَيًّا". فكان لهم اللبن مكان الحَجَر، وكان لهم الحُمَر مكان الطين. وقالوا: "هلم نبني لأنفسنا مدينةً وبُرجًا رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلا نتبدد على وجه كل الأرض".

أرادت "جمعية بابل" أن تقلل من سيطرة العثمانيين على بلاد ما بين النهرين، كي يتسنى لـ"كولدفاي" أن يواصل عمله بسهولة،

t.me/qurssan

ولتنفيذ هذا المخطط، عملت على إشعال الفُرقة والخلافات بين شعوب البلدان الواقعة جنوب شبه الجزيرة العربية. كان من المعتاد سماع أزيز الرصاص، خلال السنوات التي أمضيتها بين جدران "بابل". في تلك الفترة لم تكف ألسنة الناس عن ترديد شيئين: "لورنس العرب" و"الوهابية".

عندما عثر "كولدفاي" على الطريق الذي خصصه "نبوخذ نصر" لتقديم القرابين للإله "مردوخ"، صرف عمَّاله في إجازة مدة أسبوع، مانحًا إياهم ضِعف أجرتهم. أراد أن يفحص المكان بمفرده، دون إزعاج أو تدخل من أحد. في بعض الأيام، عمل عشرين ساعة متواصلة، دون أن يهتم بالآلام التي تسببها الشيخوخة لركبتيه. كان مستمتعًا بوجوده بين هذه الألغاز الغامضة. اعتاد الحياة في ذلك المكان، خلال السنوات العشر الماضية، لدرجة أن اهتمامه بالعثور على الأقراص الطينية والتماثيل الذهبية، شابه الكثير من الفتور. أعجبته الحياة بين ذراعي التاريخ، وصداقة الشخصيات التاريخية القديمة. كان يكلمهم في بعض الأحيان.. صاروا رفاقه، يتبرم منهم أحيانًا، ويجأر بالشكوى. يعتذر ويحاول استرضاءهم. يسعد بصحبتهم ويستمتع بها.

عندما عثر على طريق "نبوخذ نصر"، فاقت سعادته الحدود. عاد بكل جوارحه إلى الأزمنة القديمة. رأى آلاف الناس المحتشدين على جانبي الطريق للاحتفال بتقديم القرابين للآلهة. لم يشعر بمثل هذا السرور الصافي من قبل. كان على وشك الوصول إلى "آكليدان" وأسراره. قال لنفسه: "ما دمتُ قد اكتشفتُ هذا الطريق، فسوف أصل عمّا قريب إلى "برج بابل"، فالمسافة بينهما ليست بعيدة".

بعد انتهاء النهار، وحلول الظلام، كان "كولدفاي" يستعين بالمشاعل لمواصلة عمله وقراءة المحفور على قطع الحجارة الضخمة. كنت أتابعه وأقول متعجبًا:

لم أرَ في حياتي شخصًا يمتلك كل هذا التصميم والإرادة!

t.me/qurssan

في اليوم السادس من إجازة عُمّاله، عثر "كولدفاي" على العبارة التالية:

"جِسر "بور - شابو"، طريق "بابل"، ملأته بمواكب عظيمة لـ"مردوخ"، تليق بألوهيته. تصل إلى بوابة "عشتار". أنا "نبوخذ نصر"، ملك "بابل"، ابن "نبوخذ نصر"، ملك "بابل"."

لم يصدّق "كولدفاي" ما رآه. قرأ العبارة مرةً ثانية، وثالثة، ثم راح يردد بلا توقف:

- نعم.. نعم.. نعم.. نعم....

كرر ذلك مئات المرات، ربما. أخذ يصرخ بهذه الكلمة، من أعماقه. تردد صدى صوته بين النُّصب التي يتجاوز عمرها عشرات الآلاف من السنوات..

- نعم.. نعممممم!

لم يسمع أحد صيحات الانتصار التي انطلقت منه بمزيجٍ من الذهول والسعادة. "عشتار" ترتبط ارتباطًا وثيقًا بغموض معبد "آكيلدان"، وبوابة "عشتار" هي البوابة التي تحتوي على الشيفرات التي وزعها سيدي "فضولي" بين صفحاتي.

تلك الليلة، لم ينم "كولدفاي"، وأمضى ساعات وهو يتأمل قطع الحجارة، قطعةً قطعة. كانت لا تزال تحتفظ بلونها الأحمر الياقوتي، وامتدت على هيئة خطين في الجزء الجنوبي من الطريق، إلى المكان الذي وضع فيه العمّال أدوات الحفر. على تلك القوالب الحجرية، رأى "كولدفاي" الأسد الخاص بإله العاصفة؛ وعلى حجر الحصى رأى ثديي إلهة الخصوبة. فوق ذلك كله، نُقِشَت أفعى طويلة ذات لسانٍ مشقوقٍ إلى نصفين. تكرر رسم الأسد والأفعى على بقية الأحجار التي تحف الطريق، كل عشرة أمتار تقريبًا، وفي كل رسمة يتغير شكلهما قليلًا.

أشرقت الشمس، وتلألأت خيوطها الهادئة على مياه نهر "الفرات". قال "كولدفاي":

t.me/qurssan

- سوف يستمر تغير هذين الشكلين، كلما تقدمتُ إلى الأمام، إلى أن يصبحا "سيروش"، كما أتوقع. بعدها.. ربما على مسافة عشرة أمتار إضافية، سأضع يدي على مدخل "بوابة عشتار".

قبل أن يخلد لنومٍ قصير، يستعيد به شيئًا من طاقته، أطلق "كولدفاي" حمامتين في السماء. حملت كل واحدةٍ منهما ورقةً كُتِبَ عليها:

"العروس في انتظار العريس، لليلة غرام".

عاد عُمّال "الحِلّة" من إجازتهم. كاد صبري ينفد. كنتُ أتحرق شوقًا إلى رؤية الكنوز التي خبّأتُها في كتابي طوال الـ350 سنة الماضية. لاحظتُ تغير بعض العمال. لم يسبق لي رؤية عدد منهم، من قبل. كانوا يعانون الضعف والهزال، ويفتقرون إلى قوة زملائهم الواضحة. لكن "كولدفاي" تجاهل المسألة، ولم يعلق. بلغ عدد القادمين الجدد خمسة. تبادلوا نظرات مريبة وهم يقلدون الآخرين في طريقة عملهم، وما إن يبتعد "كولدفاي" لأي سببٍ من الأسباب، حتى يقترب بعضهم من بعض وهم يتهامسون، ثم يبتعدون مسرعين ويواصلون ادّعاء العمل. ليس في ملامحهم أدنى شبه ببدو تلك المنطقة. ربما كانوا ينحدرون من أصولٍ تركية، تعود إلى زمن دخول العثمانيين للمنطقة، أيام سيدي "فضولي". حين وُلِدتُ في "الحِلة"، ونشأتُ فيها، كان أناس هذه النواحي أكثر ثراءً ورخاءً وازدهارًا، وكانوا يتمتعون بتعليمٍ جيد.

عندما رأى "كولدفاي" عمّاله، للمرة الأولى، قال لنفسه وقد اعترته الصدمة: "يا إلهي! هل حقًا ينتمي هؤلاء البائسون لتلك الحضارة العظيمة التي شيدت كل هذه المعابد المبهرة؟".

كان الرجل مُحقًا في صدمته. أنا نفسي فكرتُ في الشيء ذاته.

جمعَ "كولدفاي" عمّاله في مكانٍ واحد، وجعلهم يحفرون على بُعد 50 مترًا قبل بوابة "عشتار". أراد العثور على "برج بابل". قال لمن يسألونه عن مشروعه، إن "برج بابل" كان مرصدًا فلكيًا استُخدِم لمراقبة الكواكب والنجوم، وأنه ذُكِر في "العهد القديم"، وفي كتب

t.me/qurssan

التاريخ. حرص على ألا يعرفوا نياته الحقيقية من عملية التنقيب هذه. قال إنه يرغب في فهم الجوانب الدينية والعلمية للمكان. شرح للناس أن خط الطول الذي يمر بهذه المنطقة، يقسّم الأرض والبحار إلى جزأين متساويين. شرح لهم أن الرقم "باي" أو ما يُعرَف بـ"ثابت الدائرة" يمكن الحصول عليه عن طريق قسمة ضعف ارتفاع هذا المعبد على محيطه، وأن كتلة وزن الأرض مُسَجّلةٌ في مكانٍ ما داخل المعبد. قال أيضًا إن المعبد شُيد باستخدام 250000 قطعة حجرية، تم رض بعضها فوق بعض. أجرى عمليةً حسابيةً خلص فيها إلى أن الوقت المفترض لبناء مثل الصرح هو 664 سنة، مع العمل المضني والمتواصل، لكن المدهش والمثير للاستغراب أن عملية البناء، فعليًا، لم تستغرق سوى 20 سنة فقط!

بهذه المعلومات، وغيرها، استطاع "كولدفاي" أن يسيطر على عقول عمّاله البسطاء، الذين تعاملوا معه بإجلال وانبهار. خفف "كولدفاي" من درجة الجهد المبذول في عملية التنقيب، بعد أن توصل لهذا الاكتشاف. راقب رجاله في أثناء تنفيذهم لتوجيهاته. نفث دخان غليونه، وهو يدعو في سره أن يعثر على التماثيل الذهبية بأسرع ما يمكن.

واصل العمّال الحفر، وشيئًا فشيئًا بدأت بقايا القرميد اللامع للشرفة ذات الطوابق السبعة للبرج، تظهر بوضوح. أمكنني رؤية حوائط مشروخة، وأبواب مغطاة بمجسمات لحيوانات وبشر، وأقواسٌ متصلةٌ تؤدي إلى حدائق "سميراميس" المعلقة. أمعنتُ النظر في معابد "الزقورة" والأقواس، وتخيلتُ روعتها حين كانت بكامل بهائها في الأزمان القديمة. لو كان سيدي "فضولي" على قيد الحياة، لما تمالك نفسه، ولانطلق قلمه مدونًا قصائد بديعة، تصف لحظة الاكتشاف المذهلة هذه.

جلدت أشعة الشمس بسياطها الحارقة أجساد العاملين نصف العارية. تأملتُ وجوههم، وخمنتُ أن بعضهم ينتسب لأصول سيدي "فضولي" نفسها. لمحتُ أختامًا أسطوانيةً مصنوعةً من الطين المجفف، كُسِرت في أثناء التنقيب. وضعها "كولدفاي" جنبًا

t.me/qurssan

إلى جنب، ليتأمل النقوش والكتابات التي حُفِرَت عليها. تمعن في العملات النقدية الطينية، وبقايا قطع الفخار. صار "كولدفاي" يمضي أيامًا في الإشراف على تخزين الآثار التي عثر عليها، بطريقةٍ تحافظ على سلامتها. كما عيَّن حراسًا لحمايتها والحفاظ عليها من السرقة. في بعض الأحيان، كان يقوم بتغيير الحرّاس، أو مضاعفة عددهم. كان يستعرض القطع التي عثر عليها أمام شيوخ القبائل البدوية، الذين يترددون عليه لزيارته، شاعرًا بالفخر والبهجة. يستمتع أيضًا باصطحابهم للسير في طرقات المدينة القديمة التي اكتشفها. تعمد إثارة دهشتهم بأن يقص عليهم حكاية كيف كانت الأرض كلها لسانًا واحدًا ولغةً واحدة، ثم حدثت بلبلة الألسنة بعد ذلك، واكتسبت المدينة اسم "بابل" في إشارة لتلك البلبلة والحيرة، وأصبح لكل فريق من الناس لغة خاصة به. حكى لهم كيف قرر القدماء تشييد هذه المدينة، ليتجمعوا فيها، حتى لا يتشتتوا في الأرض. حدَّث ضيوفه عن الكلاب البرية وأفراخ طائر النعام، التي عاشت في هذه الرقعة من الأرض أعوامًا طويلة، أطول من حياة السَحَرة والكهنة وعلماء الفضاء. استطاع "كولدفاي" أن يكسب ثقة شيوخ القبائل وصداقتهم ومودتهم، بتبسطه معهم، وتبادله الأحاديث معهم عن شؤون الحياة اليومية، وفهم مشاعرهم تجاه الدولة العثمانية، وتتبع أخبار "لورانس العرب"، بالإضافة إلى إمدادهم بمبالغ من النقود، بين الحين والآخر.

في إحدى الليالي، وبينما كان "كولدفاي" يعيد قراءة أعمال "سترابو" و"ديودورس"، بحثًا عن معلوماتٍ جديدةٍ وحقائق تتعلق بالقطع الأثرية التي عثر عليها، فوجئ بزيارة من ستة أشخاص. كانوا أعضاء "جمعية بابل" الذين رأيتهم في "بغداد" قبل عامين. كانوا جميعًا في حالة من الحماسة والصبر النافد. تحدثوا عن جامعات "باريس" و"لندن" و"روما"، وقالوا إنهم وجّهوا الدعوة لسبعة علماء آثار مختلفين ينتمون لتلك الجامعات العريقة، لمعاينة الاكتشافات والأقراص الطينية، وما حُفر عليها. قالوا أيضًا إنهم سيبدؤون العمل في "مركز الأبحاث" الذي سيؤسسونه في "بروكسل" أو في "جنيف"؛ لكنهم تساءلوا في حيرة عن كيفية

t.me/qurssan

حمل هذه الاكتشافات، والتسلل بها خفية خارج الحدود؟

لكن "كولدفاي" رد على تساؤلاتهم بثقة:

- أيها الفرسان المبجلون، أرجو ألا تقلقوا بشأن هذه المسائل. إنني أؤكد لكم أن الشيء الوحيد الذي يشغل تفكير هؤلاء الرجال هو الذهب. إن الآثار والأقراص الطينية، لا تشكل أي أهمية بالنسبة لهم.

قال أحدهم:

- جيد، ولكن ماذا عن التماثيل الذهبية للآلهة؟

- لن يعرفوا عنها شيئًا، أيها السادة. سوف يحل عيد الأضحى بعد ثلاثة أيام، وسأرسلُ العمّال إلى "الحِلّة". لنتركهم لاحتفالاتهم ومدائحهم النبوية، ولنتفرغ نحن لقراءة "ليلى والمجنون" بحثًا عن الكنوز التي لم نجدها حتى الآن.

أضاف باسمًا:

- هذا إذا كنتم على استعداد للعمل مكان رجالي، في أثناء غيابهم في إجازة العيد.

اقترب من المذبح البابلي العتيق الذي يتوسط الخيمة، ووضع فوقه قطع من الجبن الأبيض الطازج، ولحم البقر المجفف، وبعض التمور، والفول السوداني، ثم أمر خادمه بإحضار النبيذ الذي تركه ليبرد تحت ظلال النخيل المطلة على حافة النهر.

في تلك الليلة، أدوا طقوسًا دينيةً، تقليدًا للرهبان القدامى، وقدموا القرابين للآلهة البابلية، ثم أفرطوا في الشُّرب إلى أن ذهبوا في نومٍ عميق، الواحد تلو الآخر.

ارتفعت أصوات الأذان في المآذن المنتشرة في القرى القريبة، متبوعةً بتكبيرات العيد. انهمك أعضاء "جمعية بابل" في الحفر للوصول إلى بوابة "عشتار". كانوا متيقنين من عدم وجود أحد حولهم. واصلوا عملهم يومين متتاليين. وددتُ أن يرفعوا

t.me/qurssan

رؤوسهم، علّهم يلاحظون الرجال الخمسة الذين يراقبونهم من أعلى الجدران القريبة. أخيرًا، وفي اليوم الثالث، لاح جزءٌ من البوابة المزخرفة، على السطح. بدا شبيهًا بقطعةٍ من الجبن. فوق قوس الرخام الذي يعلو البوابة، نقوشٌ بارزةٌ تماثل تلك الموجودة على مقبض خنجر "سيروش"، الذي أعطاهُ أمينُ المكتبة الضرير سيدي "فضولي"، والذي دفنه لاحقًا تحت شجرة التوت في ساحة المدرسة الدينية.

ترك الأعضاء أدوات الحفر والتنقيب جانبًا، وتفرغوا لتنظيف البوابة بالمقشات والمكانس والخِرق، والأسياخ المعدنية. سرعان ما ظهرت أسطوانات طينية في حجم كفِّ اليد، كُتِب عليها بأحرفٍ متقطعة:

"آكليدان يثق بعشتار ومردوخ. بحُبّ سيروش".

"يا "ليلى" الحبيبة!".

هتفتُ بداخلي، حين رأيتُ أن الأرقام التي دوّنها خادم "آكليدان" هي ذاتها المكتوبة بين صفحاتي. أدركتُ أننا وصلنا إلى آخر الطريق.

"عزيزتي.. سوف تبدأ حياةٌ جديدةٌ أتفرغ فيها لحُبّكِ، عمّا قريب. افتحي ذراعيكِ لي، وخففي عني آلامي، واحميني من قسوة العالَم".

صباح اليوم الرابع، طلب "كولدفاي" من الأعضاء إخراج الشيفرات التي يحملونها معهم. رتّب الأوراق بعدها على المذبح الحجري لدى مدخل البوابة. بدؤوا في إعادة حساب القيمة العددية لتلك الأبيات، من جديد. كنتُ متشوقًا لرؤية "ليلى" مرة أخرى.

لاحت ذكرياتي أمام عينيّ، وتتابعت الصور والمواقف في مخيلتي. أيام المدرسة، وبداية حبنا، وتأنيب أم "ليلى" لابنتها، وذهابي إلى الصحراء التي فقدتُ فيها عقلي، وزيارتي إلى الكعبة بصحبة أبي، وتجمع الأسود والغزلان حولي، وحياتي مع تلك الحيوانات فى البرية، بمعزل عن البشر، ثم وفاة "ليلى" وانهيارى

t.me/qurssan

باكيًا على قبرها. عشتُ كل تلك التفاصيل المؤلمة من جديد.

قلّب "كولدفاي" صفحاتي على المذبح الحجري. بغتةً، وجدتُ نفسي في أحد احتفالات "نبوخذ نصر"، التي كان يقدّم فيها القرابين للإله "مردوخ". وأحسستُ بأنني أحد أسلاف "قيس"، في الأزمنة القديمة. شاهدتُ معبد "بابل" المدرّج، في أوج عظمته وجلاله. رأيتُ آلاف البشر العُراة وهم يملؤون ميدان المعبد وشرفاته. أكفهم مفتوحة باتجاه السماء، وقد ارتفعت أصواتهم بالهتافات. ظهر "نبوخذ نصر" في الشرفة السابعة مرتديًا تاجًا يشبه رأس الصقر، ومتزينًا بجواهرٍ فخمة. خيّل إليَ أن الحوائط ستتهدم، من قوة صيحات السعادة التي أطلقها الناس. وقف إلى جواره سبعة من الرهبان طالبي العِلم. على يمينه مباشرةً، وقف "آرشيا آكيلدان". خصّني بابتسامةٍ عريضة. شعرتُ بأنهم يجتمعون لرؤية العلوم والمعلومات التي ضحوا بحياتهم من أجلها، وهي تظهر للعالم أخيرًا، بعد آلاف السنوات. أحسستُ فجأةً بأن هؤلاء الرهبان السبعة يقفون بجانبي. لم يعد "كولدفاي" ورفاقه موجودين. الآن، حول "بوابة عشتار"، وقف سبعة من الرهبان الحكماء يرتدون مسوحًا مطرزة بخيوط الفضة. حيّا بعضهم البعض، بأن أحنوا رؤوسهم المغطاة بقلنسوات من اللباد. بدا أن الزمن لم يتغير، وأنه لم تمر آلاف السنوات عليهم. كأنهم أتوا صباح هذا اليوم لفتح البوابة التي أقفلوها مساء الليلة الماضية.

امتدت أصابع "كولدفاي" باتجاه البوابة، التي تشبه مفاتيحها رقعة الشطرنج. كل مربعٍ منها في مساحة كف اليد. أحسستُ بأن "آكليدان" نفسه هو الذي يضغط على تلك المربعات، وأنه يفعل ذلك ببساطة، كأنه يحفظ ترتيب تلك الحركات عن ظهر قلب، وكأنه - أيضًا - يريد استعراض معرفته تلك أمامنا. كلما ضغط على زرٍّ منها، تساقط بعض الرمل على العتبة. لمس "آكليدان" الحروف والأرقام الموجودة على الأقراص الطينية، بالترتيب نفسه المسجّل على حزام زمزمية سيدي "فضولي" ومقبض خنجر رأس "سيروش".

عند لمس كل قرص، انبعثت في الأرجاء أصداء النغمات السبع

t.me/qurssan

التي تشكّل السلم الموسيقي، وانسابت في الممرات المعتمة بشكلٍ متتابع، وفق نظامها الصحيح. عندها فقط، أيقنتُ أن أعضاء "جمعية بابل" قد تمكنوا من فك شيفرات الرموز، وأن "كولدفاي" قد نجح في مهمته. لم أكن أعرف أن "آكليدان" كان موسيقيًا أيضًا، وأنه هو مَن اخترع السُلم الموسيقي، في تلك الأزمنة البعيدة. ضغط "كولدفاي" على الأحرف التي تكوّن اسم "آكليدان"، وأتبعها بالأرقام التي ضمّنها سيدي "فضولي" أبياتي، فانطلق صوتٌ بعث القشعريرة في أجساد أعضاء الجمعية. ارتفعت سُحُبٌ من الغبار عند تحرك البوابة الرخامية، وانطلق منها صوتٌ أعلى من السابق. تجمد أعضاء الجمعية في أماكنهم، وقد ارتسم الذهول على ملامحهم. لم يكن الأمر سهلًا، بطبيعة الحال. لقد فُتِح باب العالَم، أخيرًا.

أحسستُ أن الرجال الخمسة الذين يتابعون العملية من مخابئهم، شعروا هم أيضًا بالسعادة والحماسة عند سماع صرير البوّابة. هتف "كولدفاي" بسرور:

- إنها ليلة الزفاف!

تبادل الأعضاء النظر، وهم ينتظرون اختفاء الغبار. تساءلتُ عن عدد الناس الذين مروا بهذا القدر نفسه من مشاعر السعادة الخالصة الممزوجة بالإثارة، وقلتُ لنفسي: "لا شيء يضاهي مشاعر الدهشة والبهجة المصاحبة لفتح هذه البوابة الرخامية، المؤدية لعالمٍ من الغموض والأسرار، يبلغ عُمره آلاف السنوات".

الباب الذي تعرّض لعوامل الزمن المختلفة، لآلاف السنوات، لم يُفتَح بسهولة. احتاج الأمر لجهدٍ هائلٍ من الرجال السبعة، ثلاث ساعاتٍ متواصلة. أخيرًا، تمكنوا من زحزحته قليلًا، بما يسمح بمرور شخصٍ واحدٍ فقط بالتوالي. الأجواء في الداخل باردة ومظلمة. استعانوا بالمشاعل التي جلبوها معهم. دخلوا القاعة الأولى بخطواتٍ حذرة. رأوا في نهايتها ممرًا عريضًا بسبعة أبواب، ينتهي إلى قاعةٍ ثانية. كانت تلك هي قاعة الاحتفالات. أمّا الأبواب فهي لغرف الرهبان السبعة، لكن أيًا منها لم يُفتح. باءت

t.me/qurssan

جميع محاولاتهم لفتحها بالفشل. كان الليل قد انتصف، وداهمهم التعب والإجهاد. فكروا في أخذ قسطٍ من الراحة، لكن بعضهم ذكَّر بعض بعودة العمَّال في اليوم التالي، من "الحِلّة"، وأدركوا أنه ينبغي عليهم مواصلة العمل. تزايد إحساسهم بالقلق والتوتر. كان "كولدفاي" هو الوحيد المتخصص في عِلم الآثار بينهم، ولذلك فقد انتظروا جميعًا سماع توجيهاته. أضافوا المزيد من الزيت لمشاعلهم، وواصلوا عملهم. هذه المرة، بحثوا عن إشارات فوق الأبواب قد تساعد في فتحها، وتيقنوا من عدم وجود تجاويف فيها، عن طريق القرع عليها بالشواكيش.

السعادة الغامرة التي أحاطتهم منذ ساعات، استحالت إلى توترٍ بالغ وأعصابٍ مشدودة. كانت أصواتهم آخذة في الارتفاع وهم يتجادلون بغضب، حين تساقط الجبس الذي يغطي الباب الثالث، على الأرض. وجدوا فتحةً في الباب على هيئة خنجر رأس "سيروش". نظفوا الفتحة بالخرق التي يحملونها معهم، ثم وضعوا الخنجر بداخلها. فُتِح الباب على الفور.

أول ما قام به الأعضاء هو شكر الإله الذي كلَّل جهودهم المتوارثة عبر القرون بالنجاح. إن مستقبل العالَم سيتشكل عن طريق الأقراص الطينية الموجودة خلف هذا الباب. تساءلوا عن شكلها وهيئتها وحجمها ووزنها. قال "كولدفاي" شاكرًا:

- "مردوخ" العظيم! إليك وحدك يعود الفضل في كشف النقاب عن وجه هذه العروس الفاتنة.

التفت إلى الرجل اليهودي الذي يحمل المشعل، داعيًا إياه للدخول:

- تفضَّل.

حاول اليهودي، صاحب العينين الحادتين والنظرات الشرسة، تمالك أعصابه وهو يدخل الحجرة.

كان كل ما في حجرة "آرشيا آكيلدان" منظمًا وفي مكانه الصحيح. دمَر الزمن المعبد، ثم غطَّاه بطبقاتٍ كثيفةٍ ومتعددةٍ من

t.me/qurssan

التراب والرمال. لكن المبنى ظل كما هو من الداخل، وبقيت مقتنيات ساكنيه كما هي. وجدوا ملابس "آكيلدان".. غطاء الرأس والعباءة، والحزام الموشَّى بخيوط الفضة. على الجدران، شاهدوا نقوش الآلهة التي تتخذ أشكالًا متنوعة: تنانين وأسودًا ونسورًا وأطفالًا رُضّعًا بأجنحة. تأملوا عصاه ذات المقبض المصنوع من الفضة. كل ما في الغرفة يوحي بأن صاحبها لم يغادرها إلا بالأمس فقط. رغم إعجابهم الذي خالطته الدهشة عند رؤية كل هذه الأشياء، فإن أعين الرجال السبعة كانت لا تزال تبحث عن الأقراص الطينية. فتحوا أحد الدولابين الموجودين على الجدار الجانبي، فاكتشفوا بداخله سردابًا سرّيًا. لا بد أن "آكيلدان" كان يرتدي ثيابه للمناسبات الدينية في هذه الحجرة. تصل مساحة أرضيتها 3x3 أمتار، وبها رفوف تزدحم بتماثيل للآلهة، مختلفة الأحجام، يتجاوز عددها المئات. لقد عشتُ في القصور، ودخلت غرف نوم الملوك، ورأيت الكنوز والتحف الجميلة التي يحتفظون بها، لكنني لم أرَ في حياتي شيئًا يشبه هذه التماثيل النفيسة. لطالما سمعت عن هذه الآلهة من أعضاء الجمعية، على مدار السنين، وهأنا أراها أخيرًا! وسط هذه التماثيل، رأيث أسدًا من الذهب الخالص، يصل طوله نحو نصف متر. لا شك أنه تجسيد للإله "ساماش". المرآة الفضية هي الإله "سين"، والتنين المنحوت من حجر الفيروز الأزرق هو "نيبو". "نيرجال" مصنوع من الياقوت الوردي، أمّا "مردوخ" فصُنِع من الذهب المطعم بالفصوص البنفسجية. حين رأيتُ الأفعى ذات الرأس المنحوت من الألماس الأسود، عرفتُ أنها "نينيب"؛ أمّا "عشتار" فحصانٌ أبيض اللون مرصّع بقطع الكهرمان، له رأس إنسان.

كاد أعضاء "جمعية بابل" يفقدون الوعي من شدة السعادة والانبهار. تحسسوا التماثيل بوَلَهٍ وشغف، وتبادلوا المزاح والضحك. قال "كولدفاي"، محاولًا تهدئتهم:

- أصدقائي الأعزاء، علينا أن ننهي عملنا قبل حلول الفجر، وإلا فإننا سنفقد هذا الكنز العظيم في الغد، وسنفقد معه أرواحنا أيضًا، ولن نستطيع تحقيق شيء من أحلامنا في إنشاء "مركز

t.me/qurssan

بابل لأبحاث الفضاء". دعونا نؤجل البحث عن الأقراص الطينية لوقتٍ آخر.

أضاف بعد برهة:

- لن يستفيد البدو من تلك الأقراص، على كل حال، ومن ثمَّ فإنها لا تشكل أي أهمية بالنسبة لهم.

أفزعتني كلماته، وراعني موافقة الأعضاء على اقتراحه، دون أن يعترض أحد منهم. ما الذي حدث للعهود التي قطعوها على أنفسهم بالعثور على الأقراص الطينية أولًا؟

كان آخر ما رآه أول من غادر المعبد فجرًا، هو نظرات النهم والشراهة في عيني الرجل الملثم الذي استقبله على بوابة المعبد. وبعد آلاف السنوات من الهدوء والظلام الدامس، شَهِدت الآلهة البابلية عملية إطلاق رصاص، ورأت للمرة الأولى ضوء النهار. حين عاد العُمَّال من "الحِلّة" في اليوم التالي، لم يعرفوا السبب الذي جعل "كولدفاي" يقتل اثنين من زائريه. لاحظوا أيضًا غياب الأربعة الآخرين، ولم يفهموا سبب مغادرتهم. لاحظوا أن "كولدفاي" نفسه مصاب بجروح، لكن أيًّا منهم لم يجرؤ على سؤاله عمَّا حدث. أنصتوا له وهو يلقي عليهم محاضرة مفادها ضرورة إبقاء ما رأوه طيّ الكتمان، وبخاصّة عن حاكم المنطقة. قال لهم محذرًا إن الشرطة لو أتت لاستطلاع الأمر، فسوف تقوم بردم ما حفروه، وسينتهي بهم الأمر دون عملٍ أو وظيفة.

أنا، "قيس"، عبدُ سيدي "فضولي"، رأيتُ كل شيء. الأمر الوحيد الذي لم أتبينه هو هوية المنظمة السرية التي سرقت تماثيل الآلهة الذهبية من أعضاء "جمعية بابل". لا أعرف المكان الذي أخذوا إليه تلك التماثيل. هذا كل شيء. إذا لم تنتهِ حكاية حبي لـ"ليلى"، وإذا لم أتغضن في مكانٍ ما وتعلوني التجاعيد، وإذا أتيحت لي فرصة زيارة القصور مرة أخرى، أو الذهاب إلى المتاحف، فإنني سأتعرف حتمًا إلى تلك التماثيل التي رأيتها في معبد "عشتار"، وسوف أتمكن عندها من إشباع فضولكم.

t.me/qurssan

خلال مرحلة النقاهة التي احتاجها "كولدفاي"، ذهب الوالي العثماني إلى الموقع واستولى على الآثار المتبقية. كان أول من دخل معبد "عشتار"، بعد الوالي، هو الحارس الموكل إليه منع دخول أي شخص للمكان. ثم أحضر أصدقاءه، ومن بعدهم عصابات كونّها عُمّال التنقيب في ظرف أيام.

بعد سرقة خنجر رأس "سيروش"، والتماثيل الذهبية، راح "كولدفاي" يفكر في طريقةٍ تتيح له فتح بقية الأبواب، عند تمام شفائه. قال لنفسه: "يبدو فعلًا أن الأقراص أهم بكثير من تلك التماثيل النفيسة".

طمأن نفسه بأن الجمعية، بعلاقاتها المعقدة والمتشعبة، ستتمكن من استعادة التماثيل ومعاقبة اللصوص؛ وحتى لو لم يُسْتَعَدْ الكنز، فإن الأموال ليست مهمة، وسوف تنجح الجمعية في قيادة العالَم خلال القرن العشرين، والتحكم في توجيه القوى السياسية بما يخدم مصالحها وتطلعاتها. تقع الآن على عاتقه مسؤولية تنظيم كل شيء لتسيير الأمور في صالح الجمعية.

تمكّن من مغادرة فراشه عقب أسبوع. حين زار موقع التنقيب، أُصيبَ بصدمةٍ هائلة، وأدرك أن أفكاره وخططه ليس لها مكانٌ في الواقع، فقد دُمِّرت حجرات "معبد عشتار" بالفؤوس، وخُرِّب محتوياتها. عثر على الأقراص الطينية في الحجرة الوسطى، لكنها كانت قد تهشمت لقطعٍ متناهية الصِّغر، ويستحيل جمع بعضها أو لصقه ببعض. على كل قطعة، شاهد طرف نجمة، أو جزءًا غير واضح من رسمة أو إشارة. شاهد حروفًا وأرقامًا، لكنه فشل في تحديد موقعها بالنسبة لبقية الأجزاء. وللمرة الأولى، شاهدتُ دموع أحد رجال الجمعية. الرجل الذي ظنَّ أنه يمتلك سيطرةً تامةً على جميع أنحاء العالَم، يسقط على الأرض ويبكي بكاءً مريرًا، كطفلٍ صغير. أوجع منظره قلبي.

لو كنتُ أمتلك القدرة على الكلام، لخاطبته وأخبرته أن الحارس الذي عيّنه لحماية الموقع، هو أول من خانه. كنتُ سأخبره عمّا فعله الرجل بشركائه، طمعًا في الذهب. كنت سأشرح له بأن

t.me/qurssan

اللصوص الذين سرقوا المقتنيات من داخل المعبد، تعرضوا هم أنفسهم للسرقة من عصابات أخرى، في طريق العودة. أردته أن يعرف أن الفلاحين الذين لم يخشوا التسلل داخل سراديب المعبد، لم يتوقفوا عن الشجار منذ دخولهم للقاعات. بيعت ملابس "آكليدان" بسعرٍ بخس. كنت سأقول له إن الحُبَّ والمشاعر الصادقة والذكريات، والتاريخ الممتد لآلاف السنوات، أصبحت كلها أمورًا رخيصة وتافهة ولا قيمة لها. لا أصدق أن هؤلاء الجهلة الذين يملأ الطمع نفوسهم، هم سلالة سيدي "فضولي". لقد ظن أول من عثر على الأقراص الطينية أنها تحتوي - في تجاويف داخلها - على جواهر وماسات وأحجار ياقوت، ولذلك قذفها على الحوائط لكسرها واستخراج ما بها، وحين لم تنجح تلك الطريقة في كسرها جميعًا، أمسك بالشواكيش وهشَّمها كي يتأكد من خلوها من الأحجار الكريمة. لقد جرت التضحية بمجهودات الجمعية، التي تعود إلى أزمنةٍ بعيدةٍ جدًّا، من أجل بضع قطع من الذهب. كنت سأقول له الكثير، وكنت سأظهر له تعاطفي الصادق، فمثلما أحبُّ أنا "ليلى"، وأسعى للعثور عليها، كان هذا الرجل يسعى للعثور على تلك الأقراص. الفرق الوحيد ربما هو أن حبي ينبع من قلبي، وحب هذا الرجل يصدر عن عقله. إن حبي يهدف لإنقاذ البشرية، وحب هذا الرجل يهدف لإنقاذ العالم. بالنسبة لي، لا شيء أهم من "ليلى"، وبالنسبة له لا شيء يُضاهي في أهميته "مركز بابل لأبحاث الفضاء". أنا كسير الفؤاد لأنني لم أجد "ليلى" بعد.. "ليلى" الحبيبة!

t.me/qurssan

30 الدمعةُ في عيني و"ليلى والمجنون" في قلبي

تبيّن أن الوصول إلى مركزٍ رفيعٍ وجليلٍ عبر الدراسات العِلمية، ليس سوى خيالٍ وأمنيات؛ والجَزم بأن الحُبّ والمعرفة يدخلان في تكوين كل شيءٍ في هذه الدُّنيا، هو مجرّد إشاعةٍ تافهة.

(الشاعر "فضولي")

لا أدري مَن الذي منحني اسم "قيس"، وأجهل مَن الذي علّمني الحُب. أنا عبدُ سيدي "فضولي"، ومنذ عيد ميلادي الـ450 وأنا أربض في ذات المكان، تقيدني الأصفاد. وضعوني في المكان الذي يناسب نشأتي، أي بين ذكريات "سليمان القانوني" و"روكال". كانوا يحاولون الحفاظ عليّ من القِدَم والاهتراء، لكنهم ألقوني في زنازين مظلمة، سيئة التهوية، كما لو كنتُ سجينًا يتعرّض لأقسى أنواع التعذيب والإهمال. في أحلامي، أرى "إسطنبول" على الدوام. أراها ذهبية وبرّاقة وأجمل بكثير من دول "إسكندنافيا" المليئة بالضباب البارد، و"روسيا" ذات الأنهار المتجمدة، و"إيطاليا" و"فرنسا" بقصورهما شِبه المُعتمة، بل أجمل من "بغداد" بصحاريها التي تضيئها النجوم اللامعة. لا أعرف إن كنتُ حقًا منزعجًا من وضعي الحالي كأسير، أم لا. عندما تجولتُ في "إسطنبول" للمرة الأخيرة، لاحظتُ أنه لم يعد فيها أي مَلمَح من فخامة الماضي. لا أظن أن أحدًا يفتقد مدينته مثلي، لا أمراء "كييف"، ولا قضاة "البندقية"، ولا رهبان "نوتردام"، ولا ملوك "صقلية"، ولا بحّارة "إسبانيا"، ولا تجار "البرتغال": أشواقي للمدينة تهزمني، ولا أملك فعل شيء حيال ذلك. لا يمكنني حتى أن أتنفس هواءها! أنا في وسط أرضي، لكنني بعيدٌ عن وطني، في الوقت ذاته، وهذا ألمٌ غير مُحتمَل. أنتم لا تعرفون، على الأرجح، معنى الاشتياق لمكانٍ أنتم فيه. في هذه المدينة جزءٌ من "روكال"، بجمالها وفتنتها الطاغية. إنها تجسيدٌ لـ"ليلى"، أيضًا. بل إنها هي "ليلى" فعلًا.

t.me/qurssan

متى تحديدًا أدركتُ أن "إسطنبول" هي "ليلى"؟ حين وضعوني فوق رف هذه الزنزانة. لذلك فإنني أشعر بالانتماء لهذا المكان، رغم كل الآلام والمعاناة. "الحِلة" هي المكان الذي يضم ذكرياتي البعيدة، لكن "إسطنبول" هي المدينة التي عرفتُ فيها الحب. هي حُبي الخالد الذي لا بداية ولا نهاية له، ولا تزال كذلك بالنسبة لي. إنني موجودٌ الآن على أحد تلالها السبعة، أقبع داخل المكتبة العامة في "السليمانية". أحمل في هوامش صفحاتي معلوماتٍ تافهة، لا تهم إلا أصحابها الذين سجّلوها.. كوارث، وحرائق، وتواريخ ميلاد، وتواريخ وفيات. كتبوا مكونات أدوية تعالج المغص، وتركيبات لعلاج العجز الجنسي، وتمرينات رياضية للزوجات اللواتي يرغبن في إنجاب الذكور. كل ما تبقى مني عباراتٌ مثل تلك التي دُوّنت داخل غلافي الخلفي:

"أُجِّرَ هذا الكتاب للسيد "حسين جلبي"، في شهر رمضان، من العام 1055، مدة 15 يومًا، نظير ثلاث عملات ذهبية. نرجو ممن يقرأ هذا الكتاب بعده، ألا ينساه من صالح دعائه".

هنا، كتبوا فوق جبيني أرقامًا طويلةً تميزني عن بقية زملائي في الأسر، من كتب الحكايات الشعبية، والسِّيَر والملاحم، ونُسَخ "ألف ليلة وليلة"، ودواوين الشِّعر الصوفي، والأبحاث والرسائل العِلمية، وكتب المدارس الدينية، وتفاسير القرآن الكريم، ومؤلفات الفقه والحديث.

لستُ بانتظار زيارة من صديق، تُخفِّف عني وحدة أيامي الباردة، الطويلة. لا أحد يزورني. لم يعد هناك من يتذكر سيدي "فضولي"، ولا أحد يعرف "مركز بابل لأبحاث الفضاء"، ولم يسمع أي شخص بـ"آرشيا آكيلدان". لا أدري إن كان جهل الناس بهذه الأشياء والشخصيات، نابعًا من تقصيري أنا، أم من عدم وفاء سلالة سيدي "فضولي".

t.me/qurssan

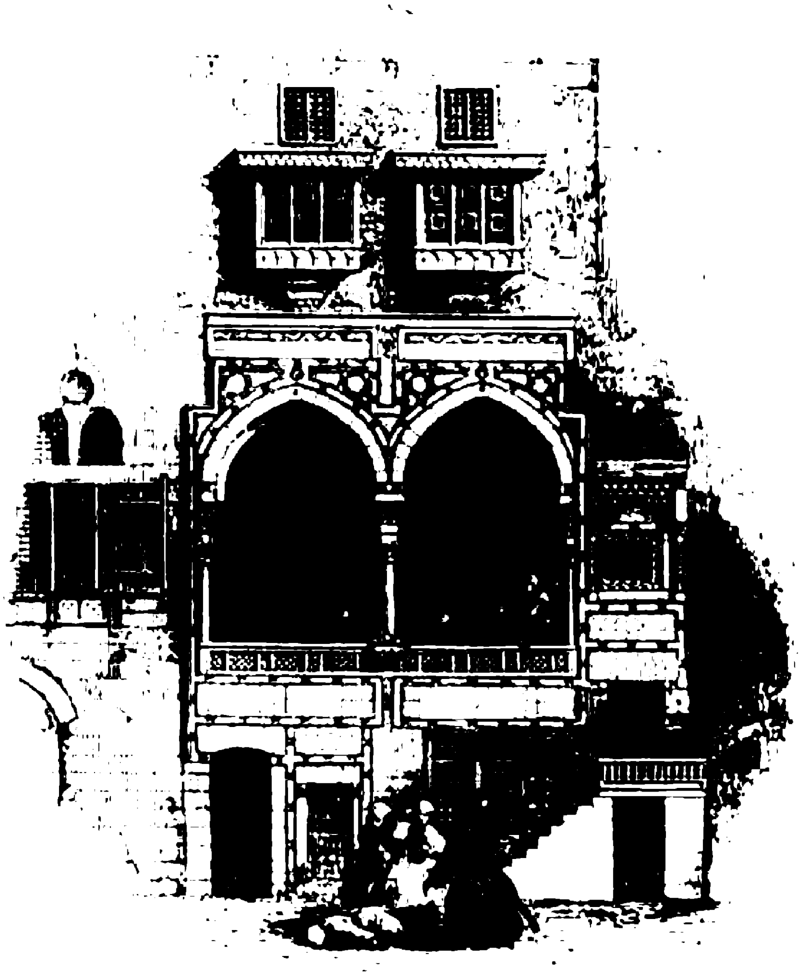

أنا "قيس". أنا حبيب "ليلى" الأول، والوحيد. أنا المجنون الذي يحسده ويغبطه جميع العشاق. أنا عبدُ سيدي "فضولي". أنا المجنون الذي فشل في العثور على حبيبته "ليلى". لن يعرف أي شخص حكايتي، ولا عمق مشاعري التي أحملها لـ"ليلى"، ما بقيتُ حبيس هذه الجدران. الناس في هذه الأيام يعرفون "قيس" و"ليلى" مجرد اسمين، لكنهم لا يمتلكون أي شغف لمعرفة حكايتنا وتفاصيلها. يقولون إن هناك من يلبس ثيابًا تشبه ما كنتُ و"ليلى" نرتديه، وأن هذين الشخصين يقفان على ما يطلقون عليه "خشبة مسرح" لتمثيل ما يدعونه "مسرحية".

أنا "قيس"، عبدُ سيدي "فضولي". هناك من يسرد قصتي بين الحين والآخر، كما أظنُّ.

t.me/qurssan